ذكية مبهرة على غرار «الزوجة المفقودة» و«فتاة القطار».
رواية ستجعلك حائرًا إلى أن تفرغ من قراءتها!

- آنيتا شريفي

رواية

الزوجة التي بيننا

مكتبة ٣٠٠

غرير هندريكس و ساره بكانن

ترجمة الحارث النبهان

غرير هندريكس

ساره بكانن

الزوجة التي بيننا

مكتبة | 300

الكتاب: الزوجة التي بيننا
تأليف: غرير هندريكس - ساره بكانن
ترجمة: الحارث النبهان
عدد الصفحات: 496 صفحة
الترقيم الدولي: 9-034-472-614-978
الطبعة الأولى: 2018

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
THE WIFE BETWEEN US

THE WIFE BETWEEN US BY GREER HENDRICKS AND SARAH PEKKANEN
Text Copyright © Copyright © 2017 by Greer Hendricks and Sarah Pekkanen
Published by arrangement with St. Martin's Press
All rights reserved

جميع الحقوق محفوظة © دار التنوير 2018

مكتبة أحمد
٢٠١٨١١١٠

الناشر:

منشورات الرمل
An Imprint of Dar Altanweer

مصر: القاهرة - جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السريا الكبرى سابقاً) - الدور الأرضي - شقة رقم 2
لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية قاسم فارس (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340 - بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

غرير هندريكس

ساره بكانن

الزوجة التي بيننا

ترجمة: الحارث النبهان

مكتبة 300

منشورات الرمل

من غريير:

إلى جون وبيج وآلِكس، مع حبي وعرفاني

من ساره:

إلى من شجّعوني على كتابة هذا الكتاب

مكتبة

الجزء الأول

مكتبة

مكتبة

تمهيد

تسير خفيفة الخطى على رصيف المدينة. يتراقص شعرها الأشقر على كتفيها. وجنتاها متوهّجتان؛ وحقيبة رياضية معلّقة من ذراعها. عندما تصل البناية التي فيها شقتها، تغوص يدها في حقيبتها، ثم تُخرِج حاملة المفاتيح. الشارع مزدحم، وكله ضجيج. سيارات التاكسي الصفراء تمضي مسرعة، والناس عائدون من أعمالهم، والمشترون يدخلون محل المأكولات عند الزاوية. لكنّ عينيَّ لا تحيدان عنها أبداً.

تتوقف لحظة عند مدخل البناء وتلتفت التفاتة سريعة من فوق كتفها. أحسّ كما لو أن شحنة كهربائية تسري في جسدي. أتساءل إن كانت تحس بنظرتي. الإحساس بالنظرات!... هذا هو الاسم الذي يطلقونه على قدرتنا على الإحساس بالمراقبة عندما يتابعنا أحد بعينيه. نظام متكامل في الدماغ البشري مكرّس من أجل هذه الصفة الوراثية المنتقلة إلينا من أسلافنا الذين كانوا يعتمدون عليها لتفادي الوقوع فريسة أحد الضواري. لقد طوّرتُ هذا الدفاع عندي، هذا الشعور بشحنة كهربائية تطفو إلى جلدي عندما يرتفع رأسي بحركة غريزية بحثاً عن زوج من العيون المحدقة. لقد تعلمت جيداً خطر عدم الاكتراث بهذا الإنذار.

لكنها تستدير في الاتجاه الآخر، ثم تفتح الباب وتختفي في الداخل من غير أن تنظر في اتجاهي أبداً.

إنها ساهية عما فعلتُه لها.

إنها غير عارفة بالضرر الذي سبّبته لها، بالخراب الذي أطلقته من عقاله.

أنا غير مرئية لهذه المرأة الجميلة ذات الوجه البيضوي والجسد البضّ ـالمرأة التي تركني زوجي ريتشارد من أجلهاـ غير مرئية كمثل تلك الحمامة التي تبحث عن طعامها على الرصيف غير بعيد منّي.

ليست لديها أية فكرة عما سيحدث لها إذا استمرت على هذا النحو. ليست لديها أية فكرة أبداً!

الفصل الأول

ما كانت نيللي قادرة على تحديد الشيء الذي أيقظها. لكنها فتحت عينيها فرأت امرأة مرتدية فستان زفافها الأبيض المزركش واقفة عند طرف سريرها تنظر إليها.

انقبضت حنجرة نيللي على صرختها وامتدت يدها سريعاً إلى مضرب البيسبول المُسنَد إلى الطاولة الصغيرة بجانب سريرها. وعندها، تكيّفت عيناها مع ضياء الفجر الشحيح وهدأت ضربات قلبها.

أطلقت ضحكة متوترة صغيرة عندما أدركت أنها في أمان. لم يكن ما توهمت رؤيته أكثر من فستان زفافها نفسه مغلّفاً بالنايلون، معلّقاً على ظهر باب الخزانة حيث وضعته يوم أمس بعد أن جاءت به من محل فساتين الزفاف.

كان الصدار والتنورة الطويلة محشوَّيْن بكتلٍ من نسيج خفيف للمحافظة على شكل الفستان. استراح رأس نيللي على وسادتها من جديد. وعندما استقرّت أنفاسها، ألقت نظرة على الأرقام الزرقاء العريضة الظاهرة على شاشة الساعة المنتصبة على الطاولة الصغيرة. مرة أخرى... لا يزال الوقت مبكراً كثيراً.

رفعت ذراعيها فوق رأسها، ثم امتدّت يدها اليسرى لإقفال المنبّه قبل

أن يرنَّ. كان خاتم الخطوبة الماسي الذي قدّمه إليها ريتشارد ثقيلاً في إصبعها، وغريباً.

ما كان الاستسلام للنوم أمراً يسيراً على نيللي، حتى في طفولتها. وما كان لدى أمّها الصبر الكافي من أجل طقوس وقت النوم؛ إلا أن أباها كان يدلّك ظهرها بحركة رقيقة وينثر جُمَلاً ناعمة على نسيج ملابس نومها. كان يكتب لها رسائل قصيرة: «أحبك»، أو «أنت مميَّزة كثيراً»، فتحاول أن تحزر معنى كل رسالة من تلك الرسائل. وفي أوقات أخرى، كان يرسم أشكالاً، أو دوائر، أو نجوماً، أو مثلثات... استمر هذا إلى أن افترق والداها عندما كانت في التاسعة من عمرها فترك والدها البيت. صارت بعد ذلك تستلقي وحيدة في سريرها الكبير تحت لحافها المخطّط باللونين الوردي والبنفسجي فتحدّق زمناً طويلاً في بقعة الرطوبة في السقف من فوقها.

ثم تفلح في أن تغفو آخر الأمر فتنام نوماً عميقاً. وتظل نائمة سبع ساعات، أو ثماني ساعات... نومٌ عميقٌ من غير أحلام يجعل أمها أحياناً مضطرّة إلى هزها هزاً شديداً حتى توقظها.

لكن ذلك كلّه تغير بعد ليلة من ليالي شهر تشرين الأول في سنتها الأخيرة في الكلية.

اشتدت حالة الأرق التي تصيبها، وصار نومها متقطعاً بفعل أحلامٍ صاخبة واستيقاظات مفاجئة. نزلت ذات مرة لتناول طعام الإفطار في بيت أخوية الفتيات الذي كانت مقيمة فيه مع زميلاتها، فقالت لها واحدة منهن إنها كانت تصرخ في نومها بكلمات غير مفهومة. أجابتها نيللي محاولة إزاحة الأمر جانباً والتقليل من أهميته: «أنا متوترة بسبب الامتحانات النهائية. من المتوقّع أن يكون امتحان علم النفس الإحصائي شديد الصعوبة هذه المرة». ثم تركت الطاولة وذهبت لتأخذ فنجان قهوة جديداً.

أرغمت نفسها بعد ذلك على زيارة الاستشارية النفسية في الكلية، لكنها لم تستطع (على الرغم من المحاولات اللطيفة التي بذلتها المرأة) أن تتحدّث عن تلك الليلة الدافئة في أوائل الخريف التي بدأت بالضحك وببضع زجاجات من الفودكا، ثم انتهت بالخوف والقنوط وصفارات سيارات الشرطة. ذهبت نيللي إلى مكتب الاستشارية النفسية مرتين، لكنها ألغت موعدها الثالث ولم ترها بعد ذلك أبداً.

أخبرت نيللي ريتشارد ببعض التفاصيل عندما استيقظت من واحد من الكوابيس التي تتكرّر لديها فوجدت ذراعيه تحتضنانها وسمعت صوته العميق يهمس في أذنها قائلاً: «أنا هنا يا حبيبتي. أنت آمنة معي». شعرت في أحضانه بأمان أدركت أنها كانت توّاقة إليه طيلة حياتها، حتى قبل تلك الحادثة. ففي وجود ريتشارد إلى جانبها، صارت نيللي أخيراً قادرة على الاستسلام إلى نوم آمن عميق. كان ذلك كما لو أن الأرض غير المستقرّة تحت قدميها قد هدأت وسكنت من جديد.

لكن نيللي كانت ليلة أمس وحيدة في شقتها القديمة الحجرية في الطابق الأرضي. كان لدى ريتشارد عمل في شيكاغو؛ وكانت سامانثا، شريكتها في السكن وأعز صديقاتها، تمضي الليلة في بيت آخر صديق لها. كان ضجيج مدينة نيويورك يتسرّب عبر الجدران: صراخ أبواق السيارات، وصيحات تنطلق من حين لآخر، وكلب يعوي... صحيح أن معدل الجريمة في المنطقة الشمالية الشرقية أدنى من أي مكان آخر في المدينة كلها؛ وصحيح أن النوافذ محمية بقضبان فولاذية وأن الباب موصد بثلاثة أقفال من بينها ذلك القفل الكبير الذي ركّبته نيللي بعد سكنهما في هذه الشقة؛ إلا أنها ظلت في حاجة إلى كأس إضافية من نبيذ شاردونيه حتى تتمكّن من النوم.

دعكت نيللي عينيها المشوَّشتين، ثم نهضت من السرير بحركة بطيئة. وضعت عليها ثوبها المصنوع من نسيج يشبه نسيج المناشف،

ثم نظرت من جديد إلى فستان الزفاف متسائلة في نفسها إن كان عليها أن تحاول إفراغ مكان يتسع له في الخزانة الصغيرة، لكن التنورة كانت طويلة منتفخة. عندما كان الفستان في المحل محاطاً بغيره من الفساتين المنتفخة المنفوشة المزينة بالترتر، بدا لها بسيطاً ظريفاً كأنه شعر امرأة مربوط في عقدة أنيقة وسط تسريحات معقّدة منفوشة. أما عندما صار هنا إلى جانب ملابسها المحشورة في خزانة IKEA الصغيرة في غرفة نومها المزدحمة، فقد بدا لها أشبه بملابس أميرة من أميرات ديزني.

لكن الوقت تأخر كثيراً على تغيير الفستان. موعد الزفاف يقترب بسرعة شديدة، وقد جرى ترتيب التفاصيل كلها... حتى التمثال الصغير الذي يوضع فوق كعكعة الزفاف: عروس شقراء مع عريسها الوسيم متجمّدَيْن في لحظة مثالية!

«يا إلهي... إنهما يشبهانكما تماماً»؛ هذا ما قالته لها سامانثا عندما أرتها نيللي صورة التمثالين الخزفيين الصغيرين التي أرسلها لها ريتشارد بالبريد الإلكتروني. كان هذان التمثالان الصغيران ملكاً لوالديه؛ وقد أخرجهما ريتشارد من غرفة المستودع في قبو شقته بعد أن طلب منها الزواج. كشّرت سامانثا قليلاً عندما قالت: «أقول لنفسي دائماً إن عريسك جيد إلى حد يصعب معه أن يكون الأمر حقيقة!».

كان ريتشارد في السادسة والثلاثين؛ أكبر من نيللي بتسع سنين. وكان مديراً ناجحاً لواحد من الصناديق الاستثمارية. له جسد عدّاء مشدود. وكان سريع الابتسام على نحو يناقض ما توحي به النظرة الحادة في عينيه الزرقاوين.

أخذها في موعدهما الأول إلى مطعم فرنسي حيث سمعته يتحدّث مع الساقي عن أنواع نبيذ بورغوندي الأبيض حديث العارف الخبير. وأما موعدهما الثاني فكان في يوم سبت تساقطت فيه الثلوج. قال لها

أن ترتدي ملابس دافئة، ثم أتى حاملاً زلاجتين بلاستيكيتين خضراوين لامعتين. قال لها: «أعرف أفضل تلة للتزلج في سنترال بارك».

كان في بنطلون جينز حائل اللون. وبدا شكله في ذلك البنطلون أنيقاً مثلما هو في بدلته الرسمية متقنة التفصيل.

لم تكن نيللي مازحة عندما ردّت على ملاحظة سامانثا بقولها: «إنه هكذا دائماً».

تثاءبت نيللي من جديد عندما صعدت الدرجات السبع المفضية إلى المطبخ الضيّق الصغير. كانت الأرضية المصنوعة من اللينوليوم باردةً تحت قدميها الحافيتين. أضاءت المصباح المعلّق ولاحظت أن سامانثا قد دلقت ـ من جديد ـ بعض العسل على حافة المرطبان عندما استخدمته لتحلية الشاي. وقد سال السائل اللزج حتى أسفل المرطبان. وكان صرصار يكافح حتى يفلت من تلك البركة الدبقة ذات اللون القاتم. لا يزال هذا المشهد يجعلها تشعر بالغثيان حتى بعد سنين من العيش في مانهاتن. تناولت نيللي أحد فناجين سامانثا المتّسخة الموضوعة في المجلى وحبست الصرصار تحته. قالت في نفسها: سأتركه لها حتى تتعامل معه بنفسها! وبينما كانت تنتظر اختمار قهوتها، فتحت اللابتوب وبدأت تتفقد بريدها: قسيمة شراء من محلات Gap؛ وأمها ـ التي من الواضح أنها صارت نباتية ـ تطلب منها أن تحرص على توفر مأكولات خالية من اللحوم على مائدة العشاء يوم الزفاف؛ وإشعار يذكّرها بموعد استحقاق سداد المال المسحوب على بطاقتها الائتمانية.

سكبت نيللي قهوتها في فنجان كبير مزين بالقلوب مكتوب عليه «المعلم الأول في العالم»، ثم رشفت منه جرعة لذيذة كانت في حاجة إليها. لديها، هي وسامانثا، أكثر من عشرة فناجين مثله موضوعة في خزانة المطبخ. لقد حصلتا على هذه الفناجين لأنهما معلمتان في

مكتبة

حضانة أطفال. إن لديها في هذا اليوم عشرة من اجتماعات المعلمين وأولياء الأمور التي تنعقد في الربيع... اجتماعات من أجل جرائها الصغار: صفها من الأطفال في الثالثة من العمر. من غير تناول بعض الكافيين، ستكون في خطر أن تسقط نائمة (في «الزاوية الهادئة» في غرفة الصف) عندما يتعيّن عليها أن تكون صاحية. من المقرر أن تستقبل أول الأمر السيد والسيدة بورتر اللذين عبّرا في الآونة الأخيرة عن انزعاجهما من خلوّ غرفة الصف من نشاطات إبداعية وفق أسلوب الممثل سبايك جونز. لقد نصحاها بأن تستبدل ببيت الدمى الكبير الموجود في غرفة الصف خيمة مخروطية ضخمة مثل خيام السكان الأصليين؛ ثم تابعا الأمر بأن أرسلا لها رابطاً إلى خيمة يعرضها متجر (Land of Nod) بمئتين وتسعة وعشرين دولاراً.

قالت في نفسها إنها لن تشتاق إلى هؤلاء الناس إلا أكثر قليلاً مما ستشتاق إلى صراصير هذه الشقة بعد أن تنتقل للعيش مع ريتشارد. نظرت إلى فنجان سامانثا المقلوب فأحست بنوع من الذنب. استخدمت منديلاً ورقياً لكي تلتقط الحشرة سريعاً وتلقي بها في المرحاض، ثم تجعل تيار الماء يندفع فيجرفها.

رنّ هاتف نيللي الخليوي عندما كانت تفتح الماء في الدوش. لفّت نفسها بمنشفة كبيرة، ثم أسرعت إلى غرفة النوم وبحثت عن الهاتف في حقيبة يدها. لكنها لم تجده هناك، كانت تنسى دائماً أين وضعته. عثرت عليه أخيراً مدفوناً بين طيّات شالها.

«مرحباً». مكتبة أحمد

لا إجابة!

نظرت إلى شاشة الهاتف فوجدت أن رقم المتّصل محجوب. وبعد لحظة من ذلك، ظهر على الشاشة إشعار بوصول بريد صوتي. ضغطت

هـ ك ت ب ة

على الزر لتستمع إلى الرسالة، لكنها لم تسمع إلا صوتاً خافتاً يتردد بانتظام. صوت تنفّس!

قالت لنفسها إنه اتصال من شخص ممن يبيعون المنتجات على الهاتف، ثم رمت الهاتف على السرير من جديد. لا أهمية للأمر! إنها تبالغ في ردود أفعالها مثلما يحدث معها أحياناً. كل ما في الأمر أنها مرهقة بفعل توالي الأحداث. فبعد كل حساب، سوف تحزم حقائبها بعد أسابيع قليلة وتنتقل إلى شقة ريتشارد، وستحمل باقة ورود بيضاء وهي تسير على البساط الأزرق الطويل صوب حياتها الجديدة. كان هذا التغيير يرهق أعصابها، وكانت تواجه تغيرات كثيرة في وقت واحد.

مع ذلك... إنه الاتصال الثالث من نوعه خلال بضعة أسابيع.

ألقت نظرة صوب باب الشقة فتأكدت من أن القفل الفولاذي المتين مغلق. اتجهت إلى الحمام من جديد، لكنها لم تلبث أن عادت فأخذت هاتفها معها. وضعته على حافة المغسلة، ثم أغلقت الباب وعلّقت منشفتها ودخلت تحت الدوش. قفزت عائدة إلى الخلف عندما لامسها رذاذ الماء البارد فزادت من تدفق الماء الساخن وراحت تدلك ذراعيها بكفيها.

ملأ البخار الحمام. تركت نيللي الماء يجري على كتفيها المتصلّبتين وينساب على ظهرها. سوف تغير اسم عائلتها بعد زفافها. وقد تُغيّر رقم هاتفها أيضاً.

ارتدت فستاناً من الكتان. كانت تضع الماسكارا على أهدابها الشقر عندما اهتز الهاتف وانطلق رنينه (لم تكن تستخدم هذا القدر من مستحضرات التجميل أو ترتدي ملابس أنيقة إلا من أجل لقاءات المعلمين مع الأهالي وفي يوم التخرج). كان الصوت مرتفعاً رناناً على

حافة المغسلة البورسلان. أجفلت، فانزاح قلم الماسكارا إلى الأعلى تاركاً علامة سوداء عند حاجبها.

انحنت لكي تقرأ الرسالة التي وصلتها من ريتشارد:

لا أطيق انتظار رؤيتك الليلة أيتها الجميلة. إنني أحصي الدقائق. أحبك.

عندما نظرت إلى كلمات خطيبها، بدا لها أن أنفاسها التي كانت عالقة في صدرها طيلة هذا الصباح قد ارتاحت من جديد.

كتبت تجيبه: أحبك أيضاً.

سوف تخبره الليلة عن هذه الاتصالات الهاتفية. وسوف يسكب لها ريتشارد كأس نبيذ، ثم يرفع قدميها فيضعهما في حضنه وهما يتحدّثان. ولعله يستطيع العثور على طريقة لتتبُّع ذلك الرقم المحجوب.

فرغت من استعداداتها، فحملت حقيبتها الثقيلة وعلّقتها على كتفها ثم خرجت سائرة في ضياء شمس ربيعية واهنة.

الفصل الثاني

أيقظني صفير حاد منبعث من غلاية الشاي لدى خالتي شارلوت. كان ضياء الشمس الضعيف يتسلّل عبر شقوق الستائر ملقياً خطوطاً باهتة على جسدي وأنا مستلقية ملتفة على نفسي في وضعية الجنين. كيف يمكن أن يأتي الصباح منذ الآن؟ لا أزال أستلقي في الناحية اليسرى من الفراش فقط، حتى بعد شهور من نومي وحيدة في سرير مزدوج عادي (ليس مثل السرير المزدوج الضخم الذي كنت أتقاسمه مع ريتشارد). الملاءات التي إلى جانبي باردة. إنني أفسح مكاناً من أجل شبح غير موجود!

الصباح أسوأ الأوقات لأن دماغي يكون صافياً، لحظة قصيرة. التأجيل أمر في غاية القسوة. أتكوّر على نفسي تحت اللحاف وأحس كما لو أن وزناً ثقيلاً يثبتني في مكاني. لعل ريتشارد مع بديلتي الجميلة الشابة في هذه اللحظة. ولعل عينيه الزرقاوين تنظران إليها وأطراف أصابعه تتلمس استدارة خدها. أحياناً، أكاد أستطيع سماعه يقول لها تلك الأشياء الحلوة التي كان يقولها لي هامساً.

أعبدك. سوف أجعلك في غاية السعادة. أنت عالمي كله.

ينبض قلبي بقوة... تكاد تكون كل ضربة من ضرباته الثابتة مؤلمة لي. تنفَّسي بعمق!... أذكّر نفسي بهذا. لكن الأمر لا ينجح دائماً. إنه لا ينجح أبداً.

عندما أراقب المرأة التي تركني ريتشارد من أجلها يفاجئني دائماً كم هي رقيقة وبريئة. تماماً مثلما كنت في لقاءتنا الأولى، أنا وريتشارد؛ عندما كانت كفاه تحيطان بوجهي بلطف شديد كما لو أنني زهرة رقيقة يخاف أن يؤذيها.

حتى في تلك الشهور المُسكِرة، كان يبدو لي أحياناً كما لو أن... كما لو أن ذلك... كما لو أنه شيء مُعدٌّ مسبقاً... نوعاً ما! لكن، لم تكن لهذا أهمية. كان ريتشارد حنوناً شديد الجاذبية، وكان شديد البراعة. وقعت في حبه على الفور، تقريباً. ولم يكن لدي أي شك في أنه أحبني أيضاً.

إلا أنه انتهى مني الآن. تركتُ بيتنا الفاخر بغرف نومه الأربع وأبوابه المقنطرة والمرج الأخضر الغني المنبسط من حوله. ظلت ثلاث غرف نوم من تلك الأربعة فارغة خلال فترة زواجنا كلها. لكن الخادمة ثابرت على تنظيفها كل أسبوع. وعلى الدوام، كنت أجد سبباً لمغادرة البيت عندما تفتح الخادمة أبواب تلك الغرف.

جعلني عويل سيارة إسعاف تمر على مسافة اثني عشر طابقاً من تحتي أخرج من سريري آخر الأمر. استحممت، ثم جفّفت شعري ولاحظت أن جذوره قد صارت مرئية. أخرجت علبة صبغة الشعر بلون الكراميل البني من الخزانة تحت المغسلة حتى أذكّر نفسي بضرورة وضع لمسة منها على شعري عندما أعود هذه الليلة. لقد مضت تلك الأيام التي كنت أدفع فيها (لا، بل التي كان ريتشارد يدفع فيها) مئات الدولارات من أجل قص شعري وصباغته.

أفتح الخزانة الصغيرة القديمة المصنوعة من خشب الكرز... الخزانة التي اشترتها خالتي شارلوت من سوق «غرين فلي» ثم استصلحتها بنفسها. كانت لدي غرفة خزانة أكبر من هذه الغرفة التي أنام فيها الآن. وكانت فيها صفوف من الفساتين المرتبة بحسب اللون والموسم؛

وأكداس من بنطلونات الجينز التي تحمل أسماء كبار المصممين. كانت لدي كذلك تشكيلة متعدّدة الألوان من الكشمير تشغل جداراً كاملاً.

ما كان لهذه الملابس كلها أهمية كبيرة عندي. فعادة ما كنت أرتدي بنطلون اليوغا الرياضي مع كنزة فضفاضة دافئة. وعلى نحو معاكس لما يفعله كل من يذهبون إلى أعمالهم ثم يعودون إلى بيوتهم، كنت أغيّر تلك الملابس فأرتدي ثياباً أكثر أناقة قبيل عودة ريتشارد إلى البيت.

لكنني أجد نفسي الآن مسرورة لأنني أخذت معي بضع حقائب من أفخر ملابسي عندما طلب مني ريتشارد ترَك بيتنا في وستشستر. فبما أنني أعمل الآن موظفة بيع في محلات ساكس، في الطابق الثالث المخصص للملابس ذات الماركات المشهورة، فإن دخلي معتمد على العمولة التي أحصل عليها. هذا يعني أن من المهم كثيراً أن أظهر في صورة امرأة ذات طموح. أنظر الآن إلى الفساتين المصفوفة في الخزانة بدقة تكاد تكون عسكرية، فأختار فستان شانيل ذا لون أزرق خفيف. أحد الأزرار محلول قليلاً؛ كما أن الفستان صار أكثر اتساعاً مما كان عندما لبسته آخر مرة... قبل عمر كامل! لست في حاجة إلى ميزان حتى أعرف أنني فقدت الكثير من وزني. صرت في حاجة إلى ارتداء ملابس من قياس 4 رغم أن طولي يبلغ خمس أقدام وست إنشات.

أدخل المطبخ فأجد خالتي شارلوت تأكل لبناً رائباً يونانياً مع ثمار التوت البري الطازجة. أقبّلها، فأحس جلد خدها ناعماً كأن عليه بودرة التالك.

«فانيسا... هل كان نومك جيداً؟».

أقول كاذبة: «نعم».

إنها واقفة إلى جانب طاولة المطبخ عارية القدمين مرتدية ثوب تاي تشي فضفاضاً. تنظر عيناها عبر زجاج نظارتها وهي تسجّل قائمة

مشتريات البقالة على ظهر مغلف قديم موضوع بين الأشياء القليلة التي أعدّتها لإفطارها. في نظر خالتي شارلوت، الحركة والاندفاع هما مفتاح الصحة النفسية. وهي تحثّني دائماً على الانضمام إليها من أجل نزهة على الأقدام في حي سوهو، أو من أجل الذهاب إلى محاضرة عن الفنون في الجامعة، أو رؤية فيلم في مركز لينكولن... لكني صرت أعرف أن هذا النشاط لا يفيدني في شيء. ففي نهاية الأمر، تستطيع الهواجس أن تلحق بك أينما ذهبت.

أقضم قضمات من قطعة خبز محمصة من الدقيق الكامل، وأدس في حقيبتي تفاحة ولوح بروتين من أجل غدائي. يمكنني القول إن خالتي شارلوت مرتاحة لأنني وجدت عملاً؛ وليس سبب ذلك مقتصراً على أنني بدأت أتعافى آخر الأمر. لقد شوَّشتُ نمط حياتها: عادة ما تمضي صباحاتها في غرفة النوم الإضافية التي جعلتها استوديو فنياً لها حيث تفرش ألواناً غنية على القماش فتخلق عوالم حالمة أكثر جمالاً بكثير من هذا العالم الذي نسكنه. لكنها لا يمكن أن تتذمّر أبداً. عندما كنت فتاة صغيرة، وعندما كانت أمي في حاجة إلى ما كنت أفكر فيه باعتباره «أيام عزلة»، كنت أتصل بخالتي شارلوت التي هي شقيقة أمي الكبرى. ما كان الأمر في حاجة إلى ما هو أكثر من أن أهمس قائلة لها «إنها ترتاح من جديد»، فتأتي خالتي على الفور وتضع على الأرض حقيبتها الصغيرة التي تحتوي على الأشياء اللازمة لها من أجل قضاء الليل عندنا، ثم تمد إليّ يديها الملطختين بالألوان فتعانقني عناقاً فائحاً برائحة الخزامى وزيت الكتان. كانت تملك حرية طريقة حياتها الخاصة لأنها لم تنجب أطفالاً. وكان من حسن حظي أنها وضعتني في مركز تلك الحياة عندما كنت محتاجة إليها أكثر من أي وقت.

«جبن بْري... إجاص...»، كانت خالتي شارلوت تتمتم بهذه الكلمات وتسجّل تلك المواد في قائمتها بخطها ذي الانحناءات

والالتفافات الكثيرة. شعرها الرمادي المرفوع إلى أعلى في عقدة فوضوية، وتفاصيل المكان العشوائية أمامها... وعاء زجاج كبير أزرق بلون الكوبالت، وفنجان خزف قرمزي ضخم، وملعقة فضية... يبدو ذلك كله كأنه موضوع للوحة طبيعة صامتة. شقتها ذات غرف النوم الثلاث باهظة الثمن لأن خالتي شارلوت والعم بو (زوجها الذي توفّى منذ سنين) اشتريا هذه الشقة قبل أن ترتفع أسعار العقارات في الحي ارتفاعاً صاروخياً؛ إلا أن شقتها تجعلك تحسّ كأنك في بيت مزرعة قديم مهمل. ألواح الأرضية الخشب مائلة تفرقع وتطقطق عند السير عليها، وكل غرفة مطلية بلون مختلف: أصفر بلون الزبدة، وأزرق داكن، وأخضر بلون النعناع.

أسألها: «هل لديك صالون أدبي آخر هذه الليلة؟»، فتومئ برأسها.

منذ أن بدأت العيش عندها، صار من المألوف أن أجد لديها مجموعة من طلبة جامعة نيويورك، كالناقد الفني في نيويورك تايمز مثلاً، مع حفنة من أصحاب الاستوديوات الفنية ممن يجتمعون في غرفة المعيشة عندها. أقول لها: «دعيني آتي بالنبيذ في طريق عودتي إلى البيت». من المهم ألّا تعتبرني خالتي شارلوت عبئاً عليها. إنها كل مَن بقي لي.

أحرّك قهوتي وأتساءل في نفسي إن كان ريتشارد الآن يعدّ القهوة لمحبوبته الجديدة ويأتي بها إلى السرير حيث لا تزال ناعسة دافئة تحت اللحاف المحشو بالزغب، ذلك اللحاف الذي كنا نتقاسمه معاً. أرى شفتيها تبتسمان وهي تزيح اللحاف من أجله. كثيراً ما كنا نمارس الحب في الصباح. وكان ريتشارد يقول لي: «بعد أن فعلنا هذا، لا أهمية لما سيحدث خلال بقية النهار». تتقلّص معدتي فأدفع قطعة الخبز بعيداً عني. ألقي نظرة على ساعتي الكارتييه التي أتتني هدية من ريتشارد في ذكرى زواجنا الخامسة، ثم أمر بطرف إصبعي على ذهبها الصقيل.

لا أزال قادرة على الإحساس به عندما رفع يدي ليضع هذه الساعة في معصمي. وفي بعض الأحيان، أكون واثقة من أنني أشمّ في ثيابي (رغم أنني أرسلتها إلى التنظيف) نفحة من عبير الليمون... رائحة صابون لوسيتان الذي يستحم به. أحسه مرتبطاً بي دائماً، قريباً دائماً، لكنه شفّاف مثل شبح.

«أظن أن من الجيّد لكِ أن تنضمّي إلينا هذه الليلة».

تمرّ لحظة قبل أن أتمكّن من استجماع شتات نفسي. أقول لها: «ربما آتي». أعرف أنني لست آتية. نظرة عينَيْ خالتي شارلوت رقيقة. أظنها أدركت أنني أفكر في ريتشارد. إلا أنها ليست عارفة بالقصة الحقيقية لزواجنا. تظن أنه يجري خلف الصِّبا فينحّيني جانباً مثلما فعل رجال كثيرون من قبله. تظنني ضحية... مجرد امرأة أخرى أودى بها اقتراب منتصف العمر.

سوف يختفي هذا التعاطف من وجهها إذا عرفت بالدور الذي كان لي في خراب زواجنا.

أقول لها: «يجب أن أسرع الآن. لكن، اكتبي لي رسالة نصية إذا كنت في حاجة إلى أي شيء آخر حتى آتي به معي».

لم أحصل على عملي في المبيعات إلا منذ شهر مضى. وقد تلقيت حتى الآن إنذارين بسبب تأخري في الصباح. إنني في حاجة إلى طريقة أفضل حتى أستطيع أن أنام لأن الأقراص التي وصفها لي طبيبي تجعلني واهنة بطيئة الحركة في الصباح. لم أعمل منذ عشر سنين تقريباً. وإذا خسرت هذه الوظيفة، فمن سيوظّفني؟

أعلّق حقيبتي الثقيلة على كتفي، تلك الحقيبة التي يطلّ من أعلاها حذاء شبه جديد من ماركة جيني تشوز، ثم أربط شريط حذائي الرياضي شبه التالف وأضع السماعة في أذنيّ. إنني أصغي إلى مقاطع مسجلة عن

حالات نفسية خلال مسيري مسافة خمسين بناية سكنية حتى أصل إلى محل ساكس. أحياناً، يجعلني الإصغاء إلى مشكلات الآخرين أبتعد عن مشكلاتي وأنساها.

خدعتني شمس الصباح الواهنة التي أيقظتني، إذ جعلتني أظن بأن الطقس قد بدأ يزداد دفئاً في الخارج.

أحاول جعل خطواتي ثابتة في مواجهة صفعات ريح أواخر الربيع الحادة، ثم أبدأ مسيرتي الشّاقة في اتجاه وسط مانهاتن.

زبونتي الأولى في هذا اليوم موظفة في بنك استثماري، تعرّفني على نفسها باسم نانسي. تقول لي إن عملها مرهق، كثير التطلّب، لكن اجتماعاً كان من المقرر أن يجري هذا الصباح قد ألغي من غير توقّع. إنها صغيرة الجسم، لها عينان متسعتان وشعر قصير. كما أن هيكل جسدها الصبياني يجعل مهمتي في اختيار ملابس تناسبها تحدّياً حقيقياً. يسعدني هذا لأنه يلهيني عمَّ أفكر فيه.

تقول لي: «عليّ أن أختار ملابس قوية وإلا فلن يأخذني أحد على محمل الجد. أعني... انظري إليّ! لا يزالون يطلبون مني ما يثبت أنني بلغت سن الرشد!».

بينما كنت أحاول بلطف إبعادها عن بدلة رمادية ذات مظهر رسمي، لاحظت أن أظافرها مقضومة كلها. تنتبه إلى نظراتي فتدسّ يديها في جيبَيْ سترتها. أتساءل كم من الزمن يمكن أن تستمرّ في عملها. ربما تجد لنفسها وظيفة أخرى. ربما شيء ذو علاقة بالخدمات، أو ذو علاقة بالبيئة، أو حقوق الأطفال... قبل أن يحطم عملها الحالي روحها.

أتناول تنورة ضيقة طويلة وبلوزة حرير منقوشة. أقول لها مقترحة: «ربما يلزمك شيء أكثر إشراقاً!».

خلال سيرنا في أنحاء الصالة، تحدّثني عن «سباق البلدات الخمس»

للدراجات الذي تأمل المشاركة فيه خلال الشهر القادم رغم أنها لم تتلق أي تدريب. تحدّثني أيضاً عن «الموعد العشوائي» الذي تريد إحدى زميلاتها ترتيبه من أجلها. أتناول قطع ملابس أخرى وأنا أسترق التفاتات سريعة إليها حتى أُكوّن تقديراً أفضل لمقاسها ولون جلدها.

وعند ذلك، أرى فستاناً محبوكاً مزهراً من صنع ألكساندر ماكوين... فستان رائع، أبيض وأسود. أمد يدي وأمر بها على نسيجه فتشتد خفقات قلبي.

تقول نانسي: «إنه جميل».

أغمض عينيّ وأتذكر أمسية ارتديت فيها فستاناً يكاد يماثل هذا الفستان.

يعود ريتشارد إلى البيت حاملاً علبة بيضاء كبيرة يلفّها شريط أحمر. قال لي عندما جرّبت الفستان: «البسيه الليلة. تبدين رائعة الجمال». شربنا الشامبانيا في صالة آلفين آيلي للرقص وضحكنا مع زملائه. كانت يده مستقرة عند أسفل ظهري. همس في أذني: «انسي العشاء. فلنعد إلى البيت».

تسألني نانسي: «هل أنت بخير؟».

أجيبها: «أنا بخير»، لكن حنجرتي موشكة على التقلص والإطباق على الكلمات... «هذا الفستان ليس مناسباً لك».

يبدو على نانسي أنها فوجئت، فأدرك أن كلماتي كانت أكثر خشونة مما يجوز أن تكون.

«ما رأيك في هذا؟». أتناول فستاناً ضيقاً كلاسيكياً أحمر اللون.

أسير في اتجاه غرفة قياس الملابس وقد صارت مجموعة القطع التي انتقيتها لها ثقيلة على ذراعي. «أظن أنه قد صار لدينا ما يكفي لأن نبدأ القياس».

أعلق قطع الملابس على القضيب المثبّت على أحد الجدران وأحاول التركيز على ترتيب تسلسل القطع الذي أظنه مناسباً من أجل تجربتها، بدءاً بالسترة الليلكية التي تناسب لون بشرتها. السترات أفضل شيء للبدء، هذا ما تعلّمته، لأن الزبونة ليست في حاجة إلى خلع ملابسها حتى تجربها. آتي بزوج من الجوارب والأحذية حتى تتمكّن من تقييم التنورات والفساتين بشكل أفضل، ثم أبدّل بضع قطع إلى مقاس أكبر. وفي النهاية، تختار نانسي السترة وفستانين ـ من بينهما ذلك الفستان الأحمر ـ إضافة إلى بدلة زرقاء بحرية. أستدعي عامل الخياطة حتى يضبط لها طول التنورة، ثم أعتذر قائلة لنانسي إنني ذاهبة للمساعدة في تسديد ثمن مشترياتها.

لكن أجد نفسي مشدودة للعودة إلى الفستان الأبيض والأسود. أجد ثلاث قطع منه معلّقة هناك. آخذها كلها بين ذراعي وأذهب بها إلى غرفة المستودع فأخفيها خلف صف من قطع الملابس المعطوبة.

أعود حاملة بطاقة نانسي الائتمانية وإيصال الدفع فأجدها قد عادت إلى ارتداء ملابس العمل.

تقول لي: «أشكرك. لولاك لما اخترت هذه القطع أبداً، لكني متحمّسة لارتدائها».

هذا هو الجزء من عملي الذي أحبّه حقّاً: أن أجعل زبوناتي مسرورات. إن تجربة الملابس وإنفاق النقود عليها تجعل نساء كثيرات تضعن أنفسهن موضع التساؤل والتشكيك: هل أبدو سمينة؟ هل تناسبني حقّا هذه الملابسْ؟ أعرف هذه الشكوك معرفة جيّدة لأنني وقفت في غرفة تجريب الملابس مرات كثيرة محاولة تحديد ما يجب أن أكون عليه.

أُدخل ملابس نانسي الجديدة في كيس للتعليق، ثم أناولها إياها، وأتساءل لحظة في نفسي إن كانت خالتي شارلوت محقّة. إذا تابعت

الحركة والسير إلى الأمام، فربما يقرّر عقلي آخر الأمر أن يتبع اندفاع جسدي وأن يلحق به متخلّياً عما يشغله الآن.

بعد ذهاب نانسي، أساعد بضع زبونات غيرها، ثم أتجه إلى غرف تجريب الملابس حتى أعيد القطع المتراكمة هناك إلى أماكنها. وبينما أعلّق إحدى قطع الملابس، أسمع امرأتين تتحدّثان داخل غرفة تجريب الملابس المجاورة.

«أووف! يبدو فستان علايا[1] هذا فظيعاً. إنني منتفخة تماماً. كنت أعرف أن تلك العاملة في المطعم كذبت علينا عندما قالت إن صلصة الصويا منخفضة الصوديوم».

أتذكر هذه اللكنة الجنوبية على الفور: هيلاري سيرلز، زوجة جورج سيرلز، واحد من زملاء ريتشارد. حضرت مع هيلاري عدداً من ولائم العشاء ومناسبات الأعمال خلال سنواتي مع ريتشارد. لقد سمعتها تعبّر عن تفضيلها للمدارس العمومية على المدارس الخصوصية، وتفضيلها حمية آتكينز على حمية زون، وكذلك عن تفضيلها جزر سان بارتس الفرنسية على شاطئ آمالفي في إيطاليا. لا أطيق الاستماع إليها في هذا اليوم.

صاح صوت: «أنتم، يا من هناك! ألا توجد موظفة مبيعات هنا؟ نحن في حاجة إلى مقاسات أخرى».

ينفتح باب غرفة القياس ويطل من خلفه وجه امرأة. تبدو شديدة الشبه بهيلاري... حتى خصلات شعرها الكستنائية... لا يمكن إلا أن تكون أختها الشقيقة. «يا آنسة! ألا تستطيعين مساعدتنا؟ يبدو أن موظفة المبيعات التي كانت تساعدنا قد اختفت تماماً».

(1) عز الدين علايا. مصمم أزياء فرنسي من أصل تونسي.

وقبل أن أستطيع إجابتها، أرى لمحة من لون برتقالي وأرى فستان علايا الذي أزعجها معلّقاً على باب الغرفة... «هل لديكم مقاس اثنين وأربعين من هذا الفستان؟».

إن كانت هيلاري تريد إنفاق ثلاثة آلاف ومئة دولار على شراء فستان فإن العمولة التي سأنالها تستحق تحمّل الأسئلة التي ستمطرني بها.

أجيبها: «لحظة حتى أتأكد. لكن فساتين علايا ليست متسامحة كثيراً بصرف النظر عما تتناولينه على الغداء... يمكنني أن آتي لك بمقاس أربعة وأربعين إذا تبين أن مقاس اثنين وأربعين أصغر مما يجب».

تنظر هيلاري إلى الخارج مخبئة خلف الباب جسدها الذي انتفخ بسبب الصوديوم: «يبدو صوتك مألوفاً لي»... تصرخ، يقتضي الأمر جهداً حتى أستطيع أن أظل واقفة هناك وهي تحدّق بي... «ماذا تفعلين هنا؟».

تسألها أختها: «هيلاري، مع من تتكلّمين؟».

«فانيسا صديقة قديمة. إنها متزوجة من... أوه، كانت متزوجة من... واحد من شركاء جورج. انتظري لحظة يا فتاة! انتظري حتى أرتدي ملابسي». وعندما ظهرت مرة أخرى، عانقتني عناقاً شديداً وغمرتني برائحة عطرها.

«يبدو شكلك مختلفاً! ما الذي تغيّر فيكِ؟». تضع يديها على وركيها فأرغم نفسي على تحمل نظرتها الفاحصة... «أولاً، أيتها الفتاة، لقد صرتِ نحيلة جداً. لن تجدي أي صعوبة في ارتداء فستان علايا. إذًا، أنت تعملين هنا الآن؟».

«صحيح. يسعدني أن أراك...».

لم أكن في حياتي كلها شاكرة لرنين الهاتف مثلما كنت في تلك اللحظة. تقول هيلاري في الهاتف: «مرحباً! ماذا؟ حُمّى؟ هل أنت

واثقة من هذا؟ تذكّري المرة الماضية، عندما خدعتْك بأن... لا بأس. لا بأس. سوف آتي حالاً...». تستدير إلى أختها... «إنها ممرّضة المدرسة. تظن أن ماديسون مريضة. والحقيقة أنهم يرسلون الأطفال إلى البيت إذا عطسوا عطسة صغيرة».

تميل صوبي وتحضنني مرة أخرى فيخدش قرطها الماسي خدي: «دعينا نتفق على تناول الغداء معاً وتبادل الأخبار. اتصلي بي!».

تتوجّه هيلاري وأختها في اتجاه المصعد فأرى سواراً من البلاتين على الكرسي في غرفة قياس الملابس. ألتقط السوار وأسرع خلف هيلاري. أكون موشكة على مناداتها باسمها عندما أسمع صوتها تقول لأختها: «يا للمسكينة...» أحس بشفقة حقيقية في نبرة صوتها... «لقد أخذ البيت، والسيارات، وكل شيء...».

«حقاً! ألم تستعِن بأحد المحامين؟».

ترفع هيلاري كتفيها وتجيب أختها: «لقد تحوّلت إلى مصيبة حقيقية!».

كان ذلك كما لو أنني اصطدمت بجدار غير مرئي.

أنظر إليها وهي تبتعد عني. وعندما تضغط الزر لطلب المصعد، أعود لرفع الملابس التي سقطت على أرض غرفة القياس. لكني، قبل ذلك، أضع السوار البلاتيني في معصمي.

قبل انفصالنا بفترة قصيرة، أقمنا حفلة كوكتيل في بيتنا، أنا وريتشارد. كانت تلك آخر مرة أرى فيها هيلاري. كانت بداية الأمسية مزعجة لأن الشركة التي تتولّى تقديم المأكولات والمشروبات وترسل عمال الخدمة تأخرت عن الموعد المقرر. كان ريتشارد غاضباً (غضب منهم، وغضب مني لأنني لم أحدّد لهم موعداً أبكر من ذلك بساعة، وغضب من الوضع كله)، لكنه وقف ببسالة خلف بار مؤقت في غرفة المعيشة

هـ ك ت ب ة

وراح يمزج المارتيني والجن والتونيك. ضحك كثيراً عندما ناوله أحد شركائه بقشيشاً، عشرين دولاراً. وأما أنا، فرحت أتنقل بين الضيوف متمتمة باعتذارات عن قلة كمية شطائر جبن بري ومثلثات جبن تشيدر التي جهّزتها بسرعة. وعدتهم أن الطعام الحقيقي سوف يصل بسرعة.

ناداني ريتشارد من آخر الغرفة: «حبيبتي... هل يمكنك إحضار بضع زجاجات نبيذ رافينو من القبو؟ لقد طلبت صندوقاً منها في الأسبوع الماضي. إنها على الرف الأوسط في قبو النبيذ».

تجمّدت في مكاني وأحسست بأن عيون الجميع قد صارت عليّ. كانت هيلاري عند البار. من المحتمل كثيراً أنها هي التي طلبت هذا النبيذ لأنه النبيذ المفضّل عندها.

أتذكر كيف تحركت في اتجاه القبو فيما بدا لي شيئاً يشبه الحركة البطيئة في الأفلام. كنت أؤجل اللحظة التي سيكون عليّ فيها إخبار ريتشارد ـ أمام أصدقائه وشركائه كلهم ـ بما كنت أعرفه أصلاً: ليس لدينا نبيذ رافينو في القبو!

أمضيت الساعة التي تلت ذلك مع جدّة تريد شراء فستان جديد من أجل مناسبة تعميد حفيدتها التي تحمل اسمها، وكذلك في تجهيز مجموعة ملابس كاملة لامرأة ذاهبة في رحلة بحرية إلى آلاسكا. كان جسدي ثقيلاً كالرمل الرطب. انطفأت لمحة الأمل التي عشتها بعد مساعدة نانسي.

هذه المرة، أرى هيلاري قبل أن أسمع صوتها.

تقترب مني وأنا أعلق إحدى التنورات.

تناديني قائلة: «فانيسا! يسعدني أنك لا تزالين هنا. قولي لي إنك عثرت على...».

تنقطع جملتها عندما تقع عيناها على معصمي.

أخلع السوار من يدي سريعاً: «أنا لم... أنا... كنت قلقة بشأن وضعه في صندوق الأشياء المفقودة... توقعت عودتك سريعاً... أو، كنت سأتصل بك».

يزول ظل الشك من عيني هيلاري. إنها تصدقني. أو... تريد تصديقي على الأقل.

«هل ابنتك بخير الآن؟».

تومئ هيلاري برأسها إيجاباً وتقول: «أظن أن الكذابة الصغيرة أرادت أن تتهرّب من درس الرياضيات». تقهقه ضاحكة ثم تضع سوار البلاتين الثقيل في يدها... «لقد أنقذتِ حياتي. قدمه جورج إليّ هدية بمناسبة عيد ميلادي منذ أسبوع واحد فقط. هل تستطيعين تخيل أن أجد نفسي مضطرة لإخباره أنني أضعته؟ سوف يطلقنـ...».

يحمرّ خداها فجأة وتتجنّبني عيناها. أتذكّر أن هيلاري لم تكن فظة في يوم من الأيام. بل إنها كانت تجعلني أضحك أحياناً، منذ زمن مضى.

«كيف حال جورج؟».

«مشغول، مشغول! تعرفين كيف يكون هذا».

صمت قصير.

«هل رأيت ريتشارد في الآونة الأخيرة؟».

أحاول أن أجعل نبرة صوتي خفيفة، لكني أفشل في هذا. إن جوعي إلى معرفة شيء عنه واضح تماماً.

«أوه، أراه من حين لآخر».

أنتظر، لكن من الواضح أنها لا تعتزم قول المزيد.

«لا بأس! هل كنت تريدين تجربة فستان علايا؟».

«عليّ أن أذهب الآن. سوف أعود في وقت آخر يا عزيزتي». لكني

أحس بأن هيلاري لا تعتزم العودة. ما تراه أمامها الآن... الزر المحلول في فستان شانيل الذي صار عمره سنتين، وتصفيفة الشعر التي يمكن أن تستفيد كثيراً من لمسة شخص محترف... ليست إلا شيئاً تأمل هيلاري كثيراً ألا يكون مُعدياً.

تعانقني عناقاً شديد الاختصار، ثم تبدأ الحركة في اتجاه الخروج. لكنها تستدير صوبي من جديد.

«لو كنت مكانك...»، تقطب حاجبيها... إنها تفكّر في شيء ما، تتخذ قراراً... «نعم، أظن أنني سأكون راغبة في معرفة ذلك».

أحسست بأن ما سيأتي يشبه قطاراً مندفعاً.

«لقد أعلن ريتشارد خطبته». يبدو لي صوتها كأنه يأتيني عائماً من مسافة بعيدة كثيراً... «إنني آسفة! ظننت أنك لم تعلمي بالأمر. وبدا لي أن...».

خنق الهدير الذي علا في رأسي بقية كلماتها. أومئ لها محيية، ثم أتراجع إلى الخلف.

لقد خطبها ريتشارد. زوجي ... وسوف يتزوجها حقاً.

أمضي إلى غرفة قياس الملابس. أستند إلى الجدار، ثم أنزلق نازلة إلى الأرض. تحرق السجادة فخذيّ عندما ينشمر ثوبي عنهما. وعندها أضع رأسي بين يدي، وأبكي.

الفصل الثالث

إلى أحد جانبَيْ مبنى الكنيسة ذات الأبراج التي تضم مدرسة «ليرنيغ لادر»، تنتصب ثلاثة شواهد لقبور تعود إلى بداية القرن. شواهد اهترأت بفعل الزمن وصارت مخفية بين أجمات من الأشجار. وأما إلى الجهة الأخرى من الكنيسة، فهنالك مساحة لعب صغيرة للأطفال فيها صندوق رمل وهيكل للتسلق ملوَّن بالأزرق والأصفر. رمزان يحيطان بالكنيسة من جانبيها، واحد للحياة وواحد للموت. تلك الكنيسة التي شهدت ما لا يُحصى من الشعائر الخاصة بكل من المناسبتين.

على واحد من شواهد القبور، نُقش اسم إليزابيث ناب. توفيت عندما كانت في العشرينات من عمرها، وحُفر قبرها بعيداً بعض الشيء عن القبرين الآخرين. سلكت نيللي الطريق الطويل الذي يلتف من حول المبنى، مثلما تفعل دائماً حتى تتجنّب المرور بهذه المقبرة الصغيرة، لكنها كانت تتساءل عن تلك الشابة الميتة.

لعل حياتها انتهت بفعل المرض، أو لعلها ماتت أثناء الولادة، أو في حادث ما.

هل كانت متزوجة؟ هل كان لديها أطفال؟

تضع نيللي حقيبتها على الأرض حتى تفتح المزلاج الموضوع على السياج المحيط بمنطقة لعب الأطفال بينما تعصف الريح عبر

أغصان الأشجار. كانت إليزابيت في السادسة والعشرين، أو في السابعة والعشرين. لم تستطع نيللي تذكر الرقم الصحيح. على نحو مفاجئ، صارت التفاصيل تلحّ عليها.

بدأتْ السير في اتجاه المقبرة حتى تتأكّد، لكن جرس الكنيسة قُرِع تسع مرات... ذلك الصوت العميق الكئيب الذي يتردّد في الهواء فيذكّرها بأن اجتماعاتها سوف تبدأ بعد خمس عشرة دقيقة. تحرّكت غيمة فحجبت الشمس. انخفضت الحرارة انخفاضاً مفاجئاً.

استدارت نيللي وعبرت البوابة، ثم أغلقتها من خلفها. وبعد ذلك، فردت الغطاء الواقي الذي يحمي صندوق الرمل حتى يكون المكان جاهزاً عندما يخرج الأطفال من أجل اللعب. هبة ريح قوية هدّدت باقتلاع ذلك الغطاء. قاومت نيللي الريح، ثم جرّت حوض أزهار ثقيلاً فثبتت به حافة الغطاء.

دخلت المبنى مسرعة ونزلت السلم إلى القبو حيث كانت روضة الأطفال. أنبأتها رائحة القهوة الغنية الكثيفة بأن ليندا، المديرة، قد وصلت. عادة ما تضع نيللي أشياءها في غرفة الصف قبل أن تذهب للسلام على ليندا. أما اليوم، فقد مرت بباب غرفة صفها الفارغة، وتابعت السير حتى آخر الممر في اتجاه الضوء الأصفر المنبعث من مكتب ليندا. كانت تحس بحاجة إلى رؤية وجه مألوف.

دخلت نيللي الغرفة فلم تجد القهوة فحسب، بل كان هنالك أيضاً طبق كبير من المعجنات. رأت ليندا تضع مناديل ورقية إلى جانب مجموعة من الكؤوس البلاستيكية. لم تكن رؤية ليندا في الاجتماعات بشعرها الداكن اللامع وفستانها الرمادي وحزامها المصنوع من جلد التمساح أمراً غريباً. لقد ارتدت هذه الملابس من أجل مقابلة أهالي الأطفال... حتى في يوم عمل ميداني، تبدو ليندا جاهزة للتصوير!

هكتبة

«قولي لي إن هذه ليست كرواسان بالشوكولاته!».

أجابت ليندا مؤكدة: «إنها من محل دين وديلوتشا. تفضلي!».

تنهدت نيللي. لقد أخبرها الميزان هذا الصباح أنه لا يزال أمامها واجب التخلّص من خمسة باوندات (لا بأس... إنها ثمانية باوندات) قبل موعد الزفاف.

استحثّتها ليندا: «هيا! لديّ الكثير منها من أجل الأهالي».

أجابتها نيللي مازحة: «إنهم أهالي أطفال من الحي الشرقي. لن يأكل أحد منهم معجنات حلوة...». نظرت نيللي إلى الطبق من جديد... «ربما آخذ نصف واحدة فقط». قسمت قطعة كرواسان مستخدمة شوكة من البلاستيك.

تناولت لقمة منها، ثم سارت عائدة إلى غرفة صفها. لم تكن تلك الغرفة فخمة، إلا أنها غرفة كبيرة لها نوافذ مرتفعة تسمح بدخول شيء من ضياء النهار الطبيعي. السجادة الناعمة المزينة بأحرف الأبجدية مرسومة على محيطها... إنها حيث يجلس الأطفال مسرورين حتى يستمعوا إليها تحكي لهم قصصاً. وفي زاوية المطبخ، يرتدي الأطفال قبعات الطهاة الصغيرة ويعبثون بالقدور والمقالي. وفي ركن ارتداء الملابس، يمكن للمرء أن يجد كل شيء... من أثواب الأطباء البيض إلى تنورات راقصات الباليه وخوذات رواد الفضاء!

لقد سألتها أمها مرة عن السبب الذي يجعلها غير راغبة في أن تصير معلّمة «حقيقية»؛ ولم تفهم ما جعل نيللي تجد هذا السؤال مهيناً لها.

الإحساس بهذه الأيدي الممتلئة الواثقة بين كفّيها؛ ولحظة يتوصّل أحد الأطفال إلى فك طلاسم الحروف على صفحة من الصفحات فينطق الكلمة للمرة الأولى في حياته، ثم يرفع رأسه وينظر إلى نيللي

بدهشة؛ وتلك الدهشة التي يفسّر بها الأطفال العالم من حولهم... كيف يمكنها أن تشرح كم تشعر بأن هذا كله ثمين جداً لها؟

طيلة حياتها، كانت تعرف أنها تريد أن تصير معلمة؛ تماماً مثلما يشعر بعض الأطفال بأن من المقدَّر لهم أن يصيروا كتّاباً أو فنانين!

لعقت نيللي طرف إصبعها ثم أخرجت دفتر مواعيدها من حقيبتها، وأخرجت معه كدسة من «بطاقات التقارير» التي ستوزعها على الأهالي. يدفع هؤلاء الأهالي اثنين وثلاثين ألف دولار في السنة لإرسال أطفالهم إلى هذا المكان لقضاء بضع ساعات كل يوم. لم يكن آل بورتر الذين أرسلوا لها الرابط الخاص بشراء الخيمة وحدهم من يرغبون في أن تجري الأمور هنا بطريقة يفضلونها عن غيرها. ففي كل أسبوع، تتلقّى نيللي رسائل عبر البريد الإلكتروني كتلك التي وصلتها من آل ليفينز يطلبون فيها إعطاء ابنتهم الموهوبة الصغيرة ريزي واجبات إضافية. كانت أرقام هواتف المعلّمين مطبوعة في دليل المدرسة لكي يستطيع الأهل استخدامها في الحالات الطارئة؛ إلا أن بعض أولئك الأهالي يستخدمون تعريفاً فضفاضاً تماماً لكلمة «طارئة». ففي ذات مرة، تلقت نيللي اتصالاً في الساعة الخامسة صباحاً لأن بينيت تقيأ خلال الليل فأرادت أمه أن تستعلم عمَّ أكله في المدرسة في النهار.

في تلك الليلة، جعل الرنين المفاجئ الذي انطلق في الظلمة نيللي تسرع إلى إضاءة مصابيح الغرفة كلها، حتى بعد إدراكها أن المتّصل لا يريد بها شرّاً. أحرقت فائض الأدرينالين لديها بأن انكبت على إعادة ترتيب خزانتها ودروجها.

أجابتها نيللي كاذبة: «هذه فكرة حسنة». لكنها كانت تعرف أنها لن تعمل بتلك النصيحة.

لم تكن تستمع إلى موسيقى صاخبة عندما تخرج للجري، أو حتى عندما تكون في طريقها إلى العمل. ولم تكن تسير في الليل وحدها أبداً عند العودة إلى البيت.

إنها تحس حاجة إلى أقصى حد ممكن من الإنذار المسبق لو كان هنالك خطر يقترب منها.

كانت نيللي تكتب بعض الملاحظات الأخيرة على مكتبها عندما سمعت نقرة على الباب فرفعت رأسها لترى الزوجين بورتر: هو في بدلة زرقاء مقلّمة، وهي في فستان وردي اللون. كانا يبدوان كما لو أنهما ذاهبان إلى حفل موسيقى سيمفونية.

قالت لهما عندما اقتربا وصافحاها: «أهلاً وسهلاً! اجلسا من فضلكما!». حاولت إخفاء ابتسامتها عندما رأتهما يجدان صعوبة في التوازن على كرسيين من كراسي الأطفال الموزّعة من حول طاولة الطعام. كانت نيللي جالسة على واحد من تلك الكراسي أيضاً؛ لكنها صارت الآن معتادة على استخدامه.

بدأت المرأة تقول لهما: «إذًا، كما تعرفان، جوناه ولد صغير رائع...». كانت اجتماعاتها كلها تبدأ على هذا النحو، أما في حالة جوناه، فقد كان كلامها صادقاً تماماً. كان الجدار في غرفة نوم نيللي مزيناً برسوم أنتجها الأطفال المفضَّلون لديها. وكان من بينها رسم لجوناه يصوّرها على هيئة امرأة مصنوعة من المارشميلو. سألتها السيدة بورتر وهي تُخرِج دفتر ملاحظات وقلماً من حقيبتها: «هل لاحظت كيفية إمساكه بالقلم؟».

«أوه، أنا...».

قاطعها السيد بورتر: «إنه يمسكه بيد معوجّة». أوضح لها ذلك بأن أمسك بقلم زوجته... «هل لاحظت كيف تكون يده منحرفة إلى

الداخل... هكذا؟ ما وجهة نظرك في ما إذا كان علينا أن نسجله في صف للمعالجة الوظيفية؟»[1].

«لكن... إنه في الثالثة والنصف فحسب».

صححت لها السيدة بورتر: «عمره ثلاث سنوات وثلاثة أرباع السنة».

أجابت نيللي: «صحيح. هنالك الكثير من الأطفال الذين لا تتطوّر لديهم المهارات الحركية في هذا العمر بشكل يسمح...».

سألها السيد بورتر: «أنت من فلوريدا، أليس هذا صحيحاً؟».

فوجئت نيللي: «كيف تعرف... إني آسفة... لماذا تسألني هذا السؤال؟». ليس من الممكن أبداً أن تكون قد قالت لآل بورتر إنها من فلوريدا. وهي حريصة دائماً على عدم الكشف عن خلفيتها بأكثر مما هو ضروري.

ليس من الصعب أن يتفادى المرء الأسئلة عندما يتعلّم طريقة فعل ذلك. عندما يسألك أحد عن طفولتك، تحكي له عن بيت الشجرة الذي بناه لك والدك، وعن قطتك السوداء التي كانت تظن نفسها كلباً فتجلس وتتوسل من أجل الطعام. وإذا طرح موضوع الدراسة الجامعية، فإنك تركز على ذلك الفصل الذي لم يعرف فيه فريق كرة القدم أي هزيمة، وعلى عملك الجزئي في مطعم الجامعة حيث كدت ذات مرة تتسبب في حريق عندما كنت تحمّص الخبز وتزيل بقايا الطعام عن الطاولات في الوقت نفسه. اروِ قصصاً طويلة ملونة تحرف الانتباه عن حقيقة أنك لا تقدم أية معلومات لمن يطرح عليك السؤال. تجنّب النقاط المحدّدة التي

---

(1) المعالجة الوظيفية (Occupational Thereapy): نوع من المعالجة الرامية إلى استعادة الوظيفة الحركية لعضو من الأعضاء، أو لتصحيحها. يستخدم عادة بعد الإصابات أو في حالات الأمراض العقلية.

هكتبة

تجعلك مختلفاً عن بقية الناس. كن غامضاً في ما يتعلق بسنة تخرجك. اكذب، لكن فقط عندما يكون ذلك ضرورة مطلقة!

كان السيد بورتر يقول: «لا بأس... الأمور مختلفة بعض الشيء هنا، في نيويورك». نظرت إليه نيللي نظرة فاحصة. إنه أكبر منها بخمسة عشر عاماً على الأقل؛ وتوحي لكنته بأنه مولود في مانهاتن. ليس ممكناً أن تكون دروبهما قد تقاطعت قبل الآن. فكيف عرف أنها من فلوريدا؟

قال السيد بورتر وهو يستند إلى الخلف في كرسيه ثم يعتدل من جديد حتى لا ينقلب الكرسي به: «لا نريد أن يتأخر جوناه عن غيره».

تدخلت السيدة بورتر قائلة: «ما يحاول زوجي توضيحه هو أننا سنسجله في روضة الأطفال السنة القادمة. ونحن نحاول الآن اختيار مدرسة من بين أفضل المدارس».

استعادت نيللي تركيزها: «أفهم هذا. حسناً، القرار لكما بالتأكيد، لكن من الممكن أن تنتظرا سنة أخرى». كانت تعرف أنهما قد سجلا جوناه منذ الآن في صف لتعلم لغة الماندرين، وفي صف للكاراتيه، وصف للموسيقى. لقد رأته مرتين خلال هذا الأسبوع يتثاءب وهو يدعك عينيه من النعاس. على الأقل، لديه الوقت الكافي لبناء قلاع رملية وإنشاء أبراج من المكعبات عندما يكون هنا.

بدأت نيللي تقول: «أريد إخباركما عن شيء حدث ذات يوم عندما نسي أحد أصدقائه في الصف إحضار طعام الغداء معه من البيت. لقد عرض عليه جوناه أن يتقاسم طعامه معه، هذا يبين كم من اللطف والتعاطف...».

توقفت عن الكلام عندما رُن هاتف السيد بورتر.

قال: «نعم...».

نظر في عيني نيللي. لم تلتق هذا الرجل قبل الآن إلا مرتين: في

احتفال الأهالي، وفي الاجتماع الذي جرى في الخريف. لم يحدّق فيها هكذا من قبل، ولم يبدر عنه أي تصرّف غريب.

حرك السيد بورتر يده بحركة دائرية سريعة مشيراً لها أن تواصل كلامها. من الذي يكلّمه في الهاتف؟

سألتها السيدة بورتر: «هل تجرين تقييمات منتظمة للأطفال؟».

«عفواً؟».

ابتسمت السيدة بورتر ولاحظت نيللي أن لون أحمر الشفاه الذي تستخدمه مطابق للون فستانها... «إنهم يفعلون هذا في مدرسة سميث. كل ربع سنة. الاستعداد الأكاديمي، ومجموعات صغيرة من أجل ما قبل مرحلة تعلّم القراءة، يجري تشكيلها استناداً إلى قدرات الأطفال، ومحاولات مبكرة لتعلم جدول الضرب...».

جدول الضرب؟ أحسّت نيللي بتوتر في ظهرها: «نعم، إنني أجري تقييماً للأطفال».

قال السيد بورتر في هاتفه: «هل هذا مزاح؟». أحست بأن نظرتها قد انشدت إليه من جديد.

قالت نيللي للسيدة بورتر: «ليس جدول الضرب... بل مهارات أكثر أساسية من قبيل العد والتعرف على الأحرف. لو نظرتِ إلى ما هو مكتوب على ظهر البطاقة، فسوف ترين أنني وضعت فئات...».

حلّت لحظة صمت بينما كانت السيدة بورتر تنظر إلى الملاحظات التي كتبتها نيللي.

قال السيد بورتر في الهاتف: «قولي لساندي أن تتابع الأمر. لا تخسروا هذا الحساب!». أغلق هاتفه وهز رأسه... «هل انتهينا هنا؟».

قالت السيدة بورتر لنيللي: «حسنًا، لا بد أنك مشغولة الآن».

ابتسمت نيللي، لكنها أبقت شفتيها مطبقتين. أرادت أن تقول: نعم. إنني مشغولة. يوم أمس، نظفت السجادة بعد أن دلق عليها أحد الأطفال الحليب بالشوكولاتة. وقد اشتريت بطانية ناعمة من أجل ركن الاستراحة حتى يستطيع طفلك المرهق أن يستريح قليلاً. وعملت هذا الأسبوع ثلاث نوبات ليلية في أحد المطاعم لأن ما أكسبه هنا لا يكفي لتغطية نفقات معيشتي... ولا أزال أدخل باب هذه الغرفة في الساعة الثامنة من صباح كل يوم بطاقة كافية لرعاية أطفالكم.

كانت عائدة في طريقها إلى مكتب ليندا حتى تأخذ النصف الثاني من قطعة الكرواسان عندما سمعت صوت السيد بورتر يقول: «لقد نسيت سترتي». دخل غرفة الصف وأخذ سترته التي كانت معلّقة على ظهر الكرسي الصغير.

سألته نيللي: «ما الذي جعلك تظن أنني من فلوريدا».

رفع كتفيه وقال: «لقد درست ابنة أخي هناك أيضاً... في جامعة غرانت. وأظنني سمعت أحداً يقول إنك درست هناك».

لم تكن هذه المعلومة موجودة في بياناتها المتوفّرة على موقع الحضانة على الإنترنت. وليس لديها أي شيء مما قد يحمل شارة تلك الجامعة: لا قميص رياضياً ولا سلسلة أو علاقة مفاتيح.

قالت نيللي لنفسها: «لا بد أن ليندا أعطت آل بورتر هذه المعلومات... يبدو أنهما من ذلك النوع من الأهل الذين يحبّون أن يعرفوا كل شيء».

إلا أنها نظرت إليه نظرة أكثر انتباهاً محاولةً تخيّل ملامحه على وجه امرأة شابة. لم تستطع تذكر أية زميلة لها من عائلة بورتر. لكن ذلك لا يعني أن تلك المرأة لم تجلس خلفها في الصف هناك أو أنها لم تحاول دخول أخوية الطالبات التي كانت عضواً فيها.

«حسناً، سوف يبدأ اجتماعي التالي بعد قليل، لذا...».

نظر في الممر الخالي، ثم نظر إليها من جديد: «بالتأكيد. أراكِ في يوم التخرج». سار في الممر وهو يصفّر بلحن ما. ظلت نيللي تنظر إليه حتى اختفى خارجاً من الباب.

* * *

نادراً ما كان ريتشارد يتحدّث عن زوجته السابقة. وهكذا لم تكن نيللي تعرف عنها إلا أشياء قليلة: لا تزال تعيش في نيويورك. حدث الفراق بينها وبين ريتشارد قبل فترة وجيزة من لقائه مع نيللي. إنها امرأة جميلة لها شعر داكن جذّاب... بحثت نيللي عن اسمها في غوغل فلم تجد لها غير صورة صغيرة مشوشة في واحدة من الحفلات الخيرية.

ثم إنها كانت امرأة تتأخر عن الموعد دائماً... وعادة هذا ما كان يزعج ريتشارد كثيراً.

مضت نيللي مسرعة، فاجتازت البناية الأخيرة في طريقها إلى المطعم الإيطالي وقد ندمت كثيراً لأنها شربت كأسين من نبيذ بينو مع معلمتَي المجموعتين الثالثة والرابعة احتفالاً بانتهاء الاجتماعات مع أهالي الأطفال. تبادلت المعلمات قصص تلك الحرب. أُعلنت مارنييه، التي كانت غرفة صفّها ملاصقة لغرفة نيللي فائزةً في ذلك اليوم لأن زوجاً من الأهالي أرسل المربية لحضور الاجتماع. ولم تكن لغتها الإنجليزية جيدة.

لم تكن نيللي منتبهة إلى مرور الوقت حتى تفقّدت هاتفها في طريقها إلى دورة المياه. وعندما خرجت اصطدمت بها امرأة على نحو مفاجئ. وكانت ردة فعل نيللي أن قالت: «آسفة!»، وتنحّت عن الطريق، لكن حقيبتها سقطت جانباً وتناثرت محتوياتها على الأرض. خطت المرأة من فوق أشياء نيللي المبعثرة من غير أن تقول كلمة واحدة، وسرعان ما دخلت دورة المياه («الأدب»... هذا ما كانت معلمة حضانة الأطفال

نيللي تريد قوله لتلك المرأة، لكنها جثت أرضاً لتلتقط محفظة النقود ومستلزمات التجميل).

وصلت إلى المطعم متأخرة إحدى عشرة دقيقة. وعندما فتحت الباب الزجاجي الثقيل، رفع موظف الاستقبال رأسه عن سجل الحجوزات المغلف بالجلد. قالت له لاهثة: «سأنضم إلى خطيبي هنا».

راحت عينا نيللي تفتشان في صالة المطعم إلى أن رأت ريتشارد ينهض من مقعده عند طاولة في الزاوية. رأت الغضون الدقيقة المحيطة بعينيه ورأت عند صدغيه الشعرات الفضية المتناثرة في شعره ذي اللون الداكن. نظر إليها من رأسها حتى قدميها، ثم غمز لها بعينيه غمزة مازحة. تساءلت في نفسها إن كانت ستتوقّف في يوم ما عن الشعور بتلك الرفرفة في معدتها كلما رأته.

قالت عندما اقتربت منه: «آسفة لأنني تأخرت»، فقبّلها وأرجع لها كرسيها حتى تجلس. تنفست رائحته الليمونية اللطيفة.

«هل كل شيء على ما يرام؟».

من الممكن أن يطرح أي شخص هذا السؤال... من باب الشكليات. لكن نظرة ريتشارد ظلّت مثبتة عليها فأدركت نيللي أنه مهتم حقاً بسماع إجابتها عن سؤاله.

تنهّدت نيللي وهي تجلس ثم قالت: «كان يوماً مجنوناً. الاجتماع مع أهالي الأطفال. ذكّرني بأن أشكر المعلمين عندما يأتي يوم نكون فيه جالسين إلى الجهة الأخرى من الطاولة قبالة معلمة ريتشارد الصغير».

أصلحت من وضع تنورتها على ساقيها بينما كان ريتشارد يتناول زجاجة نبيذ فيرتشيو الموضوعة في دلو صغير فيه قطع من الثلج. وعلى الطاولة، كانت شمعة جميلة مشتعلة تلقي دائرة من ضوء ذهبي على مفرش الطاولة ذي اللون العسلي.

«لا أريد إلا نصف كأس فقط. لقد تناولت شراباً سريعاً مع بقية المعلمين. كانت تلك دعوة من ليندا... قالت لنا إنها تعويض عن تلك المعركة التي خضناها». عبس ريتشارد قليلاً وقال لها: «ليتني كنت أعرف. لو عرفت، لما طلبت هذه الزجاجة». أشار إلى النادل، حركة خفية بإصبعه، وطلب لها ماء معدنياً: «يصيبك الصداع أحياناً عندما تشربين في النهار».

ابتسمتْ. كان ذلك من أول الأشياء التي أخبرته إياها.

كانت جالسة إلى جانب جندي في الطائرة الآتية من جنوب فلوريدا بعد زيارة لأمها هناك. لقد انتقلت للعيش في مانهاتن ليكون ذلك بداية جديدة لها بعد تخرجها من الكلية. لو أن أمها لا تزال تعيش في بلدتها لما عادت إلى فلوريدا أبداً.

أتت المضيفة قبل إقلاع الطائرة بقليل وقالت للجندي الشاب: «هنالك سيد في الدرجة الأولى يود أن يقدم لك مقعده».

نهض الجندي وقال: «هذا رائع!».

وعند ذلك، أتى ريتشارد سائراً في الممر. كانت ربطة عنقه محلولة قليلاً كما لو أنه أمضى نهاراً طويلاً شاقاً. كان في يده كأس من شراب وفي يده الأخرى حقيبة جلد صغيرة. التقت عيناهما فابتسم لها ابتسامة دافئة.

قالت له: «تلك بادرة لطيفة منك».

أجابها ريتشارد وهو يجلس إلى جانبها: «ليست شيئاً يستحقّ الذكر».

بدأت إذاعة تعليمات السلامة. وبعد لحظات قليلة. بدأت الطائرة تعلو في الجو.

أمسكت نيللي بمسندَي المقعد عندما اهتزت الطائرة وهي تجتاز جيوباً هوائية.

فاجأها صوت ريتشارد العميق القريب من أذنها. قال لها: «هذا ليس أكثر خطورة مما يحدث عندما تمر سيارتك فوق حفرة في الطريق. لا خوف على الإطلاق».

«أعرف هذا، من الناحية المنطقية».

«لكن معرفته لا تفيدك شيئاً. لعل هذا يمكن أن يفيدك».

ناولها كأس الشراب فلاحظت عدم وجود خاتم زواج في يده. تردّدت قليلاً: «يصيبني الصداع أحياناً عندما أشرب في النهار».

اهتزت الطائرة من جديد فتناولت نيللي جرعة كبيرة من الكأس.

«اشربيها كلها! سأطلب واحدة أخرى... أو، لعلك تفضّلين كأساً من النبيذ؟». رفع حاجبه متسائلاً فلاحظت الندبة الفضية الصغيرة على شكل هلال عند صدغه الأيمن.

أومأت برأسها وقالت: «شكراً لك». لم يحدث أبداً من قبل أن حاول شخص جالس إلى جانبها أن يخفف من أثر مخاوفها تجاه الطيران؛ بل عادة ما يشيح الناس بوجوههم أو يقلّبون صفحات مجلة بينما تكافح وحيدة لكي تتغلّب على ذعرها.

قال لها: «هل تعرفين أن لدي شيئاً يشبه هذا؟ عندما أرى الدم، يصيبني ما يصيبك الآن؟».

«هل هذا صحيح؟». اهتزّت الطائرة اهتزازاً خفيفاً ومالت في اتجاه اليسار. أغمضت نيللي عينيها وابتلعت ريقها بصعوبة.

«سوف أخبركِ بهذا. لكن عليك أن تعديني بألا تنظري إليَّ نظرة ازدراء».

أومأت برأسها من جديد غير راغبة في أن يتوقّف صوته الذي يهدّئ أعصابها.

«منذ بضع سنين، أغمي على أحد زملائي في العمل فاصطدم رأسه بحافة طاولة الاجتماعات... كنا في اجتماع لنا... وأظنه كان مصاباً بانخفاض ضغط الدم. إما أن يكون ذلك هو السبب، أو أن الاجتماع كان مملاً فجعله يقع في غيبوبة».

فتحت نيللي عينيها وضحكت ضحكة صغيرة. لا يمكنها تذكّر آخر مرة ضحكت أثناء وجودها في طائرة.

«قلت للجميع أن يتراجعوا، ثم جذبت أحد الكراسي ورفعت ذلك الشخص فأجلسته عليه. كنت أصيح قائلاً إن على أحدهم بأن يأتي بشيء من الماء عندما رأيت دمه. وعلى نحو مفاجئ تماماً، بدأت أشعر بخفة في رأسي كأنني موشك على الإغماء أيضاً. الحقيقة أنني دفعت الشخص المصاب عن الكرسي حتى أجلس عليه. وفجأة، تجاهله الجميع وراحوا يحاولون مساعدتي».

اعتدل وضع الطائرة. ثم أتت مضيفة فسارت في الممر توزّع على المسافرين سماعات رأسية. افلتت نيللي مسند المقعد ونظرت إلى ريتشارد.

قال لها: «لقد نجوتِ. صرنا الآن بين الغيوم. أتوقع أن تكون السفرة يسيرة بعد الآن».

«شكراً لك. أشكرك على الشراب وعلى الحكاية... أنت لا تزال رجلاً في نظري، رغم إغمائك». وبعد ساعتين، كان ريتشارد قد أخبر نيللي عن عمله في إدارة صندوق استثماري وباح لها بأن لديه ضعفاً تجاه المعلمات منذ أن ساعدته واحدة منهن في أن يتعلّم كيف يلفظ حرف الراء: «بفضلها، لم أُعرّفك على نفسي باسم ويتشارد». وعندما سألته إن كانت له أسرة في نيويورك هز رأسه بالنفي وقال: «ليست لي إلا أخت أكبر مني تعيش في بوسطن. توفي أبي وأمي عندما كان عمري

أربع سنوات». شبك يديه في حجره وأطرق برأسه ناظراً إليهما... «توفيا في حادث سيارة».

قالت له: «توفّي أبي أيضاً...». عاد ينظر إليها... «لا تزال لدي هذه السترة القديمة التي أهداني إياها... ولا أزال أستخدمها أحياناً».

ظلا صامتين برهة، ثم أمرت المضيفة المسافرين بإغلاق الطاولات وإعادة المقاعد إلى وضعها الرأسي.

«هل لديك مشكلة في الهبوط؟».

قالت نيللي: «لعل لديك قصة تحكيها حتى تساعدني في تجاوزه».

«هممم. لا تخطر في ذهني قصة جاهزة الآن. لماذا لا تعطيني رقم هاتفك حتى أتصل بك عندما أتذكّر قصة».

أخرج قلماً من جيب سترته وناولها إياه، فمالت برأسها حتى تكتب رقم هاتفها على منديل ورقي. تساقط شعرها الأشقر الطويل مندفعاً إلى الأمام بعد أن كان مستقرّاً على كتفيها. مد ريتشارد يده فمر على خصلة الشعر بأصابعه قبل أن يزيحها إلى ما خلف أذنها. «شعر جميل جدّاً. لا تقصّيه أبداً».

الفصل الرابع

ها أنا جالسة على أرض غرفة قياس الملابس في محل ساكس. رائحة العطر الباقية فيها تذكرني بحفل زفاف. سوف تكون بديلتي عروساً جميلة. أتخيلها ترفع رأسها ناظرة إلى ريتشارد وتعده بأن تحبه وتحترمه، مثلما فعلت أنا.

أكاد أستطيع سماع صوتها.

أعرف كيف هو صوتها. أتصل بها أحياناً، لكنني أستخدم «الحارق»[1]، وأستخدم رقماً محجوباً أيضاً.

«مرحباً...» هكذا تبدأ رسالتها الصوتية على الهاتف. نبرة صوتها متألقة، خالية البال... «آسفة لأنني لا أستطيع الرد على الاتصال!».

هل هي آسفة حقّاً؟ أم إنها تحسّ نفسها منتصرة؟ صارت علاقتها بريتشارد علنية الآن رغم أنها بدأت عندما كنا متزوّجَيْن. كانت لدينا مشكلات. ألا تكون لدى الأزواج جميعاً مشكلات بعد أن يخبو وهج

---

(1) Burner: تطبيق للهواتف الخليوية يسمح للمستخدم بإنشاء رقم وهمي مؤقت يستخدم لمرة واحدة فقط. يعمل هذا التطبيق في كندا والولايات المتحدة الأميركية.

شهر العسل؟ مع ذلك، لم أكن أتوقع منه أبداً أن يطلب مني ترك البيت بهذه السرعة. لم أتوقّع منه أن يزيل آثار علاقتنا.

هذا كما لو أنه راغب بالتظاهر بأننا لم نكن متزوّجَيْن أبداً... كما لو أنني غير موجودة!

هل يحدث أن تفكرَ بي فتشعر بالذنب لما فعلَته؟

تؤرقني هذه الأسئلة كل ليلة. وأحياناً، بعد أن أستلقي ساعات غير قادرة على النوم وتتناثر الملاءات على الفراش من حولي، أغمض عينَيَّ، أغمضهما بشدة حتى أستطيع أن أنام، لكن وجهها يقفز إلى ذهني. أجلس منتصبة عند ذلك وأبحث عن الأقراص المنوّمة في الدرج إلى جانب سريري. أمضغ القرص بدل ابتلاعه حتى يبدأ مفعوله بسرعة.

لا تقدم لي تحيتها عبر الرسالة الصوتية المسجّلة أي دليل يتعلّق بحقيقة مشاعرها.

لكني راقبتها ذات ليلة عندما كانت مع ريتشارد فبدت لي متألقة.

كنت أسير في اتجاه مطعمنا المفضل في الحي الشرقي من المدينة. هنالك واحد من كتب المساعدة الذاتية يقدم نصيحة مفادها أنه عليَّ أن أزور الأماكن المؤلمة من الماضي حتى أتخلّص من سلطتها وتأثيرها عليَّ: أن أستعيد المدينة حتى تصير لي من جديد! وهكذا سلكت طريق المقهى الذي كنت أجلس فيه مع ريتشارد، فنرتشف القهوة بالحليب، ونتحدّث عمَّ ورد في نسخة الأحد في صحيفة نيويورك تايمز. تجوّلت أيضاً بالقرب من مكتب ريتشارد حيث اعتادت شركته أن تقيم حفلة عطلتها السنوية في كانون الثاني من كل عام. مررت أيضاً بالماغنوليا والليلك في سنترال بارك. كنت أشعر بأن حالتي تزداد سوءاً مع كل خطوة أخطوها. لقد كانت فكرة فظيعة بالغة السوء... لا عجب في أن ذلك الكتاب ظل زمناً طويلاً في قسم التخفيضات ينتظر من يشتريه.

لكني تابعت المحاولة، وكنت أعتزم أن أختتم جولتي بكأس شراب في المطعم الذي احتفلت فيه مع ريتشارد بذكرى زواجنا عدة مرات خلال السنوات الماضية. وعندها رأيته من جديد. لعله كان يحاول استعادة ذلك المكان أيضاً!

لو أن سيري كان أسرع قليلاً لبلغنا باب المطعم في اللحظة نفسها تقريباً. لكني توقّفت قليلاً أمام واجهة أحد المحلات عند زاوية الشارع واسترقت النظر. لمحة سريعة من ساقين لوّحتهما الشمس، ومن انحناءات جسد مغرية، وابتسامة سريعة في اتجاه ريتشارد عندما فتح الباب أمامها.

من الطبيعي أن يكون زوجي راغباً فيها. لا يمكن أن يكون أي رجل غير راغب في امرأة مثلها! لقد كانت شهية مثل إجاصة ناضجة.

تسللت مقتربة ونظرت عبر واجهة المطعم الواسعة فرأيت ريتشارد يطلب شراباً لصديقته ـ بدا لي أنها أرادت تذوق الشامبانيا. راحت ترتشف السائل الذهبي من كأس ضيقة طويلة.

لم يكن من الوارد أن أسمح لريتشارد برؤيتي لأنه لن يصدّق أن ذلك كان مصادفة. لقد تبعته من قبل، بالطبع! أو، بالأحرى، تبعتهما معاً.

لكنّ قدميَّ كانتا ترفضان الحركة. كانت تعُبُّها بشراهة عندما وضعت ساقاً فوق ساق فكشف شق تنورتها عن فخذها. كان جالساً على مقربة شديدة منها؛ وكان منحنياً قليلاً لأنه وضع ذراعه على ظهر كرسيها. لقد ازداد شعره طولاً فصار يلامس ياقة سترته من الخلف. هذا مناسب له. وكان على وجهه تعبير السبع المنتصر الذي كنت أراه في وجهه دائماً عندما ينجح في عقد صفقة كبيرة، صفقة يعمل عليها منذ شهور.

ألقت برأسها إلى الخلف وضحكت لشيء قاله.

انغرست أظافري في راحتي يدي. لم أقع في حب أحد قبل ريتشارد. أدركت في تلك اللحظة أنني لم أكره أحداً من قبل، أيضاً.

* * *

«فانيسا؟».

ينتشلني من تلك الذكريات صوت يأتي من خلف باب غرفة قياس الملابس. إنها لكنة لوسيل، مديرتي البريطانية، امرأة لم يكن الصبر من خصالها المعروفة.

أمسح ما تحت عيني بأصابعي لإدراكي أن الماسكارا قد سالت وتجمعت هناك. أجبتها بصوت فيه بحة نتيجة البكاء: «إنني أرتّب المكان هنا».

«هنالك زبونة في حاجة إلى مساعدة في قسم ستيلا ماكارتني[1]. رتبي الغرفة في وقت لاحق».

إنها واقفة هناك تنتظر خروجي. ولا وقت عندي لكي أصلح مظهر وجهي وأزيل علامات الحزن منه؛ ثم إن حقيبة يدي في غرفة الموظفين.

أفتح الباب فأراها تتراجع خطوة إلى الخلف. يرتفع قوس حاجبها الأنيق قليلاً وتسألني: «هل أنت مريضة؟».

أغتنم الفرصة فأجيبها: «لست واثقة من ذلك. إنني فقط... أحس بشيء من الغثيان...».

«هل أنت قادرة على إكمال العمل اليوم؟».

لا تحمل نبرة صوت لوسيل أي تعاطف. فأتساءل في نفسي إن كانت هذه غلطتي الأخيرة هنا. لكنها تجيبني قبل أن أستطيع إجابة نفسي على هذا السؤال: «لا، فقد تكون حالتك معدية. يجب أن تذهبي».

---

(1) ستيلا ماكارتني: مصممة أزياء إنجليزية شهيرة.

أومئ برأسي، ثم أشرع بالحركة في اتجاه غرفة الموظفين حتى آخذ حقيبة يدي. لا أريد الانتظار إلى أن تغيّر رأيها.

آخذ المصعد إلى الطابق الرئيسي وأنظر إلى أجزاء من انعكاس صورتي تتوالى على المرايا التي يمر المصعد بها.

يهمس لي عقلي: ريتشارد أعلن خطبته!

أسرع خارجة من باب الموظفين ولا أكاد أطيق انتظار الحارس حتى يفتش حقيبة يدي. ثم أستند إلى جدار المتجر حتى أخلع حذائي وأنتعل الحذاء الرياضي. أفكر في إيقاف سيارة تاكسي، لكن ما قالته هيلاري صحيح! لقد أخذ ريتشارد بيتنا في ويستشتر والشقة في مانهاتن التي احتفظ بها من أيام عزوبيته وصار يقضي فيها الليل عندما يضطره العمل إلى اجتماعات تمتد حتى ساعات متأخرة. إنها الشقة التي أسْكَنَها فيها. لقد أخذ السيارات والأسهم والمدّخرات. بل إنني لم أحاول القتال أو الاعتراض! لقد دخلت هذا الزواج صفر اليدين. ولم أعمل. ولم أنجب له طفلاً. وقد كنت أخدعه.

لم أكن زوجة صالحة!

وعلى الرغم من هذا، أجد نفسي الآن أتساءل عن السبب الذي جعلني أقبل المبلغ الذي عرضه علّي ريتشارد. سوف تجهز عروسه الجديدة المائدة بأطباق الخزف الصيني التي اخترتها. وسوف تندسّ به على أريكة الجلد التي انتقيتها. سوف تجلس إلى جانبه وتضع يدها على ساقه وتضحك ضحكتها العميقة عندما ينطلق بسيارة المرسيدس على السرعة الرابعة.

يمر بي باص فينفث دخانه الحار من حولي. أحس بأن تلك الغمامة الرمادية تبتلعني. أندفع مبتعدة عن المبنى فأسير في الجادة الخامسة. امرأتان تحملان حقائب تسوّق ضخمة تكادان تدفعانني عن الرصيف.

يمر بي رجل أعمال مسرع وقد وضع هاتفه على أذنه واكتسى وجهه تعبير انتباه شديد. أعبر الشارع فيكاد راكب دراجة يصطدمني... يمر بعيداً عني ببضعة سنتيمترات فقط. يصيح بشيء ما فتظل صيحته معلّقة من خلفي.

المدينة تضيق من حولي. إنني في حاجة إلى متسع. أجتاز الشارع الثامن والخمسين، ثم أدخل سنترال بارك.

فتاة صغيرة شعرها مربوط خلف رأسها تنظر إلى بالون على شكل حيوان مربوط بخيط إلى معصمها. تتابعها عيناي. كان من الممكن أن تكون ابنتي. لو كنت قادرة على الحمل، فربما كنت الآن لا أزال مع ريتشارد؛ بل ربما صار غير راغب في هجري. كان ممكناً أن نأتي إلى هذا المكان لكي نلتقي «بابا» من أجل تناول طعام الغداء معاً.

أشهق. أفك ذراعيَّ المعقودتين على بطني وأنصب قامتي. أجعل نظري مثبتاً أمامي وأسير قُدُماً. ينصَبّ تركيزي على الإيقاع الثابت لضربات حذائي على الرصيف وأحصي الخطوات وأضع لنفسي أهدافاً صغيرة. مئة خطوة... والآن، مئة خطوة أخرى.

أخيراً أخرج من المنتزه إلى الشارع رقم ستة وثمانين، ثم منتزه سنترال بارك الغربي، ثم أنعطف في اتجاه شقة خالتي شارلوت. كم أنا توّاقة إلى النوم، إلى النسيان. لم يبق لديَّ إلا ستة أقراص. عندما طلبت من الطبيبة كمية إضافية، تردّدت وقالت لي: «لا أريدك أن تصيري معتمدة على هذا الدواء. حاولي أن تقومي ببعض التمرينات الرياضية كل يوم، وأن تتجنّبي الكافيين أيضاً. وقد يفيدك حمام قبل النوم أيضاً. فلنر إن كان هذا كافياً لإعطاء النتيجة المرجوة».

لكن هذه ليست إلا علاجات من أجل الأرق العادي. إنها لا تفيدني!

أكاد أبلغ الشقة عندما أنتبه إلى أنني نسيت شراء النبيذ لخالتي

شارلوت. أعرف أنني لن أكون راغبة في الخروج بعد أن أدخل الشقة؛ وهكذا أستدير وأعود أدراجي مسافة بناية واحدة حتى أصل إلى متجر يبيع المشروبات. أربع زجاجات نبيذ أحمر واثنتان من النبيذ الأبيض... هذا ما طلبته خالتي شارلوت. آخذ سلة تسوق وأضع فيها زجاجات الميرلو والشاردونيه.

تمر كفّايَ على الزجاجات الصقيلة الثقيلة. لم أذق النبيذ منذ أن طلب مني ريتشارد مغادرة البيت، لكني لا أزال أحنّ إلى هذه الثمرة المخملية التي توقظ الإحساس في لساني. أتردّد، ثم أضيف إلى سلتي زجاجة سابعة، فزجاجة ثامنة. أشعر بمقبض السلة يحفر في ذراعي وأنا سائرة باتجاه صندوق المحاسبة.

يحصي الموظف الشاب خلف الصندوق تلك الزجاجات من غير أي تعليق. لعله اعتاد رؤية نساء مشعثات الشعر في ملابس فاخرة آتيات إليه في منتصف النهار لكي يتزوّدن بمؤونتهن من النبيذ. كنت أطلب النبيذ إلى البيت الذي كنت أسكنه مع ريتشارد، على الأقل إلى أن طلب مني التوقف عن الشرب. ثم صرت أقود السيارة إلى متجر مشروبات على مسافة نصف ساعة حتى لا أصادف أحداً أعرفه. وفي اليوم المخصّص لجمع المواد القابلة لإعادة التدوير، كنت أخرج في الصباح الباكر فأضع الزجاجات الفارغة في حاويات القمامة لدى الجيران.

يسألني الموظف: «أهذا كل شيء؟».

أجيبه: «نعم»، ثم أقدم إليه بطاقتي المصرفية عارفة بأنني لو اشتريت نبيذاً غالياً بأكثر من خمسة عشر دولاراً للزجاجة فإن مجموع ثمنها سيأتي على حساب بطاقتي كله.

يضع الزجاجات، أربعاً في كل كيس. ثم أدفع باب المحل بكتفي

وأخرج متجهة إلى شقة خالتي شارلوت، وأحس بذلك الثقل المطمئن المعلّق من ذراعي. أصل بنايتنا وأنتظر ريثما تنفتح أبواب المصعد المصابة بالتهاب المفاصل. أحس بأن رحلة المصعد إلى الطابق الثاني عشر تطول بقدر الأبدية نفسها. ذهني مستغرق تماماً في التفكير في الجرعة الأولى تنزلق عبر حلقي وتدفئ معدتي... تخفّف حدّة هذا الألم.

من حسن حظي أن خالتي ليست في البيت. أنظر إلى التقويم المعلّق إلى جانب البراد فأرى مكتوباً عليه: د ـ الثالثة بعد الظهر. لعله صديق تقابله لتناول الشاي معاً: توفّي زوجها الصحافي بو عندما أصابته نوبة قلبية مفاجئة منذ بضع سنين. لقد كان حب حياتها. وبقدر معرفتي، فإنها لم تواعد أحداً بشكل جدي منذ ذلك الوقت. أضع الأكياس على طاولة المطبخ، ثم أفتح زجاجة نبيذ ميرلو. أتناول كأس نبيذ عن الرف، ثم أعيد الكأس وأستبدل بها فنجاناً كبيراً من القهوة. أملأ الفنجان حتى منتصفه، ثم أرفعه إلى شفتيَّ غير قادرة على الانتظار أكثر مما انتظرت، فتداعب نكهة الكرز الغنية فمي. أغمض عيني وأبتلع النبيذ فأحسّه ينساب عبر بلعومي. يبدأ بعض التوتر في جسدي بالارتخاء بطيئاً. لست أعرف كم ستظل خالتي شارلوت خارج البيت؛ وهكذا أصبّ المزيد في فنجاني وآخذه مع الزجاجة إلى غرفتي. أخلع فستاني وأتركه متجمعاً على الأرض وأخطو فوقه. ثم أنحني وألتقطه وأعلقه في الخزانة. أرتدي قميصاً رمادياً خفيفاً قصير الكمين وبنطلوناً بيتياً ناعماً، ثم أندسّ في سريري. لقد وضعت خالتي شارلوت جهاز تلفزيون صغيراً في الغرفة عندما انتقلت للعيش معها، لكني لا أستخدمه إلا نادراً. إلا أنني الآن في حاجة إلى صحبة ما حتى لو كانت صحبة إلكترونية. أمد يدي إلى جهاز التحكم عن بعد. وأبدأ تقليب القنوات حتى أستقر على أحد البرامج الحوارية. أضم يديّعلى فنجاني وآخذ جرعة كبيرة أخرى.

أحاول الاندماج في الدراما التي تجري على الشاشة، لكن موضوع الحوار اليوم هو الخيانة الزوجية.

«من الممكن أن تجعل الزواج أكثر قوة»... هكذا كانت تقول امرأة في أواسط العمر ممسكة بيد رجل جالس إلى جانبها. يتململ في جلسته وينظر إلى الأرض.

أقول في نفسي: يمكنها أن تدمره أيضاً.

أنظر إلى الرجل، وأتساءل: من كانت؟ وكيف التقيتَها؟ هل كان ذلك في رحلة عمل، أو لعلكما كنتما واقفين في صف الانتظار في محل لبيع السندويتشات؟ وما الذي جذبك إليها؟ ما الذي أغراك باجتياز ذلك الخط المهلك؟

أكتشف أنني أشد على فنجاني بقوة جعلت يديَّ تؤلمانني. وأود أن أقذف الشاشة بذلك الفنجان، لكنني أملأه مرة أخرى بدلاً من ذلك.

يصالب الرجل ساقيه عند الكاحلين، ثم يفردهما. يتنحنح ويحكّ رأسه. يسعدني أنه يشعر بالانزعاج. إنه سمين له مظهر الأوغاد. لست أفضّل هذا النوع من الناس، لكنني قادرة على رؤية السبب الذي يجعله جذاباً في نظر نساء غيري.

تقول امرأة عرّفتها الكتابة الظاهرة تحت صورتها بأنها معالجة متخصّصة في مشكلات العلاقات الزوجية: «إن إعادة اكتساب الثقة عملية طويلة، لكنها شيء ممكن بالتأكيد إذا التزم بها الطرفان».

أسمع الزوجة التي لها مظهر العاهرات تثرثر بأشياء عن أنهما توصلا إلى إعادة بناء الثقة بشكل تام. قالت إن زواجهما له الأولوية الآن، وإن كلاً منهما قد فقد الآخر لكنه وجده من جديد. أحس كأنها تقرأ بطاقات

هولمارك[1]. وعندها تنظر المعالجة إلى الزوج وتقول: «هل أنت موافق على أن الثقة قد أعيد بناؤها».

يرفع كتفيه. أقول لنفسي إنه أحمق غبي، وإلا فكيف أمسكت به زوجته؟ يقول الرجل: «إنني أعمل على ذلك. لكن الأمر صعب. لا أزال أتخيّلها مع ذلك الـ...»، صفير قصير يحجب كلمته الأخيرة.

هذا يعني أنني فهمت الأمر على نحو خاطئ. ظننته هو الذي خانها. كانت الدلائل واضحة أمامي، لكنني أخطأت قراءتها. هذه ليست بالمرة الأولى.

يصطدم الفنجان بأسناني الأمامية عندما آخذ جرعة ميرلو جديدة. أنزلق في فراشي أكثر من قبل متمنية لو أنني لم أشغل التلفزيون.

ما الفاصل بين نزوة عابرة وبين عرض الزواج؟ كنت أظن أن ريتشارد يمرح قليلاً، لا أكثر. وتوقّعت أن تتوهّج علاقتهما توهجاً سريعاً ثم تنطفئ من تلقاء نفسها. تظاهرت بأنني لم أعرف شيئاً وبأنني أنظر في الاتجاه الآخر. ثم... من الذي يمكنه أن يلوم ريتشارد؟ لم أبق تلك المرأة التي تزوّجها قبل قرابة عشر سنين. ازداد وزني، وصرت لا أخرج من البيت إلا نادراً، وبدأت أبحث عن معاني خفية في أفعال ريتشارد وأتمسّك بالإشارات التي ظننتها تعني أنه بدأ يملّني.

أما هي فإنها كل ما يرغب فيه ريتشارد... كل ما كنته في الماضي.

مباشرة بعد إبلاغي بوجوب ترك البيت، وهو ما كان مشهداً شبه جراحي وضع نهاية رسمية لزواجنا الذي استمر سبع سنوات، عرض ريتشارد بيتنا في وستشستر للبيع وانتقل للعيش في شقته في المدينة. لكنه يحبّ حيّنا الهادئ، ويحب الخصوصية التي يوفّرها لساكنيه. أظنه

---

(1) هولمارك: أكبر شركة في الولايات المتحدة الأميركية لإنتاج وبيع مختلف أنواع البطاقات.

سيشتري لعروسه الجديدة بيتاً آخر في الضواحي. لا أعرف إن كانت تعتزم ترك عملها وتكريس نفسها لريتشارد وحده ولمحاولة أن تنجب له طفلاً... تماماً مثلما فعلت في ما مضى.

لا أستطيع تصديق أنه لا تزال لديّ دموع، لكن المزيد منها ينساب على وجنتي عندما أملأ فنجاني من جديد.

صارت الزجاجة الآن شبه فارغة. وقد سقطت بضع قطرات على ملاءات السرير البيض. أراها الآن كأنها بقع من دم.

يكتنفني تشوّش مألوف مثل عناق صديق قديم. وأعيش من جديد إحساس التلاشي في الفراش. لعل هذا ما كانت تحسه أمي في أيام نوبات مرضها. أتمنى لو أنني فهمت الأمور بشكل أفضل في ذلك الوقت: أحسست بأنني متروكة، لكنني أعرف الآن أن بعض الألم يكون أشد بكثير من أن يكافحه المرء. لا يمكنك إلا أن تبحث لنفسك عن غطاء يقيك وتأمل أن تمر العاصفة الرملية بسلام. لكنني لم أعد قادرة على إخبارها الآن. أمي وأبي متوفيان!

«فانيسا؟».

سمعت نقرة صغيرة على باب غرفتي، ثم دخلت خالتي شارلوت. ومن خلف نظارتها السميكة، كانت عيناها البنيتان تبدوان أكبر من حجمهما الطبيعي... «ظننت أنني سمعت صوت التلفزيون».

«كنت في العمل وأحسست بأنني مريضة. أظن بأن من الأفضل ألا تقتربي مني كثيراً». الزجاجتان موضوعتان على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريري. آمل أن المصباح يحجبهما عنها.

«هل تريدين أن أحضر لك شيئاً؟».

«بعض الماء سيكون شيئاً عظيماً»، أقول هذا بصوت متلعثم قليلاً. يجب أن تخرج من غرفتي سريعاً.

تذهب خالتي تاركة الباب مفتوحاً قليلاً. وبينما هي سائرة في اتجاه المطبخ، أخرج من فراشي وأحمل الزجاجتين ثم أجفل عندما تصطدم إحداهما بالأخرى. أمضي مسرعة إلى الخزانة فأضع الزجاجتين على أرضها. تكاد إحداهما تنقلب فأوقفها من جديد.

عندما تدخل خالتي شارلوت إلى غرفتي من جديد أكون قد عدت إلى وضعي السابق من جديد. لقد أتت بصينية بين يديها.

«أحضرت لك بعض البسكويت المالح، وأحضرت أيضاً شاي الأعشاب». يجعلني لطف صوتها أشعر بغصّة في صدري. تضع الصينية على فراشي ثم تستدير لكي تخرج من الغرفة.

آمل أنها لم تشم رائحة الكحول في أنفاسي: «وضعت النبيذ الذي طلبتِه في المطبخ».

«شكراً يا حبيبتي. اتصلي إذا احتجت أي شيء».

أترك رأسي يسقط على الوسادة من جديد لحظة انغلاق الباب. أحس بدوارٍ يكتنفني. بقي لدي ستة أقراص... إذا جعلت واحداً من تلك الأقراص البيض ذات الطعم المر يذوب على لساني فلعلي أستطيع النوم حتى الصباح.

لكن الفكرة الأفضل تأتيني على نحو مفاجئ: فكرة تخترق الضباب الذي في عقلي اختراقاً: لم يحدث إلا أنهما أعلنا خطبتهما. لم يفت الأوان بعد!

أبحث حولي عن حقيبتي. ثم أخرج منها هاتفي. لا تزال أرقام ريتشارد موجودة فيه. يرن هاتفه الخليوي مرتين ثم أسمع صوته. تعطي نبرة صوته انطباعاً بأنه شخص أكبر حجماً وأكثر طولاً من زوجي السابق... شيء غريب كان يحيّرني دائماً. تقول رسالته المسجلة: «سأتصل بكم سريعاً». إن ريتشارد شخص يفي بوعوده دائماً... دائماً.

أندفع قائلة: «ريتشارد، هذه أنا. سمعت أخبار خطبتك. يجب أن أكلمك...».

يتبدّد الوضوح الذي كنت أحسه قبل قليل وينزلق بعيداً مثل سمكة تنزلق من بين أصابعي. أحاول جاهدة أن ألتقط الكلمات الصحيحة... «اتصل بي من فضلك... الأمر مهم حقّاً».

ينهار صوتي مع الكلمة الأخيرة فأضغط على مفتاح إنهاء المكالمة.

أضم الهاتف إلى صدري وأغمض عينيّ. لعلي كنت قادرة على تفادي هذا الندم الذي يجتاحني لو أنني بذلت جهداً أكبر من أجل رؤية علامات الإنذار المبكرة... من أجل إصلاح الأمور. لا يمكن أن يكون الوقت قد فات. لا أستطيع احتمال فكرة زواج ريتشارد من جديد.

لا بد أنني غفوت قليلاً لأنني استيقظت مجفلة بعد ساعة من ذلك عندما شعرت باهتزاز هاتفي. نظرت إلى شاشته فرأيت رسالة من ريتشارد: إنني آسف. لكن، لم يعد هنالك ما يمكن قوله. اهتمي بنفسك. ريتشارد.

في تلك اللحظة، استولى عليَّ إدراك جديد: إذا كان ريتشارد قد انتقل للعيش مع امرأة أخرى، فقد أكون قادرة على بناء حياتي الخاصة آخر الأمر. يمكنني البقاء مع خالتي شارلوت إلى أن أوفّر المال الكافي لاستئجار بيت. أو يمكنني أن أنتقل إلى مدينة أخرى، إلى مدينة ليست فيها بقايا من حياة سابقة. يمكنني أن أتبنّى حيواناً أليفاً. ربما، مع مرور الوقت، يتوقّف قلبي عن الارتعاش عندما أرى رجل أعمال داكن الشعر في بدلة جيّدة التفصيل يظهر عند زاوية الشارع وتلمع أشعة الشمس منعكسة على حذائه الجلدي... لعل قلبي يكف عن الارتعاش قبل أن يدرك أنه ليس ريتشارد.

لكن، طالما ظلّ معها... تلك المرأة التي تقدّمت مسرورة لتصير السيدة ريتشارد ثومبسون الجديدة بينما كنت أتظاهر بعدم الانتباه... طالما هو معها، فلن أحظى بالسلام أبداً.

الفصل الخامس

عندما تنظر مليّاً إلى حياتها، تحس نيللي كما لو أنها كانت منقسمة إلى عدة نساء مختلفات خلال عمرها الذي بلغ سبعةً وعشرين عاماً. الطفلة الوحيدة لأبويها التي تمضي ساعات في اللعب وحدها في مساحة صغيرة خلف البناية؛ والمراهقة التي تخبئ في فراشها المال الذي جنته من عملها جليسة أطفال آملة ألّا تكون هنالك وحوش تتربّص بها في الظلمة؛ والمديرة الاجتماعية لأخوية الفتيات «تشاي أوميغا» التي تنام أحياناً من غير أن تهتم بإقفال باب غرفتها. ثم هنالك أيضاً نيللي الموجودة اليوم التي تتوقّف عن متابعة أحد أفلام الرعب عندما تُحاصَرُ البطلة، والتي تحرص على ألّا تكون أبداً آخر نادلة تقفل باب المقهى وقد تجاوزت الساعة الواحدة صباحاً.

تعرف حضانة الأطفال نسخة أخرى من نيللي: المعلمة في بنطلون جينز التي تتذكر عن ظهر قلب كل كتاب عن الأفيال والخنازير الصغيرة كتبه مو ويليامز وتوزّع على الأطفال قطع بسكويت على شكل حيوانات، وحبات عنب مقسومة إلى أنصاف حتى لا يختنقوا بها... المعلمة التي تساعد الأطفال في صنع صور ديوك رومية يطبعونها بأيديهم من أجل عيد الشكر. وأما زملاؤها وزميلاتها من مقهى جيبسون فهم يعرفون

النادلة التي ترتدي تنورات قصيرة سوداء وتضع أحمر شفاه فاقعاً وتشارك طاولة من رجال الأعمال الفظّين في شرب أقداح سريعة حتى تكسب بقشيشاً أكبر... الفتاة التي تستطيع التهام طبق من البرغر الفاخر من غير أية صعوبة. صورتان مختلفتان لنيللي تنتمي واحدة منهما إلى النهار، وتنتمي الأخرى إلى الليل.

لقد شاهدها ريتشارد مبحرة في هذين العالمين، رغم أنه يفضل ـ بوضوح ـ شخصية معلمة الحضانة. لقد خطّطت لترك عملها في المقهى بعد زواجها مباشرة، ولترك عملها مع الأطفال عندما تحبل... هذا ما كانت تأمل، هي وريتشارد، أن يحدث سريعاً.

لكنه اقترح عليها أن تترك عملها في مقهى جيبسون بعد وقت قصير من خطبتهما.

نظرت إليه نيللي مندهشة: «هل تعني أن أترك العمل الآن؟».

كانت في حاجة إلى المال؛ لكن الأهم من ذلك أنها تحب الأشخاص الذين تعمل معهم. كانوا مجموعة نابضة بالحياة والنشاط... عالم صغير من أشخاص مبدعين متحمّسين وفدوا إلى نيويورك من أنحاء مختلفة من البلاد منجذبين إلى المدينة المتألقة مثلما تنجذب الفراشات إلى المصباح. كانت اثنتان من زميلاتها النادلات، جوزي ومارغو، ممثلتين تحاولان شق طريقهما إلى المسرح. وأما كبير النادلين، بن، فكان عاقداً العزم على أن يصير جيري سيمفيلد،(1) وكان يقدّم وصلات كوميدية خلال النوبات التي يكون العمل فيها بطيئاً بعض الشيء. كما كان عامل البار، كريس البالغ طوله ست أقدام وثلاثة إنشات، كريس شديد الشبه بالممثل جيسون ستيثام، فمن المرجح أنه وحده من يجتذب مرتادات

(1) جيروم (جيري) سيمفيلد: ممثل كوميدي أميركي شهير. وهو أيضاً كاتب ومخرج ومنتج.

المقهى من النساء. كان كريس يكتب مقاطع من روايته قبل مجيئه إلى العمل كل يوم.

شيء ما في انعدام الخوف لديهم، في طريقة كشف زملائها في المقهى عن قلوبهم وملاحقة أحلامهم على الرغم من الرفض الذي يواجهونه دائماً... هذا ما كان يخاطب شطراً من نيللي التي خبا عزمها خلال السنة الأخيرة من إقامتها في فلوريدا. كانوا يشبهون الأطفال من نواحٍ كثيرة... هذا ما أدركته نيللي... يشبهونهم لأنهم يمتلكون تفاؤلاً دائماً لا يعرف الخوف. إنه إحساسهم بالعالم واحتمالاته كلها منبسطاً مفتوحاً أمامهم.

قالت نيللي لريتشارد: «لا أعمل في المقهى إلا ثلاث ليالي في الأسبوع».

«يمكنك أن تكوني معي في هذه الليالي الثلاث».

رفعت حاجبيها وقالت: «أوه، هل يعني هذا أنك ستكف عن السفر بهذه الكثرة؟».

كانا مسترخيَين على الأريكة في شقته. طلبا السوشي لريتشارد ووجبة تيمبورا[1] من أجلها، وقد فرغا قبل قليل من مشاهدة فيلم «المواطن كين» لأنه الفيلم المفضل لدى ريتشارد... بل إنه مازحها ذات مرة أنه لا يستطيع الزواج منها إذا لم تشاهد هذا الفيلم. قال لها مناكفاً: «من السيئ بما فيه الكفاية أنك تكرهين السوشي». كانت ساقاها ممدّدتين فوق ساقيه، وكان يدلك قدمها اليسرى برفق.

«لستِ في حاجة إلى الاهتمام بالمال بعد الآن. كل ما أملكه لك».

«كف عن كونك رائعاً إلى هذا الحد».

(1) Tempora: طبق ياباني من الأسماك أو المحار مع الخضار المقلية بالزبدة.

انحنت نيللي في اتجاهه ومنحته قبلة سريعة. حاول أن يجعلها قبلة أكثر عمقاً، لكنها ابتعدت عنه مكملة جملتها... «رغم أنني أحب هذا».

«تحبين ماذا؟».

كانت يدا ريتشارد تسيران صاعدتين على امتداد ساقها. ورأت تعبير وجهه يصير أكثر تركيزاً وعينيه الزرقاوين الداكنتين تزدادان عمقاً مثلما يحدث دائماً عندما يريد ممارسة الجنس.

«أحب عملي».

«توقّفت يداه».

«حبيبتي... كل ما في الأمر هو أنني أفكر في أنك تظلّين واقفة على قدميكِ طيلة اليوم، ثم يكون عليك أن تتجوّلي هنا وهناك وتحضري كؤوس الشراب لأولئك الأغبياء طيلة الليل. ألا تفضلين مرافقتي في بعض رحلاتي؟ كان من الممكن أن تتناولي طعام العشاء معي ومع مورين الأسبوع الماضي عندما ذهبت إلى بوسطن».

كانت مورين أخته التي تزيده بسبع سنين. وكانت علاقته بها وثيقة على الدوام. فبعد وفاة أبويه عندما كان صغيراً، انتقل إلى العيش معها إلى أن أنهى دراسته. تعيش مورين الآن في كامبردج وتعمل في برنامج الدراسات النسائية[1] في الجامعة؛ وهما يتحدّثان هاتفياً مرات عدة في الأسبوع.

«إنها تموت شوقاً إلى معرفتك. وقد خاب أملها حقّاً عندما قلت لها إنك غير قادرة على المجيء معي».

أجابته نيللي بصوت منخفض: «أحب كثيراً أن أسافر معك، لكن ماذا عن أطفالي في المدرسة؟».

مكتبة أحمد

(1) برنامج دراسي جامعي مؤلف من موضوعات في علم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس ويتميز بالتركيز على أدوار النساء وتجاربهن وإنجازاتهن في المجتمع.

«لا بأس، لا بأس. لكن فكّري، على الأقل، أن تعطي دروس رسم في المساء بدلاً من عملك نادلة. لقد ذكرت لي منذ فترة أنك راغبة في ذلك».

تردّدت نيللي. لم يكن الأمر متعلقاً بما إذا كانت تريد أن تعطي دروس الرسم أم لا! كرّرت ما قالته قبل قليل: «لكني أحب عملي في مقهى جيبسون... حقّاً أحبه. ثم إنني لن أستمر فيه إلا زمناً قصيراً...».

ظلا برهة صامتَيْن. بدا على ريتشارد أنه موشك على قول شيء ما، لكنه مد يده إلى ساقها من جديد وخلع عنها الجورب الأبيض، ثم قذف به في الهواء قائلاً: «إنني أستسلم». وراح يدغدغ قدمها. حاولت التملص منه لكنه ثبّت يديها فوق رأسها وراح يدغدغ خصرها.

قالت بين شهقتين: «أرجوك، كف عن هذا».

قال مازحاً وهو يواصل دغدغتها: «ألا تريدين؟».

«جدّياً يا ريتشارد، كف عن هذا».

حاولت أن تفلت منه لكنه صار فوقها.

قال لها: «يبدو أنني عثرت على نقطة ضعفك».

أحست بأن رئتيها لم تعودا قادرتين على الحصول على كفايتهما من الأوكسيجين. كان جسمه القوي فوقها، وكان جهاز التحكم بالتلفزيون يحفر في ظهرها. تمكنت أخيراً من تحرير يديها فدفعته عنها بقوة أكبر بكثير من القوة التي دفعته بها عندما أراد إطالة القبلة.

وبعد أن التقطت أنفاسها قالت له: «أكره الدغدغة كثيراً».

كانت نبرة صوتها حادّة... أكثر حدة مما أرادته. نظر إليها وقال: «إنني آسف يا حبيبتي».

شدّت بلوزتها على صدرها ثم استدارت إليه. كانت تعرف أنها بالغت

في رد فعلها. كان ريتشارد يعابثها فحسب، لكن الذعر أصابها عندما أحست بنفسها محاصرة. يصيبها الإحساس نفسه عندما تجد نفسها في مصعد مزدحم أو عندما تسير في أنفاق المترو. عادة ما يكون ريتشارد حسّاساً تجاه هذه الأمور، لكن ليس من المفترض فيه أن يتمكّن دائماً من قراءة ما في ذهنها. لقد كانت ليلتهما لطيفة حقّاً. العشاء. والفيلم. وريتشارد... حاول أن يكون كريماً فطناً.

أرادت أن تعيد الأمور إلى نصابها: «لا، أنا التي يجب أن أقول آسفة. إنني صعبة المزاج في هذه الأيام... أشعر بأنني متوتّرة في الآونة الأخيرة. ثم إن هنالك الكثير من الضجيج في شارعي... يكون النوم مستحيلاً إذا فتحت النافذة. أنت محق. سيكون أمراً لطيفاً أن أحظى بقدر أكبر من الاسترخاء. سوف أتحدّث مع مديري هذا الأسبوع».

ابتسم لها ريتشارد وقال: «أتظنين أنهم يستطيعون العثور سريعاً على شخص آخر. يتولّى أحد عملائنا تمويل الكثير من المسارح الجيدة في برودواي. يمكنني أن أحصل لك ولسامانثا على تذاكر لمقاعد الضيوف في أية مسرحية تحبان مشاهدتها».

لم تشاهد نيللي إلا ثلاثة عروض منذ مجيئها إلى نيويورك لأن التذاكر باهظة الثمن. كانت تجلس في المقاعد الأخيرة كل مرة... مرة خلف رجل مصاب بزكام شديد، ومرتين خلف عمود يحجب خشبة المسرح عنها.

اقتربت منه أكثر من ذي قبل: «سيكون هذا رائعاً!».

سوف تقع بينهما مشاجرة جدية في يوم من الأيام، بالتأكيد... لكن نيللي كانت غير قادرة على تخيل إمكانية أن تغضب من ريتشارد غضباً حقيقيّاً. الأكثر احتمالاً أن يجعله إهمالها يغضب منها. إنها تلقي

ملابسها المتسخة على الكرسي في غرفة نومها أو تتركها على الأرض بعض الأحيان. أما ريتشارد فيعلّق بدلاته كل ليلة. ويمسّد نسيجها قبل أن يضعها في الخزانة. بل إن بلوزاته الخفيفة مرتبة في صفوف أشبه بصفوف الجنود ضمن قواطع بلاستيك شفافة وضعها في أدراج ملابسه. لقد اشتراها من متجر «كونتينر»، وفوق هذا فهو يصنّفها بحسب ألوانها: مجموعة للبلوزات السود والرمادية، وأخرى للملونة، والثالثة للبيضاء. إن عمله في حاجة إلى انتباه وتركيز شديدَيْن. عليه أن يكون منظّماً. صحيح أن ما من أحد يستطيع القول إن التعليم في حضانة الأطفال أمر مريح للأعصاب، إلا أن المشقّة أقلّ بكثير... هذا من غير الإشارة إلى أن ساعات العمل أكثر قصراً من وقت عمل ريتشارد، ولا يكون المرء مضطراً إلى الخروج إلا في حالات عارضة عندما يأخذون الأطفال في رحلة إلى حديقة الحيوانات.

يعتني ريتشارد عناية كبيرة بأشيائه... وبأشيائها أيضاً. وهو يظهر قلقه عليها كلما عادت ليلاً من مقهى جيبسون إلى شقتها فيتّصل بها أو يكتب لها رسالة نصية كل ليلة حتى يتأكد من أنها وصلت الشقة بسلام. وقد اشترى لها هاتفاً خليوياً من أحدث طراز. قال لها: «سوف أكون مرتاحاً أكثر إذا حملت هذا الهاتف معك أينما ذهبت». اقترح أيضاً أن يشتري لها «MACE»،[1] لكنها أجابته بأنها تحمل معها دائماً عبوة من رذاذ الفلفل الحار.

قال لها: «هذا جيد لأن هنالك الكثير من التافهين المزعجين».

قالت نيللي في نفسها: ألست أعرف هذا؟ وحاولت كبح ارتعاشة

---

(1) عبوة رذاذ دفاعية تحتوي على مادة لها مفعول الفلفل الحار أو على غاز مسيل للدموع (أو الاثنين معاً) تستخدمها النساء للدفاع عن أنفسهن. وقد تكون بأشكال مختلفة من بينها شكل مسدس صغير.

داهمتها... كانت شديدة الامتنان لتلك الرحلة بالطائرة، ولذلك الجندي الشاب؛ بل كانت ممتنة حتى لقلقها وخوفها من السفر جوّاً لأنه كان سبباً في الحديث بينهما.

أحاطها ريتشارد بذراعه: «هل أعجبك الفيلم؟».

«كان فيلماً حزيناً. كان لديه ذلك البيت الكبير، وذلك المال الكثير. لكنه ظلّ شديد الوحدة».

أومأ ريتشارد برأسه موافقاً: «بالضبط. هذا ما أفكّر به دائماً عندما أشاهد هذا الفيلم».

كان ريتشارد يحب مفاجأتها. هذا ما صارت تعرفه.

لقد خطط لشيء ما اليوم. عندما يتعلق الأمر بريتشارد يمكن أن يكون ذلك أي شيء، من زيارة المتحف إلى الذهاب إلى مضمار «غولف مصغّر». أخبرها أنه يعتزم مغادرة عمله أبكر من المعتاد حتى يأتي لأخذها. كان عليها أن ترتدي شيئاً صالحاً لمروحة واسعة من الاحتمالات. وهكذا استقر قرارها على فستانها الصيفي المخطط بالأبيض والأزرق وعلى صندل مسطّح مريح.

خلعت نيللي القميص ذي الأكمام القصيرة والبنطلون الفضفاض اللذين ارتدتهما من أجل المدرسة، ثم ألقت بهما في اتجاه سلة الغسيل واتجهت إلى خزانة الملابس. بدأت تفتش فيها باحثة عن الفستان المخطّط، لكنها لم تجده.

ذهبت إلى غرفة سامانثا، فوجدت الفستان على سريرها. لا تستطيع نيللي أن تشتكي من هذا لأن في خزانتها بلوزتين من بلوزات سام، أو أكثر. إنهما تتشاركان الكتب والملابس والطعام... كل شيء ما عدا الأحذية لأن مقاس قدمَيْ نيللي أكبر من مقاس قدمَي سامانثا. لا شراكة بينهما في مواد التجميل أيضاً. لأن سامانثا خلاسية لها شعر أسود وعينان

سوداوان. أما نيللي... في حقيقة الأمر، كان لدى جوناه سبب وجيه جعله يختار المارشميلو حتى يعبر عن لون جلدها!

وضعت لمسة من عطر شانيل خلف أذنيها... كان العطر هدية من ريتشارد في يوم الفالنتاين مع سوار الحب من كارتييه... ثم قررت أن تخرج وتنتظره على الرصيف لأن من المتوقّع أن يصل في أية لحظة.

خرجت من الشقة وسارت في الممر القصير، ثم فتحت باب البناية الرئيسي في اللحظة نفسها التي كان شخص آخر على وشك الدخول. قفزت نيللي إلى الخلف بحركة لا إرادية.

كانت تلك سامانثا. قالت لها: «أوه! لم أكن أعرف أنك في البيت! عدت حتى أبحث عن مفاتيحي». مدت سامانثا يدها وشدت على ذراع نيللي... «لم أقصد إخافتك».

عندما انتقلت نيللي للعيش في هذه الشقة، أمضت مع سامانثا عطلة نهاية أسبوع بأسرها في طلاء هذه الشقة القديمة البالية. وبينما كانتا تطليان خزائن المطبخ الخشب بلون حليبي مصفرّ وتعملان جنباً إلى جنب، شملت الأحاديث الجارية بينهما مواضيع كثيرة، كان من بينها مجموعة تسلّق الصخور التي تفكّر سامانثا في الانضمام إليها حتى تتعرّف على شباب أقوياء. تحدّثتا أيضاً عن ذلك الأب في حضانة الأطفال الذي يحاول دائماً مغازلة المعلمات، وعن أم سامانثا التي تعمل معالجة فيزيائية وتريد أن تذهب ابنتها إلى كلية الطب. ناقشتا أيضاً ما إذا كان على نيللي أن تقبل تلك الوظيفة في مقهى جيبسون أو أن تبحث عن نوبات عمل في عطلة نهاية الأسبوع في أحد محلات الملابس.

بعد ذلك، ومع هبوط الليل، فتحت سامانثا الزجاجة الأولى من زجاجتي نبيذ كانتا لديها فصارت أحاديثهما شخصية أكثر من ذي قبل. ظلتا تتحدّثان حتى الثالثة صباحاً.

تتذكر نيللي تلك الليلة دائماً باعتبارها الليلة التي صارتا فيها صديقتين حقّاً.

قالت لها سامانثا الآن: «تبدين جميلة. لكن، لعل في هذا شيء من المبالغة بما أنك ستكونين جليسة أطفال الليلة».

«سأخرج قبل ذلك، لكنّي سأكون في بيت آل كولمان في السادسة والنصف».

«حسناً. أشكرك من جديد لأنك تحلّين محلي... لا أستطيع تصديق أنني ارتبطت بموعدين في وقت واحد. لا أتورّط في هذه الأغلاط عادة».

«صحيح... يا لها من مفاجأة!». قالت نيللي هذا ضاحكة. لعل هذا ما أرادته سامانثا، أن تضحكها!

«لقد أقسم السيد والسيدة كولمان على أنهما سيعودان إلى البيت في الحادية عشرة. هذا يعني أن بحسب توقعي وصولهما في منتصف الليل. انتبهي من هانيبال الصغير عندما تقولين له إن وقت نومه قد حان. لقد حاول عض يدي في المرة الأخيرة عندما أخذت منه معجون اللعب».

كانت سامانثا تطلق أسماء مستعارة على أطفال صفّها جميعاً: هانيبال العضاض، وبودا الفيلسوف الصغير، ودارث فادر المتنفّس من فمه. لكنها كانت أفضل من يستطيع تهدئة طفل من الأطفال عندما تنتابه نوبة غضب. ثم إنها تمكّنت من إقناع ليندا بشراء كراسٍ هزازة لمساعدة المعلمات في تهدئة الأطفال الذين يعانون من قلق الابتعاد عن أهاليهم.

سمعتا صوت بوق سيارة. نظرت نيللي فرأت ريتشارد يصل بسيارته BMW المكشوفة. أوقف السيارة إلى جانب سيارة تويوتا بيضاء على زجاجها بطاقة مخالفة وقوف.

صاحت سامانثا: «سيارة جميلة».

أجابها ريتشارد: «صحيح؟ أخبريني إذا رغبت في استعارتها ذات يوم».

انتبهت نيللي إلى نظرة الدهشة في عيني سامانثا. لقد تساءلت في نفسها أكثر من مرة إن كانت صديقتها قد أعطت ريتشارد اسماً مستعاراً أيضاً. لكن نيللي لم تسألها أبداً.

«هيا، إنه يحاول».

ضيّقت سامانثا عينيها وهي تنظر إلى ريتشارد من جديد.

عانقتها نيللي عناقاً سريعاً، ثم أسرعت فنزلت الدرجات متجهة إلى السيارة، بينما ترجل ريتشارد ليفتح لها باب السيارة.

كان قد وضع نظارات شمسية كبيرة وارتدى قميصاً أسود وبنطلون جينز... مظهر تحبه نيللي. «مرحباً، يا حلوة!»، وقبّلها قبلة طويلة.

قالت له وهي تصعد إلى السيارة وتستدير لتضع حزام الأمان: «مرحباً». لاحظت أن سامانثا لم تتحرّك من مكانها عند مدخل البناء. لوّحت لها نيللي بيدها ثم استدارت إلى ريتشارد قائلة: «هل ستخبرني عن المكان الذي نحن ذاهبان إليه؟».

قال ريتشارد: «لا»، ثم شغّل محرّك السيارة وانطلق مبتعداً بها عن الرصيف متجهاً ناحية الشرق على الطريق FDR.

ظل ريتشارد صامتاً طيلة الطريق، لكن نيللي كانت تلمح ظل ابتسامة على شفتيه.

وعند نهاية طريق «هاتشينسون ريفر بارك واي»، فتح علبة القفازات في السيارة وأخرج منها قناعاً للعينين مما يُستخدم للنوم أثناء السفر. ألقى بالقناع في حجرها وقال: «ليس لك أن تسترقي النظر إلى أن نبلغ المكان المقصود».

قالت نيللي مازحة: «يبدو هذا شاذاً بعض الشيء».

«هيا... ضعي القناع».

ثبّتت شريط القناع المرن على رأسها من الخلف. كان مشدوداً إلى حد لا يسمح لها باستراق النظر من الأسفل.

انعطف ريتشارد بالسيارة انعطافة حادّة فشعرت بنفسها تنضغط على الباب. من غير رؤية ما حولها، كان جسمها غير قادر على التأهب بما يتناسب مع حركات السيارة. ثم إن ريتشارد كان يقود مسرعاً، كعادته دائماً.

«كم بقي من الوقت؟».

«من خمس إلى عشر دقائق».

أحسّت بتسارع نبضات قلبها. لقد حاولت ذات مرة أن تضع قناعاً من هذا النوع في رحلة بالطائرة آملة أن يساعدها هذا في مواجهة خوفها. لكن خوفها كان أقوى: شعرت برهاب الأماكن المغلقة أكثر من أي وقت مضى. والآن، تفجّر العرق تحت إبطيها وانتبهت إلى أنها ممسكة بمقبض الباب. كانت موشكة على سؤال ريتشارد إن كانت قادرة على الاكتفاء بإغماض عينيها، لكنها تذكرت ابتسامته ـ تلك الابتسامة الصبيانية ـ عندما ألقى بالقناع في حجرها. خمس دقائق. ستون ثانية مضروبة بخمسة. ثلاثمئة ثانية. حاولت إلهاء نفسها بإحصاء الثواني في ذهنها متخيّلة حركة عقرب الثواني في الساعة وهو يتحرّك حتى يكمل الدائرة. أطلقت صيحة صغيرة عندما ضغط ريتشارد على ركبتها. كانت تعرف أنه أرادها حركة موحية بالعاطفة، لكن عضلاتها كانت متوتّرة مشدودة، كما أن أصابعه ضغطت على بقعة حساسة فوق الركبة مباشرة.

قال لها: «بقيت دقيقة واحدة فقط».

توقفت السيارة على نحو مفاجئ، ثم توقف المحرك. مدت يدها

لكي تنتزع القناع عن وجهها. لكن صوت ريتشارد أوقفها: «ليس بعد».

سمعته يفتح باب السيارة، ثم سمعته يدور ويفتح لها الباب ويمسك بيدها ويقودها خلال سيرهما على أرض مسطحة قاسية تحت قدميها. لا يوجد عشب. أهو رصيف؟ أهو ممر؟ كانت نيللي معتادة على الضجيج المحيط بها دائماً في المدينة فكان غيابه المفاجئ مزعجاً. بدأ عصفور يغرد، ثم توقّف صوته فجأة. لم تستغرق رحلة السيارة أكثر من ثلاثين دقيقة، أو نحو ذلك. لكنها أحست كما لو أنهما سافرا إلى كوكب آخر.

«كدنا نصل...». كانت أنفاس ريتشارد حارّة على أذنها... «هل أنت مستعدة؟».

أومأت برأسها. إنها موافقة على أي شيء شريطة أن يخلّصها من هذا القناع عن عينيها.

رفع ريتشارد القناع فرفرفت نيللي بعينيها عندما فاجأها ضياء الشمس الحاد. وعندما استعادت عيناها وضعهما الطبيعي، وجدت نفسها تنظر إلى بيت ضخم مبني من الحجارة، ورأت في حديقته الأمامية لافتة كتب عليها «مباع».

«إنه هدية زواجك يا نيللي». استدارت لتنظر إليه. كانت ابتسامته عريضة.

سألته: «هل اشتريته؟».

كان البيت بعيداً عن الشارع بعض الشيء، وكان قائماً على رقعة أرض لا تقل مساحتها عن أكر[1] كامل.

لم تكن نيللي تعرف الكثير عن البيوت. لأن البيت المتواضع ذي الطابق الواحد الذي نشأت فيه جنوب فلوريدا ما كان يمكن اعتباره إلا

(1) آكر: وحدة مساحة تعادل أربعة آلاف متر.

«بيتاً عادياً»؛ لكن من الواضح أن هذا بيت فخم مترف. كان ذلك واضحاً من تفاصيله بقدر ما هو واضح من حجمه الكبير: بوابة خشب ضخمة لها نافذة من الزجاج المغشى ومقبض نحاس. وأجمات صغيرة معتنى بها جيداً متناثرة من حول المرج الواسع. ومصابيح على أعمدة مرتفعة تحف بالممر من جانبيه كأنها حراس. كان كل شيء يبدو جديداً، لم يمسّه أحد.

«إنني... عاجزة عن الكلام».

قال ريتشارد مازحاً: «لم أكن أتوقّع أن أعثر على بيت كهذا. لقد كنت أعتزم توفير المفاجأة إلى ما بعد زفافنا. لكن عملية الشراء أنجزت سريعاً فلم أعد قادراً على الانتظار».

ناولها مفتاح البيت. «هل ندخل؟».

سارت نيللي، فارتقت درجات المدخل، ثم وضعت المفتاحَ في القفل. انزلق الباب منفتحاً فدخلت إلى ردهة من طابقين. سمعت أصداء خطواتها على الأرض الصقيلة اللامعة. رأت على يسارها غرفة مكتب مغلفة بألواح خشب. ورأت فيها مدفأة غاز. وإلى جهة اليمين، رأت غرفة بيضوية الشكل تحف بنافذتها الواسعة مقاعد مريحة.

«لا يزال هنالك الكثير مما يجب فعله. لكني أريدك أن تشعري بأنك جزء من هذا أيضاً...». أمسك ريتشارد بيدها... «القسم الخلفي هو أفضل ما في البيت. الغرفة الرائعة. تعالي».

سار قبلها فتبعته وهي تمر بأطراف أصابعها على ورق الجدران المزين بالأزهار إلى أن أمسكت نفسها وأبعدت أصابعها المتعرّقة عن الجدار قبل أن تترك عليه بقعة.

كان إطلاق اسم «غرفة» يقلّل من قدر المكان كثيراً. مطبخ فيه طاولات من الغرانيت بلون أصفر رملي، وبار فيه موقد باذخ للطبخ

وبراد للنبيذ. كان المطبخ ينفتح على منطقة طعام تتوّجها ثريا كبيرة على النمط الحديث. وأما غرفة المعيشة المنخفضة عن المطبخ قليلاً فقد كان لها سقف مزخرف بالخشب، إضافة إلى موقد حجري وجدران مكسوة بالخشب. فتح ريتشارد الباب الخلفي فقادها إلى شرفة الطابق الثاني. رأت في البعيد أرجوحة شبكية لشخصين تتمايل تحت الأشجار.

كان ريتشارد ينظر إليها: «هل أعجبك البيت؟». وتشكّلت غضون بين حاجبيه.

أفلحت في القول: «إنه... شيء لا يمكن تخيّله... أخاف أن ألمس أي شيء...». أطلقت ضحكة صغيرة... «إنه مكان مثالي تماماً».

«أعرف أنك تريدين العيش في الضواحي. في المدينة ضجيج وتوتر شديدان».

سألت نفسها... هل قالت له هذا؟ لقد تذمّرت من فوضى مانهاتن وصخبها، لكنها لا تتذكّر أنها قالت له شيئاً عن رغبتها في الانتقال. لكن، لعلها قالت له هذا عندما حدّثته عن نشأتها في منطقة سكنية هادئة. لعلها أشارت وقتها إلى رغبتها في استبدال تلك البيئة من أجل أطفالهما.

سار إليها وأحاطها بذراعيه: «يا نيللي... انتظري حتى تري الطابق العلوي».

أمسك بيدها وقادها فصعدا السلم وسارا في ممر توزّعت على جانبيه غرف صغيرة كثيرة. قال مشيراً إلى إحدى الغرف: «فكرت في إمكانية تحويل هذه الغرفة إلى غرفة ضيوف من أجل مورين». ثم فتح باب غرفة النوم الرئيسية. دخلا جنباً إلى جنب فعبرا غرف الخزائن، ثم دخلا غرفة النوم المفعمة بضوء النهار. تحت صف من النوافذ، رأت حوض جاكوزي يتّسع لشخصين وإلى جانبه دوش مستقل محاط بجدران زجاج.

قبل ساعة واحدة، كانت تشم رائحة البصل الذي كانت جارتها تقليه، وتصطدم قدمها بزجاجة الكولا دايت التي تركتها سامانثا عند الباب. كانت تعيش نشوة غامرة عندما تحصل على بقشيش يبلغ ٪25 أو عندما تعثر على بنطلون جينز ماركة هدسون في متجر الملابس المستعملة، لكنها تدخل الآن حياة أخرى... على نحو ما.

نظرت من نافذة غرفة النوم. كان صف من شجيرات خضراء كثيفة يحجب الرؤية عن بيت الجيران. أما في نيويورك، فقد كانت قادرة أن تسمع عبر مشع التدفئة الجدل بين الزوجين اللذين يعيشان في الطابق الذي فوقها عندما يتحدّثان عن لعبة «العمالقة». أما هنا، فقد كان صوت تنفسها وحده يبدو مرتفعاً لشدة الهدوء.

ارتجفت.

«هل تشعرين بالبرد؟».

هزت رأسها: «أحد ما يمشي على قبري! تعبير مخيف، أليس هذا صحيحاً؟ كان أبي يقول هذا».

استنشق ريتشارد نفساً عميقاً بطيئاً... «الهدوء شديد هنا.. مكان جميل جداً». وعند ذلك، أدارها صوبه برفق: «سوف يركّبون نظام الإنذار في الأسبوع القادم».

«شكراً لك». لقد فكّر ريتشارد في هذا التفصيل أيضاً، بالطبع.

طوّقته بذراعيها وشعرت باسترخاء عندما ارتاحت على صدره القوي.

بدأ يقبل عنقها ويقول: «مممم. رائحتك طيبة جداً. هل تريدين تجربة حوض الجاكوزي؟».

«أوه، يا حبيبي». أبعدت نفسها عنه ببطء. أدركت أنها كانت تدير خاتم الخطبة في إصبعها... «تعجبني هذه الفكرة، لكن عليّ الذهاب.

تذكّر أن سامانثا طلبت مني الحلول محلها لأكون جليسة أطفال هذا المساء... أنا آسفة جداً».

أومأ ريتشارد برأسه وأدخل يديه في جيبيه: «إذًا، أظن أن عليّ الانتظار».

«البيت مدهش! لا أستطيع تصديق أنه سيصير بيتنا».

بعد لحظة من ذلك، أخرج يديه من جيبيه وجذبها إليه من جديد. كان وجهه حانياً عندما نظر إليها: «لا تنزعجي بخصوص هذه الليلة. يمكننا الاحتفال كل ليلة طيلة ما بقي من عمرينا».

الفصل السادس

ألم نابض في رأسي. وطعم حامض يغلف فمي. أمد يدي إلى كأس الماء على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريري، لكن الكأس فارغة.

يشعّ ضياء الشمس، كأنه يعاند مزاجي السيئ، فينسكب عبر النافذة التي فتحت ستائرها... يهاجم عينيّ. تخبرني الساعة بأنها قاربت التاسعة صباحاً. عليَّ أن أتصل من جديد وأقول لهم إنني مريضة فأخسر يوم عمل آخر وأخسر معه ما قد يحمله لي من عمولة. كان أثر الشراب الباقي من ليلة أمس لا يزال شديداً، فجعل صوتي الأجش لوسيل مقتنعة حقاً بأنني مريضة. بقيت في الفراش وشربت زجاجة النبيذ الثانية، ثم أتيت على نصف الزجاجة الباقي من أمسية خالتي شارلوت الأدبية. وعندما ظلّت صورة ريتشارد المقترنة مع صورتها مصرة على عدم الاختفاء من ذهني، ابتلعت قرصاً منوّماً أيضاً.

أمد يدي إلى الهاتف فتضطرب معدتي. أترك الهاتف وأندفع إلى الحمام بخطوات متعثرة. أسقط على ركبتي لكنني أظل عاجزة عن التقيؤ. معدتي خاوية تماماً... أحس بها مقعرة.

أتحامل على نفسي فأقف، ثم أفتح صنبور المغسلة وأتجرّع الماء ذا الطعم المعدني، أتجرعه بشراهة. أغسل وجهي بالماء، ثم أنظر إلى نفسي في المرآة.

هنكتابة

شعري الداكن الطويل متشابك مشعّث، وعيناي منتفختان. تجاويف جديدة تظهر تحت وجنتي، وتبدو عظمتا الترقوة ناتئتين، حادّتين. أنظف أسناني محاولة إزالة طعم الكحول البائت، ثم أرتدي ثوب الحمام.

أعود لأسقط في سريري، ثم أمد يدي إلى الهاتف. أتصل بمحل ساكس وأطلب الكلام مع لوسيل.

«أنا فانيسا...». من حسن حظي أن صوتي لا يزال أجشّ... «إنني آسفة، لكني لا أزال مريضة حقاً...».

«متى تظنين أنك قادرة على العودة إلى العمل؟».

«أخاطر بالقول ربما غداً! ... وبالتأكيد، بعد غد».

«لا بأس...». تتوقف لوسيل لحظة... «سنبدأ اليوم التخفيضات المبكرة. وسوف يأتي كثير من الناس».

تترك لوسيل إيحاءات جملتها معلّقة. أظنها لم تتغيب عن العمل يوماً واحداً في حياتها كلها. إنني أرى كيف تنظر إلى أحذيتي وملابسي وساعاتي. وأرى كيف يصير فمها مشدوداً عندما أصل إلى العمل متأخرة. تظن بأنها تعرفني، وتظن بأن هذا العمل ممتع... وهي واثقة من أنها تخدم أناساً مثلي كل يوم.

أسرع فأقول لها: «لكني لست مصابة بالحمى، قد أستطيع محاولة المجيء اليوم».

«جيد».

أغلق الهاتف وأقرأ رسالة ريتشارد من جديد رغم أن كل كلمة من كلماتها صارت محفورة في ذاكرتي. وبعد ذلك، أرغم نفسي إلى الذهاب إلى الدوش فأدير المقبض إلى أقصى اليسار حتى يصير الماء حاراً جداً. أقف وأترك جلدي يتورد ويحمرّ تحت الماء، ثم أجففه. أجفف شعري، وأجمعه فوق رأسي بطريقة تخفي جذوره. أعد نفسي

بأن أصبغها اليوم. أرتدي كنزة كشمير رمادية بسيطة وبنطلوناً أسود وحذاءً خفيفاً أسود. أضع كمية زائدة من كريم الوجه وحمرة الوجه حتى أخفي بشرتي الشاحبة.

أدخل المطبخ. خالتي شارلوت ليست هناك، لكنها تركت لي شيئاً على الطاولة. أرتشف القهوة وأقضم بضع لقمات من خبز الموز الذي تركته لي. أعرف أنها صنعته بنفسها. تحتجّ معدتي بعد تلك اللقمات القليلة فألف بقايا الخبز بمنديل ورقي وأرميها في سلة القمامة آملة بأن تظن خالتي أنني أكلتها.

ينغلق الباب الخارجي من خلفي برنين معدني. يبدو لي أن الطقس قد شهد تغيراً كبيراً خلال اليومين الماضيين. وأدرك على الفور أن ملابسي أكثر دفئاً مما يلزم. لكنني لا أملك وقتاً لكي أعود وأرتدي شيئاً آخر؛ لوسيل في انتظاري. ثم إن محطة المترو لا تبعد أكثر من أربع بنايات.

يصفعني الهواء خلال سيري على الرصيف: هواء حار، رطب، مشبع بروائح آتية من بائع المعجنات عند الزاوية ومن حاوية القمامة التي لم يفرغوها بعد ومن خيوط دخان سيجارة تندفع إلى وجهي. أصل مدخل محطة المترو آخر الأمر، وأهبط السلم.

تحتجب الشمس على الفور فأحس بأن الرطوبة صارت أكثر كثافة هنا، في الأسفل. أمرر بطاقة المترو على الشاشة وأندفع عبر الباب الدوار فأحس كما لو أن القضيب المعدني القاسي يقاوم حركتي.

ضجيج قطار يدخل المحطة؛ لكنه ليس قطاري. يتقدّم الناس في اتجاهه، يقتربون من الحافة، لكنني أظل عند الجدار بعيداً عن خط القطار الكهربائي المهلك. يسقط بعض الناس هناك، ويموت بعضهم؛ ويُدفع بعضهم إلى السقوط هناك.

أحياناً، لا تستطيع الشرطة تحديد أي الحالتين حدثت حقّاً.

تأتي امرأة شابة فتقف إلى جانبي عند الجدار. إنها شقراء صغيرة الجسم في مرحلة متقدّمة من الحمل. أراها تدلك بطنها برفق؛ يدها تتحرّك على بطنها في دوائر بطيئة. أنظر إليها مسحورة وكأن قوة جاذبة تسيطر على أفكاري وتعيد ذهني إلى يوم جلست فيه على بلاط أرض الحمام البارد متسائلة إن كان سيظهر على شريحة الاختبار الحمل خط أزرق واحد أو خطان.

كنا نريد أطفالاً، أنا وريتشارد. وكان يقول مازحاً: دزينة أطفال... لكننا كنا قد اتفقنا في ما بيننا على ثلاثة فقط. كنت قد توقّفت عن العمل. وكانت لدينا خادمة تأتي كل أسبوع. صار الحمل وظيفتي الوحيدة.

كنت أقلق في البداية عندما أفكر في الأم التي سأكونها وعندما أفكر في الدروس التي امتصها لا وعيي من النموذج الذي كان عندي في طفولتي. كنت أعود من المدرسة بعض الأيام فأرى أمي تستخدم أعواد تنظيف الأسنان لإخراج فتات الخبز من شقوق كراسي غرفة الطعام. وفي أوقات أخرى، كنت أرى رسائل البريد الواردة لا تزال متناثرة على الأرض تحت شق الباب، وأرى الأطباق لا تزال مكوّمة في المجلى. تعلّمت في وقت مبكر ألا أدقّ باب غرفة نوم أمي في أيام «استراحتها». وعندما كانت تنسى المرور لأخذي عند انتهاء دروس الرسم بعد المدرسة، أو عند نهاية زيارات اللعب إلى بيوت أطفال آخرين، صرت معتادة على اختراع الأعذار واقتراح الاتصال بأبي بدلاً من أمي.

بدأت أحضّر طعام الغداء الذي آخذه معي إلى المدرسة عندما كنت في الصف الثالث. كنت أرى الأطفال الآخرين يدخلون ملاعقهم في أوعية حافظة للحرارة فيها حساء مصنوع في البيت أو في حافظات بلاستيك فيها باستا على شكل نجوم (بل كان بعض الأهل يضعون في تلك العلب قصاصات عليها نكات أو رسائل حب لأطفالهم). أما أنا

فكنت أحاول التهام السندويتش اليومي سريعاً قبل أن يلاحظ أحد أن خبزه متفتت وبارد.

ومع مرور الشهور، صار توقي إلى إنجاب الطفل أقوى من خوفي، ومن ريبتي. لقد كنت أماً لنفسي، وبالتأكيد يمكنني أن أرعى طفلاً. كنت أستلقي إلى جانب ريتشارد في الليل فأتخيل نفسي أقرأ كتب د. سيوس لولد صغير له أهداب عينيّ ريتشارد الطويلة، أو أتخيّل نفسي أستخدم ملعقة صغيرة لإطعام ابنة لها ابتسامته المائلة المحببة.

كنت أشعر بالشلل وأنا أراقب ظهور خط أزرق وحيد على شريحة اختبار الحمل... خط واضح مستقيم كأنه نصل سكين. ذلك الصباح، كان ريتشارد في غرفة النوم يخرج بدلته الصوفية السوداء من كيس محل تنظيف الملابس. كان ينتظر خروجي من الحمام. عرفت أنه قرأ الإجابة في عيني، ورأيت صدى خيبة الأمل في عينيه. فتح ذراعيه لي وقال هامساً: «لا بأس يا حبيبتي. إنني أحبك».

لكن وقت التجارب انتهى مع هذا الاختبار السلبي السادس على التوالي. اتفقنا قبل ذلك على أن يذهب ريتشارد لفحص نفسه إذا لم يحدث الحمل بعد ستة أشهر. وقد أوضح لنا الطبيب أن إحصاء الحيوانات المنوية أقل إزعاجاً. ليس على ريتشارد إلا أن يحدّق في مجلة بلاي بوي وأن يضع يده في سرواله الداخلي. قال ريتشارد مازحاً إن سنوات مراهقته أعدته لهذا الأمر إعداداً جيداً. كنت أعرف أنه يحاول أن يجعلني في حالة نفسية أفضل. إذا لم تكن لديه أية مشكلة (كنت واثقة من عدم وجود مشكلة لديه ومن أن المشكلة عندي أنا)، وسوف يكون دوري في الفحص بعده.

قرع ريتشارد باب الحمام ثم فتحه: «ماذا بك يا حبيبتي؟».

نهضت واقفة وأصلحت من قميص النوم الوردي الخفيف. فتحت الباب. كان وجهي مبللاً.

قلت له: «إنني آسفة». خبأت الشريحة خلف ظهري كما لو أنها شيء مخجل يجب إخفاؤه.

احتضنني بقوة وقال كل الأشياء التي تقال في مثل هذه الحالات، لكني أحسست تغيراً بسيطاً في الطاقة التي بيننا. تذكّرت كيف خرجنا بنزهة في الحديقة قرب بيتنا بعد زفافنا بفترة قصيرة فرأينا أباً يلعب الكرة مع ابنه الذي كان يبدو في الثامنة أو في التاسعة. كانا يضعان قبعتَيْ بيسبول متماثلتين.

توقّف ريتشارد ناظراً إليهما، ثم قال لي: «لا أطيق الانتظار إلى أن ألعب هكذا مع ولدي. آمل أن يكون أفضل مني في لعب الكرة».

ضحكت منتبهة إلى شيء لا يكاد يذكر من الإحساس بالإلم في ثديّ. كان ذلك قبل بداية دورة الحيض، لكني قرأت أن هذا الألم علامة من علامات الحمل أيضاً. بدأت منذ ذلك الوقت أتناول فيتامينات الحمل. ملأت صباحاتي بنزهات طويلة على الأقدام، واشتريت فيديو تعليم اليوغا للمبتدئين. توقّفت عن أكل الأجبان غير المبسترة، ولم أعد أشرب أكثر من كأس واحدة من النبيذ على العشاء. كنت أفعل كل ما ينصح به الخبراء!

لكن، لم يحدث شيء!

قال لي ريتشارد ذات مرة عندما كنا لا نزال متفائلَيْن: «ليس علينا إلا أن نواصل المحاولة. الوضع ليس ميؤوساً منه، أليس كذلك؟».

ألقيت بشريحة اختبار الحمل السادسة في سلة القمامة في الحمام وغطيتها بمناديل ورقية حتى لا أكون مضطرة لرؤيتها.

قال لي ريتشارد: «كنت أفكّر في...». ابتعد عني قليلاً لينظر في

المرآة التي فوق طاولة الزينة وهو يعقد ربطة عنقه. كانت حقيبته مفتوحة على السرير من خلفه. كانت أسفاره كثيرة، لكنها أسفار قصيرة عادة... ليلة أو ليلتان. فهمت فجأة ما كان موشكاً على قوله: سوف يدعوني إلى السفر معه هذه المرة. أحسست بالظلمة تنقشع عني شيئاً فشيئاً عندما رحت أتخيّل رحيلنا عن بيتنا الجميل الفارغ في هذا الحي الساحر حيث لا أصدقاء لي. أردت أن أضع مسافة بيني وبين فشلي الأخير.

لكن ما أراد ريتشارد قوله ما كان إلا: «لعل عليك أن تتوقفي عن الشرب تماماً».

تتحرّك المرأة الحامل مبتعدة عني فترفرف عيناي محاولتين إعادتي إلى الواقع. أنظر إليها تسير متجهة إلى السكة وأسمع هدير القطار المقترب. تزعق عجلات القطار وهي تتوقّف، ثم تنفتح الأبواب كأنها فم يزفر ما فيه. أنتظر إلى أن يصعد معظم الناس، ثم أتقدّم شاعرة بقدر من الإعياء.

أتجاوز باب القطار وأسمع طنين شارة إغلاق الأبواب. أقول للرجل الواقف أمامي «اسمح لي»، لكنه لا يتحرك. أرى رأسه يتمايل على وقع موسيقى صاخبة منبعثة من سماعة على رأسه. أستطيع الإحساس بتردد موجات الموسيقى. تغلق الأبواب، لكن القطار يظل ساكناً. المكان حار هنا. أشعر بأن بنطلوني ملتصق بساقيَّ.

أسمع صوتاً يقول: «مقعد؟»، وأرى رجلاً متقدّماً في السن يقف ويعطي مكانه للمرأة الحامل. تبتسم له، ثم تجلس. إنها في فستان معرّق بسيط رخيص المظهر. ثدياها الممتلئان يضغطان على نسيج الفستان الرقيق عندما ترفع يديها لتزيح الشعر عن رقبتها بإحداهما وتهوّي وجهها باليد الأخرى. جلدها نديٌّ محمرّ... إنها متألقة كلّها.

لا يمكن أن تكون حبيبة ريتشارد الجديدة حبلى... هل يمكن هذا؟

لا أظنه ممكناً، لكني أتخيل ريتشارد واقفاً خلفها، وأرى يديه تمتدان من حولها فتحيطان ببطنها الممتلئ.

تتقطع أنفاسي. رجل في قميص داخلي أبيض اصفرّت فتحتاه عند الذراعين تمسك يده بالعمود عند رأسي. أميل بوجهي جانباً، لكن رائحة تعرّقه اللاذعة تظل في أنفي.

يتحرك القطار فأصطدم بامرأة تقرأ صحيفة تايمز. لا ترفع المرأة رأسها عن صحيفتها. بضع محطات فقط... هكذا أقول في نفسي. عشر دقائق، أو ربما خمس عشرة دقيقة.

يهدر القطار على سكته. فأسمع صوته غاضباً وهو مندفع في النفق المظلم. أحس جسداً ينضغط على جسدي. إنه قريب مني إلى حد مزعج؛ كل الناس متقاربين إلى حد مزعج في هذا الزحام. تنزلق يدي المتعرّقة عن العمود وتنطوي ركبتاي. أنهار ساقطة عند الباب فأصير جاثمة على الأرض... رأسي عند ركبتي.

يسألني أحدهم: «هل أنت بخير؟».

ينحني صاحب القميص الداخلي الأبيض مقترباً مني.

أقول بصعوبة: «أظنني مريضة».

أبدأ الاهتزاز إلى الأمام والخلف وأحصي ضربات عجلات القطار على السكة، ضربات منتظمة الإيقاع... واحد، اثنان... عشرة... عشرون.

أسمع امرأة تصيح: «أين المراقب؟».

«يا ناس! هل يوجد طبيب هنا؟».

... خمسون... أربع وستون.

يتوقّف القطار عند التاسعة والسبعين فأحس أذرع تحيط بخصري وترفعني حتى أقف. ثم أخرج من الباب نصف محمولة وأصير على رصيف المحطة الصلب. يقودني شخص ما إلى مقعد على مسافة عشرة أمتار.

يسألني صوت: «هل تريدين الاتصال بأحد ما؟».

«لا. إنها الأنفلونزا... ليس عليّ إلا أن أعود إلى البيت».

أظل جالسة حتى أصير قادرة على التنفس من جديد. ثم أسير مسافة أربع عشرة بناية عائدة إلى الشقة وأحصي ألفاً وثمانمئة وثمانٍ وأربعين خطوة، أحصيها بصوت مرتفع إلى أن أصل إلى البيت فأندسّ في سريري.

الفصل السابع

تأخرت نيللي... من جديد!

كانت تشعر بأنها متأخرة دائماً في تلك الأيام. وكانت متعبة من أرقها المستمرّ، متوتّرة نتيجة إفراطها في شرب القهوة حتى تتخلّص من ذلك التعب. وكان يبدو لها أنها تحاول دائماً أن تنجز أكثر مما تستطيع إنجازه. ففي ما بعد ظهر هذا اليوم مثلاً، اقترح عليها ريتشارد الذهاب بالسيارة إلى بيتهما الجديد فور انتهاء عملها في الحضانة للقاء المتعهد الذي كان يبني شرفة مسقوفة أمام «القبو الإنجليزي»[1].

قال ريتشارد لها: «يمكنك اختيار لون الحجارة».

«وهل هي متوفرة بلون غير الرمادي؟».

ضحك ريتشارد غير منتبه إلى أنها جادّة في سؤالها.

وافقت لشعورها بالذنب نتيجة اختصارها رحلتهما الأولى لرؤية البيت. كان هذا يعني إلغاء مشوار التسوّق من أجل حفلة توديع العزوبية التي تقيمها لها سامانثا لها في ذلك المساء. سيأتي أصدقاؤها من حضانة

---

(1) القبو الإنجليزي هو الطابق السفلي من بيت مكون من طابقين أو ثلاثة. وعادة ما يكون مجهزاً على هيئة شقة مستقلة لها مدخلها الخاص. نصفه تحت الأرض.

الأطفال ومن مقهى جيبسون: واحدة من المرات القليلة التي يلتقي فيها عالما نيللي المنفصلان، المتباعدان.

كتبت نيللي رسالة لسامانثا: آسفة! ... ثم أضافت بعد تردد... مهمة متعلّقة بالزفاف، في آخر لحظة!

ما كانت قادرة على التفكير في طريقة تشرح الأمر فيها على نحو يسمح لها بعدم الظهور بأنها تفضل خطيبها على صديقتها الأولى.

قالت لريتشارد: «عليَّ أن أكون في البيت عند السادسة تماماً حتى أستعد للحفلة. سوف ألتقي في المطعم مع الجميع عند الساعة السابعة».

قال لها وهو يطبع قبلة خفيفة على نهاية أنفها: «لديك دائماً موعد نهائي لا تستطيعين تجاوزه يا سندريللا! لا تقلقي... لن نتأخر».

لكنهما تأخّرا. كان الزحام شديداً فلم تصل نيللي إلى شقتها إلا وقد اقتربت الساعة من السادسة والنصف. دقت باب غرفة سامانثا. لكن شريكتها في السكن كانت قد ذهبت. ظلّت واقفة لحظة هناك تنظر إلى مصابيح عيد الميلاد البيض التي علّقتها سامانثا على الأعمدة الخشب عند رأس سريرها وإلى السجادة الخضراء والزرقاء التي وجدتاها ملفوفة ومتروكة على رصيف بناية سكنية باذخة في الجادة الخامسة. سألتها سامانثا آنذاك: «هل يعقل أن يرمي أحد هذه السجادة؟ الأثرياء معتوهون حقاً! لا تزال بطاقة السعر عليها!». حملا السجادة على كتفيهما، ثم سارا بها إلى البيت. وعند مرورهما بشاب جذاب ينتظر حتى يجتاز الشارع، غمزت سامانثا نيللي بعينها، ثم استدارت عامدة بحيث أصابته نهاية السجادة في صدره. انتهى الأمر بأن ظلت سامانثا تواعد ذلك الشاب شهرين كاملين: وكانت هذه واحدة من أطول علاقاتها زمناً.

كان لدى نيللي ثلاثون دقيقة حتى تصل إلى المطعم. وكان هذا يعني أن عليها أن تستغني عن الدوش. إلا أنها سكبت نصف كأس من النبيذ

حتى ترتشف منه أثناء استعدادها (ليس النبيذ غالي الثمن الذي يطلبه لها ريتشارد دائماً رغم عدم قدرتها على إدراك الفارق)، ثم شغلت أغنية لبيونسيه.

غسلت وجهها بماء بارد، ثم وضعت عليه كريماً مرطباً وبدأت تخطّط عينيها الخضراوين بقلم ذي لون رمادي ـ دخاني. كان حمام شقتهما صغيراً إلى حد يجعل نيللي تصطدم دائماً بالمغسلة أو بحافة الباب. وكلما فتحت خزانة الأدوية الصغيرة يسقط منها أنبوب معجون الأسنان أو عبوة مثبت الشعر. لم تحظ بحمام حقيقي منذ زمن بعيد لأن الشقة فيها حجرة دوش وحيدة صغيرة جداً لا تكاد تسمح لها بالانحناء لإزالة الشعر عن ساقيها.

أما في البيت الجديد، فإن في الحمام مقعداً ورشاشة دوش كبيرة... إضافة إلى حوض الجاكوزي.

حاولت نيللي تخيّل نفسها مستلقية في ذلك الحوض بعد يوم طويل أمضته في... في فعل ماذا؟ في العناية بالحديقة الخلفية... ربما... وفي تحضير العشاء من أجل ريتشارد.

هل ريتشارد يدرك أنها أتلفت النبتة المنزلية الوحيدة التي كانت لديها؟ وهل يعرف أن مهاراتها في الطبخ لا تتعدى تسخين وجبات «مين كوزين» المجمّدة؟

خلال عودتهما إلى المدينة، راحت نيللي تحدق عبر زجاج النافذة مستمتعة بالمنظر. لا يمكن أبداً إنكار جمال حيهما الجديد: البيوت الكبيرة، والأشجار المزهرة، والممرات النظيفة. ما من شيء يلوّث الطرق المعبدة تعبيداً ممتازاً. حتى العشب نفسه، كان يبدو أكثر خضرة من العشب الذي في المدينة.

عندما خرجا ومرا بنقطة حراسة التجمع السكني، لوّح ريتشارد بيده

للرجل المرتدي ملابس شبه عسكرية. لقد رأت نيللي اسم ذلك التجمع مكتوباً بحروف مزخرفة على لافتة مزينة: كروس ويندز.

من المؤكد أنها ستواصل الذهاب إلى مانهاتن مع ريتشارد كل يوم. سيكون لديها الأفضل من العالمين معاً: سوف تلتقي سامانثا لتمضي ساعات سعيدة معها، وسوف تعرّج على مقهى جيبسون لكي تتناول البرغر على البار وتسأل كريس عن مدى تقدمه في الرواية التي يكتبها.

استدارت لتنظر عبر زجاج السيارة الخلفي. لم تكن قد رأت أي شخص يسير على الرصيف. لم ترَ سيارات متحركة. كان ذلك كأنها تنظر إلى صورة فوتوغرافية.

لكن، إذا حملت سريعاً بعد الزفاف، من المرجح أنها لن تكون قادرة على العودة إلى عملها في الحضانة عندما يأتي الخريف. هذا ما فكّرت فيه وهي تنظر إلى حيها الجديد يتراجع ويغيب في البعيد. سوف يكون ترك الأطفال في منتصف السنة تصرّفاً غير مسؤول. وبما أن ريتشارد يسافر كل أسبوع أو أسبوعين، فسوف تكون وحيدة في البيت خلال قسم كبير من الوقت.

لعل من المنطق أكثر أن تنتظر بضعة شهور قبل أن تنقطع عن تناول حبوب منع الحمل وسوف تكون قادرة على الاستمرار في التعليم سنة إضافية.

نظرت إلى وجه ريتشارد متأملة أنفه المستقيم وفكّه القوي وتلك الندبة الفضية الصغيرة فوق عينه اليمنى. أصابته هذه الندبة عندما كان في الثامنة: سقط فاصطدم رأسه بمقود دراجته... هكذا قال لها. كانت إحدى يديه مستقرة على عجلة القيادة، وكانت الأخرى تدير مفتاح الراديو.

بدأت تقول: «إذًا فأنا...». في اللحظة نفسها الذي عثر فيها على محطة WQXR إذاعة الموسيقى الكلاسيكية المفضلة عنده.

قال لها وهو يرفع رأسه: «هذه معزوفة رائعة لرافيل[1]. هل تعرفين أنه ألّف مقطوعات أقل من معظم معاصريه؛ لكن الكثيرين يعتبرونه واحداً من أعظم الموسيقيين الفرنسيين».

أومأت برأسها. ضاعت كلماتها في غمرة ألحان افتتاحية تلك المقطوعة الموسيقية. لكن، لعلّ هذا أفضل! ليس الوقت مناسباً لهذا الحديث.

توقف ريتشارد عند إشارة سير لحظة تصاعد نغمات البيانو إلى أقصاها. استدار صوبها قائلاً: «هل تعجبك؟».

«تعجبني! إنها... جميلة».

إن عليها أن تتعلّم شيئاً عن الموسيقى الكلاسيكية... وعن النبيذ أيضاً. إن لدى ريتشارد آراء قاطعة في الأمرين. وهي تريد أن تكون قادرة على الحديث معه في هذه الأمور حديث العارف بها.

قال لها: «كان رافيل يرى أن على الموسيقى أن تخاطب المشاعر أولاً، ثم العقل. فما رأيك في هذا؟».

تلك هي المشكلة... أدركت هذا وهي تبحث في حقيبة يدها عن ملمّع الشفاه الوردي الخفيف المفضّل عندها. لكنها كفّت عن هذا. لم تتمكّن من العثور عليه عندما بحثت عنه آخر مرة فاستخدمت بدلاً منه ظلاً دُرّاقي اللون. كان عقلها يعرف أن التغيرات القادمة أمر رائع؛ بل هي أمر تُحسد عليه. وأما من حيث مشاعرها، فقد كان ذلك كله يرهقها بعض الشيء.

فكرت في بيت الدمى في غرفة صفها؛ ذلك البيت الذي طلب والدا جوناه وضع خيمة بدلاً منه. كان أطفالها يحبون إعادة ترتيب الأثاث في

---

(1) Ravel: مؤلف موسيقي فرنسي كبير اشتهر أوائل القرن العشرين.

ذلك البيت الصغير اللطيف. وكانوا ينقلون الدمى من غرفة إلى غرفة فيجلسونها أمام الموقد الصغير أو يضعونها على كراسيها الصغيرة حول الطاولة، أو يمدّدونها لكي تنام في أسرّتها الخشب الصغيرة الضيقة.

نيللي، فتاة بيت الدمى! ... غزت هذه الفكرة عقلها مثل سخرية مهينة تأتي من طفل مزعج في المدرسة.

تناولت نيللي جرعة من نبيذها، ثم فتحت باب الخزانة فأزاحت جانباً الثوب الذي كانت تعتزم ارتداءه وأخذت بدلاً منه بنطلون الجلد الأسود الذي اشترته خلال موسم التخفيضات من متجر بلومينغ بيل منذ أن أتت إلى نيويورك. أطلقت زفرة وهي تشدّ بطنها حتى تتمكّن من إغلاق البنطلون على خصرها. قالت تطمئن نفسها: سوف يتوسّع! لكنها ارتدت فوقه بلوزة فضفاضة طويلة تحسّباً لأن تحتاج إلى حل زر البنطلون العلوي في ما بعد.

تساءلت في نفسها إن كانت سترتدي هذا البنطلون أو هذه البلوزة مرة أخرى بعد الآن. تخيلت «نيللي، فتاة بيت الدمى!»، وقد انتفخ بطنها انتفاخاً ظاهراً، وارتدت تنورة فضفاضة من الكاكي وكنزة من الكشمير وصندلاً من الجلد بني اللون... تخيلتها تحمل صينية من المعجنات التي صنعتها في البيت.

قالت تعد نفسها: أبداً! وراحت تبحث عن حذائها الأسود مرتفع الكعب فوجدته آخر الأمر تحت سريرها. سوف يكون لديهما أطفال يملأون البيت؛ وسوف تزدان تلك الغرف الرائعة برنين ضحكاتهم وأكوام وسائدهم وأحذيتهم الصغيرة المجمعة في سلال عند باب البيت. سوف يلعبون معاً «مونوبولي» و«كاندي لاند» عند الموقد. وسوف يذهبون في رحلات تزلج عائلية. لم تتعلّم نيللي التزلج أبداً، لكن ريتشارد وعدها أن يعلّمها. بعد عقود من الآن، ستجلس مع ريتشارد جنباً إلى جنب على

أرجوحة في شرفة البيت وستكون ذكرياتهما السعيدة أقوى رابط بينهما.

أما في الوقت الحاضر، فمن المؤكد أنها ستجلب معها ما لديها من أعمال فنية لكي تزين بها هذه الجدران. إن لديها عدداً من الأعمال الأصلية التي أنجزها أطفالها في الحضانة، ومن بينها لوحة امرأة المارشميلو التي صنعها جوناه ولوحة تايلر التي وضع لها عنواناً ذكياً: أزرق على أبيض.

لم تفرغ من استعداداتها إلا بعد عشر دقائق من موعد خروجها من البيت. بدأت تغادر الشقة، لكنها استدارت وعادت فأخذت حبلين من خرزات ملونة كانا معلّقين على خطاف عند باب الشقة. لقد اشترت كل منهما حبلاً من الخرز من معرض في الهواء الطلق في إحدى القرى منذ بضع سنوات. كانا يطلقان عليها «خرزات السعادة».

طوّقت عنقها بأحد الحبلين، ثم بحثت في الشارع عن سيارة تاكسي.

صاحت نيللي وهي تمضي مسرعة في اتجاه النساء الجالسات إلى طاولة مستطيلة كبيرة: «آسفة، آسفة». كانت زميلاتها من حضانة الأطفال جالسات إلى أحد جانبي الطاولة، وأما زميلاتها في المقهى فكن جالسات إلى الناحية الأخرى. لكن نيللي رأت على الطاولة مجموعة أقداح فارغة إضافة إلى كأس نبيذ أمام كل واحدة منهن. بدت زميلاتها كلهن مرتاحات. دارت حول الطاولة فعانقت كل واحدة منهن. وعندما وصلت إلى سامانثا، وضعت طوق الخرز حول عنقها. بدت سامانثا جميلة جداً... لا بد أنها ذهبت إلى صالون التجميل وحدها.

أصدرت جوزي، زميلتها في المقهى، تعليماتها: «اشربي أولاً، وتكلمي ثانياً». ثم ناولت نيللي قدحاً من التيكيلا.

شربت نيللي القدح دفعة واحدة فصفقوا لها.

وضعت سامانثا في شعر نيللي مشطاً مثبتاً عليه خمار عروس كبير، وقالت: «إنه دوري الآن في إعطائك شيئاً تضعينه».

ضحكت نيللي: «حركة ذكية».

سألت مارني: «ما الذي يمكن توقّعه عند الطلب من معلّمة حضانة أطفال أن تكون مسؤولة عن خمار العروس؟».

سألتها سامانثا: «قولي لي، ماذا كان لديك بعد ظهر اليوم؟».

فتحت نيللي فمها حتى تتكلّم، ثم نظرت من حولها. كانت تلك النساء جميعاً من العاملات في وظائف منخفضة الدخل، لكنهن أتين ينفقن المال في مطعم اشتهر بإعداد البيتزا في فرن يعمل على الحطب. رأت نيللي أيضاً كدَساً من الهدايا على الكرسي الفارغ عند رأس الطاولة. كانت تعرف أن سامانثا تبحث عن شريكة سكن جديدة لأنها غير قادرة على دفع أجرة الشقة وحدها. فجأة، صار البيت الجديد آخر ما تريد نيللي الحديث عنه. ثم إن ذهابها إليه اليوم ما كان مشواراً متعلّقاً بالزفاف. قد لا تفهمها سامانثا.

قالت نيللي من غير اهتمام: «لا شيء يثير الاهتمام حقّاً. هل حان وقت تناول قدح آخر؟».

ضحكت سامانثا وأشارت إلى النادل.

سألتها مارني: «هل أخبرك عن المكان الذي ستذهبان إليه في شهر العسل؟».

هزت نيللي رأسها متمنية أن يعود النادل سريعاً بأقداح التيكيلا. كان ريتشارد يريد أن يظل شهر العسل مفاجأة لها. عندما رجته أن يلمّح لها بشيء، قال: «اشتري بكيني جديداً». ماذا لو أن ريتشارد قد اعتزم أخذها إلى شاطئ ما في تايلاند؟ لن تكون قادرة على احتمال السفر اثنتي عشرة ساعة بالطائرة... هذه الفكرة وحدها تجعل قلبها يقفز في مكانه.

خلال الأسابيع الماضية، وفي اثنين من أحلامها المرهقة كثيراً، رأت نفسها عالقة على متن طائرة تتأرجح في الجو. وفي المرة الأخيرة، رأت مضيفة طيران مذعورة تجري في ممر الطائرة وتصيح بأن على كل راكب أن يلازم مقعده ويتجمّع على نفسه استعداداً لتحطم الطائرة. كانت الصورة حيّة تماماً: عينا المضيفة المتسعتان ذعراً، والطائرة المترنحة، والغيوم الكثيفة ذات اللون الكدِر الظاهرة من النافذة الصغيرة إلى جانبها... استيقظت نيللي وهي تشهق من الفزع.

قالت لها سامانثا في الصباح التالي وهي تضع الماسكارا في حمامهما الصغير بينما كانت نيللي تمد يدها من حولها محاولة تناول شامبو الاستحمام: «إنه حلم ناتج عن التوتر. ما الذي يجعلك قلقة هكذا؟». كانت سامانثا، ابنة المعالجة الفيزيائية، تحب تحليل نفسية أصدقائها.

«لا شيء. حسناً... إنه الطيران... هذا أمر واضح».

«أليس هو الزفاف؟ أقول هذا لأنني أظن الطيران ليس أكثر من صورة مجازية».

«آسفة يا سيغموند، لكن هذا السيجار سيجار فحسب»[1].

ظهر قدح تيكيلا جديد أمام نيللي فشربته سريعاً.

التقت نظرتها بنظرة سامانثا الجالسة إلى الناحية الأخرى من الطاولة فابتسمت سامانثا لها وقالت: «تيكيلا! إنها الإجابة الصحيحة دائماً».

وعلى الفور، انطلقت من بين شفتي نيللي الجملة التالية من هذا الحوار المألوف بينهما: «حتى إن لم يكن هنالك سؤال!».

---

(1) سيغموند هو سيغموند فرويد. وأما عبارة «هذا السيجار سيجار فحسب» فهي عبارة شائعة المقصود منها أن ما من دلالات (جنسية) خفية تتجاوز ما هو ظاهر للعيان.

أمسكت جوزي بيد نيللي قائلة: «دعيني أنظر إلى حجر خاتمك من جديد. أليس لدى ريتشارد أخ جذاب ثري؟ تعرفين أنني أسأل من أجل إحدى صديقاتي».

سحبت نيللي يدها فخبأت خاتمها الماسي ذا القراريط الثلاثة تحت الطاولة ـ تشعر دائماً بنوع من عدم الراحة عندما تتحدّث صديقاتها عنه ـ ثم ضحكت وقالت لها: «آسفة. ليس لديه إلا أخت واحدة أكبر منه سناً».

سوف تأتي أخته مورين إلى نيويورك هذا الصيف، مثلما اعتادت أن تفعل خلال السنوات الماضية، حتى تلقي المحاضرات في برنامج دراسي يستمر ستة أسابيع في جامعة كولومبيا. وأخيراً، سوف تقابلها نيللي في غضون بضعة أيام فقط.

بعد ساعة من ذلك، كان النادل قد أفرغ الطاولة من الأطباق، وبدأت نيللي تفتح الهدايا.

قالت لها دونا، مساعدة معلمة المجموعة الرابعة في حضانة الأطفال، وهي تناولها علبة فضية مربوطة بشريط أحمر فاقع: «هذه من مارني ومني». أخرجت نيللي من العلبة ثوباً داخلياً حريرياً أسود اللون من قطعة واحدة، فأطلقت جوزي صفرة خبيثة. وضعته نيللي على جسمها آملة أن يكون مناسباً لمقاسها.

سألت سامانثا: «هل هذا من أجلها أم من أجل ريتشارد؟».

«إنه رائع. وهو يوحي بليلة حمراء يا سيداتي». وضعته نيللي إلى جانب الهدايا التي فتحتها قبله: زجاجة العطر من ماركة «جو مالون»، ومجموعة أوراق اللعب التي تحمل صور وضعيات جنسية مختلفة، وشموع المسّاج.

«أخيراً، وليس آخراً...»، كانت سامانثا تقول هذا وهي تقدّم إلى نيللي كيس هديتها الذي كان فيه إطار صورة فضي. وفي داخل ذلك الإطار،

رأت نيللي ورقة فاخرة صفراء اللون طبعت عليها قصيدة بحروف مائلة... «يمكنك إخراج الورقة منه حتى تضعي محلها صورة الزفاف».

بدأت نيللي تقرأ القصيدة بصوت مرتفع:

أذكر يوم قابلتك أول مرة، وكيف مال إليك قلبي

كنا في حضانة الأطفال وأعطيتني قرصاً مسكناً من أجل صداعي الشديد؛

وعلى الفور، نشأت بيننا صلة حقيقية

كان ذلك أول عمل لك في مدينة نيويورك، وقد قدتُ خطواتك في تلك المدينة

أريتك أفضل أماكن الرقص وأين تجدين أقرب صيدلية

علّمتك كيف تحرّكين الخيوط، وكيف تكونين على علاقة طيبة مع ليندا

أرشدتك أيضاً إلى خزانة المؤونة السرية حتى تختبئي فيها عندما تريدين الاختباء

وسرعان ما سكنا معاً في شقة بائسة

شقة تتناثر فيها أدوات التجميل والمجلات وفناجين خزفية تزينها رسوم أطفالنا

كنت تتأخرين في دفع الإيجار ـ فلنواجه الأمر، أنت لا تحسنين التصرف في المال، وأنا فوضوية بعض الشيء

أترك فناجيني التي استخدمتها، وأترك وعاء العسل مفتوحاً

سنة بعد سنة، رحت تعلّمين الأطفال كيف يعدّون وكيف يكتبون

كيف يستخدمون كلماتهم، لا قبضات أيديهم، عندما يحدث عراك بينهم..

كنا نتعب في العمل كل يوم... ألم يكن أهالي الأطفال يعرفون أننا نبذل كل جهدنا؟

لكنهم كانوا يصرخون علينا أحياناً فلا نستطيع أن نفعل شيئاً غير البكاء..

أمضينا معاً خمس سنين مدهشة

صارت إحدانا تعرف الأخرى تماماً... تعرف آمالها ومخاوفها

ثم صرت مخطوبة، فاشترت لك ليندا كعكة جميلة شديدة الدسم

من المضحك أن ثمنها أكثر من راتبَيْنا معاً

سوف تتركين الشقة قريباً، وسأكون قلقة لأنني لا أستطيع دفع إيجارها وحدي

على الأقل، أنا واثقة من أن هذا سوف يدفعني إلى الشراب (إحم، إلى الشراب أكثر...)

لكن، عندما تسيرين في ممر الكنيسة مرتدية شيئاً قديماً جديداً...

أرجو أن تعرفي أنك ستظلين دائماً صديقتي الأولى وأنني أحبك كثيراً...

لم تكد نيللي تنهي قراءة القصيدة حتى أعادتها كلماتها إلى أول أيامها في نيويورك عندما كانت متلهّفة إلى وضع مسافة بينها وبين كل ما جرى في فلوريدا. لقد تخلّت عن أشجار النخيل من أجل هذه الأرصفة، وتخلّت عن بيت الطالبات المزدحم الصاخب من أجل هذه الشقة في مبنى سكني لا طعم له. صار كل شيء مختلفاً. إلا أن ذكرياتها لحقت بها هذه الأميال كلّها وأحاطت بها كأنها عباءة ثقيلة.

كان من الممكن ألا تظل في نيويورك لولا وجود سامانثا. كان من الممكن أن تظل مستمرّة في جريها إلى الآن، أن تظل باحثة عن مكان تحسّه آمناً. انحنت نيللي فوق الطاولة واحتضنت شريكتها في الشقة ثم

مسحت عينيها. وقالت لها: «شكراً يا سام. أحبك...». توقفت لحظة... «أشكركم جميعاً. سوف أشتاق إليكم جميعاً. وسوف...».

قالت جوزي: «أوه، توقّفي، لا تكوني عاطفية هكذا. ستكونين بعيدة عنا مسافة رحلة في القطار فقط، وسوف نراك طيلة الوقت. الفارق الوحيد هو أنك ستكونين دائماً من يدفع الفاتورة».

ضحكت نيللي ضحكة صغيرة.

دفعت سامانثا كرسيها إلى الخلف، وقالت: «هيا يا بنات، فلنخرج من هنا. إن فرقة كيلر إينغلز تغني في 'يودلو ستريت'. فلنذهب إلى الرقص».

لم تدخن نيللي منذ سنتها الأخيرة في الكلّية. لكنها دخّنت الآن ثلاث سجائر مارلبورو لايتس، وشربت ثلاثة أقداح من التيكيلا، ثم كأسين من النبيذ. إنها ترقص منذ ساعات. صارت تحسّ بالعرق يقطر على امتداد ظهرها. لعل هذا البنطلون الجلد لم يكن خياراً جيداً. في الناحية الأخرى من الصالة، كان عامل بار ظريف قد وضع وشاح سامانثا وراح يغازل مارنييه.

صاحت نيللي بصوت حاولت أن يعلو فوق الموسيقى الصاخبة: «كدت أنسى كم أحب الرقص».

أجابتها جوزي صائحة: «وأنا كدت أنسى كم هو رقصك فظيع».

ضحكت نيللي وقالت معترضة: «إنني متحمّسة!». رفعت ذراعيها فوق رأسها وراحت تهزّ جسدها بحركة مبالغ فيها، ثم بدأت تدور في دائرة. لكنها تجمّدت في مكانها عندما بلغت منتصف دورتها.

قالت جوزي: «مرحباً يا نيك». كانت تخاطب شاباً طويلاً رشيق القامة يرتدي قميصاً طبعت عليه صورة من حفلة فرقة رولينغ ستونز سنة 1979 وبنطلون جينز حال لونه الأسود. كان الشاب سائراً في اتجاههما.

سألته نيللي: «ما الذي تفعله هنا؟». ثم أدركت متأخّرة بعض الشيء

أن ذراعيها لا تزالان مرفوعتين فوق رأسها فأنزلتهما وطوتهما على صدرها لمعرفتها أن بلوزتها الضيقة صارت رطبة وملتصقة بجسدها.

«لقد دعتني جوزي. عدت إلى نيويورك منذ بضعة أسابيع».

ألقت نيللي نظرة غاضبة على صديقتها فاكتسى وجه جوزي تعبير براءة ساخر، ثم رفعت كتفيها واختفت مبتعدة في الزحام.

كان نيك يعمل على الطاولات مع نيللي منذ سنوات عدة إلى أن انتقل إلى سياتل مع فرقته الموسيقية. كانوا يطلقون عليه اسم «نيك الماهر» رغم أن بضع نساء كسيرات القلوب تركهن خلفه قمن بتغيير ذلك الاسم إلى «نيك الواخز». كان أكثر الشبابَ جاذبية من بين جميع من واعدتهم نيللي في حياتها كلها. رغم أن كلمة «واعدتهم» ليست بالوصف الدقيق لما كان بينهما لأن معظم أوقاتهما معاً كان في غرفة النوم.

الآن، صار شعر نيك الأسود أقصر من ذي قبل فزاد من بروز وجنتيه الحادّتين. إن في كل ملمح من ملامح وجهه شيئاً زائداً إذا نظر إليه المرء بمفرده: أنف أفطس بعض الشيء، وحاجبان كثيفان، وفم عريض... لكن تلك الملامح منسجمة في ما بينها تمام الانسجام. بل إنها منسجمة الآن أكثر مما تتذكّره نيللي.

«لا أصدّق أنك مخطوبة. أحس كأننا كنا معاً بالأمس فقط». مد يده فجرت كفه ببطء على ذراعها العارية.

استجاب جسدها استجابة فورية رغم أنها سحبت ذراعها وخطت إلى الخلف مبتعدة عنه.

كم هو أمر متوقّع أن يكون نيك مهتماً بها من جديد... الآن بعد أن صارت «مأخوذة». لقد كفّ عن الرد على رسائلها النصية بعد أن ترك المدينة بدقيقتين فقط. كان على الدوام شخصاً يحب التحدّي.

«أنا سعيدة بخطبتي. وموعد الزفاف في الشهر القادم».

بدا شيء من الدهشة والفكاهة في عيني نيك: «لا تبدين فتاة موشكة على الزواج».

«ما الذي تعنيه بهذا؟».

اصطدم أحد ما بها من الخلف فدفعها نحو نيك. طوق خصرها بذراعه وقال لها بصوت منخفض: «تبدين مثيرة!». كانت شفتاه شديدتي القرب من أذنها، بل إن شعر ذقنه النابت قليلاً راح يدغدغ جلدها... «إن الفتيات في سياتل لسن شيئاً بالمقارنة بكِ».

أحسّت بتوتر في أسفل بطنها.

انزلقت أصابعه تحت نسيج قميصها فاستقرت عند أسفل ظهرها: «إني مشتاق إليك... مشتاق إلينا. هل تتذكرين ذلك الأحد الممطر عندما لم نغادر الفراش طيلة اليوم». كانت رائحته كرائحة الويسكي؛ وكانت قادرة على الشعور بحرارة جسده المشدود مشعّة عبر قميصه.

جعلتها الموسيقى الصاخبة وحرارة الغرفة المزدحمة تشعر بشيء من الدوار. سقطت خصلة من شعرها على عينيها فأزاحها نيك. انحنى ببطء مثبتاً عينيه على عينيها: «قبلة واحدة أخيرة؟ من أجل أيامنا الماضية؟».

مالت نيللي إلى الخلف ورفعت رأسها ناظرة إليه ثم أعطته خدها.

أمسك بذقنها وأدار فمها صوبه بحركة ناعمة، ثم قبلها قبلة رقيقة. مس لسانه شفتيها فانفرجتا. شدّها إليه بقوة أكبر فأنّت أنة لا إرادية.

لا تحب الاعتراف بهذا، حتى لنفسها... صحيح أن ممارسة الجنس مع ريتشارد كانت جيدة دائماً، لكنها كانت رائعة مع نيك.

«لا أستطيع». دفعته عنها وقد صارت أنفاسها أكثر ثقلاً مما كانت أثناء الرقص.

«هيا يا حبيبتي».

هزت رأسها وسارت في اتجاه البار شاقّة طريقها بين الناس، ثم أجفلت عندما اصطدم مرفق رجل بثديها الأيمن. تعثرت فداست على قدم أحدهم، وصلت إلى مارنييه أخيراً فوضعت مارنييه ذراعها على كتفيها وسألتها: «هل حان وقت التيكيلا؟».

أجفلت نيللي. كانت شديدة الانشغال بالكلام خلال العشاء فلم تأكل إلا شريحة بيتزا صغيرة. ثم إنها لم تتناول على الغداء إلا طبقاً من السلطة. أحست بشيء من الغثيان. وآلمتها قدماها لأنها كانت ترقص بحذاء مرتفع الكعب. «الماء أولاً». كان خداها ملتهبين حرارة فراحت تهويهما بإحدى يديها. أومأ عامل البار برأسه الذي لا يزال وشاح صديقتها عليه، ثم ملأ كأساً طويلة بالماء من الصنبور.

سألتها مارنييه: «هل وجدك ريتشارد؟».

«ماذا؟».

«إنه هنا. قلت له إنك ترقصين».

التفتت نيللي إلى الخلف باحثة بعينيها بين الوجوه المحيطة بها قبل أن تجده واقفاً في الناحية الأخرى من الصالة. قالت لمارنييه التي كانت منحنية فوق البار تقرع كأسها بكأس عامل البار: «سأعود سريعاً».

صاحت نيللي: «ريتشارد!» ثم أسرعت إليه. وعندما اقتربت منه، انزلقت على بقعة رطبة على الأرض.

أمسك بذراعها لمنعها من السقوط: «واو! شخص ما يفرط في الشراب».

«ماذا تفعل هنا؟».

مسح وجهه ضوء مصباح قرمزي عندما بدأت الفرقة أغنية جديدة. لم تكن نيللي قادرة على قراءة تعبير وجه ريتشارد.

ترك ذراعها وقال: «أنا ذاهب. هل أنت آتية معي؟».

لقد رأى ما حدث. عرفت هذا من طريقة إمساكه نفسه. كان جسده ساكناً، لكنها استطاعت أن تحس بتلك الطاقة منبعثة منه.

«نعم. دعني فقط أودع صديقاتي...». قبل قليل، رأت سامانثا وجوزي على حلبة الرقص، لكنها لم تستطع العثور عليهما الآن.

التفتت من جديد ونظرت إلى ريتشارد فرأته ماضياً في اتجاه الباب. جرت حتى تلحق به.

لم يقل شيئاً عندما صارا في الخارج، ولم يقل شيئاً حتى بعد أن أشار لسيارة تاكسي وأعطى السائق عنوان الشقة.

«ذلك الشاب، لقد كنا نعمل معاً».

ظل ريتشارد ينظر أمامه، فكانت ترى جانب وجهه مثلما كانت تراه عندما يقود السيارة بهما قبل بضع ساعات فقط. لكن يده كانت مرتاحة على فخذها؛ أما الآن فقد جلس طاوياً ذراعيه بقوة على صدره.

«هل يكون سلامك على زملائك السابقين كلهم حماسياً إلى هذا الحد؟». كانت نبرة ريتشارد رسمية إلى درجة جعلت البرودة تسري إلى قلبها.

ازداد غثيانها مع اندفاع السائق وسط زحمة السير. وضعت يدها على بطنها، ثم فتحت نافذتها بضعة سنتيمترات. راحت الريح تلعب بشعرها وتصفع خدها به.

«ريتشارد... لقد دفعته بعيداً عني... أنا لم أكن...».

استدار في اتجاهها ونظر إليها، ثم سألها مشدداً على كل كلمة من كلماته: «أنت لم تكوني ماذا؟».

همست: «لم أكن أفكر». لقد كانت مخطئة: إنه ليس غاضباً. إنه

مجروح... إنني آسفة كثيراً. لقد ابتعدتُ عنه وكنت موشكة على الاتصال بك.

كانت الجملة الأخيرة كذبة، لكن ريتشارد لن يعرف ذلك.

وأخيراً، رقّ وجهه لها: «أستطيع مسامحتك على أي شيء تقريباً». بدأت يدها تمتد في اتجاه يده لكن كلماته التي تبعت ذلك أوقفتها: «لكن، لا تخدعيني أبداً».

لم تكن نبرة صوته قاطعة بهذا الشكل حتى في مكالمات العمل التي لا تنتهي.

همست له: «أعدك بهذا». اندفعت الدموع إلى عينيها. لقد اختار ريتشارد لها بيتاً رائعاً. كما كتب لها في وقت سابق من هذا اليوم رسالة نصية يسألها فيها إن كانت تظن بأن ضيوفهما في حفل الزفاف يفضلون وجود من يوزع المقبلات والشراب عليهم أم إنهم يفضلون طاولة بوفيه في ردهة الكوكتيل بين حفل الزفاف ووليمة العشاء... أم لعلهم يفضلون الاثنين معاً؟ هكذا كتب لها. أصابه القلق عندما لم تجب على رسالته. كان يشعر بأنها لن تحسّ بالأمان عندما تدخل شقتها المظلمة وحدها في وقت متأخر من الليل. وهكذا، فقد جاء حتى يراها ويتأكد من أنها بخير.

وماذا فعلت نيللي رداً على ذلك؟ لقد قبّلت نيك الذي كان يواعد نصف النساء في مقهى جيبسون... بل لعله لا يتذكّر أكثر من اسمها الأول.

لماذا تغامر إلى هذا الحد؟ إنها تريد الزواج من ريتشارد؛ وهي ليست متردّدة أيضاً.

لكن نيك كان مسألة غير منتهية بعد. على الرغم من سحره الذي يحرص على إظهاره، كانت نيللي تعرف أن لديه جانباً ضعيفاً حساساً. لقد سمعته في مقهى جيبسون ذات مرة يتحدّث مع جدته. لم ينتبه إلى أن نيللي كانت خلف الزاوية ترتب السكاكين والشوكات وتلفها بالمناديل

الورقية. كان يعد جدته بأن يحضر لها شرائح الشوكولاته بالقرفة وأن يشاهد معها برنامج «دواليب الحظ» في الليلة التالية.

كان نيك أيضاً أول رجل تنام معه منذ أن تركت الكلية. لقد توقفت عن التفكير فيه حتى قبل أن تعرف ريتشارد. لكن، عندما مال نيك صوبها على حلبة الرقص، كانت مستمتعة بتلك اللحظة الرائعة، لحظة إدراكها كم كان يريدها. روعة الإحساس بسلطة القرار في يدها.

تمنّت لو أن الأمر كان بسيطاً مثلما هو بسيط إلقاء اللائمة على الأقداح التي تناولتها. لم تكن الحقيقة جميلة.

مرّت عليها لحظة وجيزة متمرّدة تجاوزت فيها استقرارها تجاوزاً عفوياً. لقد أرادت أن تتذوق المدينة مرة أخيرة قبل أن تستقر في الضواحي.

«أنا سعيدة جداً لأنك أتيت لتأخذني». قالت له هذا فأحسّت بذراعه فوق ذراعها من جديد.

استنشقت نفساً عميقاً.

سوف تندم دائماً على بعض القرارات التي اتخذتها في حياتها. لكن اختيار ريتشارد ما كان أبداً واحداً من تلك الخيارات.

قالت وهي تريح رأسها على صدره: «شكراً لك». سمعت ضربات قلبه المنتظمة، تلك الضربات التي كانت تهدئ مخاوفها فتغفو عندما لا يفلح في ذلك أي شيء آخر.

لديها منذ فترة إحساس يقول لها إن في صدر ريتشارد ألماً دفيناً. إنه ألم يخفيه ويحرص عليه إلى حد جعله لا يكشف لها عنه حتى الآن. لعلّه متعلّق بزوجته السابقة؛ أو لعل قلبه انكسر حتى في وقت أبكر من ذلك.

«لن أفعل أبداً أي شيء يؤلمك».

كانت تعرف أنها لن تقول هذه الكلمات بصدق أكبر من هذه اللحظة، حتى عندما تكون واقفة أمامه يوم زفافهما.

الفصل الثامن

أَلتفتُ فأرى خيال خالتي شارلوت يضيئها مصباح الممر من الخلف؛ أراها واقفة ببابي. لست أدري كم من الوقت مرّ عليها وهي واقفة هناك؛ ولست أدري إن كانت قد لاحظت نظرتي الفارغة المستقرّة على السقف.

«هل تشعرين بأنك صرتِ أحسن حالاً؟».

تدخل خالتي شارلوت الغرفة وترفع ستائر النافذة. يتدفق ضوء النهار إلى الغرفة فأجفل وأحجب عينيَّ.

لقد قلت لها إنني مصابة بالأنفلونزا. لكن خالتي شارلوت تفهم التداخل بين الصحة النفسية والصحة الجسدية، وتعرف كيف تودي الثانية بالأولى فتخنقها كأنها تغلق شريان الحياة الذي يغذيها. ثم إنني لست الوحيدة التي رعتها خالتي شارلوت فقد كانت ترعى أمي خلال نوبات مرضها.

قلت لها: «تحسنتُ قليلاً». لكنني لا آتي بأيّ حركة للنهوض من فراشي.

«هل يعني هذا أنني يجب أن أكون قلقة عليك؟» نبرة صوتها واقعة بين المزاح والحدة. إنها نبرة صوت مألوفة أتذكّرها عندما كانت تساعد أمي لكي تنهضها من فراشها وتأخذها لكي تستحم. كانت تقول لها وقد

أحاطت ذراعها بخصرها: «انهضي لحظة فقط. يجب أن أغير ملاءات السرير».

لو أنجبت خالتي شارلوت أطفالاً لكانت أماً رائعة؛ لكنها لم تنجب أبداً. أظن أن هذه السنين كلّها التي أمضتها في رعاية أمي، ثم في رعايتي، تركت تأثيراً عليها.

«لا تقلقي، سوف أذهب إلى العمل».

«سأكون في الاستوديو طيلة النهار. لقد طُلب مني إنجاز بورتريه خاص. تريد هذه المرأة أن أرسمها عارية حتى تقدّم اللوحة هدية لزوجها وتعلّقها فوق الموقد في بيتهما».

«حقّاً؟». أحاول أن أحقن نبرة صوتي بشيء من الطاقة وأنا أرفع نفسي لأجلس في السرير. أفكار عن خطيبة ريتشارد تطغى على كل جانب آخر من جوانب حياتي... شيء مثل وجع أسنان لا يهدأ.

«إنني أعرف! وأنا لا أحب حتى غرفة تبديل الملابس المشتركة في الجامعة».

أفلح في الابتسام لها وهي تخرج من الغرفة. لكن وركها يصطدم بحافة طاولة الزينة عند الباب فتصرخ صرخة صغيرة. أقفز من السرير. إنه دوري الآن في إحاطة خصر خالتي شارلوت بذراعي وإجلاسها على أحد الكراسي.

لكن خالتي شارلوت تزيح ذراعي وقلقي جانباً: «أنا بخير. لا تخافي، تصير حركات الناس خرقاء عندما يتقدّمون في السن».

فجأة، يخترقني إدراك هذه الحقيقة: إنها تتقدّم في السن!

أجلب لها، رغم احتجاجها، قطع ثلج حتى تضعها على وركها؛ ثم أُعدّ لإفطارنا بيضاً مخفوقاً أضيف إليه جبن الشيدر والبصل الأخضر. أغسل الأطباق وأمسح الطاولة. ثم أحتضن خالتي شارلوت وأعانقها

قبل أن أخرج إلى العمل. ومن جديد، تفاجئني هذه الحقيقة: ليس لديَّ في العالم أحد غيرها.

أتهيّب رؤية لوسيل، لكنها تفاجئني وتحييني مهتمة: «ما كان يجب أن أشجعك على القدوم إلى العمل يوم أمس».

أنتبه إلى نظرة لوسيل إلى حقيبة فالنتينو التي أحملها. قدمها ريتشارد إليّ ذات ليلة قبل سفره في رحلة عمل إلى سان فرانسيسكو. جلد الحقيبة مهترئ قليلاً عند قفلها. لقد صار عمر هذه الحقيبة أربع سنين! لوسيل امرأة من النوع الذي يلاحظ هذه التفاصيل. أراها تنظر إلى حذائي الرياضي القديم، ثم إلى إصبع يدي الخالي من الخاتم. تصير نظرة عينيها حادة. تبدو حقّاً كما لو أنها تراني أول مرة.

لقد اتصلت بها بعد سقوطي في المترو. لا أتذكّر ما قلته لها كلّه، لكني أتذكّر أنني بكيت.

تقول لي الآن: «أخبريني إذا وجدت أنك في حاجة إلى الانصراف في وقت مبكر اليوم».

«شكراً لك». أخفض رأسي؛ أشعر بالخجل.

المحل مزدحم بالزبائن اليوم، بالنسبة إلى يوم أحد خاصة. لكنه ليس مزدحماً إلى الحد الكافي. ظننت بأن مجيئي إلى العمل سوف يلهيني عن أفكاري. لكن صورها تتزاحم في رأسي. أتخيلها واضعة يديها على بطنها المنتفخة. أتخيل يدَيّ ريتشارد على بطنها المنتفخة. أتخيّله يذكِّرها بأن تتناول أقراص الفيتامينات ويحثّها على أن تنال كفايتها من النوم... أراه يحتضنها وهما نائمين في الليل. إذا حملتْ، فأظنه سيأتي بمهد للطفل ويضع فيه دباً صغيراً.

حتى عندما كنت أحاول جاهدة أن أحبل، كان دب ناعم مبتسم يجلس منتظراً في الغرفة التي صمَّمناها من أجل طفلنا. وفي الفترة الأولى، كان ريتشارد يطلق على ذلك الدب اسم «تميمة حظنا الطيّب».

«سوف يحدث الأمر أخيراً»... هكذا كان ريتشارد يقول منحّياً قلقي جانباً.

لكنه ذهب إلى الطبيب من أجل تحليل النطاف بعد تلك الأشهر الست من الاختبارات الفاشلة. كان تعداد النطاف لديه طبيعياً. «قال الطبيب إن نطافي مثل مايكل فيلبس»[1]... هكذا قال لي مازحاً؛ أما أنا فحاولت أن أبتسم.

وهكذا حدّدت موعداً مع طبيبة اختصاصية في الخصوبة. قال ريتشارد إنه سيحاول ترتيب مواعيده بشكل يسمح له الذهاب معي إلى الطبيبة.

قلت له بصوت أردت جعله عادياً تماماً: «لست مضطرّاً إلى ذلك. يمكنني إخبارك بالنتائج».

«هل أنت واثقة من هذا يا حبيبتي؟ إذا انصرف عملائي في وقت مبكر، فقد أستطيع ملاقاتك لكي نتناول الغداء معاً لأنك ستكونين في المدينة. سأطلب من دايان أن تحجز لنا طاولة في مطعم أمارانث».

«تبدو لي فكرة الغداء ممتازة».

لكن، قبل ساعة من موعد الطبيبة، تماماً عندما كنت أخرج من باب القطار، اتصل بي ريتشارد ليخبرني أنه سيأتي معي إلى عيادة الطبيبة قائلاً: «لقد أجّلت مواعيدي. هذا الأمر أكثر أهمية».

أمر جيّد أنه ما كان قادراً على رؤية تعبير وجهي في تلك اللحظة.

سوف تطرح عليَّ اختصاصية الخصوبة بعض الأسئلة. أسئلة ما كنت أريد الإجابة عنها في حضور زوجي.

---

(1) مايكل فيلبس سباح أميركي شهير، كان الحائز على أكبر عدد من الميداليات الأولمبية.

كان القطار ماضياً في اتجاه محطة غراند سنترال، وكنت أنظر من النافذة إلى الأشجار العارية والبنايات التي تناثرت عليها رسوم جدارية ونوافذ مغلقة بألواح خشب. يمكنني أن أكذب. أو يمكن أن أتحدّث مع الطبيبة على انفراد وأشرح لها الأمر. لم يكن قول الحقيقة خياراً مطروحاً.

ألم حادٌّ جعلني أنظر إلى الأسفل. كنت أضغط على إصبعي بأظافري. لقد جرحته تحت الظفر مباشرة. وضعت ذلك الإصبع في فمي حتى أنظفه من الدم.

توقّف القطار في المحطة قبل أن أتوصّل إلى وضع أي خطة. وبسرعة أكثر مما كنت أريد، أوصلتني سيارة تاكسي إلى بناية أنيقة في بارك أفينيو.

لم يبدُ على ريتشارد أنه انتبه إلى قلقي عندما التقاني في ردهة تلك البناية. أو لعله ظنني قلقة بشأن الموعد مع الطبيبة. أحسست كأنني سائرة في نومي عندما ضغط ريتشارد زر المصعد حتى نصعد إلى الطابق الرابع عشر، ثم تراجع خطوة لكي أخرج قبله عندما وصلنا.

لقد أحالنا طبيب الأمراض البولية الذي فحص ريتشارد إلى الدكتورة هوفمان: امرأة رشيقة ذات مظهر محترم في أواسط الخمسينات. حيّتنا مبتسمة بعد وقت قصير من تسجيل وصولنا، ثم تقدمتنا في اتجاه غرفتها. رأيت لمحة خاطفة من لون أحمر تحت ثوبها الطبّي الأبيض. سرنا خلفها في الممر فوجدت صعوبة في مواكبة خطواتها رغم أنها كانت تنتعل حذاءً مرتفع الكعب.

جلسنا جنباً إلى جنب، أنا وريتشارد، على أريكة جلد قبالة مكتبها المرتّب. وضعت يدي في حجري ورحت أنظر إلى الشرائط الذهبية الرقيقة في خاتم الزواج في إصبعي. في البداية، كانت الدكتورة هوفمان متردّدة حتى في تقبّل إحساسنا بالقلق، فقد راحت توضح لنا أن الحمل

يتأخر أكثر من ستة أشهر لدى معظم الناس. قالت مؤكدة: «لكن الحمل يحدث خلال سنة واحدة في خمسة وثمانين بالمئة من الحالات».

ابتسمت لها قائلة: «حسناً، هذا يعني...».

لكن ريتشارد قاطعني: «لا تهمّنا الإحصاءات...» أمسك بيدي... «نريد أن يحدث الحمل الآن».

كان يجب أن أعرف أن الأمر لن يكون سهلاً.

أومأت د. هوفمان برأسها وقالت: «ما من شيء يمنعكما من محاولة اللجوء إلى معالجة الخصوبة، لكن من الممكن لهذه المعالجة أن تستغرق وقتاً طويلاً وأن تكلف الكثير. هنالك أيضاً آثار جانبية لها».

«أقول لكِ من جديد، مع كل احترامي، إن هذه الاعتبارات لا تقلقنا أبداً». قال لها ريتشارد هذا، فرأيت لمحة مما يكون عليه أثناء عمله... مقنع، ملحّ في طلبه. شخص تستحيل مقاومته.

لماذا ظننتُ أصلاً أنني قادرة على إخفاء شيء بهذه الأهمية عن ريتشارد؟

راح ريتشارد يدلك يدي بين كفَّيْه: «حبيبتي، يداك باردتان كالجليد».

أدارت د. هوفمان رأسها في اتجاهي ونظرت إليّ مباشرة. كان شعرها مسرّحاً وقد أزاحته إلى أحد جانبي رأسها بطريقة أنيقة، وكان جلدها صقيلاً لا تجاعيد فيه. تمنّيت لو أنني ارتديت ملابس أكثر أناقة من هذا البنطلون الأسود البسيط والكنزة العسلية ذات الياقة المستديرة، الكنزة التي لاحظت الآن أن على كمّها بقعة دم صغيرة. غطيت تلك البقة بالإصبع الذي جرحته قبل قليل وحاولت أن أبتسم للطبيبة.

«لا بأس الآن. دعيني يا فانيسا أبدأ بطرح بعض الأسئلة عليكِ. ريتشارد... أليس من الأفضل أن تجلس في غرفة الانتظار؟».

نظر ريتشارد إلي وقال: «حبيبتي هل تريدينني أن أذهب؟».

تردّدت. كنت أعرف ما يريد قوله. لقد أجّل أعماله حتى يرافقني. ألن يكون خذلاناً كبيراً له أن أطلب منه الخروج؟... ثم إنه سيعرف بالأمر على أية حال. ربما تجد د. هوفمان نفسها ملزمة بإخباره، من الناحية الأخلاقية؛ أو من الممكن أن تنظر واحدة من الممرضات إلى سجلّي وتفلت منها المعلومات ذات يوم.

كان التفكير أمراً في غاية الصعوبة.

قال ريتشارد يستحثّني: «ماذا تقولين؟».

«إنني آسفة، لا بأس إن بقيت».

بدأت الأسئلة. كان صوت د. هوفمان منخفضاً حلو النغمة، لكن وقع كل سؤال عليَّ كان أشبه بوقع رصاصة.

«كيف هو انتظام دورة الحيض لديك؟ وكم يستمر الحيض؟ وما وسائل منع الحمل التي استخدمتها في السابق؟».

تقلّصت معدتي. كنت أعرف أين تمضي أسئلتها تلك.

سألتني د. هوفمان: «هل سبق لك الحمل في يوم من الأيام؟».

نظرت إلى الأرض، إلى السجادة السميكة الرمادية ذات المربعات الوردية الصغيرة. رحت أحصي تلك المربعات.

كنت قادرة على الإحساس بحرارة نظرات ريتشارد الموجهة إليَّ. «أنت لم تحملي أبداً»... قال هذا فكانت جملته كأنها تقرير لحقيقة.

كنت لا أزال أفكّر في تلك المرحلة من حياتي، لكن الذكريات ظلت محبوسة في داخلي.

لكن الأمر في غاية الأهمية.

وأنا غير قادرة على الكذب، بعد كل حساب.

رفعت رأسي ونظرت إلى د. هوفمان: «لقد حملت». كان صوتي أشبه بالصرير فتنحنحت... «كنت في الحادية والعشرين ... فحسب».

أدركت أن كلمة فحسب كانت استعطافاً موجَّهاً إلى ريتشارد.

سألني ريتشارد: «وهل أجريت إجهاضاً؟». ما كنت قادرة على قراءة تعبير صوته.

رفعت رأسي ونظرت إلى زوجي من جديد.

وعرفت أنني لن أكون قادرة على قول الحقيقة كلها.

«لقد... أنا... لقد كان إجهاضاً طبيعياً». تنحنحت من جديد وتجنّبت نظراته المسلطة علي... «لم يستمر الحمل أكثر من بضعة أسابيع». على الأقل، كان هذا الجزء صحيحاً، لقد استمر حملي ستة أسابيع.

استند ريتشارد إلى الأريكة مبتعداً عني: «لماذا لم تخبريني بهذا؟». كانت الصدمة ظاهرة على وجهه، وكان في وجهه شيء آخر أيضاً. الغضب؟ إحساس بأنني خنته؟

«كنت أريد إخبارك... لكني، فقط ... أظنني لم أعرف كيف أخبرك».

كانت هذه استجابة غير كافية أبداً. لقد كنت شديدة الغباء عندما أملت في أنه لن يكتشف الأمر أبداً.

«وهل كنت تريدين إخباري حقّاً؟».

قاطعتنا د. هوفمان: «استمعا إلي!... من الممكن أن يكون هذا الحديث بينكما انفعالياً بعض الشيء. فهل تريدان البقاء وحدكما قليلاً؟». كانت نبرة صوتها هادئة، وكان القلم الفضي الثقيل الذي تسجل فيه ملاحظاتها معلقاً في الهواء بين أصابعها، كما لو أن ذلك التوقف أمراً عادياً تماماً. لكني لم أكن أتخيل أن هنالك زوجات كثيرات يمكن أن يحتفظن بأسرار من هذا النوع ولا يقلنها لأزواجهن مثلما فعلت أنا.

كنت أعرف أن عليَّ إخبار د. هوفمان على انفراد بالحقيقة كلها، في وقت ما.

أجابها ريتشارد: «لا. لا. نحن بخير. هل نتابع الأمر؟».

ابتسم لي، لكنه وضع ساقاً فوق ساق بعد ثوانٍ قليلة، ثم ترك يدي.

عندما انتهت الأسئلة أخيراً، فحصتني د. هوفمان بينما كان ريتشارد في غرفة الانتظار يتفقد بريده في هاتف البلاك بيري الذي يحمله. وقبل خروجها من الغرفة، وضعت د. هوفمان يدها على كتفي وضغطت عليها بلطف. كان ذلك يشبه حركة أمومية من جانبها، فانقبضت حنجرتي وأنا أحاول منع دموعي من الانهمار. كنت آمل أن تظل فكرة تناول الغداء مع ريتشارد قائمة. لكنه قال لي إنه أجل اجتماعه مع بعض العملاء حتى الساعة الواحدة. وقال إن عليه أن يعود الآن إلى المكتب. ظللنا صامتَيْن خلال نزولنا بالمصعد مع بضعة أشخاص غرباء.

رفعت رأسي ونظرت إلى ريتشارد عندما خرجنا. قلت له: «آسفة، كان عليّ...».

كان قد جعل هاتفه صامتاً طيلة مقابلتنا مع الطبيبة، لكن الهاتف رنّ الآن. لقد جاءته مكالمة. نظر إلى الرقم ثم قبلني على خدي وقال: «لا بد لي من الإجابة على هذه المكالمة. أراك في البيت يا حبيبتي».

سار مبتعداً عني. ووقفت أنظر إليه راجية أن يستدير فيبتسم لي أو يلوّح لي بيده. لكنه انعطف واختفى عند الزاوية عني.

لم تكن تلك المرة الأولى التي أخون فيها ريتشارد. ولن تكون الأخيرة. ولن تكون أسوأ مرة أيضاً... بل كان هنالك ما هو أسوأ بكثير.

لم أكن أبداً المرأة التي ظنّ أنه تزوجها!

خلال فترة انخفاض حركة الزبائن في محل ساكس، ذهبت إلى غرفة الاستراحة لكي أشرب القهوة. لقد استقرّت معدتي وزال عنّي الغثيان.

لكن الألم الممض بين صدغيَّ ظل مستمراً. ليزا، البائعة في قسم الأحذية، جالسة على الأريكة الآن تأكل سندويشاً. إنها في العشرينات، شقراء، جميلة على وجه العموم.

أبعدت عينيَّ عنها.

كان أحد مقاطع البرامج النفسية التي أستمع إليها قد تحدّث عن «ظاهرة بادر ماينهوف». إنها ما يحدث عندما تدرك شيئاً ما أو تنتبه إليه (اسم فرقة موسيقية لم تكن تعرفها، أو نوع جديد من أنواع الباستا) فيبدو لك فجأة أن ذلك الشيء يظهر لك في كل مكان. يطلقون على هذه الظاهرة أيضاً اسم «وهم التكرار». صرت الآن أرى الشابات الشقراوات في كل مكان من حولي!

عندما أتيت إلى العمل هذا الصباح، كانت فتاة شقراء تجرّب نوعاً من أحمر الشفاه في ركن منتجات لاورا ميرسييه. وكانت واحدة أخرى تتفحص الملابس في قسم رالف لورين. رفعت ليزا سندويشها لتأخذ لقمة منه فرأيت الخاتم يلمع في يدها اليسرى. سوف يأتي موعد زواج ريتشارد وخطيبته في وقت قريب جداً. لا يمكن أن تكون حاملاً، هل هذا ممكن؟ هكذا رحت أسأل نفسي من جديد. أحسست بالتقطع المألوف في أنفاسي وانتشرت البرودة في جسدي، لكني حاولت إجبار نفسي على إبعاد هذا الذعر عني.

يجب أن أراها اليوم... لا بد لي من التأكد!

إنها تعيش في مكان غير بعيد عن هذا المكان الذي أقف فيه الآن.

يمكنك أحياناً أن تعرف الكثير عن الناس من خلال الإنترنت: كل شيء تقريباً، من الطعام الذي تناولوه على الغداء إلى مواعيد زفافهم المقتربة. وهناك أشخاص آخرون يصعب تتبع آثارهم. لكنك تستطيع التوصل إلى بعض الحقائق الأساسية عن أي شخص تقريباً: العنوان. رقم الهاتف. مكان العمل.

هكتبة

ويمكنك أن تعرف معلومات أخرى من خلال المراقبة.

في إحدى الليالي، عندما كنا لا نزال متزوجَيْن، تبعت ريتشارد إلى حيث تعيش ووقفت بالقرب من شقتها. كان يحمل باقة ورود بيضاء وزجاجة نبيذ.

كان في وسعي أن أدفع ذلك الباب وأدخل من خلف ريتشارد وأخمشه بأظافري وأطلب منه أن يعود إلى البيت. لكنني لم أفعل هذا، وعدت إلى البيت وحدي. وبعد بضع ساعات، وصل ريتشارد فرحّبت به مبتسمة وقلت له: «تركت لك طعام العشاء، هل تحب أن أسخنه؟».

يقولون إن الزوجة آخر من يعلم. لكنني لم أكن آخر من يعلم. لقد اخترت أن أتظاهر بأنني لا أرى شيئاً. ولم أتخيل أبداً أن ذلك سوف يستمر. ندمي جرح مفتوح دائماً.

أرى ليزا، البائعة الجميلة الشابة، تجمع أشياءها مسرعة رغم أنها لم تنهِ سندويشها بعد. أراها ترمي البقايا في سلة القمامة وتسترق نظرة سريعة في اتجاهي. أرى جبينها عابساً متغضناً.

لا أعرف أبداً كم بقيتُ محدّقة فيها.

أخرج من غرفة الاستراحة وأمضي ما بقي من نوبة عملي في الترحيب بالزبونات والابتسام لهنّ. كنت آتي بالملابس وأومئ برأسي تعبيراً عن رأيي الإيجابي عندما يوجَّه إليَّ سؤال عن ملاءمة هذا الفستان أو تلك البدلة.

وكنت منتبهة إلى الوقت طيلة تلك الفترة عارفة أنني سأصير عما قريب قادرة على إرضاء هذه الحاجة الملحة المتنامية في داخلي.

عندما أصير قادرة على الخروج آخر الأمر، فسوف أجد نفسي مشدودة إلى شقتها.

سوف أجد نفسي مشدودة إليها.

هكتبة

الفصل التاسع

انحنت نيللي فوق المرحاض. كانت معدتها تتقلّص بعنف وتلفظ ما فيها. ثم لم تلبث أن سقطت على الأرض الرخامية في حمام ريتشارد.

بدأت صور من الليلة الماضية تطفو في عقلها: أقداح الشراب. التدخين. القبلة. والتعبير الذي كان على وجه ريتشارد في سيارة التاكسي خلال مشوار عودتهما إلى شقته. ما كانت قادرة على تصديق أنها أوشكت على تخريب مستقبلها معه.

كانت على الجدار المقابل لها مرآة طويلة رأت فيها انعكاس صورتها: الماسكارا السائحة تحت عينيها، ولمعان فضيّ من أثر الوشاح الذي ربطت به شعرها، وبلوزة ماراثون نيويورك سيتي المتغضّنة... كانت تلك البلوزة هديّة من ريتشارد.

أرغمت نفسها على الوقوف على قدميها، ثم مدّت يدها إلى منشفة حتى تمسح فمها بعد التقيؤ؛ لكنها تردّدت. كانت المناشف كلها بيضاء كالثلج لها إطار أزرق ملكي. وعلى غرار كل شيء في شقة ريتشارد، كانت هذه المناشف بالغة الأناقة... كل شيء بالغ الأناقة هنا... إلا هي، هكذا قالت نيللي في نفسها. أخذت مناديل ورقية مسحت بها فمها ثم ألقتها في المرحاض. يبدو لها أن ريتشارد لا يترك أيّ قمامة في أوعية القمامة في بيته. وهي لن تترك هذه المناديل المتّسخة هنا.

نظّفت أسنانها وغسلت وجهها بماء شديد البرودة جعل جلدها شاحباً، ثم انتشرت فيه نقط حمر. وعلى الرغم من رغبتها الشديدة في العودة لكي تندسّ تحت لحاف ريتشارد المترَف الدافئ فقد تمالكت نفسها وراحت تبحث عنه راضية بأن تتحمل كل ما قد يقوله لها.

لم تجد خطيبها؛ لكنها وجدت على طاولة المطبخ الغرانيت البرّاقة زجاجة مياه معدنية وعلبة أقراص للصداع. وإلى جانب الماء والدواء، رأت ملاحظة مكتوبة على ورقة صفراء من الورق المقوى الفاخر مطبوع عليها الحرفان الأولان من اسمه. قالت الرسالة: لم أرِدْ إيقاظك. أنا مسافر إلى أتلانتا. أعود غداً. كوني بخير. أحبك. ريتشارد.

كانت ساعة فرن المطبخ تشير إلى الحادية عشرة وثلاث وأربعين دقيقة. كيف نامت حتى هذا الوقت المتأخر؟ وكيف نسيت برنامج سفر ريتشارد؟ لم تكن قادرة حتى على تذكّر أنه أشار إلى سفره إلى أتلانتا.

تناولت قرصَيْ دواء وارتشفت بعض الماء الذي لا يزال بارداً. ثم راحت تنظر إلى حروف رسالة ريتشارد الكبيرة الأنيقة محاولة تخمين مزاجه. كانت صور الليلة الماضية مشوّشة في رأسها، غير مكتملة. إلا أنها تذكّرت كيف وضعها في الفراش وغادر الغرفة مغلقاً الباب من خلفه. إن كان عاد بعد ذلك ونام إلى جانبها، فإنها لم تلاحظ هذا.

حملت الهاتف اللاسلكي الموضوع على الطاولة وطلبت رقم هاتفه الخليوي، لكن الاتصال مضى مباشرة إلى البريد الصوتي. سمعت صوته يقول: «سأعاود الاتصال بكم سريعاً».

جعلها سماع صوته تشعر بألم الاشتياق إليه.

«مرحباً يا حبيبي!...». راحت تبحث عن الكلمات... «مممم... لا أريد أن أقول لك غير إنني أحبك».

في الطريق إلى غرفة النوم مرّت ببضع صور فوتوغرافية كبيرة معلّقة

ضمن إطارات على جدار الممر. كانت الصورة المفضَّلة عندها صورة لريتشارد عندما كان صبياً. يده الصغيرة ممسكة بيد أخته مورين وهما واقفان على شاطئ المحيط. كانت مورين أطول منه بكثير. صحيح أن طول ريتشارد يبلغ الآن خمس أقدام وأحد عشر إنشاً.[1] إلا أن فترة نموه السريع تأخرت حتى سن السادسة عشرة. هكذا قال لنيللي. كانت الصورة الجماعية تضم ريتشارد ومورين ووالديه. كان واضحاً لها من هذه الصورة أن ريتشارد ورث عينيه الثاقبتين عن أمه، وورث شفتيه الممتلئتين عن أبيه. وفي نهاية الممر، كانت هنالك صورة بالأسود والأبيض يظهر فيها أمه وأبوه يوم زفافهما. كان مَيْل ريتشارد إلى تزيين جدران بيته بهذه الصور يقول الكثير عنه، فهذه هي الوجوه التي يحب أن يراها كل يوم. تمنّت لو أن أباه وأمه لا يزالان على قيد الحياة. لكن لديه أخته، وسوف تلتقي مورين يوم غد إلى الغداء في واحد من المطاعم التي يحبها ريتشارد.

قاطعت رنة الهاتف الأرضي أفكارها الحالمة. قالت في نفسها إنه ريتشارد وشعرت بموجة سعادة عندما عادت إلى المطبخ وحملت السماعة. لكن الصوت الذي حياها كان صوتاً أنثوياً. قال لها: «هل ريتشارد موجود؟»

أجابت نيللي بصوت متردّد: «أوه، لا... هل أنت مورين؟».

صمت. ثم أجابتها المرأة: «لا. سوف أعاود الاتصال به». ثم لم تعد تسمع إلا صوت الطنين الثابت بعد انقطاع المكالمة. من عساها تكون هذه التي تتصل بريتشارد يوم الأحد من غير أن تترك له رسالة؟

تردّدت نيللي قليلاً ثم ضغطت على مفتاح معرفة رقم المتصل. كان الرقم المتصل محجوباً.

---

(1) قرابة مئة وواحد وثمانين سنتيمتراً.

لقد أتت إلى شقة ريتشارد مرات عدة في السابق، لكن هذه هي المرة الأولى التي تكون فيها وحدها. في غرفة الجلوس من خلفها، كانت نافذة على امتداد الجدار كله تتيح رؤية منظر في غاية الجمال لسنترال بارك، إضافة إلى عدد من البنايات السكنية. سارت إلى النافذة ونظرت منها. مرّت عيناها بالشقق السكنية. كان كثير منها مظلماً أو مغلق النوافذ أو مسدل الستائر. لكنها رأت شققاً لا يحجب نوافذها أي شيء.

ومن بعض الزوايا، ظنّت أنها قادرة على رؤية ظلال قطع الأثاث أو بعض الأشخاص في داخل تلك الشقق.

هذا يعني أن أي شخص في هذه البنايات السكنية يمكن أيضاً أن ينظر داخل شقة ريتشارد.

لقد رأت ريتشارد في مرات سابقة يغلق الستائر في الليل... لديه نظام إلكتروني معقّد يتحكّم بالنور والستائر في هذه الغرفة. ضغطت مفتاحاً فانطفأت مصابيح السقف المخفية. كادت الظلمة تحل في الخارج. وهذا ما جعل الشقة تغرق في الظلام على الفور. ضغطت المفتاح من جديد فعاد الضوء نفسه. وبحذر، حاولت مفتاحاً آخر. نجحت المحاولة هذه المرة فانسدلت الستائر مغطية النافذة كلها. مضت نيللي سريعاً من باب الشقة لتتأكّد من إقفاله على الرغم من معرفتها بوجود بواب في ردهة المبنى. كان الباب مقفلاً. قالت في نفسها إن ريتشارد لا يمكن أبداً أن يتركها من غير حماية مهما يكن منزعجاً منها.

دخلت الحمام فاستحمت وغسلت جسدها بصابون ريتشارد المعطّر برائحة الليمون، وغسلت شعرها لتنظّفه من رائحة السجائر العالقة من الليلة الماضية. أمالت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها حتى تزيل بقايا الصابون، ثم أغلقت صنبور الماء ولفّت جسدها بثوب الحمام الخاص بريتشارد. كانت تفكّر في ذلك الصوت الأنثوي الناعم الذي سمعته على الهاتف.

هكتبة

لم يكن في صوت تلك المرأة أي لكنة، وكان من المستحيل استنتاج أي شيء منه. فتحت نيللي خزانة الأدوية وأخذت منها جِل الشعر، فوضعت القليل منه على شعرها الرطب ومشّطته، ثم ربطته فوق رأسها. خلعت ثوب الحمام وارتدت ملابس التمرينات الرياضية التي تركتها في شقة ريتشارد لأنها كانت، في بعض الأحيان، تستخدم الصالة الرياضية الموجودة في البناء. ثم وجدت بلوزتها وبنطلونها الجلد مطويَّيْن بشكل أنيق وموضوعين فوق حقيبة قماش صغيرة عند أسفل السرير. وضعت حوائجها في تلك الحقيبة وخرجت من الشقة. أغلقت الباب خلفها ثم هزّته حتى تتأكد من إقفاله جيداً.

خلال سيرها في اتجاه المصعد، خرجت السيدة كين، الجارة الوحيدة المقيمة في طابق ريتشارد، من شقتها ممسكة بيدها رسن كلبها الصغير الأبيض ذي الشعر المجعد. كلما صادفا هذه الجارة في مدخل البناء، تظاهر ريتشارد بأنه في حاجة إلى تفقّد بريده، أو اخترع عذراً آخر حتى يتفادى الكلام معها. لقد حذّر نيللي منها: «إذا أفسحت لها مجالاً فسوف تقتلك بثرثرتها».

لكن نيللي كانت تظن بأن هذه المرأة تعاني الوحدة، وهكذا فقد ابتسمت لها وهي تضغط مفتاح استدعاء المصعد.

«كنت أتساءل لماذا لم أركِ هنا في الآونة الأخيرة يا عزيزتي!».

أجابتها نيللي: «كنت هنا قبل بضعة أيام فقط».

«حسناً... عندما تكونين هنا في المرة القادمة، أرجو أن تطرقي بابي وسوف أدعوك لتناول الشاي».

«كلبك جميل جداً». قالت نيللي هذا وهي تداعب فرو الكلب الأبيض المنفوش بحركة سريعة من يدها. الظاهر أن المرأة وكلبها يذهبان إلى محل الحلاقة ذاته... هكذا قالت نيللي في نفسها.

«إن السيد منفوش يحبكِ. قولي لي، أين هو حبيبك؟».

«اضطر ريتشارد إلى السفر إلى أتلانتا لأن لديه عملاً هناك».

راح الكلب يتشمّم حذاء نيللي... «عمل؟ في يوم الأحد؟ إنه مشغول دائماً، أليس كذلك؟ يجري دائماً لكي يلحق بالطائرة. لقد عرضت عليه أن أتفقد شقته في غيابه، لكنه قال إنه لا يريد الإثقال عليَّ بهذا الأمر... قولي لي، إلى أين أنت ذاهبة الآن؟».

وحيدة، تحب النميمة... هذا ما فكّرت فيه نيللي. وصل المصعد فمدت نيللي ذراعها حتى يظل الباب مفتوحاً إلى أن تصير السيدة كين وكلبها داخله.

«إنني ذاهبة إلى العمل، أنا أيضاً. أنا معلّمة في حضانة؛ ويجب أن أذهب لتنظيف صفي وترتيبه استعداداً لحفل نهاية السنة».

كان من المقرر أن يجري حفل التخرج في اليوم التالي. ومع أن المعلمات عادة ما يقمن بترتيب غرف الصفوف بعد بضعة أيام من ذهاب الأطفال، فيجعلن تلك المهمة نوعاً من حفلة لهن يشربن فيها شيئاً من النبيذ يدخلنه سرّاً إلى المكان، إلا أن نيللي كانت مضطرة إلى إنهاء هذا العمل الآن لأنها مسافرة إلى فلوريدا في نهاية الأسبوع.

أومأت السيدة كين برأسها معبّرة عن سرورها. وقالت: «كم هذا جميل! يسعدني أن ريتشارد وجد لنفسه صبية جميلة لطيفة. لم تكن زوجته السابقة ودودة على الإطلاق».

«أوه؟».

اقتربت السيدة كين منها: «لقد رأيتها منذ أسبوع فقط تتكلّم مع البواب، مايك. كانت متوترة تماماً».

«هل كانت هنا؟...» لم يذكر لها ريتشارد أي شيء عن هذا.

لمعت عينا السيدة كين فأدركت نيللي أنها مستمتعة كثيراً بأن تكون الشخص الذي ينقل لها هذه الأنباء: «أوه، نعم! وقد أعطت مايك كيساً ـ كيس تيفاني، فقد عرفته من لونه الأزرق المميز. وقالت إن عليه أن يعيده إلى ريتشارد».

انفتحت أبواب المصعد فانقضّت السيدة كين وكلبها على جارة أخرى كانت تدخل البناية في تلك اللحظة مع كلبها الصغير.

خرجت نيللي إلى الردهة التي كانت أشبه بمعرض فنّي صغير: نبتة أوركيد ضخمة تزين الطاولة الزجاج الموضوعة بين أريكتين منخفضتي الظهر، وجدران بلون الزبدة عليها لوحات تجريدية. حياها فرانك الذي كان بواب المبنى أيام الأحد... رجل له لكنة منطقة برونكس الثقيلة. إنه المفضل لديها من بين أفراد طاقم الخدمة الذي يسهر على سكان هذه البناية الفاخرة في الحي الشرقي.

حيّته نيللي: «مرحباً فرانك»؛ وكانت مسرورة برؤية ابتسامته العريضة التي تكشف عن سن مكسورة. التفتت لتنظر إلى السيدة كين فرأت أنها ماضية في حديث متحمس مع الجارة الأخرى. بدا لها أن زوجة ريتشارد السابقة قد أتت لتعيد شيئاً قدمه لها ريتشارد ذات مرة؛ بل إن ريتشارد لم يرها عندما أتت. من عساه يعرف ما كان في ذلك الكيس؟ من الواضح أن انفصالهما كان مؤلماً.

قالت نيللي لنفسها إن هنالك الكثير من حالات الانفصال المؤلمة. لكنّ شيئاً من القلق ظل يساورها.

غمز لها فرانك بعينه، ثم أشار إلى الخارج وقال لها: «الظاهر أن المطر موشك على الهطول. هل لديك مظلة يا عزيزتي؟».

«لدي ثلاث مظلات، لكنها في شقتي».

ضحك فرانك وقال لها: «خذي، استعيري هذه المظلة». مد يده إلى

الحامل النحاسي عند الباب. مدت يدها اليسرى لتتناول المظلة منه: «أنت هو الأفضل. أعدك بأنني سأعيدها».

لاحظت أنه ألقى نظرة سريعة إلى خاتمها، ثم ألقى عليه نظرة أخرى قبل أن يتمالك نفسه ويبعد نظره عنه. كان يعرف بأمر خطوبتهما، لكن نيللي عادة ما تدير فص الخاتم الماسي إلى الجهة الداخلية من يدها حتى يظل مخفياً عندما تسير في شوارع المدينة. كان ريتشارد صاحب هذا الاقتراح عندما ذكّرها بوجوب الحذر دائماً.

«شكراً لك». قالت هذا لفرانك وهي تشعر باحمرار في خديها. بدا لها أن هنالك نوعاً من المباهاة الزائدة في وضع هذا الخاتم الذي قد يبلغ ثمنه مقدار ما يتقاضاه فرانك في سنة كاملة... بل أيضاً مقدار ما تتقاضاه هي ـ معلمة روضة الأطفال ـ في سنة كاملة.

تساءلت نيللي في نفسها: هل تعيش زوجة ريتشارد السابقة في مكان قريب؟ بل لعلها مرّت بها في الشارع من غير أن تعرفها.

لم تنتبه أنها كانت تعبث بزر فتح المظلة إلى أن رأتها تنفتح أمامها. تردّد صوت أبيها في عقلها: لا تفتحي مظلة في الداخل أبداً. إنه حظ سيئ!

«انتبهي من المطر...». سمعت فرانك يقول لها هذا وهي تخطو خطوتها الأولى في الهواء الرمادي المشبع بالرطوبة.

* * *

كانت سامانثا مرتدية قميص نومها الطويل... ذلك الذي كان مكتوباً على صدره «ما هذه الفوضى الجميلة!».

هزت نيللي كيس الورق الذي يحتوي على كعكات بذور الخشخاش مع البيض وجبن الشيدر واللحم والكاتشاب... وجبتهما المفضلة للمعالجة من آثار الشراب وقالت: «مرحباً يا ضوء الشمس».

كان صندل سامانثا الذي خلعته في الليلة الماضية مشلوحاً على الأرض عند الباب، ومن بعده حقيبة يدها، ثم تنورتها القصيرة بعد خطوات قليلة. عادة ما تقول نيللي مازحة: «خط سير سامانثا».

«مرحباً»... أجابتها سامانثا وهي تصب القهوة في فنجان كبير، لكنها لم تستدر لتنظر إليها: «ماذا حدث معك الليلة الماضية؟».

«ذهبت إلى شقة ريتشارد. لقد شربت الكثير من التيكيلا».

كانت نبرة صوت سامانثا جافّة وهي تقول: «صحيح، قالت مارنييه إن ريتشارد قد أتى. كان لطيفاً منك أن تودعينا».

قالت نيللي: «أنا...». ثم انفجرت باكية. أوووف... لقد نجحتْ في إزعاج سامانثا أيضاً!

استدارت سامانثا في اتجاهها: «واو! ما الذي يحدث هنا؟».

هزت نيللي رأسها قائلة: «كل شيء...». منعت نفسها من الانفجار باكية من جديد... «أنا آسفة جداً لأنني لم أخبرك بذهابي...».

«أشكرك لأنك تقولين هذا. أعترف بأنني انزعجت كثيراً، خاصة أنك أتيت إلى العشاء متأخرة».

«لم أكن أريد الذهاب. لكن... يا سام... لقد قبّلت نيك».

«أعرف هذا. لقد رأيتك».

«نعم؛ ريتشارد رآني أيضاً...». مسحت نيللي عينيها بمنديل ورقي... «لقد أغضبه ذلك كثيراً...».

«وهل تحدثتما في الأمر؟».

«نوعاً ما. كان عليه أن يسافر إلى أتلانتا هذا الصباح، وهكذا لم نتحدّث كثيراً. لكن، يا سام، هنالك امرأة اتصلت بشقته هذا الصباح، عندما كنت وحدي هناك. لم تقل لي اسمها، ثم قالت لي جارته إن زوجته السابقة أتت في الأسبوع الماضي».

«ماذا؟ أهو مستمر في رؤيتها؟».

أجابت نيللي بسرعة: «لا! لقد أتت فقط حتى تعيد له شيئاً. تركته عند البواب».

رفعت سام كتفيها: «يبدو هذا لي أمراً بريئاً تماماً».

تردّدت نيللي قبل أن تقول: «لكن الأمر انتهى بينهما منذ عدة شهور، فلماذا تعيد ذلك الشيء الآن؟».

لم تكن واثقة من السبب الذي جعلها تمتنع عن القول لسام إنها تظن ذلك الشيء كان هدية من ريتشارد قدمها لزوجته السابقة قبل انفصالهما. وبما أنه من محل تيفاني، فمن المرجّح أنه باهظ الثمن.

تناولت سامانثا رشفة من قهوتها، ثم ناولت نيللي فنجانها فأخذت منه رشفة بدورها. سألتها سامانثا: «لماذا لا تسألين ريتشارد عن الأمر؟».

«أظن... إنني لا يجوز أن أكون منزعجة من هذا الأمر».

«همم». قضمت سامانثا لقمة من الكعكة وراحت تمضغها. تقلصت معدة نيللي عندما بدأت تفتح سندويشها. لقد اختفت شهيتها تماماً.

«كنت أظنها قد صارت خارج الصورة تماماً. هذه مسألة مصادفة محض، أليس كذلك؟ لكن تلك المكالمات الغريبة التي أتلقاها منذ فترة...».

«أهي المتصلة؟».

همست نيللي: «لست أدري! لكن أليست مصادفة غريبة أن تبدأ هذه المكالمات مباشرة بعد أن صرنا مخطوبَيْن».

لم يبد على سامانثا أن لديها إجابة عن هذا السؤال.

«ثم... ثم كانت تلك اللحظة هذا الصباح بعد أن أجبت على الهاتف فلم أسمع إلا صوت تنفّس. كان ذلك مثل تلك المكالمات الأخرى،

بالضبط. ثم سألتني هذه المرأة عن ريتشارد، لذلك... أعرف أنني أبدو مجنونة بعض الشيء عندما أتحدّث عن هذه الأشياء بصوت مرتفع».

وضعت سامانثا كعكتها وعانقت نيللي عناقاً قوياً سريعاً. قالت لها: «أنت لست مجنونة. لكن عليك أن تتحدّثي مع ريتشارد. لقد عاشا معاً زمناً طويلاً، أليس هذا صحيحاً؟ ألا تستحقين معرفة شيء عن ذلك الجزء من حياته؟».

«لقد حاولت».

«ليس أمراً منصفاً أن يجعلك تظلّين هكذا، غير عارفة بشيء عن ماضيه».

«إنه رجل يا سام! وهو لا يحسّ بحاجة إلى الكلام عن كل أمر حتى الموت مثلما نحس نحن»... مثلما تحسين أنت... هكذا قالت نيللي في نفسها.

«يبدو لي أنك لم تتحدّثي معه في الأمر على الإطلاق».

تغاضت نيللي عن هذه الجملة الأخيرة. نادراً ما تحدث مشادّة بينها وبين سامانثا. كما أن نيللي لا تريد التعمق في هذا الموضوع الآن.

«قال لي إنهما تباعدا شيئاً فشيئاً. يحدث هذا، أليس كذلك؟».

لكن ريتشارد قال لها شيئاً آخر. والآن، بدا لها هذا الشيء الآخر مهامّ على نحو خاص: لم تكن مثلما ظننتها.

هكذا كانت كلماته بالضبط. وقد فوجئت نيللي بالتقزز الذي ظهر على وجهه عندما قال هذه الكلمات.

من المؤكد أن زميلتها في السكن سيكون لها رأيها في هذا.

لكن التعبير الغامض الظاهر على وجه سامانثا الآن يشبه التعبير الذي رأته نيللي على وجهها عندما أخبرتها عن البيت الذي اشتراه ريتشارد.

وقد ظهر التعبير نفسه على وجهها عندما عادت نيللي إلى البيت وفي إصبعها خاتم خطبتها.

قالت نيللي بنبرة خفيفة أرادت بها إظهار عدم قلقها: «أنت محقّة. سوف أسأله مرة أخرى».

كانت نيللي تعرف أن سامانثا لم تعتبر هذا الحديث منتهياً، لكنها أحست بنفسها راغبة في حماية ريتشارد. لقد أرادت أن تطمئنها سامانثا بخصوص زوجة ريتشارد السابقة لا أن تشير إلى عيوب العلاقة التي بينها وبينه.

أخذت نيللي بضعة أكياس تسوّق كانت محشورة في الشق الضيق بين البراد والجدار: «يجب أن أذهب إلى المدرسة. علي أن أبدأ ترتيب غرفة الصف. هل تحبين المجيء معي؟».

«إنني مرهقة تماماً. أظنني سأنام قليلاً».

.... لا تزال المياه عكِرة بعض الشيء!

لكزت نيللي صديقتها المقربة بكتفها: «أقول لك من جديد إنني آسفة لتركك هناك من غير أن أقول لكِ شيئاً. لقد كانت حفلة عظيمة حقاً. اسمعي، هل أنت هنا الليلة؟ يمكننا أن نضع أقنعة تجميلية ونجلس لمتابعة نوتينغ هيل. سنطلب طعاماً صينياً. على حسابي...».

لا يزال ذلك التعبير ظاهراً على وجه سامانثا. لكنها قبلت عرض الهدنة غير المباشر. أجابتها: «بالتأكيد. هذا شيء جميل».

* * *

كيف كان شكل زوجة ريتشارد السابقة؟

قالت نيللي في نفسها إنها امرأة رشيقة فاتنة. كانت في تلك اللحظة موشكة على الوصول إلى حضانة الأطفال. لعل زوجته السابقة تستمتع

هكتبة

بالموسيقى الكلاسيكية؛ ولعلها قادرة على تمييز النبيذ الجيد أيضاً. ثم إن نيللي واثقة من أن زوجة ريتشارد السابقة لا تجد صعوبة في نطق كلمة Charcuterie[1]. بعكس نيللي التي اضطرّت مرة إلى الإشارة بإصبعها إلى تلك الكلمة في قائمة المأكولات في المطعم.

لقد سألته نيللي عنها بعد لقائهما بفترة قصيرة لأن لديها فضولاً يدفعها إلى معرفة شيء عن المرأة التي شاركته حياته قبلها. كان كل منهما يقرأ للآخر مقاطع من صحيفة تايمز في صبيحة يوم أحد كسول بعد أن مارسا الحب واستحمّا معاً.

استخدمت نيللي فرشاة الأسنان الإضافية التي اشتراها ريتشارد من أجلها. وكانت ترتدي قميصاً قصير الكمين تركته في شقته في زيارة سابقة. جعلها ذلك تتساءل عن سبب انعدام أي أثر لزوجة ريتشارد السابقة في هذه الشقة. لقد عاشا معاً عدة سنوات، لكنها لم تجد حتى رباط شعر مطاطياً منسياً في الخزانة التي تحت المجلى، ولم تجد علبة من شاي الأعشاب منسية في زاوية عميقة في خزانة الطعام؛ ولم تكن هنالك وسائد صغيرة جميلة تلطف الخطوط القاسية لأريكة ريتشارد الجلد الكبيرة.

كانت شقّة ذكورية الطابع تماماً وكأن زوجته السابقة لم تعِش فيها على الإطلاق.

«لقد كنت أفكّر... نحن لم نتحدّث كثيراً عن زوجتك السابقة... لماذا انتهى زواجكما؟».

رفع ريتشارد كتفيه وقلب الصفحة التي كان يقرأها في قسم الأعمال في الصحيفة: «لم يكن ذلك نتيجة أي حادثة بعينها... لقد تباعدنا شيئاً بعد شيء».

---

(1) شاركوتري (بالفرنسية). لحوم باردة.

ثم قال الجملة التي لم تستطع نيللي إخراجها من رأسها بعد ذلك أبداً: «لم تكن مثلما ظننتها».

أسقطت نيللي الصحيفة التي كان يقرأها من يده بحركة عابثة وقالت له: «لا بأس، كيف التقيتما؟».

«ماذا بك الآن يا حبيبتي؟ إنني معك. وهي آخر ما أريد الحديث عنه». كانت كلماته لطيفة، لكن نبرة صوته لم تكن كذلك.

«آسفة، كنت أتساءل فحسب».

لم تأتِ على ذكرها بعد ذلك أبداً. فبعد كل حساب، كانت في ماضي نيللي أيضاً أشياء لا تريد الحديث عنها معه.

لا بد أن طائرة ريتشارد قد حطت الآن في أتلانتا. فكرت نيللي في هذا وهي تفتح مزلاج بوابة السور المحيط بملعب الأطفال، ثم تدخل الحضانة. لعله في اجتماع، أو لعله وحيد في غرفة الفندق الآن. هل تشغل باله صور صديق نيللي السابق مثلما تشغل بالها زوجته السابقة؟

لم تكن قادرة على تخيل كم هو مؤذٍ لها أن ترى ريتشارد يقبّل امرأة أخرى. تساءلت إن كان ريتشارد يظنّ بأن نيللي أيضاً يمكن أن تكون شخصاً مختلفاً عما يظنّها.

أخرجت هاتفها لكي تتصل به، ثم توقّفت. لقد تركت له رسالة. ثم إنها لن تسأله عن زيارة زوجته السابقة. لقد كسب ثقتها؛ أما هي فقد هزّت ثقته بها.

«مرحباً!».

رفعت نيللي رأسها فرأت المسؤول عن فريق الشباب في الكنيسة يفتح الباب لها. قالت وهي سائرة في اتجاهه بخطوات سريعة: «أشكرك». ابتسمت له ابتسامة كبيرة تعويضاً عن أنها لم تستطع تذكّر اسمه.

«كنت على وشك إقفال الباب. ولم أتوقّع أن يأتي يوم الأحد أي شخص من العاملين في المدرسة».

«أردت أن أبدأ اليوم تنظيف غرفة صفي وترتيبها».

أومأ برأسه ثم نظر إلى السماء. حجبت الشمس غيوماً ثقيلة متراكضة. قال لها مبتهجاً: «يبدو لي أنك سبقت هطول المطر».

نزلت نيللي إلى القبو وأضاءت المصباح المعلّق في الممر عندما بدأت تنزل درجات السلم. تمنّت لو أنها أتت من شقة ريتشارد مباشرة عندما كانت الكنيسة مليئة بمرتادي قداس يوم الأحد. لم تتوقّع أن تجد المكان خالياً.

عندما دخلت غرفة صفّها، كادت تدوس على تاج ورقي قابع وحده على الأرض. انحنت والتقطت التاج ومسّدته حتى تزيل التجاعيد التي أصابته. كان اسم برايانا مكتوباً على التاج من الداخل بتلك الأحرف المهتزة التي علّمتها نيللي كيف تكتبها. «تذكري أن للحرف B بطنين كبيرين منتفخين»، هذا ما قالته نيللي لها عندما ظلت الصغيرة تكتب الحرف بالمقلوب. كانت برايانا شديدة الاعتزاز بنفسها عندما نجحت أخيراً في كتابته على نحو صحيح.

لقد صنع الأطفال تلك التيجان لكي يضعوها خلال حفلة التخرج. سوف يقفون في صف غير منتظم خلف الستارة إلى أن تضع نيللي يدها على أكتافهم الصغيرة، واحداً بعد الآخر، وتهمس قائلة: «هيا!». فيسير الطفل على امتداد منصّة مرتفعة على هيئة ممر بينما يقف ذووه فيهلّلون له ويلتقطون الصور.

لا بد أن برايانا حزينة لأنها أضاعت تاجها. لقد أمضت وقتاً طويلاً في وضع اللصاقات الملونة عليه واستخدمت نصف أنبوبة من الصمغ حتى تلصق كرات ملونة صغيرة على كل نقطة منه. سوف تتصل نيللي بأهلها لتخبرهم بأنها وجدت التاج.

وضعت التاج في أحد الأكياس التي جاءت بها، ثم وقفت مصغية إلى ذلك الصمت غير المألوف.

كانت غرفة صفّها متواضعة. وما كان فيها غير الألعاب الأساسية مقارنةً بتلك الألعاب التي يمتلكها معظم الأطفال في بيوتهم. لكن تلاميذها يأتون كل صباح فيضع كل منهم طعام غدائه في خزانته الصغيرة ويعلّق معطفه الصغير أو سترته الصغيرة على خطاف من الخطافات. كان الجزء المفضل من اليوم عند نيللي هو «أرِنا وأخبرنا» الذي من المتوقع دائماً أن يكون تخمين ما يمكن أن يحدث فيه أمراً مستحيلاً تماماً. في ذات يوم، جلبت آني معها «قرص فريزبي» مصغّراً وجدته في خزانة الأدوية في بيتها. أعادت نيللي ذلك الواقي الأنثوي إلى والدة آني عندما أتت إلى الروضة. قالت الأم مازحة: «على الأقل، إنه ليس الفايبريتر!». وفي مرة أخرى، فتح لوكاس علبة طعامه فخرج منها هامستر حي لم يلبث أن اغتنم هذه الفرصة النادرة للحرية فقفز هارباً. ظلت نيللي تبحث عنه يومين كاملين، لكنها لم تجده.

لم تكن تظن أبداً أن ترك الحضانة سيكون مؤلماً إلى هذا الحد. بدأت تجمع عن الجدران الفراشات الورقية التي صنعها الأطفال ثم تضعها في مغلفات حتى ترسلها مع الأطفال إلى بيوتهم. أطلقت صرخة صغيرة عندما جرحت حافة إحدى الورقات بقعة طرية في نهاية إصبعها.

شتمت بصوت مسموع. لعلها لم تتلفظ بأية شتيمة منذ سنين. منذ أن سببت صدمة لديفيد كونيللي الصغير، فكان عليها أن تتعب كثيراً حتى تقنعه بأنها كانت تخاطب الشاحنة اللعبة. وضعت إصبعها في فمها، ثم فتحت خزانة اللوازم فأخرجت شريطاً لاصقاً مزيناً برسوم صغيرة.

كانت تلف الشريط اللاصق على إصبعها عندما سمعت صوتاً في الممر.

نادت: «من هناك؟».

لا إجابة!

سارت إلى الباب، وألقت نظرة في الممر. كان الممر الضيق فارغاً. وكانت الأرضية المغطاة باللينوليوم تعكس ألق المصابيح المعلقة في السقف. رأت غرف الصفوف الأخرى مظلمة، ورأت أبوابها مغلقة. إن عظام هذه الكنيسة تطقطق أحياناً... لا بد أنه صوت صادر عن واحد من ألواح الأرضية الخشب.

بدت لها المدرسة موحشة في غياب الضجيج والضحك من حولها.

فتحت نيللي حقيبة يدها وأخرجت منها هاتفها. لم يتّصل بها ريتشارد حتى الآن! تردّدت قليلاً، وكتبت له: أنا في حضانة الأطفال. اتصل بي إن استطعت. أنا هنا وحدي.

تعرف سامانثا أنها هنا، لكن سامانثا نائمة الآن. ستشعر نيللي باطمئنان أكثر إذا عرف ريتشارد أين هي.

كانت موشكة على إعادة هاتفها إلى حقيبة يدها، لكنها غيّرت رأيها ووضعته في جيب بنطلونها، تحت شريط الخصر المطاطي. نظرت في الممر من جديد، وظلت مصغية لحظة طويلة.

عادت نيللي إلى نزع تلك الأشغال الفنية عن الجدران؛ لكنها صارت تعمل مسرعة إلى أن صارت الجدران عارية تماماً. أنزلت من على حامل يشبه حوامل اللوحات جدول الدروس المطبوع بحروف كبيرة. ثم رفعت يديها إلى أقصى ما تستطيع حتى تطال روزنامة ضخمة كانت معلّقة فوق اللوح. كانت على الروزنامة بطاقات ملونة تشير كل منها إلى يوم من أيام الأسبوع مع رمز يدل على حالة الطقس. كانت شمس مبتسمة لا تزال مثبتة على يوم الجمعة.

ألقت نيللي نظرة سريعة من النافذة. لقد بدأت قطرات المطر الصغيرة الأولى تتساقط في الخارج.

لم تكد تلاحظ المرأة الواقفة خلف البوابة مباشرة.

كانت نبتة متسلّقة تحجبها عن نظرها. لم تستطع نيللي رؤية شيء غير معطف ذي لون بنيّ فاتح ومظلّة خضراء تحجب وجه تلك المرأة. رأت أيضاً شعرها البنيّ الطويل متطايراً في الريح.

لعلها امرأة خرجت لكي تنزّه كلبها.

مطّت نيللي رقبتها جانباً محاولة الرؤية من زاوية مختلفة. لم يكن هنالك كلب.

هل يمكن أن تكون أماً تفكّر في وضع طفلها في هذه الحضانة فأتت لكي تلقي نظرة عليها؟

لكن من غير المعقول أن تأتي يوم الأحد عندما تكون روضة الأطفال مغلقة.

لعلها واحدة ممن كانوا يحضرون القدّاس!... لكن القدّاس انتهى منذ ساعات.

أخرجت نيللي هاتفها من جديد، ثم ألصقت وجهها بزجاج النافذة. تحرّكت المرأة فجأة وابتعدت مسرعة فغابت بين الأشجار. رأتها نيللي تلتف حول الزاوية عند القبور الثلاثة.

إنها ماضية في اتجاه المدخل الموجود على الناحية الأخرى من الكنيسة.

يظل ذلك الباب مفتوحاً أحياناً، يسنده حجر ثقيل عندما يكون هنالك نشاط مسائي في الكنيسة من قبيل لقاءات جمعية مناهضة الكحول.

كان في اندفاعة المرأة المفاجئة شيء غريب... تلك الحركة السريعة المفاجئة، وغرابة خطوتها... شيء ذكّر نيللي بالمرأة التي اصطدمت بها فأسقطت حقيبة يدها في الحمام يوم الاجتماعات مع أهالي الأطفال.

لم تعد نيللي قادرة على البقاء دقيقة واحدة في هذا المكان. حملت أكياسها وتركت بعض الأوراق التي ظلت مبعثرة على الطاولة ثم اتجهت نحو الباب. رن هاتفها في تلك اللحظة فأجفلت. إنه ريتشارد. قالت لاهثة: «يسرني كثيراً أنه أنت».

«هل أنت بخير؟ يبدو لي صوتك مضطرباً».

«إنني وحيدة في المدرسة».

«صحيح، لقد قلتِ لي ذلك في الرسالة النصية. هل أبواب الكنيسة مقفلة؟».

«لست متأكدة، لكني خارجة الآن». بدأت نيللي تصعد درجات السلّم مسرعة... «لا أعرف السبب، لكن المكان يبدو لي مخيفاً بعض الشيء».

«لا تخافي يا حبيبتي. سوف أبقى معك على الهاتف».

ألقت نظرة خلفها وهي تخرج من الباب، ثم أبطأت خطواتها حتى تلتقط أنفاسها. بلغت نهاية المبنى ففتحت مظلّتها وبدأت تسير في اتجاه المنطقة الأكثر ازدحاماً في الشارع. الآن، بعد أن صارت في الخارج، أدركت أنها بالغت في رد فعلها.

«اشتقت إليك كثيراً. لدي شعور سيئ جدّاً تجاه ما جرى الليلة الماضية».

«اسمعي، لقد كنت أفكّر في هذا. أعرف أنني رأيتك تدفعينه بعيداً. أعرف أنك تحبينني». كان هذا جيداً إلى درجة تجعله صعب التصديق.

لم تكن تريد أن يعرف ريتشارد شيئاً عن نسيانها أن لديه هذه الرحلة.

«ليتني قادرة على أن أكون معك اليوم. بعد التخرّج، سأكون كلّي لك».

«أنت لا تعرفين كم يسعدني هذا». كان صوته أماناً لها وهو يقول هذه الكلمات.

في تلك اللحظة قررت أنها لا تريد مواصلة التعليم. سوف تسافر مع ريتشارد في الخريف. وسوف تظلّ على صلة بالأطفال... بأطفالهما.

«يجب أن أعود إلى اجتماعي. هل تشعرين بأنك صرت أحسن الآن؟».

«كثيراً».

عند ذلك، قال ريتشارد الكلمات التي سوف تلازمها دائماً: «أنا معك دائماً حتى عندما لا أكون موجوداً».

الفصل العاشر

إنها تعيش في شارع نشط كثير الحركة. في نيويورك عشرات البنايات مثل هذه البناية... ليست فاخرة، وليست فقيرة، بل هي في مكان ما بين هذا وذاك، في منطقة الوسط المتّسعة كثيراً.

يذكّرني هذا الشارع بالحي الذي كنت أعيش فيه عندما التقيت بريتشارد أول مرة.

على الرغم من زخات المطر الغزيرة التي انتهت قبل قليل، فإن في الشارع من البشر ما يكفي لأن يجعل وجودي غير لافت للأنظار. هنالك موقف باص عند زاوية الشارع إلى جانب متجر للبقالة والمأكولات الجاهزة. وعلى مسافة بنايتين منها، هنالك صالون تجميل صغير. أب يدفع عربة أطفال، وامرأة ورجل يسيران يداً بيد. امرأة تحمل ثلاثة أكياس من المشتريات. وشاب يعمل في توصيل المأكولات الصينية يقود دراجته عبر بركة ماء قريبة منّي فيرشّني ببعض الرذاذ. تظل رائحة الوجبات التي معه معلقة في الهواء من خلف دراجته. في الماضي، كانت معدتي تستجيب لإغراء الروائح الشهية... رائحة الأرز المقلي مع الدجاج أو رائحة القريدس الحلوة الحامضة.

أتساءل... كم هي على معرفة جيدة بحيّها.

لعلها قرعت باب الشقة التي فوقها وناولتهم طرداً أتت به شركة UPS

فأخطأت العنوان وتركته عند بابها. ولعلها تشتري الفاكهة والمعجّنات من ذلك المتجر حيث يجلس صاحبه خلف صندوق المحاسبة ويحييها باسمها.

من عساه يفتقد وجودها عندما تختفي؟

أنا مستعدة للانتظار فترة طويلة. شهيتي للطعام غير موجودة. لا يشعر جسدي بحَرٍّ ولا ببردٍ. وما من شيء يلزمني. لكنني أحس بتسارع نبضات قلبي قبل مضي وقت طويل... على الأقل، أظنني لم أنتظر بعد وقتاً طويلاً جداً... تتقطّع أنفاسي عندما أراها آتية عند زاوية الشارع.

إنها تحمل كيساً. أنظر جيداً فأرى على الكيس شعار تشوبت، ذلك المتجر الذي يبيع أنواعاً كثيرة من السلطة. يهتز الكيس في يدها مع سيرها موافقاً الإيقاع الناعم لذيل شعرها المربوط عالياً فوق رأسها.

يندفع أمامها كلب طويل الأذنين فتتوقّف لحظة حتى لا تتعثّر بحبله. يشد صاحب الكلب الحبل إليه فأراها تومئ له برأسها وتنحني وتداعب رأس الكلب.

أتراها تعرف شعور ريتشارد تجاه الكلاب؟

إنني أحمل هاتفي إلى أذني. جسدي نصف مستدير في عكس اتجاهها. ومظلّتي مائلة حتى تحجب وجهي عنها. أراها تتابع السير في اتجاهي فأنظر إليها ملياً. تلبس بنطلوناً رياضياً رقيقاً وبلوزة بيضاء فضفاضة، ومعها سترة خفيفة من النايلون ربطتها حول خصرها. السلطة والتمرينات الرياضية... لا بد أنها تريد أن تظهر في أحسن حال عندما ترتدي فستان زفافها. تتوقّف لحظة أمام باب بنايتها وتمد يدها في حقيبة يدها. وبعد لحظة، تختفي داخل البوابة.

أترك مظلّتي تسقط وأدلك جبهتي بأصابعي محاولة التركيز. أقول لنفسي إنني أتصرّف بطريقة جنونية. حتى لو كانت حبلى (وهو ما لا

أظنه ممكناً)، فمن المرجَّح أن حملها ليس ظاهراً بعد. إذاً، لماذا أتيت إلى هذا المكان؟

أنظر إلى بابها الموصد. ماذا يمكن أن أقول إذا قرعتُ الباب ففتحتْه. يمكنني أن أتوسل إليها حتى تلغي موعد الزفاف. يمكنني تحذيرها من أنها سوف تندم على هذا، ومن أن ريتشارد سيخونها مثلما خانني. لكن من المرجّح أنها ستغلق الباب في وجهي وتذهب لتتصل بريتشارد.

لا أريد أن يعرف أبداً أنني لحقت بها.

تظن أنها آمنة الآن. أتخيّلها تغسل علبة السلطة البلاستيك ثم تضعها في سلة القمامة المخصّصة لإعادة التدوير، ثم تضع على وجهها قناعاً طينياً؛ وقد تتصل بوالديها لكي تحدثهما عن آخر ما استجد على ترتيبات حفل الزفاف.

لا يزال هنالك بعض الوقت. لا يمكنني أن أكون متهوّرة.

لدي مسافة مشي كبيرة حتى أصل إلى بيتي. أنعطف نحو زاوية الشارع عائدة في الطريق التي أتت منها. أمرّ بمتجر تشوبت بعد بناية واحدة فأتوقّف، ثم أدخل المتجر. أنظر في قائمة السلطات محاولة تخمين ما تحب أن تأكله حتى أطلب لنفسي ذلك الطبق عينه.

تناولني العاملة السلطة التي طلبتها موضوعة في علبة بلاستيك ثم تضع بين يديَّ كيساً ورقياً أبيض فيه شوكة وسكين، فأبتسم لها وأشكرها. تمس أصابعها أصابعي فأتساءل إن كانت قد خدمت بديلتي مثلما تخدمني الآن.

حتى قبل أن أخرج من باب المتجر، أشعر فجأة بقرصات جوع عنيفة. وجبات العشاء كلها التي نمت من غير أتناولها، ووجبات الفطور التي أهملتها، ووجبات الغداء التي ألقيت بها في سلة القمامة، جاءتني كلّها فأوقدت في داخلي رغبة متوحشة في ملء الخواء الذي في داخلي.

أخطو جانباً إلى طاولة من حولها بضع كراسٍ مرتفعة. لكني لا أستطيع الانتظار إلى أن أضع أشيائي على الطاولة وأجلس على الكرسي.

ترتجف أصابعي وأنا أفتح العلبة وأبدأ بجرف محتوياتها بالشوكة إلى فمي، لقمة بعد لقمة، وأنا أحمل العلبة قريباً من ذقني حتى لا يسقط منها شيء... ألتهم الأوراق الخضراء ذات الطعم اللاذع، وألاحق بشوكتي قطع البيض والطماطم المنزلقة في زوايا العلبة.

أشعر بالغثيان مع ابتلاع اللقمة الأخيرة، وتصير معدتي ممتلئة تماماً. لكني لا أزال خاوية مثلما كنت.

أرمي بالعلبة الفارغة وأبدأ السير عائدة إلى البيت.

أدخل الشقة فأرى خالتي شارلوت مستلقية على الأريكة، وأرى رأسها مستنداً إلى وسادة، وعلى عينيها منشفة صغيرة تغطيهما. عادة ما تعطي دروساً في المعالجة الفنية في بيلفيو مساء كل أحد. لم أعرف عنها أنها تخلفت عن درس واحد من تلك الدروس.

ثم إنني لم أرها تأخذ قيلولة قبل الآن.

ينتابني القلق عليها.

ترفع رأسها على صوت إغلاق الباب فتنزلق المنشفة عن وجهها. تمسكها بيدها. تبدو ملامح وجهها أكثر لطفاً من غير نظارة.

أسألها: «هل أنت بخير؟»... أنتبه إلى المفارقة في هذا السؤال: إنه صدى كلماتها التي تكرّرها عليّ دائماً منذ أن أنزلتني سيارة التاكسي عند رصيف بنايتها مع ثلاث حقائب محشوّة بحوائجي.

تمسك بحافة الأريكة ثم تنهض واقفة: «صداع شديد فحسب.. لقد بذلت جهداً زائداً اليوم. انظري إلى غرفة المعيشة. أظنني أزلت منها ما تراكم خلال عشرين سنة بعد رحيل زوجي».

أرى أنها لا تزال في ملابس الرسم: بنطلون جينز ومن فوقه قميص من قمصان جامعة أكسفورد الزرقاء التي كانت لزوجها الراحل. الآن، صار القميص رقيقاً مهترئاً عليه طبقات من نقط الألوان ولطخاتها. إنه عمل فني في حدّ ذاته... تاريخ بصري لحياتها الإبداعية.

«أنت مريضة!». أحس بأن الكلمات تخرج مني قسراً. صوتي مرتفع مذعور.

تسير خالتي شارلوت إليّ وتضع يدها على كتفي. إن لنا الطول نفسه تقريباً. تنظر في عينيَّ مباشرة. جعل التقدّم في السن عينيها البنيتين ذابلتين، لكنهما لا تزالان يقظتين مثلما كانتا.

«أنا لست مريضة».

لا تتجنّب خالتي شارلوت الأحاديث الصعبة أبداً. عندما كنت أصغر سناً، شرحت لي مشكلات الصحة العقلية التي كانت أمي تعانيها، لكنها شرحتها بكلمات بسيطة صادقة أستطيع فهمها.

صحيح أنني أصدّق خالتي، لكنني أسألها: «هل أنت متأكّدة من هذا؟». صوتي مختنق بدموع خفية. لا يمكنني أن أخسر خالتي شارلوت! لا يمكنني أن أخسرها هي أيضاً.

«أنا متأكدة. لست ذاهبة إلى أي مكان يا فانيسا».

تحتضنني فأستنشق رائحتها التي كانت تحيط بي عندما كنت فتاة صغيرة: رائحة زيت بذر الكتان من ألوانها، ورائحة الخزامى التي تضعها على جسدها.

«هل أكلت؟ كنت موشكة على بدء تحضير شيء ما للأكل».

قلت كاذبة: «لم آكل. لكن دعيني أحضّر شيئاً للعشاء. إنني في مزاج مناسب للطبخ».

لعلّي مذنبة وقد أرهقتها؛ ولعلي أثقلت عليها فبالغت.

تفرك عينيها: «سيكون هذا عظيماً».

تسير خلفي إلى المطبخ، ثم تجلس على أحد الكراسي. أفتح البراد فأجد فيه زبدة وفطراً وقطع دجاج. أبدأ بقلي الدجاج.

أسكب لكل منا كأساً من المياه الغازية: «كيف سار رسم لوحة تلك المرأة؟».

«لقد غفت خلال جلستنا».

«هل غفت حقاً؟... وهي عارية؟».

«سوف يفاجئك هذا... كثيراً ما يجد أهل نيويورك الذين يفرطون في برمجة حياتهم هذه العملية أمراً يساعدهم في الاسترخاء».

خلال إعدادي صلصة الليمون البسيطة، تنحني خالتي شارلوت لتستنشق الرائحة، ثم تقول: «رائحته شهية. أنت طباخة أفضل من أمك بكثير».

أتوقف لحظة عن غسل لوح التقطيع.

إنني معتادة كثيراً على حجب ما أشعر به، ولا أجد الآن صعوبة في الابتسام لخالتي شارلوت والدردشة معها. لكن ما يوقظ ذكرياتي موجود في كل مكان، كما هي الحال دائماً... في النبيذ الأبيض الذي أسكب شيئاً منه في الصلصة، وفي خضار السلطة في البراد التي أزيحها جانباً عندما أتناول الفطر من درج الخضار. أمضي الوقت في أحاديث خفيفة مع خالتي، وأتجاهل الأفكار التي تعتمل في ذهني، أعبر من فوقها بسلاسة مثلما تبدو سباحة البجعة انسيابية هيّنة بينما تظل حركة ساقيها العنيفة مخفية تحت الماء.

أقول، بل أفلح أيضاً في استحضار ابتسامة: «كانت أمي إعصاراً.

هل تذكرين كيف كان المجلى على الدوام غاصّاً بالأطباق والقدور والمقالي، وكيف كانت طاولة المطبخ متّسخة بالزيت أو بفتات الخبز؟ وكذلك أرض المطبخ! كانت جواربي تلتصق بها أحياناً. لم تكن أمي من أنصار فكرة أن عليك أن تقومي بالترتيب والتنظيف أثناء مضيّك في عملك». أمدّ يدي إلى الوعاء السيراميك الكبير الموضوع على الطاولة وآخذ منه بصلة كبيرة... «لكن طبخها كان عظيماً!».

في أيامها الطيّبة، كانت أمي تحضّر وجبات عامرة فيها ثلاثة ألوان من الطعام. وعلى رفوف الكتب لدينا، كانت نسخ مهترئة من كتب جوليا تشايلد وماسيلا هازان وبيير فريني؛ وكنت أجدها في مرات كثيرة تقرأ في واحد منها، وأجدها غارقة فيه مثلما قد تغرق في كتاب لجودي بلوم[1].

تقول خالتي شارلوت: «أظنك كنت الوحيدة في الصف الخامس التي تتناول شرائح لحم البقر وكعكة الليمون في أيام الأسبوع العادية».

أقلّب قطع صدر الدجاج فتفرقع سطوحها غير الناضجة في قعر المقلاة الحار. يمكنني أن أرى أمي الآن بشعرها المنفوش بفعل الحرارة المنبعثة من الفرن... أراها تقعقع بالقدور على الموقد؛ وأراها تقطّع الثوم وتغني بصوت مرتفع. كانت تقول عندما تلمحني: «تعالي يا فانيسا!...». كانت تجعلني أنظر إليها ثم تضع بعض الملح في كف يدها وتلقيه في القدر... «لا تتقيدي تقيداً تماماً بأي وصفة طبخ! امنحيها لمستك الخاصة!». كانت تقول لي هذا دائماً...

كنت أعرف أن ثمة انهياراً سيأتي سريعاً بعد تلك الليالي عندما تكون طاقة أمي قد استنفدت نفسها. لكن حرية انطلاقها تلك كان فيها شيء

---

(1) جوليا تشايلد وماسيلا هازان وبيير فريني طباخون معروفون لهم كتب طبخ واسعة الانتشار في أميركا. جودي بلوم روائية أميركية اشتهرت لها أعمال كثيرة موجهة إلى الأطفال واليافعين.

متألّق بهيّ ـ بهجتها العاصفة بشوائبها كلّها ـ رغم أنها كانت تخيفني في صغري.

تقول لي خالتي شارلوت: «لقد كانت شيئاً مختلفاً». تستند بمرفقها إلى سطح طاولة المطبخ الأزرق، ثم تضع ذقنها على كفها.

«صحيح، كانت مختلفة». يسعدني أن أمي كانت لا تزال حيّة عندما تزوجت. ويسعدني أيضاً، على نحو ما، أنها لم تكن موجودة عندما انتهى زواجي. مكتبة أحمد

«وهل تحبين الطبخ الآن أيضاً؟». تنظر خالتي شارلوت إليّ مليّاً... تبدو نظرتها متفحّصة... «أنت تشبهينها كثيراً. وصوتك يشبه صوتها أحياناً إلى حد يجعلني أظن أنها هي التي في الغرفة المجاورة...». أسأل نفسي إن كان هنالك سؤال آخر في ذهنها، سؤال لم تقله. لقد ازدادت نوبات أمي حدة في الثلاثينات... السن نفسها التي أنا فيها الآن.

فقدت تواصلي مع خالتي شارلوت خلال زواجي. كانت الغلطة غلطتي. بل كنت أكثر فوضوية من أمي؛ وكنت أعرف أن ليس من الممكن أن تأتي خالتي شارلوت من تلقاء نفسها لمساعدتي. لقد ابتعدت عنها كثيراً... ابتعدت عنها إلى حد ما كان يسمح بأن تساعدني.

تلك المرأة الممتلئة آمالاً ونشاطاً وبهجة... تلك المرأة التي كنتها عندما تزوجت ريتشارد... لا يكاد يمكن العثور عليها في المرأة التي أنا هي الآن.

قالت هيلاري إنني تحوّلت إلى كارثة حقيقية!... كانت محقة في قولها هذا.

أتساءل إن كانت أمي قد عانت تلك الأفكار الوسواسية خلال نوباتها. كنت أتخيل دائماً أن ذهنها فارغ، مخدَّر، عندما تذهب إلى فراشها. لكنني لم أعرف الحقيقة أبداً.

أفضل اختيار السؤال الأكثر بساطة فأجيبها: «لا أكره الطبخ». لكني أكرهه... أفكّر في هذا وتغوص سكيني في البصلة فتقطعها.

في بداية زواجنا، أنا وريتشارد، لم أكن أعرف أي شيء عن أمور المطبخ. كانت وجبات عشاء الفتاة العازبة التي أتناولها مؤلّفة من مأكولات صينية جاهزة أو وجبات مجمدة منخفضة السعرات الحرارية (عندما يسيء الميزان معاملتي). بل كنت في بعض الليالي ألغي وجبة العشاء تماماً فأقضم بدلاً منها بعض الجبن وقطع البسكويت المملح وأنا أرتشف كأس نبيذ.

إلا أننا كنا متفقَيْن ضمناً على أن أطبخ لريتشارد، بعد زواجنا، في كل يوم من أيام العمل في الأسبوع. وكنا متفقَيْن على أن أترك عملي، وهكذا كانت هذه المهمة تبدو أمراً منطقياً تماماً. كانت الوجبات تتناوب بين الدجاج وشرائح لحم البقر، ولحم الخروف، والأسماك. لم تكن وجبات فاخرة... بروتين، وكربوهيدرات، وخضار. لكن ريتشارد كان يُظهر التقدير لجهودي.

كانت أول محاولة لي لإعداد طعام مميز له ليلة زرنا د. هوفمان أول مرة ـ يوم عرف ريتشارد أنني حملت عندما كنت في الكلية.

أردت أن أحاول إزالة التوتّر الذي نشأ بيننا. وكنت أعرف أن ريتشارد يحب الطعام الهندي. وهكذا بحثت، بعد خروجي من عيادة د. هوفمان، عن وصفة فيندالو[1] بلحم الخروف محاوِلة العثور على أقل الخيارات تعقيداً.

غريب كيف تبقى تفاصيل بعينها عالقة في الذاكرة مثلما أتذكّر الآن كيف كانت عجلة عربة التسوق في حاجة إلى إصلاح لأنها كانت تزقزق

---

(1) FINDALOO: طبق هندي فيه الكثير من الكاري مع الخل والسكر والزنجبيل والفلفل الحار وتوابل أخرى.

كلما انعطفت بالعربة نحو ممر جديد. تجولت في السوبرماركت باحثة عن الكمون والكزبرة محاولة نسيان ذلك التعبير الذي ظهر على وجه ريتشارد عندما عرف أنني قد حملت في السابق من رجل آخر.

حاولت الاتصال بريتشارد لأقول له إنني أحبه، لكنه لم يجب على مكالمتي. كانت خيبة أمله، بل أسوأ من ذلك فكرة أنه كان واهماً، تزعجني وتحزنني أكثر من أية مشادّة كلامية يمكن أن تقع بيننا. لم يكن ريتشارد من النوع الذي يصرخ. عندما يغضب، يبدو أنه ينكمش على نفسه حتى يستطيع السيطرة على انفعالاته. وما كانت تلك عادة تستغرق زمناً طويلاً؛ لكني خشيت أن أكون قد بالغت في إزعاجه هذه المرة.

أتذكّر كيف قدت السيارة عائدة إلى البيت عبر الشوارع الهادئة، كيف كانت سيارة المرسيدس التي اشتراها لي تعبر البيوت الفاخرة الكبيرة التي أقامتها الشركة نفسها التي اشترى ريتشارد منها بيتنا. كنت أرى في تلك الشوارع أحياناً مربية خارجة في نزهة مع طفل صغير، لكني لم أفلح بعد في تكوين أي صداقات في حيّنا.

كانت آمالي كبيرة عندما بدأت إعداد وجبة العشاء. قطّعت لحم الخروف إلى قطع متساوية، وفق الوصفة تماماً. أتذكر كيف كان ضياء الشمس منسكباً عبر النافذة الكبيرة في غرفة المعيشة في بيتنا مثلما ينسكب في آخر كل نهار. أتيت بجهاز الآي باد إلى المطبخ وبحثت عن فرقة بيتلز. صدحت مكبرات الصوت بأغنية «عودة إلى الاتحاد السوفييتي». ترفع فرقة بيتلز من روحي المعنوية دائماً لأن أبي كان يشغل بصوت مرتفع أغاني جون وبول وجورج ورينغو في سيارتنا العتيقة عندما يأخذني لتناول الآيس كريم، أو عندما يصطحبني إلى السينما خلال نوبات أمي غير الشديدة، تلك النوبات التي كانت تستمر يوماً أو يومين ولا تتطلّب مساعدة من خالتي شارلوت.

تركت نفسي أتخيّل كيف سنتعانق في السرير ونتحدّث بعد أن أقدم له طبقه المفضل. لن أخبره بكل شيء، لكني أستطيع الاعتراف ببعض التفاصيل. بل من الممكن أيضاً أن يقرّب هذا الكشف ما بيننا أكثر من ذي قبل. سأقول له إنني آسفة كثيراً، وسأحكي له كم أنا راغبة في مسح ما حدث في الماضي والبدء من جديد.

كنت في مطبخي الفاخر المجهَّز بسكاكين ووستهوف وقدور كالفالون أعد طعام العشاء لزوجي الجديد. أظن أنني كنت سعيدة، لكني أعجب لتلك الألاعيب التي تقوم بها ذاكرتي. أظنّها تمنحني نعمة الوهم. يغلّف كل منا ذكرياته بطبقات من الأوهام... إنها المصافي التي نجهد أنفسنا في النظر إلى حياتنا من خلالها.

حاولت التقيّد بتفاصيل الوصفة كلّها، لكني نسيت شراء الحلْبة لأنني لم أكن أعرف تلك المادة أصلاً. ثم لم أستطع العثور على الشمرة عندما جاء وقت إضافتها رغم أنني كنت متأكدة من أنني وضعتها في عربة التسوق. بدأ السلام الداخلي الهشّ الذي حاولت بناءه يتهاوى. أنا التي أُعطيتُ كل شيء... كنت عاجزة حتى عن إعداد وجبة لائقة.

عندما فتحت البراد حتى أعيد علبة حليب جوز الهند رأيت زجاجة نبيذ شابلي نصف ممتلئة... تردّدت... وقفت أحدّق فيها.

كنا قد اتفقنا، أنا وريتشارد، على أن أكفَّ عن الشرب. لكن من المؤكد أن قطرات قليلة لن تكون ضارة أبداً. سكبت لنفسي نصف كأس. كدت أنسى كم هو لذيذ ذلك المذاق المتموّج الفوار على لساني.

أخرجت من خزانة غرفة الطعام الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط مفارش الطاولة الزرقاء المطوية ومناديل طعام ذات ألوان منسجمة معها. ووضعت على الطاولة أطباق الصيني الجميلة التي كانت هدية هيلاري

وجورج يوم زفافنا. في أول أيام زواجنا، استعنت بموقع للإتيكيت على الإنترنت حتى أتعلم إعداد طاولة طعام. صحيح أن أمي كانت تحضّر لنا وجبات فاخرة، إلا أنها كانت غير مهتمة بما يحيط بالطعام نفسه. بعض الأحيان، كنا نستخدم صحوناً من الورق المقوى عندما تكون الأطباق متّسخة كلها.

وضعت الشموع في وسط الطاولة وشغّلت موسيقى كلاسيكية... اخترت مقطوعة لفاغنر لأنه من المؤلفين الموسيقيين المفضلين لدى ريتشارد. ثم جلست على الأريكة ووضعت كأس النبيذ إلى جانبي. صار في البيت الآن مزيد من قطع الأثاث (أرائك في غرفة المعيشة، ولوحات على الجدران من بينها صورة لي رسمَتها خالتي شارلوت عندما كنت طفلة)، لكني لا أزال أحس بالغرف من غير شخصية، إلى حد ما. لو كان لدينا، فقط، كرسي الأطفال المرتفع في غرفة الطعام، وبضع ألعاب ناعمة مبعثرة على السجادة... انتبهت إلى أن أظافر أصابعي كانت تنقر على الكأس فتصدر صوتاً كرنين الأجراس.

كان ريتشارد يصل إلى البيت عادة في حدود الساعة الثامنة والنصف، لكني لم أسمع صوت فتح قفل الباب إلا بعد التاسعة بقليل، ثم سمعت ريتشارد يضع حقيبته على الأرض.

ناديته: «حبيبي!»... لا إجابة... «عزيزي؟».

«ثانية واحدة فقط».

سمعت صوت خطواته تصعد السلم. لم أدرِ إن كان يجب أن أصعد خلفه، فبقيت جالسة على الأريكة. عندما سمعت صوت خطواته نازلة من جديد، التفتّ فلمحت كأس النبيذ، جريت وأفرغتها في المجلى، وأعدتها إلى الخزانة من غير أن أغسلها قبل أن يراها. كان تخمين مزاجه مستحيل. لعله منزعج مني، أو لعل يومه في العمل كان صعباً. كان يبدو

عليه التوتّر طيلة الأسبوع. وكنت أعرف أنه يعمل على صفقة صعبة. حاولت الحديث معه على العشاء؛ وكانت نبرة صوتي المبتهجة قناعاً يخفي القلق الذي تحتها.

«هذا لذيذ».

«تذكّرت قولك لي ذات مرة إن طبق الفيندالو بلحم الخروف وجبة مفضلة لديك».

«هل قلت هذا؟». خفض ريتشارد رأسه حتى يتناول ملعقة أرز.

حيّرتني إجابته. ألم يقل لي هذا؟

«آسفة لأنني لم أخبرك عن... تكسَّر صوتي وانقطع. لم أستطع نطق تلك الكلمة».

أومأ ريتشارد برأسه وقال بصوت هادئ: «لقد نسيت الأمر كلّه».

كنت قد حضّرت نفسي لأسئلة كثيرة. أتتني إجابته كأنها إحباط لجهدي. لعلي، رغم كل شيء، في حاجة إلى إطلاعه على ذلك الجزء من حياتي.

لكني لم أقل له غير «لا بأس».

عندما بدأت أرفع الطعام، لاحظت أنه لم يأكل إلا نصف طبقه. وعندما انتهيت من تنظيف الطاولة، كان ريتشارد قد نام. استلقيت إلى جانبه منكمشة على نفسي، ورحت أصغي إلى صوت أنفاسه المنتظم إلى أن غفوت مثله.

ذهب ريتشارد إلى مكتبه في وقت مبكر في الصباح التالي. وعندما كنت في صالون التجميل وقت الظهر، أتت إلى هاتفي رسالة بالبريد الإلكتروني من معهد الطبخ في نيويورك.

كان في أسفل تلك الرسالة كلمات من ريتشارد، كتبها بالفرنسية

«عزيزتي. أحبك. ريتشارد». وعندما فتحت الملف الملحق بالرسالة، وجدت إشعاراً بأنني تلقيت هدية: عشرة دروس في الطبخ.

أسمع نبرة قلق في صوت خالتي شارلوت: «عزيزتي؟». أمسح عينيَّ وأشير إلى لوح التقطيع وأقول لها: «إنه البصل!». لا أعرف إن كانت تصدّقني.

تذهب خالتي شارلوت لتنام بعد العشاء بقليل، أما أنا فأنظف المطبخ. ثم أعود إلى غرفتي وأستمع إلى الأصوات الخفيفة المنبثعة من الشقة كأنها تستعد للنوم... همهمة مفاجئة صادرة عن البراد، وصوت انطباق باب الشقة التي تحتنا. النوم يراوغني الآن كأنني خزّنت منه الكثير خلال الشهور التي أضعتها حتى أهدّئ إيقاع جسدي الطبيعي.

تذهب أفكاري إلى موضوع آخر حلقة نفسية استمعت إليها: الوساوس.

كان المتحدث يقول بإصرار: «جيناتنا ليست قدَراً علينا»... لكنه أقر بأن الإدمان ينتقل بالوراثة.

أفكّر كيف كانت أمي تترك خلفها درباً من الخراب.

وأفكّر كيف كانت أظافر أمي تنغرس في راحتي كفَّيها عندما تكون متوتّرة.

وأفكّر، كعادتي دائماً، في أمي.

تبدأ خطة بالتشكّل في عقلي. أو لعلها كانت هناك طيلة الوقت منتظرة أن أتنبّه إليها... أن أصير على القدر الكافي من القوة لكي أبدأ تنفيذها.

أراها من جديد، أراها منحنية لكي تداعب الكلب الصغير في طريقها. أراها واضعة ساقاً فوق ساق مائلة قليلاً حتى تقترب من ريتشارد في

المطعم... في مطعمنا... وأراها يوم أتيت إلى مكتبه لكي أفاجئه بغداء مشترك، عندما كنا لا نزال متزوجَين، فرأيتهما خارجَيْن من المبنى، وكانت في فستان أحمر اللون. رأيت كيف مسّت يده أسفل ظهرها مسّاً رقيقاً عندما جعلها تخرج من الباب قبله. بدت تلك الحركة كأنها تقول: إنها لي!

كان يمسّني بهذه الطريقة أيضاً. قلت له ذات مرة إنني أحب هذا الإحساس الرهيف بأصابعه هناك.

أنهض، ثم أتحرّك في الظلمة بهدوء وأُخرِج هاتفي ذا الرقم المحجوب وكمبيوتري المحمول من الدرج السفلي في خزانتي.

لا يمكن أن يتزوج ريتشارد من جديد!

أبدأ اتخاذ استعداداتي. عندما أراها في المرة القادمة، سأكون جاهزة.

مكتبة

الفصل الحادي عشر

كانت نيللي مستلقية في الظلمة تصغي إلى أصوات المدينة آتية عبر قضبان النافذة المفتوحة: صوت بوق؛ وأشخاص يصرخون بكلمات أغنية Y.M.C.A؛ وعويل جهاز سيارة آتٍ من بعيد.

سوف تبدو لها الضواحي شديدة الهدوء.

لقد خرجت سامانثا منذ بضع ساعات، لكن نيللي قرّرت أن تظلّ في البيت. أرادت أن تكون في شقتها إذا اتصل ريتشارد. ثم إن صخب الساعات الماضية، الأربع والعشرين، تركها تحس بنفسها مستنفدة تماماً.

بعد عودتها من الحضانة إلى البيت، جلست مع سامانثا تضعان قناعين من الطحالب الزرقاء في انتظار وجبة الطعام الصيني التي طلبتاها: أضلاع متبلة، وفطائر باللحم، وقطع دجاج بالصلصة الحلوة الحامضة، إضافة إلى الأرز البنّي ليكون بمثابة إشارة رمزية إلى حِمية نيللي قبل الزفاف.

قالت لها سامانثا وهي تضع المعجون على خدَّيْها: «يبدو شكلك كأنك من مخلفات عمل فنّي».

«وأنت يبدو شكلك كأنك سنفور لذيذ».

كان أمراً لطيفاً أن تضحك هكذا مع سامانثا بعد توتّر الصباح وبعد إحساسها الغريب بالخطر الذي داهمها في الحضانة.

أخرجت نيللي شوكات طعام بلاستيكية من الدرج الذي تحت المجلى، ذلك الدرج الذي كان على الدوام مزدحماً بعبوات من الصلصة الحارة والخردل، وبمناديل طعام ورقية مختلفة الأشكال والألوان. قالت مازحة: «سوف نستخدم الليلة أدوات الطعام الفضية». فاجأتها فكرة أن من المحتمل كثيراً أن تكون هذه آخر وجبة لها مع سامانثا قبل زفافها.

أزالتا قناعَيْهما وغسلتا وجهيهما عندما وصل الطعام. قالت سامانثا وهي تنظر إلى بقايا القناع في المغسلة: «هذه عشرة دولارات أُهدرت». ثم جلستا على الأريكة وراحتا تتحدّثان عن كلِّ شيء باستثناء ما كان يشغل ذهن نيللي حقاً.

قالت سامانثا لها: «في السنة الماضية قدم آل ستروبز لباربرا حقيبة يد بعد التخرج. أظن أنني سأحصل على شيء جيد هذه السنة!».

«آمل هذا». كان ريتشارد قد أهدى نيللي حقيبة يد من ماركة فالنتينو قبل أسبوع عندما لاحظ بقعة حبر على حقيبة اليد التي تحملها عادة. لا تزال الحقيبة في غلافها تحت سريرها. لن تغامر أبداً بأن يوسّخها أحد الأطفال بأصابعه. لم تقل لسامانثا أي شيء عن تلك الحقيبة.

قالت سامانثا وهي تحاول ارتداء بنطلون الجينز، بنطلون بنيللي: «هل أنت واثقة من أنك لا تريدين الذهاب معي؟».

«لا أزال أتعافى من الليلة الماضية».

كانت نيللي تريد أن تظل سامانثا في البيت وأن تشاهدا فيلماً معاً، لكنها كانت تعرف أن على صديقتها أن تحافظ على علاقاتها الأخرى. ألن تتركها نيللي قبل أقل من أسبوع؟

فكّرت نيللي في الاتصال بأمها، لكن أحاديثهما كانت غالباً ما تتركها

متوتّرة بعض الشيء. لقد التقت أمها بريتشارد مرة واحدة فقط. وعلى الفور، بدأت تتحدّث عن فارق العمر بينهما. قالت لنيللي: «لقد حظي بالوقت الكافي حتى يجرب الدنيا ويسافر ويعيش. ألا تريدين أن تفعلي مثله قبل أن تستقري؟».

عندما أجابتها نيللي بأنها تريد أن تسافر وتعيش مع ريتشارد، رفعت أمها كتفيها وقالت لها: «لا بأس يا حبيبتي»، لكنها لم تبدُ مقتنعة بما قالته ابنتها.

تجاوزت الساعة الآن منتصف الليل، لكن سامانثا لم تعُد بعد. لعلّها مع صديق جديد، أو لعلّها مع واحد من أصدقائها القدامى.

على الرغم من الإرهاق الذي كان مستحوذاً عليها، وعلى الرغم من الأساليب التي جرّبتها حتى تنام (شربت البابونج واستمعت إلى موسيقى التأمّل المفضّلة عندها) إلا أن نيللي ظلت مستيقظة تنتظر سماع صوت مفتاح سامانثا في قفل الباب. راحت تتساءل عن السبب الذي يجعل النوم يهرب من الإنسان في الليل.

وجدت أفكارها تعود إلى زوجة ريتشارد السابقة. عندما كانت في متجر دوين ريد من أجل شراء القناع التجميلي، وقفت في صف الانتظار خلف امرأة تتحدّث في هاتفها الخليوي وتضع خططاً للقاء شخص على العشاء. كانت امرأة صغيرة الحجم متناسقة الجسم، وكانت تقطع كلامها ضحكات كرنين الذهب. هل هي من النمط الذي يفضّله ريتشارد؟

كان هاتف نيللي على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريرها. ظلت تنظر إليه مستعدّة لتلقّي مكالمة ليلية مزعجة أخرى. ومع امتداد الليل، صار صمت الهاتف يبدو لها مشؤوماً... كأنه يسخر منها. نهضت من فراشها آخر الأمر وذهبت إلى خزانتها. كان كلبها المحشو بالقطن، موغي، جاثماً فوق الخزانة مائلاً برأسه كأنه يصغي إلى شيء ما وقد صار

فراؤه الأبيض والبنّي بالياً، لكنه لا يزال ناعماً مثلما كان. على الرغم من إحساسها بسخافة ذلك، حملت الكلب وعادت به معها إلى فراشها.

نجحت آخر الأمر في أن تغفو قليلاً، في لحظة ما؛ إلا أن صوت مطرقة آلية انطلق في مكان ما قريب من شقتها في السادسة صباحاً. نهضت متثاقلة فأغلقت نافذتها، لكن ذلك الطَرق المزعج استمر من غير توقف.

سمعت نيللي أحد الجيران يصيح: «أوقفوا هذا الشيء الملعون!». أتت كلماته كأنها منبعثة من جهاز التدفئة.

وضعت وسادتها فوق رأسها، لكن عبثاً.

استحمت، وأمضت وقتاً طويلاً في الحمام وهي تحرك رأسها في دوائر محاولة تخفيف ألم رقبتها. ثم ارتدت ثوبها البيتي وذهبت تبحث في الخزانة عن فستانها الأزرق ذي اللون الخفيف المزيّن بزهور صفراء صغيرة... سيكون ممتازاً من أجل حفل التخرّج في الحضانة، لكنها تذكّرت أنه لا يزال في المصبغة مع عدد من قطع الثياب.

كان جلب تلك الملابس من ضمن قائمة المهمات التي سجّلتها على ظهر بطاقة من بطاقات جدول الدروس إلى جانب «نقل الكتب إلى غرفة التخزين عند ريتشارد» و«شراء بيكيني»، وكذلك «تغيير العنوان لدى مكتب البريد». عليها أيضاً أن تفلح في الالتحاق بدروس الرقص هذا الشهر.

رن هاتفها عند الساعة السابعة تماماً.

«لديّ إعلان عن مزيل الرائحة! أنا الفتاة المتعرّقة رقم ثلاثة!».

«أنت جوزي؟».

«إنني آسفة، إنني آسفة. لم أكن أريد الاتصال بك في وقت مبكّر هكذا، لكني حاولت مع الجميع. تستطيع مارغو أن تأخذ النصف الأول

من نوبتي. لا أريد إلا أن يحل أحد محلي اعتباراً من الساعة الثانية».

«أوه، إنني...».

«حصلت على فرصة لأداء دور تجريبي! يمكنني أن أستلم بطاقة SAG[1] بعد هذا!».

لأسباب كثيرة جداً، كان على نيللي أن تقول لا. لن ينتهي حفل التخرج قبل الساعة الواحدة. ولا يزال عليها أن تنهي حزم حقائبها. ثم إن لديها هذه الليلة عشاء مع ريتشارد ومورين.

لكن جوزي كانت صديقة عزيزة جداً. إنها تحاول الحصول على بطاقة SAG منذ سنتين.

«لا بأس، لا بأس. كوني متفائلة!».

ضحكت جوزي وصاحت في الهاتف: «أنا أحبك».

دلكت نيللي صدغيها. بدأ صداع خفيف ينبض بينهما.

فتحت كمبيوترها المحمول وكتبت لنفسها رسالة إلكترونية وضعت لها عنوان: «المهمّات!!!!!»: المصبغة، جمع الكتب وحزمها، مقهى جيبسون في الساعة الثانية، مورين في الساعة السابعة.

أنبأتها رنّة من هاتفها أن لديها رسائل: إنها ليندا تذكّر المعلمات بوجوب الوصول في وقت مبكر من أجل التحضير لحفل التخرج. وأيضاً رسالة من ليزلي، صديقة قديمة من أخوية الفتيات في الجامعة. لا تزال تعيش في فلوريدا. إنها تهنّئها بخطوبتها. تريّثت نيللي لحظة ثم حذفت تلك الرسالة من غير أن تردّ عليها. أيضاً رسالة من خالتها تسأل نيللي إن كانت في حاجة إلى مساعدة من أجل الاستعدادات الأخيرة

---

(1) SAG: نقابة أميركية كبيرة للممثلين والعاملين في السينما والتلفزيون والفنون المرئية.

قبل الزفاف. إشعار من صندوق تبرّعات جمعيتها الخيرية بأنه قد تم اقتطاع المبلغ الشهري المعتاد من حسابها. وبعد ذلك كلّه قرأت رسالة من مصوّر حفل الزفاف...

قالت الرسالة: هل أعيد لكم المبلغ الذي استلمته مقدّماً، أم إنكم قرّرتم تغيير موعد الزفاف؟

تجهّم وجه نيللي... لم تفهم معنى هذه الكلمات. مدّت يدها إلى هاتفها فطلبت الرقم المسجل في أسفل رسالته. أجابها المصور عند الرنة الثالثة. بدا لها من صوته أنه كان نائماً.

قال لها عندما سألته عن تلك الرسالة: «انتظري لحظة. دعيني أذهب إلى مكتبي».

كانت تسمع وقع خطواته؛ ثم سمعت خشخشة أوراق.

«صحيح. ها هي الرسالة. لقد تلقينا في الأسبوع الماضي اتصالاً هاتفياً أبلغنا أنه قد جرى تأجيل الزفاف».

«ماذا؟» بدأت نيللي تذرع غرفتها الصغيرة بخطوات واسعة وتمرّ بفستان زفافها كل بضع خطوات... «من اتصل بك؟».

«لقد تلقت مساعدتي ذلك الاتصال. وقالت لي إنك أنتِ من اتصل».

أجابته نيللي معترضة وهي تجلس على سريرها: «لم أتصل بكم. ثم إننا لم نغير تاريخ الزفاف على الإطلاق».

«إنني آسف؛ لكن مساعدتي تعمل معي منذ قرابة سنتين ولم يحدث قبل الآن أي شيء من هذا النوع».

كانا يريدان، هي وريتشارد، إقامة حفل زفاف صغير تحضره مجموعة مختارة من الضيوف. وقد قال لها ريتشارد: «إذا جرى الزفاف في نيويورك، فإن عليَّ أن أدعو زملائي جميعاً». لقد وجد في فلوريدا

منتجعاً خلاباً غير بعيد عن بيت أمها (بناء ذو أعمدة بيض مشرف على المحيط تحفّ به أشجار النخيل وأزهار كثيرة حمراء وبرتقالية)؛ وقد قرّر دفع الفاتورة كلّها، بما في ذلك غرف الضيوف والطعام والنبيذ، بل قرر أيضاً دفع ثمن بطاقات الطائرة لكل من سامانثا وجوزي ومارنييه.

عندما كانا ينظران إلى موقع ذلك المصوِّر على الإنترنت، أبدى ريتشارد إعجابه بالصور ذات الأسلوب الصحافي. قال لها: «عادة ما يختار المصورون الوضعيات الجامدة. أما هذا الشخص فهو يلتقط العواطف والانفعالات».

تدّخر نيللي المال منذ أسابيع لأنها أرادت أن تكون الصور هدية زفاف منها لريتشارد.

«انظر...». اضطرب صوتها مثلما يحدث دائماً عندما تكون موشكة على البكاء. قد يستطيع المنتجع العثور على مصور آخر. لكن الأمر لن يكون هو نفسه... «لا أريد أن أكون مزعجة، لكن من الواضح أن الغلطة غلطتكم».

«إنني أنظر إلى الرسالة الآن. لكن، انتظري لحظة، دعيني أتحقق من شيء ما. هل يمكن أن تعطيني التوقيت من جديد؟».

«في الساعة الرابعة. كما كنا نعتزم التقاط صور قبل ذلك أيضاً».

«حسناً... إن لديَّ موعداً آخر للتصوير في الساعة الثالثة. لكني سأحاول ترتيب الأمر. إنها صورة خطوبة، وأظنهم لن يعترضوا على تغيير موعدهم ساعة أو نحو ذلك».

تنفست نيللي الصعداء: «شكراً لك».

«اسمعي... لقد فهمت الأمر... إنه زفافك أنت. سيكون كل شيء على أحسن ما يرام».

اهتزت يدها وهي تغلق الهاتف.

لا بد أن مساعدة المصور قد أخطأت فحاول التغطية عليها... هكذا فكّرت نيللي جازمة. يجب أن تكون المساعدة قد خلطت بين موعدهما وموعد أناس آخرين. لكن، لو لم تصلها هذه الرسالة من المصور، لكانت الصور المشوَّشة الملتقطة بكاميرا أمّها الرخيصة هي الصور الوحيدة التي يحصلان عليها.

قالت في نفسها إن المصور كان محقّاً: يجب أن يكون كل شيء على ما يرام!

سيكون كل شيء على ما يرام. ما عدا... مضت إلى الدرج العلوي في خزانتها فأخرجت كيساً صغيراً من الساتان فيه منديل جيب سماوي اللون عليه الأحرف الأولى من اسم أبيها. لقد كان منديله. وبما أنه لن يكون قادراً على السير معها في الممر يوم الزفاف، فقد اعتزمت نيللي أن تلفّ هذا المنديل على باقة الزهور التي تحملها. تريد أن تشعر بوجوده معها في رحلتها الرمزية تلك.

كان أبوها شخصاً رواقياً. لم يذرف دمعة واحدة حتى عندما أخبرها أنه مصاب بسرطان القولون. لكنها رأت عينيه موشكتين على البكاء عندما تخرّجت في مدرستها الثانوية. قال لها: «أفكر في تلك الأشياء كلّها التي سأخسرها». قبّل رأسها، ثم عادت عيناه صافيتين من جديد مثلما ينقشع ضباب الصباح تحت أشعة الشمس. ثم توفّي هو أيضاً بعد ستة شهور.

مسّدت نيللي المنديل الناعم ثم راحت تلفّه بين أصابعها. تمنت لو أن أباها قابل ريتشارد. كانت واثقة من أنه سيوافق على زواجها منه، ويقول لها: «لقد أحسنت صنعاً... لقد أحسنت صنعاً».

رفعت المنديل فمسّت خدها به، ثم أعادته إلى كيسه.

نظرت إلى الساعة فوق موقد المطبخ. تبدأ المصبغة العمل في الساعة الثامنة. وموعد حفل تخرج الحضانة في التاسعة. إذا خرجت

من البيت الآن، فسوف يكون لديها الوقت الكافي بالضبط لأخذ فستانها ذي الزهور الصفر، وتغيير ملابسها، ثم الوصول إلى الحضانة من أجل الاستعداد للحفل.

كانت نيللي متكئة على البار منتظرة أن ينهي كريس مزج كوكتيل المارتيني بماء الزيتون الذي طلبته الطاولة رقم 31: مجموعة محامين يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم. كانت أصابعها تعبث بالسوار الجديد في معصمها. كانت خرزات السوار كبيرة لامعة مثبتة بعقدة خرقاء. أهداها جوناه هذا السوار في حفل التخرّج.

إنها المرة الثالثة التي تطلب تلك الطاولة شراباً، وقد قاربت الساعة السادسة... التوقيت الذي قرّرت الانصراف فيه. لم تقل نيللي لريتشارد شيئاً عن أنها تغطي جزءاً من نوبة جوزي؛ وهي لا تستطيع الوصول متأخّرة إلى موعدهما مع مورين.

كان رواد المقهى قلائل في بداية النوبة. وقد تبادلت الحديث مع رجل وامرأة متقدّمين في السن آتيين من أوهايو في زيارة إلى نيويورك، فنصحتهما بمحل ممتاز لصنع الكعك المحلّى، واقترحت عليهما زيارة معرض فني جديد في متروبوليتان. لقد أخرجا صور أحفادهما الخمسة وقالا لها إن أصغرهم يجد صعوبة في تعلّم القراءة، فسجّلت نيللي أسماء بضعة كتب يمكن أن تكون مفيدة لهم.

قالت لها المرأة وهي تضع قائمة الكتب في حقيبة يدها: «ما أحلاك!». لاحظت نيللي الخاتم الذهبي في يدها اليسرى وتساءلت كيف سيكون شعورها، بعد بضع عشرات السنين من الآن، عندما تخرج صور أحفادها فتريها لمعارفها الجدد. من المؤكد أن خاتمها سيصير جزءاً منها بحلول ذلك الوقت، سيصير كأنه مزروع على جلدها، وليس هذا الشيء الجديد الثقيل الذي تحسّه في إصبع يدها الآن.

لكن المكان صار مليئاً بمجموعات من الزبائن في الثلاثينات والعشرينات عندما اقتربت نهاية نوبتها. سألت نيللي نادلاً آخر اسمه جيم عندما مرّ بالقرب من البار: «هل يمكنك إنهاء حسابات طاولاتي بدلاً مني؟».

«كم طاولة بقيت لديك؟».

«أربع. لا يريدون أن يأكلوا شيئاً. طلبات سريعة فقط».

«أوف... عندي طلبات كثيرة في هذه اللحظة. هل يمكنك إعطائي بضع دقائق؟».

telegram @ktabpdf

نظرت إلى ساعة يدها من جديد. كانت تأمل في الذهاب إلى البيت من أجل دوش سريع ترتدي بعده فستانها الأسود المخرّم. كانت تفوح منها دائماً رائحة البطاطس المقلية عندما تغادر مقهى جيبسون. أما الآن، فإن عليها أن ترتدي، بدلاً من ثياب العمل هذه، فستانها ذا الأزهار الصفر الذي ارتدته من أجل حفل التخرج في الصباح.

كانت تهم بحمل صينية كوكتيل المارتيني والذهاب بها إلى طاولة المحامين عندما وضع أحدهم ذراعه على كتفيها. استدارت فرأت شاباً طويلاً لعله بلغ الحادية والعشرين من العمر. كان معه مجموعة أصدقاء. وكانوا مشعّين جميعاً بتلك الطاقة الخشنة التي يحسّها المرء لدى الرياضيين قبل مباراة كبيرة. عادة ما تفضّل أن يكون زبائنها مجموعات من الشباب. لأنهم، على العكس من النساء، لا يطلبون تسديد حساباتهم بشكل منفصل، إضافة إلى أنهم يقدّمون لها بقشيشاً جيداً.

سألها: «كيف نستطيع الجلوس في قسمك؟». كان الشاب في قميص قصير الكمَّين عليه رمز واحدة من الأخويات الطالبية في الجامعة. كانت الحروف اليونانية على مستوى وجهها تقريباً.

أشاحت بنظرها بعيداً عنه: «آسفة، لكنني أنهيت عملي وسأذهب خلال بضع دقائق». استدارت وخرجت من تحت ذراعه.

عندما حملت الصينية وبدأت السير مبتعدة، سمعت واحداً من أولئك الشباب يقول: «إذا كنت غير قادر على الجلوس في قسمها، فكيف أستطيع أن أحظى بها؟».

اهتزت الصينية في يديها فانقلبت الكؤوس وانسكب عليها الجن وماء الزيتون. تحطمت الكؤوس على الأرض فانفجر الشباب ضاحكين مصفّقين.

صاحت نيللي وهي تمسح وجهها بكم قميصها: «اللعنة!».

هتف أحد الشباب ساخراً: «مسابقة القمصان المبللة!».

قال جيم لهم: «اهدأوا يا شباب... هل أنت بخير؟ كنت آتياً لإخبارك بأنني أستطيع الحلول محلك».

«أنا بخير». أتى عامل التنظيف في المقهى حاملاً مكنسته فأسرعت نيللي إلى الغرفة الداخلية وهي تشد قميصها إلى الأمام لتبعده عن صدرها. تناولت حقيبتها ودخلت الحمام فخلعت ثيابها ومسحت جلدها بمناديل ورقية. بلّلت منديلاً آخر ومسحت نفسها من جديد، بقدر ما استطاعت، ثم أخرجت من حقيبتها فستانها ذا الأزهار الصفر. كان مجعَّداً بعض الشيء، لكنه نظيف. نظرت إلى صورتها في المرآة ولم تر خديها المحمَرَّين وشعرها المشعث.

رأت نفسها في سن الحادية والعشرين وهي تسير في بيت الطالبات في الصباح الذي أعقب تغير كل شيء: كان حلقها يؤلمها لكثرة البكاء؛ وكان جسدها مرتجفاً على الرغم من البيجاما الدافئة.

خرجت من الحمام معتزمة تجنب أولئك التافهين.

رأتهم متجمّعين في حلقة عند البار حاملين زجاجات البيرة. كانوا يضحكون ضحكات خشنة.

قال أحد الشباب: «أوه، لم نقصد أن نجعلك تذهبين. قبلة ومصالحة؟». فتح لها ذراعيه. كان ظهره إلى البار كبقية رفاقه... لعلهم كانوا واقفين هكذا حتى ينظروا إلى النساء الجالسات في المقهى.

حدّقت فيه غاضبة. ودّت أن تقذف وجهه بكأس من الشراب. لم لا؟ لن يحدث أكثر من أن يطردوها من العمل.

لكنها لاحظت مع اقترابها شيئاً على البار خلف الشاب تماماً. قالت له مبتسمة: «بالتأكيد! سوف أعانقك».

وضعت نيللي حقيبتها على البار، ثم انحنت في اتجاه الشاب متحملة انضغاط جسده على جسدها.

قالت وهي تلتقط حقيبتها: «أتمنى لكم سهرة لطيفة يا شباب».

أشارت إلى سيارة تاكسي. وبعد أن استقرّت في المقعد الخلفي، فتحت المحفظة الجلدية الرقيقة التي أخذتها عن البار عندما حملت حقيبتها. كانت حافة بطاقة ائتمانية ظاهرة من المحفظة.

وخلال توقّف السيارة على إشارة السير الحمراء بعد مسافة قصيرة، عند تقاطع شارعين، رمت نيللي المحفظة من النافذة.

الفصل الثاني عشر

تسألني خالتي شارلوت عند وصولي إلى البيت: «هل كنت في محل ساكس؟ لست أدري ما جعلني أظن أنك في عطلة اليوم؟ على أي حال، لقد جاءك طرد من شركة FEDEX. وضعته في غرفتك».

أجيبها مظهرة شيئاً من عدم الاهتمام وأنا أتجاهل سؤالها الأول: «حقاً؟ لم أطلب شيئاً». ثم إني لم أكن في العمل اليوم.

خالتي شارلوت واقفة فوق كرسي في المطبخ ترتب الخزائن المرتفعة. تنزل عن الكرسي تاركة الفناجين والأطباق العميقة التي كانت منهمكة بتصنيفها مصفوفة على الطاولة.

«الطرد من ريتشارد. رأيت اسمه مكتوباً على عنوان الإعادة عندما وقّعت على إيصال الاستلام». إنها تنظر إليّ منتظرة رد فعلي.

أحافظ على هدوء تعبير وجهي وأقول لها: «لعله شيء تركته هناك». لا يمكن أن أدعها تعرف شعوري تجاه ريتشارد وخطوبته. ولا أريد أن تلوم نفسها على أنها لم تفعل المزيد لمساعدتي.

أرفع الكيس الورقي المزين بحروف سود وخضار راقصة: «لقد اخترت بعض الخضار من أجل عشائنا...» لقد قررت أن أزيد مساهمتي في البيت. ثم إن التوقّف في محل تشوبت كان أمراً مناسباً لي... «سأضع

هذه الأشياء في البراد ثم أدخل حتى أغير ملابسي». إنني متلهفة إلى فتح ذلك الطرد.

أجده في انتظاري على سريري. تبدأ يداي الارتجاف عندما أرى الأرقام والحروف المطبوعة بخط كبير. كان ريتشارد يترك لي رسائل صغيرة بخط يده صباح كل يوم قبل أن يخرج إلى عمله: ما أجملك وأنت نائمة! أو، لا أعرف كيف أستطيع الانتظار إلى المساء حتى نمارس الحب.

تغيرت نبرة تلك الرسائل مع مرور الوقت. حاولي اليوم أداء بعض التمرينات الرياضية يا حبيبتي. سوف تجعلك تشعرين بالتحسّن. وقبيل نهاية زواجنا، حلّت رسائل إلكترونية محل تلك الرسائل المكتوبة: اتصلت قبل قليل، لكنك لا تجيبين. هل أنت نائمة الآن؟ يجب أن نتحدّث الليلة عن هذا الأمر.

أستخدم المقص لقطع الشريط اللاصق العريض، ثم أفتح علبة الماضي.

أرى ألبوم صور زواجنا في أعلى العلبة. أحمل ذلك الكيس الثقيل المصنوع من الساتان. أرى تحته قطعاً من ملابسي مطوية طياً أنيقاً. عندما تركت البيت، كان أكثر ما أخذته معي ملابس شتوية ثقيلة. لكن ريتشارد يرسل إلي الآن ثيابي المناسبة لحر الصيف. لقد اختار القطع التي كانت تبدو عليّ أفضل من غيرها.

وفي الأسفل، أجد علبة مجوهرات سوداء. أفتحها فأجد فيها طوقاً ماسياً. إنه الطوق الذي لم أكن أحتمل وضعه لأن ريتشارد قدّمه إليّ بعد واحدة من أسوأ مشاجراتنا.

ليس هذا كل ما تركته خلفي، بطبيعة الحال. لعل ريتشارد تبرّع ببقية أشيائي لجمعية خيرية.

يعرف أنني لم أكن شديدة الاهتمام بالملابس. ما أراد أن أحصل عليه حقاً هو ألبوم الصور والطوق. لكن لماذا؟

لم أجد رسالة في العلبة. لكني أدرك أنه يبعث إلي برسالة من خلال محتوياتها. أنظر إلى ألبوم الصور، وأنظر إلى المرأة الشابة في القميص المخرّم والتنورة الطويلة. أنظر إليها رافعة رأسها إلى ريتشارد. لا أكاد أعرف نفسي في هذه الصورة. هذا يشبه النظر إلى صورة شخص آخر.

أتساءل إن كانت خطيبته الجديدة ستحمل اسم عائلته: ثومبسون. لا يزال هذا اسمي أنا أيضاً.

أراها ترفع وجهها إلى ريتشارد عندما يوحّد القس بينهما. ابتسامتها مشرقة. هل سيفكّر فيّ هنيهةً ويتذكّر كيف نظرت إليه في تلك اللحظة قبل أن يزيح تلك الذكرى عنه ويدفعها بعيداً؟ هل يحدث أن يدعوها باسمي من غير قصد؟ وهل يتحدّثان عني عندما يحتضن كل منهما الآخر في السرير؟

أحمل ألبوم الصور وأقذف به بكل قوتي. يترك أثراً على الجدار قبل أن يسقط ويصطدم بالأرض. جسدي كله يرتعش الآن.

كنت أتظاهر أمام خالتي شارلوت. لكن لباسي التنكري لم يعد قادراً على إخفاء ما صرت عليه.

أفكّر في متجر المشروبات القريب، في شارعنا. أستطيع شراء زجاجة أو زجاجتين. قد يساعدني الشراب في تهدئة هذا الغضب في داخلي.

أضع العلبة في خزانتي، لكني أتخيّل ريتشارد الآن يرفع ذقنها ويضع طوقاً ماسياً حول عنقها، ثم ينحني ويقبلها. لا أستطيع تخيّل شفتيه على فمها. ولا أستطيع تخيّل يديه عليها.

يكاد الوقت ينفد مني.

يجب أن أراها.

انتظرت قرب شقتها عدة ساعات اليوم، لكنها لم تظهر أبداً. أتساءل في نفسي: أهي خائفة؟ وهل لديها إحساس بما هو آتٍ؟

أقرر أن أسمح لنفسي بزجاجة أخيرة من النبيذ. سوف أشربها. ثم أمضي في تنفيذ خطتي. لكني أقرر فعل شيء واحد قبل ذهابي إلى متجر المشروبات. وعلى نحو عجائبي تماماً، يأتي حظ غير متوقع فيسقط في حضني بسبب ذلك الشيء البسيط الذي أقرّر فعله.

أقرر الاتصال بمورين. حتى بعد هذه السنين كلها، لا تزال هي الشخص الأقرب إلى ريتشارد.

لم نتحدّث منذ زمن بعيد. بدأت علاقتنا بداية لطيفة إلى حدٍّ معقول. لكن مشاعرها تجاهي سرعان ما تغيرت خلال فترة زواجي من شقيقها. صارت بعيدة عني. أنا على ثقة من أن ريتشارد كان يكاشفها بما يحدث بيننا. لا عجب في أنها كانت حذرة تجاهي.

لكني حاولت في الفترة الأولى من زواجنا أن أبني علاقة مستقلة بيني وبينها. بدا لي أن ريتشارد مهتم بأن نكون متقاربتين. وهكذا، كنت أتّصل بها كل أسبوع أو كل أسبوعين. إلا أن مواضيع الحديث بيننا سرعان ما نفدت. تحمل مورين شهادة الدكتوراه، وهي تشارك في ماراثون بوسطن كل سنة. نادراً ما تشرب، اللهم إلا كأس شامبانيا واحدة في بعض المناسبات الخاصة. تستيقظ في الخامسة صباحاً حتى تتدرّب على عزف البيانو. بدأت العزف بعد أن بلغت سن الرشد.

بعد زواجنا بفترة قصيرة، رافقت مورين وريتشارد في رحلة التزلج السنوية اللذين يقومان بها في ذكرى ميلادها. كانا يجتازان منحدرات الماسَتَين السوداوين[1] بكل سهولة، أما أنا فكنت أتجنّبها. انتهى بي الأمر إلى ترك منحدرات التزلج كلها عند الظهر والتكوّم على نفسي

(1) تصنف منحدرات التزلج الجبلية إلى فئات مختلفة بحسب شدة انحدارها. تكون المنحدرات التي تحمل علامة ماستين سوداوين الأشد انحداراً، ومن الممكن أن يتجاوز مَيَلانها أربعين درجة.

هكتبة

قبالة الموقد محتضنة دبّاً من قماش دافئاً إلى أن عادا مبتهجين منتعشين متوردَي الخدود، فاصطحباني لتناول العشاء. ظلا دائماً يدعوانني إلى الذهاب معهما، لكني لم أرافقهما أبداً بعد تلك الرحلة الأولى فكنت أظل في البيت بينما يسافران إلى آسبن أو فيل؛ لم أذهب معهما حتى عندما أمضيا أسبوعاً كاملاً في سويسرا.

إنني أطلب الآن رقم هاتفها الخليوي.

تجيبني عند الرنة الثالثة: «انتظري لحظة...». ثم أسمع صوتها مكتوماً: «تقاطع لكسنغتون والشارع رقم اثنين وتسعين، من فضلك».

هذا يعني أنها صارت في نيويورك. إنها تأتي في الصيف وتعطي دروساً في جامعة كولومبيا.

«فانيسا؟ كيف حالك؟». صوتها محسوب. محايد.

أقول كاذبة: «إنني بخير. كيف حالك أنت؟».

«بخير».

كان من بين مقاطع الحالات النفسية التي استمعت إليها واحداً يقدّم تجربة يعرض فيها الباحثون وجوهاً أمام الطلاب الذين يكون عليهم أن يحدّدوا سريعاً نوع المشاعر الظاهرة على كل وجه. في أقل من ثانية واحدة، من غير أي دلائل أخرى، تمكّن الجميع تقريباً من التمييز بين تعابير الخوف والقرف والدهشة والفرحة. لكني أفكر دائماً في أن أصوات البشر ليست أقل كشفاً من تعابير الوجه لأن أدمغتنا قادرة على إدراك كل تغيّر غير محسوس في نبرة الصوت، وعلى تصنيفه.

لا تريد مورين أن تسمع مني شيئاً، سوف تغلق الخط سريعاً.

«لقد كنت أتساءل... هل يمكننا أن نلتقي ونتناول الغداء معاً يوم غد؟ أو القهوة؟».

تتنهد مورين وتقول: «إنني مشغولة قليلاً الآن».

«يمكنني المجيء إليك. كنت أتساءل... الزفاف. هل ريتشارد...؟»،.

«اسمعي يا فانيسا، لقد تركك ريتشارد. وعليك أن تفعلي مثله».

أحاول من جديد: «إنني في حاجة فقط إلى...».

«توقّفي عن هذا من فضلك. توقّفي. قال لي ريتشارد إنك تتّصلين به طيلة الوقت... اسمعي... أنت مستاءة لأن الأمر انتهى بينكما. لكنه يظلّ أخي».

أقول لها فجأة: «هل رأيتها؟ لا يمكنه الزواج منها؟ لا يحبها... لا يستطيع...».

الآن، يأتيني صوت مورين أكثر لطفاً: «أوافقك على أن الأمر مفاجئ كثيراً. وأعرف أن من الصعب عليك أن تريه مع امرأة أخرى، أن تتخيليه مع أي شخص غيرك. لكن ريتشارد تركك».

وعند ذلك، عندما تنهي مورين المكالمة. ينقطع آخر خيط واهٍ يربطني بريتشارد.

أظل واقفة هناك، أظل جامدة في مكاني. إن لدى مورين غريزة الحماية تجاه ريتشارد. أتساءل إن كانت ستصير صديقة لعروسه الجديدة. أتساءل إن كانت الاثنتان ستذهبان لتناول طعام الغداء.

وعند ذلك، اتضح كل شيء في ذهني بعد أن كان ضباباً. مثلما تتحرّك ماسحة الزجاج في السيارة فتجلوه. تقاطع شارع لكسينغتون والشارع رقم اثنين وتسعين! إنه حيث يقع مطعم سفوجليا. ريتشارد يحب هذا المطعم. قاربت الساعة السابعة... إنه وقت العشاء.

لا بد أن مورين كانت تعطي سائق سيارة التاكسي عنوان المطعم. إنه على مسافة بعيدة من جامعة كولومبيا؛ لكنه قريب من شقة ريتشارد.

هل يمكن أن تكون ذاهبة لملاقاته ـ لملاقاتهما ـ هناك؟ يجب أن أدركها وحدها، حيث لا يستطيع ريتشارد أن يرى شيئاً.

إذا خرجت الآن، فقد أستطيع انتظار وصولها عند الزاوية. وإذا لم أنجح في ذلك، فمن الممكن أن أطلب طاولة قريبة من دورة مياه السيدات بحيث أستطيع الدخول خلفها إذا استخدمتها.

لست في حاجة إلى أكثر من دقيقتين.

ألقي نظرة سريعة إلى انعكاس صورتي في المرآة ذات الحواف المشطوفة إلى جانب خزانتي. صحيح أن عليَّ أن أصل إلى المطعم سريعاً، لكني في حاجة إلى أن أكون حسنة المظهر حتى أضيع بين الناس هناك. خلال دقيقة واحدة، أمشط شعري وأضع أحمر الشفاه، لكني أدرك متأخّرة أن اللون الذي استخدمته قاتم أكثر مما هو متناسب مع وجهي الشاحب. أضع ظلاً تحت عيني، وأمسح خدي بشيء من الحمرة.

أبحث عن مفاتيحي وأصيح قائلة لخالتي شارلوت إنني في حاجة إلى الخروج لأمر ما. لا أنتظر ردّها، بل أسرع خارجة من الباب. المصعد بطيء جداً. أندفع نازلة السلم وحقيبتي المعلّقة من كتفي تتأرجح وتصطدم بخصري. في داخلها كل ما يلزمني.

الشوارع مختنقة بالسيارات. إنها ساعة الازدحام المسائية. لا أرى أي باصات. ربما آخذ سيارة تاكسي! أسير في اتجاه الحي الشرقي وتبحث عيناي عن سيارة تاكسي صفراء. لكن سيارات التاكسي مشغولة كلّها. المطعم على مسافة عشرين دقيقة على الأقدام. أندفع راكضة.

هكذا

الفصل الثالث عشر

مع نهاية مشوار التاكسي، كانت نيللي قد تمكّنت من التخلّص من انزعاجها من لمسة ذلك الشاب. لم يكن الأمر شديد الصعوبة، فقد تعلمت منذ زمن بعيد أن تتعامل مع المشاعر التي أثارها هؤلاء الشباب في نفسها. لكنها كانت لا تزال في حاجة إلى الدخول دقيقة واحدة إلى حمام المطعم. كانت تريد وضع طبقة جديدة من ملمّع الشفاه وبعض العطر أيضاً.

لكن موظف الاستقبال في المطعم أبلغها عند وصولها بأن سيدة أخرى تنتظرها على طاولتها.

«هل آخذ عنكِ حقيبتكِ؟».

أعطته نيللي حقيبتها اللامعة ذات اللونين الأزرق والأصفر (التي وضعت فيها ملابس العمل الرطبة)، وأحست كأنها ريفية خرقاء. تساءلت إن كان من المفترض أن تعطيه بقشيشاً. عليها أن تسأل ريتشارد عن هذا الأمر. إنها أكثر اعتياداً على المطاعم التي فيها مضيفة تقدّم لائحة طعام كبيرة الحجم مع أقلام تلوين للأطفال.

قادها عبر منطقة البار فمرا برجل فضيّ الشعر في بدلة سوداء رسمية يعزف على بيانو كبير، ثم دخلا قاعة الطعام ذات السقف المرتفع. انقبضت معدتها توتراً. كانت مورين أكبر منها بستة عشر عاماً، وكانت

أستاذة جامعية. أما هي، نيللي، معلمة حضانة الأطفال المشعّثة التي تفوح منها رائحة قلي البطاطس.

ما من ليلة أسوأ من هذه للتعارف. لكن نيللي تنفست الصعداء لحظة أن رأت مورين. بدا لها أن شقيقة ريتشارد نسخة فوتوغرافية عنه. كان شعرها قصيراً مصففاً على نمط كلاسيكي، وكانت ترتدي بدلة بسيطة. رأتها تنظر في صحيفة ذي إكونومست عبر زجاج نظارتها وتعض شفتها السفلى مثلما يفعل ريتشارد دائماً عندما يركز على شيء ما.

قالت نيللي وهي تنحني لتعانق مورين: «مرحباً! أليس هذا غريباً؟ أحس بأننا سنكون أختين... لم تكن لي أخت أبداً».

ابتسمت لها مورين ووضعت صحيفتها في حقيبتها: «أمر رائع أن أراكِ».

«آسفة لأنني أبدو في حالة مزرية». جلست نيللي على كرسي قبالة مورين. أحست بأنها راغبة في الكلام... واحد من الآثار الجانبية للتوتّر الذي كان يعتمل في داخلها: «إنني آتية من العمل».

«عملك في الحضانة؟».

هزت نيللي رأسها: «أعمل أيضاً نادلة في مقهى. أو، كنت أعمل نادلة في مقهى. الحقيقة، تركت العمل. لكنني حللت اليوم محل واحدة من صديقاتي. أظنني متوتّرة قليلاً لأنني كنت قلقة من احتمال تأخري على الموعد».

«لا بأس، يبدو منظرك لي حسناً...». كانت مورين لا تزال مبتسمة، لكن كلماتها التالية فاجأت نيللي: «إنك من النمط الذي يفضله ريتشارد تماماً».

ألم تكن زوجة ريتشارد الأولى ذات شعر داكن اللون؟ «ماذا تعنين بهذا؟».

مدت نيللي يدها إلى سلّة الخبز. كان آخر شيء تناولته موزة أكلتها في طريقها إلى حفل التخرج قبل أكثر من عشر ساعات. كان على الطاولة طبق صغير فيه زيت الزيتون الذي تطفو على سطحه بقعة بنفسجية لامعة من الخل مع قطفة زعتر. قطعت لقمة خبز صغيرة وحاولت بحذر غمسها في الطبق من غير أن تفسد زينته.

«أوه، أنت تعرفين. حلوة. جميلة». عقدت مورين ذراعيها على صدرها وانحنت في اتجاهها.

كان ريتشارد قد أخبرها أن مورين صادقة إلى حد مزعج تقريباً. كان هذا واحداً من الأشياء التي يقدّرها في شقيقته. قالت نيللي لنفسها إن ملاحظة مورين لم تكن تبدو مزعجة على الإطلاق... لا يمكن لأية امرأة أن تشعر بإساءة إذا قيل لها إنها حلوة جميلة.

قالت لها مورين: «أخبريني عن نفسك. قال لي ريتشارد إنك من فلوريدا».

«اممم ـ هممم... لكن، أنا التي يجب أن أطرح عليك أسئلة من قبيل كيف كان ريتشارد في صغره. أخبريني شيئاً من الأشياء التي لا يمكن أن يكون قد قالها لي». كان الخبز دافئاً منكّهاً بالأعشاب. أخذت نيللي لقمة أخرى.

«أوه، من أين أبدأ؟».

وقبل أن تتمكّن مورين من قول أي شيء، لمحت نيللي ريتشارد متجهاً إلى طاولتهما. كانت عيناه متعلقتين بها. لم تره منذ أن وضعها في الفراش بعد حفلة توديع العزوبية. ومن غير تردّد انحنى عليها وقبلها.

قالت نيللي في نفسها: الأمور بخير... لقد سامحني.

قبّل أخته قبلة سريعة على خدها وقال: «إنني آسف. لقد تأخّرت الطائرة».

قالت نيللي مازحة: «الحقيقة أنك وصلت مبكراً أكثر مما يجب. كانت مورين موشكة على إخباري عن أسرارك العميقة المظلمة كلها».

فور قول نيللي هذه الكلمات، رأت وجه ريتشارد يتوتّر لحظة قصيرة، ثم ابتسم من جديد. توقّعت أن يعود ليجلس إلى جانبها، لكنه أخذ الكرسي الذي على يمين مورين فصار على الجانب الآخر من الطاولة.

«هز ريتشارد رأسه وفتح فوطة الطعام ووضعها في حجره: «صحيح... كل تلك العطلات الصيفية التي كانت موضع خلاف بيننا لأنني أمضيها في حلبة الغولف في النادي؛ وهنالك أيضاً تلك الحادثة عندما انتخبت نائب رئيس فريق المناقشة».

سايرته مورين قائلة: «كان شيئاً مخزياً!». أزالت بعض الوبر عن طية صدر سترته. فاجأت تلك الحركة نيللي إذ رأت فيها بادرة أمومية. صحيح أن ريتشارد كان يتيماً لكنه حظي بأخت كبيرة من الواضح أنها تحبّه كثيراً.

قالت نيللي: «لا بد أنك كنت جميل المظهر في ملابس الغولف».

بدلاً من الإجابة، أشار ريتشارد إلى النادل وقال: «إنني أموت جوعاً. لكننا في حاجة إلى شراب أولاً».

قالت مورين للنادل: «مياه غازية مع الليمون، من فضلك».

قال ريتشارد مخاطباً أخته وهو يغمز بعينه لنيللي: «هل تعطيني قائمة النبيذ من أجل خطيبتي؟ لم أعرف عنكِ أبداً أنك ترفضين كأساً من الشراب».

ضحكت نيللي، لكنها أدركت كيف سيكون وقع هذه الجملة على مورين. كانت نيللي قلقة من رائحة قلي البطاطس. لكن، لعل رائحة الجن كانت فائحة منها عندما عانقت أخت ريتشارد.

«لا أريد إلا كأساً من نبيذ بينوغريجيو. شكراً». حاولت نيللي إخفاء

حرجها بأن غمست لقمة الخبز الأخيرة في زيت الزيتون ذي الطعم اللاذع.

قال ريتشارد: «سآخذ كأس ويسكي هايلاند بارك».

حلت لحظة صمت قصيرة بعد ذهاب النادل. ثم قالت نيللي: «أتيت مباشرة من مقهى جيبسون. دلق أحد الحمقى عليَّ كأساً من الشراب. لا تزال ملابسي المبللة في حقيبتي، لذلك...». أليست تقول كلاماً فارغاً من جديد؟

قال ريتشارد: «ظننتك تركتِ ذلك العمل!».

«لقد تركته. لكني كنت اليوم أحل محل جوزي. لقد حصلت على أول إعلان تجاري ولم تستطع العثور على أحد آخر...». تركت نيللي جملتها معلّقة هكذا غير واثقة مما جعلها تحس بأنها بحاجة إلى الشرح.

عندما أتى النادل بالمشروبات التي طلبوها، رفع ريتشارد كأسه في اتجاه مورين وقال لها: «كيف صارت أوتار ركبتك؟».

«إنها في تحسّن. لدي بضع جلسات أخرى من المعالجة الفيزيائية ويجب أن أصير بعدها قادرة على العودة إلى الجري مسافات طويلة».

سألتها نيللي: «هل أُصبتِ؟».

«إنه شد عضلي، لا أكثر! يزعجني من حين لآخر منذ أن شاركت في الماراثون؟».

قالت نيللي: «لا يمكنني أبداً أن أجري الماراثون. لا أستطيع الجري أكثر من ثلاثة أميال. إن قدرتك تثير إعجابي حقّاً».

قالت مورين مازحة: «هذا ليس لأي شخص. إنه لنا فقط، نحن الفئة الأولى».

مدّت نيللي يدها إلى سلة الخبز وأخذت منها قطعة أخرى. إلا أنها

أعادتها مدركة أن ما من أحد يأكل أي شيء. حاولت أن تزيح خفية فتات الخبز الذي تناثر حول طبقها.

قال ريتشارد لمورين: «استمتعت بمقالتك عن نظرية التصنيفات والتداخلات الجندرية. إنك تطرحين الأمر من زاوية مثيرة للاهتمام. كيف كان رد الفعل عليها؟»

خلال حديثهما، كانت نيللي تومئ برأسها وتبتسم وتعبث بخرزات سوار جوناه؛ لكنها لم تستطع إيجاد طريقة تسمح لها بالمشاركة بالحديث.

ألقت نظرة سريعة على الطاولات الموجودة حولهما، فالتقطت عينها لمحة من لون أخضر عندما تناول النادل بطاقة ائتمان كانت في صينية فضية.

جعلها ذلك تفكّر في بطاقة الائتمان التي ألقتها من نافذة سيارة التاكسي. تأمل أن تكون تلك البطاقة الآن في يد لص ذهب ليشتري بها من أكبر المتاجر وأغلاها. أو، وهذا أفضل، في يد أم فقيرة تشتري طعاماً لأطفالها.

صارت أكثر ارتياحاً عندما أتاهم النادل بالطبق الأول مما سمح لها بأن تتظاهر بالتركيز على الدجاج والكسكس.

بدا على مورين أنها لاحظت ذلك، فاستدارت صوب نيللي قائلة لها: «التعليم المبكر أمر في غاية الأهمية. ما الذي جذبك إليه؟». كانت مورين تلف معكرونة تاغليتِللي على شوكتها بحركة متقنة، ثم تضعها في فمها.

«إنني أحب الأطفال... طيلة عمري».

أحسّت نيللي بساق ريتشارد تمس ساقيها تحت الطاولة. وسمعته يسأل مورين: «هل أنت مستعدة لأن تصيري عمّة؟».

«بالتأكيد».

كانت نيللي تتساءل عن السبب الذي جعل مورين لا تتزوج ولا تنجب أطفالاً. كان ريتشارد قد قال لها إنه يظنها امرأة تخيف الرجال لأنها شديدة الذكاء. وقد افترضت نيللي أنها كانت تقوم بدور الأم تجاه أخيها.

نظرت مورين إلى نيللي وقالت: «كان ريتشارد طفلاً رائعاً. تعلم القراءة قبل أن يتجاوز الرابعة من العمر».

«ليس الفضل كله لي. إنها من كان يعلّمني».

قالت نيللي: «حسناً، الحقيقة أننا قد اخترنا لك غرفتكِ منذ الآن. عليك أن تأتي لزيارتنا دائماً».

«وأنتم أيضاً. سوف أتجوّل معك في مدينتي. هل زرتِ بوسطن من قبل؟».

كانت نيللي قد وضعت لقمة كسكس في فمها فهزت رأسها نفياً، ثم ابتلعت اللقمة بأسرع ما يمكن: «لم أسافر كثيراً. لم أذهب إلا إلى بضع ولايات في الجنوب».

لم تسترسل في كلامها، ولم توضح أن تجوالها كان مقتصراً على السفر بالسيارة عبر تلك الولايات عندما أتت من فلوريدا إلى نيويورك. استغرقت رحلة الألف ميل يومين اثنين: كانت نيللي تريد أن تضع مسقط رأسها بعيداً خلفها بأقصى سرعة ممكنة.

تذكّرت نيللي أن مورين تتحدّث الفرنسية بطلاقة. وأنها كانت مدرّسة زائرة في جامعة السوربون منذ بضع سنين.

قال ريتشارد: «لقد حصلت نيللي على جواز سفرها الأول منذ فترة بسيطة. لا أطيق انتظار سفرنا معاً لكي ترى أوروبا.

ابتسمت له نيللي ابتسامة امتنان.

تحدّثوا بعض الوقت عن أمور متعلّقة بالزفاف ـ قالت مورين إنها تحب السباحة ولا تكاد تستطيع الانتظار حتى تسبح في المحيط ـ ثم رفض كل من ريتشارد ومورين تناول الحلوى بعد أن رفع النادل الأطباق، فتظاهرت نيللي بأنها شبعت كثيراً فلم تطلب حلوى مخفوق عصير البرتقال التي كانت تشتهيها. وقف ريتشارد حتى يزيح كرسي نيللي إلى الخلف ويساعدها في النهوض في اللحظة التي قالت فيها: «أوه، مورين، كدت أنسى. لديَّ شيء من أجلك».

كان ذلك شيئاً اشترته من غير تخطيط مسبق. كانت تمشي عبر سوق يونيون سكوير عندما رأت بائعة تعرض بعض الحلي. لفت انتباهها عقد لدى تلك البائعة. كانت خرزاته الزجاجية الملونة بالأزرق والبنفسجي الخفيف معلّقة بخيط فضي كخيط العنكبوت فبدت كأنها عائمة في الهواء. وكان مشبكه على شكل فراشة. لم تستطع تخيل أن هنالك امرأة لا تشعر بالسرور عندما يوضع هذا العقد حول عنقها.

لقد طلب ريتشارد من نيللي أن تكون مورين وصيفتها في الزفاف، فوافقت على الرغم من أنها كانت تفضّل قيام سامانثا بهذا الدور. وبما أن من المقرر أن يكون حفل الزفاف صغيراً جداً، فسوف تكون مورين الوصيفة الوحيدة. تخطط مورين لارتداء فستان بنفسجي اللون مما يعني أن هذا العقد سيكون مناسباً تماماً مع فستانها. لقد وضعت الفنانة العقد على وسادة قطنية ناعمة في علبة بنية اللون من الورق المقوى (أوضحت لها أنه ورق معاد تدويره)؛ وربطت العلبة بشريط على شكل فراشة. كانت نيللي تأمل أن يثير العقد إعجاب مورين. وكانت تأمل أيضاً أن يدرك ريتشارد أنه أكثر من مجرّد عقد. لقد كان لفتة تعني أن نيللي تريد أن تكون قريبة من أختها أيضاً.

فتحت حقيبة يدها وأخرجت العلبة الصغيرة. كانت زاويتان من زواياها مضغوطتين قليلاً؛ وكانت عقدة الفراشة ذابلة.

فتحت مورين الهدية بعناية، ثم قالت وهي ترفعها حتى يراها ريتشارد: «شيء ساحر».

قالت نيللي: «فكّرت في أنك يمكن أن تضعيه في زفافنا».

وضعته نيللي على عنقها من غير تأخير رغم عدم انسجامه مع قرطيها الذهبيين... «كم أنت ذكية!». ضغط ريتشارد على يد نيللي وقال: «شيء حلو».

لكن نيللي خفضت رأسها على الفور حتى لا يريا الحمرة التي انتشرت على خديها. العقد الذي بدا لها جميلاً متقناً قبل أسبوع فقط، صار الآن أخرق طفولياً بعض الشيء عندما رأته على عنق مورين.

الفصل الرابع عشر

أندفع عبر شوارع المدينة متجاهلة الرجل الذي حاول أن يدس منشوراً إعلانياً في يدي. ساقاي مرتعشتان، لكني أتابع سيري السريع في اتجاه مدخل سنترال بارك.

أصل إلى معبر المشاة التالي لحظة تحول إشارة السير إلى الأحمر. فأقف عند الزاوية منقطعة الأنفاس. لعل مورين قد وصلت المطعم الآن. سيكون ريتشارد قد طلب نبيذاً جيداً. وسوف يكون الخبز اللذيذ قد صار على الطاولة. لعل ثلاثتهم يقرعون كؤوسهم الآن ويشربون نخبهم أيضاً. ومن تحت الطاولة، ربما تضغط يد ريتشارد على يد خطيبته. كنت أحس بيديه قويتين على الدوام عندما تكونان على يديّ.

يتغير لون إشارة السير فأندفع عابرة الشارع.

ذهبنا معاً إلى مطعم سفوغيليا مرات كثيرة إلى أن جاءت ليلة توقفنا بعدها عن الذهاب إليه توقفاً مفاجئاً. لا تزال تلك الأمسية حيّة تماماً في ذاكرتي. كان الثلج يتساقط، وكنت أتأمل معجبة تلك الندف البيض الكبيرة التي غيّرت شكل المدينة وانتشرت في الشوارع فأخفت أوساخها وحوافها القاسية. كان ريتشارد آتياً من مكتبه؛ وقد طلب مني ملاقاته في المطعم. نظرت من نافذة سيارة التاكسي وابتسمت عندما رأيت ولداً صغيراً في قبعة مخططة يمد لسانه محاولاً تذوق طعم الشتاء. أحسست

بلذعة الحنين في صدري. كانت د. هوفمان لا تزال غير قادرة على تحديد السبب الذي يجعلني غير قادرة على الحمل. وكنت قد سجلت طلباً لإجراء جولة جديدة من الفحوص الطبية.

اتصل بي ريتشارد لحظة توقّف سيارة التاكسي أمام المطعم. قال لي: «سوف أتأخر بضع دقائق».

«لا بأس. أظن أنك تستحق أن انتظرك».

سمعت ضحكته العميقة، فدفعت أجر السائق وخرجت من السيارة. وقفت على الرصيف لحظة أمتص الطاقة التي من حولي. كنت على الدوام أحب لقاء ريتشارد في المدينة.

مضيت إلى البار حيث كان هناك كرسي واحد فارغ . طلبت ماء معدنياً وجلست أستمع إلى الأحاديث الدائرة من حولي.

كانت شابة جالسة إلى يميني تطمئن صديقتها قائلة لها: «سوف يتّصل بك».

سألتها صديقتها: «وماذا لو لم يتصل؟».

«حسناً، تعرفين ما يقولون: الطريقة الأفضل لنسيان رجل هي أن تكوني تحت رجل آخر».

انفجرت المرأتان ضاحكتين.

لم أكن أرى صديقاتي كثيراً في تلك الآونة. وهذا ما جعلني مشتاقة إليهن. لا يزلن يعملن كما كنّ؛ وفي عطلات نهاية الأسبوع، عندما يخرجن ويتحدّثن عن الرجال الذين يروهن، كنت مع ريتشارد دائماً.

وبعد دقائق قليلة، وضع عامل البار أمامي كأساً من النبيذ الأبيض. قال لي: «إنها تحية من السيد الجالس عند آخر البار».

رفعت رأسي فرأيت رجلاً يرفع كأس الكوكتيل في اتجاهي. أتذكّر

أنني رفعت الكأس بيدي اليسرى آملة أن يرى خاتم الزفاف في إصبعي وأخذت رشفة صغيرة منها قبل أن أدفعها بعيداً عني.

بعد لحظات قليلة، سمعت صوتاً يسألني: «ألست من محبي نبيذ بينوغريجيو؟»

كان الرجل قصير القامة لكنه قوي البنية. وكان شعره متموجاً. كان عكس ريتشارد تماماً.

«لا، إنه جيد... شكراً لك. إنني أنتظر وصول زوجي».

أخذت رشفة أخرى من الكأس حتى لا يكون رفضي مزعجاً.

«لو كنت زوجتي، لما تركتك تنتظرين في البار. لا تعرفين أبداً من يمكن أن يتحرّش بك».

ضحكت، كنت لا أزال حاملة كأس النبيذ في يدي.

التفتّ في اتجاه الباب فالتقت عيناي بعيني ريتشارد. رأيت عينيه تسجّلان المشهد كله... الرجل، وكأس النبيذ، وضحكتي المرتفعة العصبية... ثم أتى في اتجاهي.

نهضت واقفة وناديته: «حبيبي!».

«ظننت أنني سأجدك على الطاولة. آمل أنهم لا يزالون محتفظين بها من أجلنا».

اختفى الرجل ذو الشعر المموج بينما أشار ريتشارد إلى النادلة.

سألني: «هل تريدين أخذ كأس النبيذ معك؟».

هززت رأسي من غير أن أقول شيئاً.

قلت لريتشارد هامسة ونحن سائرَين إلى الطاولة: «لم أكن أشربها في حقيقة الأمر».

رأيت وجهه متوتّراً. لم يجب على ما قلته.

إنني غارقة تماماً في هذه الذكريات. لا أنتبه حتى إلى أنني خطوت في الشارع إلا عندما يمسكني أحد من ذراعي ويشدني إلى الخلف. وبعد ثانية فقط، مرت شاحنة صغيرة مسرعة مطلقة بوقها.

أظل منتظرة عند الزاوية لحظة أخرى إلى أن تتحوّل الإشارة إلى اللون الأخضر. أتخيل ريتشارد يطلب الباستا بالحبّار لحبيبته الجديدة قائلاً لها إن عليها أن تجرّبها. أراه ينهض قليلاً عندما تستأذن لكي تذهب إلى الحمام. أتساءل إن كانت مورين ستميل في اتجاه ريتشارد وهي تومئ برأسها محبّذة وتقول له: إنها أحسن من سابقتها!

في تلك الليلة عندما اشترى لي الرجل الغريب كأس النبيذ، أخذت بضع رشفات منها حتى لا أكون فظّة؛ لكن عشاءنا فشل فشلاً ذريعاً. كان المطعم ساحراً حقّاً بجدرانه من القرميد المكشوف وغرفه الحميمة الصغيرة، إلا أن ريتشارد لم يتحدّث معي إلا كلمات قليلة جداً. حاولت أن أُجري حديثاً بيننا، حاولت التعليق على الطعام، وحاولت السؤال عن يومه وكيف كان. لكنني كففت عن ذلك بعد قليل.

عندما تكلّم أخيراً بعد أن أبعدت طبق الباستا الذي لم أتناول إلا نصفه، جاءتني كلماته كأنها قرصة شديدة.

«ذلك الرجل في الكلية، الرجل الذي حملت منه. ألا تزالين على صلة به؟».

شهقت وقلت: «ماذا؟ ريتشارد...! لم أكلّمه منذ سنين طويلة».

«وماذا لديك أيضاً لم تخبريني به؟».

قلت متلعثمة: «أنا... لا... لا شيء!».

كانت نبرة صوته غير منسجمة إطلاقاً مع كل ما يحيط بنا من أناقة وجمال ومع النادلة المبتسمة التي أتتنا حاملة قائمة أصناف المُحليات: «من ذلك الرجل الذي كنت تغازلينه على البار؟».

أحسست بالحرارة في وجنتي عند هذا الاتهام الجديد. أدركت أيضاً أن الرجل والمرأة الجالسين إلى الطاولة المجاورة قد سمعا كلماته. كانا ينظران إلينا في تلك اللحظة.

«لا أعرف شيئاً عن ذلك الرجل. لقد اشترى لي كأس شراب. هذا كل ما في الأمر».

شد ريتشارد على شفتيه وضاقت عيناه: «وأنت شربت الكأس. شربت النبيذ رغم أنه يمكن أن يكون مؤذياً لطفلنا».

«ليس هنالك طفل يا ريتشارد! لماذا أنت غاضب مني إلى هذا الحد؟».

«أليس عندك شيء آخر تودّين الكشف عنه يا حبيبتي بما أنني أسمع الآن أشياء جديدة عنك؟».

رفرفت عيناي محاولتين إبعاد حرقة الدموع الحادة، ثم دفعت كرسيَّ إلى الخلف فجأة فزعقت أرجله على البلاط. حملت معطفي وأسرعت خارجة إلى الثلج الذي لا يزال يتساقط.

وقفت في الخارج والدموع تجري على وجنتيّ. كنت أتساءل إلى أين يمكنني الذهاب.

وعندها ظهر ريتشارد إلى جانبي. قال لي: «إنني آسف يا حبيبتي». كنت أعرف أنه يعني هذه الكلمات حقاً... «أمضيت يوماً فظيعاً. وما كان يجب أن أتكلّم معك هكذا».

فتح ذراعيه لي. وبعد لحظة قصيرة، اندسست بينهما.

راح يمسّد شعري، وتحوّل نشيجي إلى شهقات مرتفعة الصوت. ضحك بصوت منخفض وهو يقول «يا حبي». كان السم كله قد اختفى من صوته وحلّت محلّه رقّة مخملية.

«وأنا آسفة أيضاً». كان صوتي مكتوماً لأن وجهي مضغوط على صدره.

لم نعد إلى مطعم سفوغيليا أبداً من بعد تلك الليلة.

كدت أصل المطعم الآن. لقد اجتزت الحديقة ولا تزال أمامي مسافة ثلاث بنايات فقط. أشعر بضيق في صدري وأنا ألهث. أتمنى لو أستطيع الجلوس دقيقة واحدة فقط، لكني لا أستطيع تضييع فرصة رؤيتها.

أجبر نفسي على الجري بسرعة أكبر حتى أتجنّب فتحات المترو ذات القضبان التي تحاول الإمساك بكعبي حذائي، وحتى ألتف من حول الرجل محدودب الظهر الذي يحمل عكازاً. ثم... بلغت المطعم.

أفتح باب المطعم، ثم أندفع مسرعة في المدخل الضيّق متجاوزة موظفة الاستقبال. أرى شابة تحمل قوائم الطعام، وأسمعها تقول من خلفي: «مرحباً» لكني أتجاهلها. ألقي نظرة فاحصة في اتجاه البار والناس الجالسين إلى الطاولات. لا أجدهم هناك. لكن هنالك قاعة أخرى، إنها حيث يفضل ريتشارد الجلوس لأنه يجدها أكثر هدوءاً.

لقد لحقت بي النادلة. أسمعها تسألني: «هل يمكنني مساعدتك؟».

أندفع في اتجاه الصالة الخلفية فأتعثر عند درجاتها. أستند إلى الجدار حتى أتفادى السقوط. أنظر إلى كل طاولة، ثم أتحقّق من جديد.

«هل كان هنا رجل داكن الشعر معه شابة شقراء؟». إنني ألهث... «ربما كانت معهما امرأة أخرى».

يفاجئ سؤالي النادلة فتتراجع خطوة إلى الوراء وتبتعد عني: «أتانا الليلة عدد كبير من الناس. لست أدري...».

أجيبها بصوت يكاد يكون صياحاً: «قائمة الحجز! تحقّقي منها، أرجوك... ريتشارد ثومبسون، أو يمكن أن يكون الحجز باسم أخته مورين ثومبسون!» يظهر شخص آخر. رجل متين البنية في بدلة رسمية

زرقاء. أراه متجهّم الوجه، وأرى النادلة تتبادل معه نظرات سريعة.

يمسكني الرجل من ذراعي ويقول لي: «لماذا لا نذهب إلى الخارج؟ لا نريد إزعاج من يتناولون عشاءهم هنا».

«من فضلك! يجب أن أعرف أين هم!».

يسير بي الرجل باتجاه باب الخروج. قبضة يده ثابتة على ذراعي.

أحس بأن جسدي قد بدأ الارتعاش. ريتشارد، أرجوك، لا تتزوجها...

هل قلت هذه الكلمات بصوت مرتفع؟ صار المطعم صامتاً كله على نحو مفاجئ، الناس ينظرون إليّ. لقد تأخرت كثيراً. لكن، كيف يمكن أن يكون هذا؟ لم يمض من الوقت ما يسمح لهم بتناول الطعام والانصراف. أحاول تذكر التعليمات التي كانت تعطيها مورين لسائق التاكسي. هل قالت شيئاً مختلفاً عمَّ سمعته؟ أو لعل عقلي يخدعني ويقول لي ما أريد سماعه؟

يضعني الرجل ذو البدلة الزرقاء عند زاوية الشارع. إنني أبكي من جديد. نشيج مؤلم لا أستطيع ضبطه. لكن، ما من ذراعين تحضناني هذه المرة. الكفان اللطيفان اللذان يمسدان شعري ويبعدانه عن وجهي.

إنني وحيدة تماماً!

الفصل الخامس عشر

ظنّت نيللي ذات مرة أنها وقعت في الحب... عندما كانت في الكلية. كان يأتي في المساء فينعطف بسيارته عند زاوية الشارع إلى جانب بيت الطالبات حيث كانت مقيمة. وكانت تجري مجتازة الساحة الصغيرة المعشوشبة حتى تلاقيه. العشب طري كالإسفنج تحت قدميها، والهواء دافئ على ساقيها العاريتين. كان يخرج من صندوق سيارة الألفا روميو العتيقة بطانية قطنية ناعمة فيفرشها على الشاطئ، ثم يناول نيللي زجاجة ويسكي بوربون الصغيرة. كانت تضع فمها حيث وضع فمه قبل لحظات فقط فينساب السائل الكهرماني ويدفئ الطريق كله من فمها إلى بطنها.

وبعد غروب الشمس، كانا يخلعان ملابسهما ويجريان إلى المحيط، ثم يخرجان ويلتفان بتلك البطانية. كانت تحب طعم الملح على جلده.

كان يقول لها شعراً ويشير إلى كوكبات النجوم في سماء الليل. لكن سلوكه معها كان غير مستقر إلى حد غريب: يتّصل بها ثلاث مرات في اليوم الواحد، ثم يتجاهلها طيلة عطلة نهاية الأسبوع.

ما كان شيء من هذا كله حقيقيّاً!

لم يكن يزعجها الأمر عندما يختفي يوماً كاملاً أو يومين كاملين... إلى أن أتت تلك الليلة في أكتوبر عندما كانت في حاجة إليه. اتصلت به مرة بعد مرة، وتركت له رسائل تزداد إلحاحاً. لكنه لم يجب أبداً.

وبعد أيام من ذلك، ظهر حاملاً باقة رخيصة من أزهار القرنفل فتركته يواسيها. كرهته لأنه لم يستجب لنداءاتها. وكرهت نفسها أكثر لأنها راحت تبكي أكثر عندما قال لها إن عليه الذهاب.

وعدت نفسها بأنها ستكون أكثر ذكاء في المرة التالية. لن تكون بعد الآن أبداً مع رجل يشيح بوجهه بعيداً عنها عندما تبدأ السقوط.

لكن ريتشارد فعل أكثر من ذلك.

لقد أمسك بها، على نحو ما، حتى قبل أن تدرك أنها موشكة على التعثر والسقوط من جديد.

كانت نيللي تقول لريتشارد وهما يسيران يداً بيد في اتجاه شقته: «مورين رائعة».

ضغط ريتشارد على يدها: «يمكنني القول إنها أحبتك كثيراً».

تحدّثا بعض الوقت، ثم أشار ريتشارد إلى محل الجيلاتو على الرصيف المقابل. قال لها: «أعرف أنك كنت راغبة في تناول شيء حلو».

قالت نيللي بصوت كالأنين: «قلبي يقول نعم، لكن حميتي تقول لا».

«كان اليوم آخر يوم لك في العمل... صحيح؟ تستحقين الاحتفال بهذا. كيف كان حفل التخرّج؟».

«طلبت منّي ليندا إلقاء كلمة صغيرة. اختنق صوتي انفعالاً في نهاية الكلمة فظنّ جوناه الصغير أنني أجد صعوبة في قراءة ما هو مكتوب على الورقة. صاح بي: قوليها، ولا تتردّدي! أنت قادرة على هذا!».

ضحك ريتشارد واقترب منها فقبلها. وفي تلك اللحظة، انبعثت من هاتفها أغنية «أمبريلا» لريهانا «عندما تشرق الشمس، سنشرق معاً»... إنها رنة الهاتف التي خصّصتها لسامانثا.

«ألن تردي على الهاتف؟». لم يظهر على ريتشارد أي انزعاج لمقاطعة تلك اللحظة. وهكذا، ردت نيللي على المكالمة.

سألتها سامانثا: «مرحباً، هل أنت عائدة إلى البيت اليوم؟».

«لم أعتزم هذا. ماذا حدث؟».

«أتت امرأة لترى الشقة. قالت إنها سمعت عن أنني أبحث عن شريكة سكن جديدة. لكني لم أستطع العثور على مفاتيحي بعد ذهابها».

«لقد تركتِ مفاتيحك داخل كيس التسوق منذ بضعة أسابيع، ثم كدت ترمينها مع الكيس».

«لكني بحثت في كل مكان. كانت المرأة منتظرة أمام باب الشقة عند وصولي. أقسم أنني أعدت المفاتيح إلى حقيبة يدي».

لم تدرك نيللي أنها توقفت عن السير إلى أن همس لها ريتشارد: «هل كل شيء بخير؟».

سألتها: «كيف كان شكل تلك المرأة؟».

«شكلها عادي تماماً. نحيلة، داكنة الشعر، وهي أكبر منا سناً بقليل. لكنها قالت إنها تركت زوجها منذ فترة قصيرة، وإنها تحاول الآن أن تبدأ من جديد. كان أمراً غبياً تماماً، لكني كنت في حاجة شديدة إلى التبول. أما هي، فظلّت تمطرني بالأسئلة كأنها تريد السكن في الشقة فعلاً. لم أتركها في المطبخ وحدها إلا ثانيتين فقط».

قاطعتها نيللي: «وهل أنت وحدك الآن؟».

«وحدي. لكن يجب أن أطلب من كوبر أن يأتي لينام هنا، تحسباً فقط. سأجعله يجر إحدى قطع الأثاث ويضعها خلف الباب. اللعنة... سوف يكلّفنا مجيء مصلح الأقفال ثروة...».

همس لها ريتشارد: «ما الأمر؟».

هكتبة

قالت نيللي لسامانثا: «انتظري لحظة!».

أخرج ريتشارد هاتفه حتى قبل أن تنهي نيللي إخباره بالقصة. «دايان؟» ... عرفت نيللي اسم سكرتيرته التي تعمل لديه منذ زمن طويل. امرأة في الستينات ممتازة في عملها التقتها نيللي عدة مرات... «آسف لأنني أزعجك في هذه الساعة... أعرف، أعرف... تقولين لي هذا دائماً... صحيح، إنه طلب شخصي... هل يمكنك أن تستدعي سريعاً مصلح أقفال من أجل تبديل القفل في شقة؟... الليلة، بأسرع ما يمكن؟ لا، ليست شقتي، بالتأكيد، سأعطيك عنوان الشقة... مهما تكن التكلفة. شكراً لك. يمكنك التأخر في الوصول إلى العمل غداً إن أحببت ذلك». أغلق الهاتف، ثم أعاده إلى جيبه.

قالت نيللي في هاتفها: «سامـ...؟».

«لقد كنت أستمع إليه. واو! كان هذا شيئاً لطيفاً حقّاً. من فضلك، قولي له إنني أشكره كثيراً».

«سأقول له. اتصلي بي عندما يأتي مصلح الأقفال». أغلقت نيللي هاتفها.

قال ريتشارد: «هنالك الكثير من المجانين في نيويورك».

قالت نيللي: «أعرف هذا».

«لكن من المحتمل كثيراً أن تكون سامانثا قد نسيت مرة أخرى أين وضعت مفاتيحها...». كانت نبرات صوت ريتشارد مريحة مهدئة، مثلما التقته أول مرة في الطائرة... «فلماذا تأخذ تلك المرأة المفاتيح ولا تأخذ محفظة سامانثا؟».

تردّدت نيللي قليلاً... «أنت محقّ، لكن يا ريتشارد، كل تلك المكالمات الغريبة التي أتلقاها...».

«إنها ثلاث مكالمات فقط».

«كانت هنالك مكالمة أخرى. ليست مثل بقية المكالمات تماماً. لكن المرأة اتصلت بشقتك بعد ذهابك إلى أتلانتا. ظننت أنك أنت الذي يتصل فلم أفكر قبل أن أرد على الهاتف. لم تقل لي اسمها، وأنا...».

«حبيبتي، كانت تلك إلين التي تعمل معي في المكتب. اتصلت بي بعد ذلك على هاتفي الخليوي».

استرخى جسد نيللي مع زوال التوتر... «أوه... ظننت أن... أعني... كان يوم أحد، وهكذا فقد...». قبل ريتشارد طرف أنفها: «جيلاتو. وبعد ذلك، أرجّح أن تتصل بك سامانثا لتقول لك إنها عثرت على مفاتيحها في البراد».

قالت نيللي ضاحكة: «أنت محق».

دار ريتشارد من حولها حتى يسير من جهة الشارع فيصير بينها وبين السيارات مثلما يفعل دائماً. لفها بذراعه، ثم تابعا سيرهما.

بعد اتصال سامانثا لتخبرها بأن مصلح الأقفال قد أتى وذهب، مضت نيللي إلى الحمام حتى ترتدي قميص نومها الخفيف وتنظف أسنانها. كان ريتشارد مستلقياً في السرير مرتدياً سرواله الداخلي فقط. وعندما صعدت إلى السرير وصارت بجانبه، لاحظت أن الصورة ذات الإطار الفضي على الطاولة الصغيرة إلى جانبه كانت مُدارة بحيث صارت تواجه الجدار. كانت صورة لها وهي جالسة على مقعد سنترال بارك مرتدية شورتاً من الجينز وبلوزة من غير أكمام. يقول لها ريتشارد دائماً إنه يحب رؤيتها عندما يستيقظ في الصباح ولا تكون موجودة معه.

لاحظ ريتشارد نظرتها فمد يده وأعاد الصورة كما كانت. قال لها: «كانت الخادمة هنا».

تناول جهاز التحكم وشغل التلفزيون، ثم ضغط بجسده على

جسدها. ظنت أول الأمر أن لمسته تلك تعني ما تعنيه عادة عندما يلتصق بها تحت الملاءات. لكنه تركها بعد ذلك واستلقى على ظهره.

«يجب أن أقول لك شيئاً». كانت نبرة صوته جادة.

قالت نيللي ببطء: «لا بأس».

«لم ألعب الغولف إلى أن صرت في العشرينات».

لم تكن قادرة على رؤية وجهه في الظلمة: «إذاً... ذلك الحديث عن العطلات الصيفية في النادي؟».

تنهّد وقال: «لقد كنت مساعداً للاعبين. وكنت نادلاً. ومنقذاً. وكنت أحمل مضارب الغولف. كنت ألتقط المناشف الرطبة. وعندما يطلب الأطفال سندويشات الهوت دوغ التي تكلّف الواحدة منها أكثر مما أكسبه في ساعة من العمل، كنت أقدمها إليهم. كنت أكره ذلك النادي كثيراً...».

مرّرت نيللي أصابعها على ذراعه ممسّدة الشعرات الداكنة تحت أطراف أصابعها. لم تسمعه قبل الآن يبدو ضعيفاً هكذا: «كنت أظن دائماً أنك نشأت في أسرة ثرية».

«قلت لك إن أبي كان يعمل في مجال المصارف. لقد كان محاسباً. كان ينجز البيانات الضريبية لجيرانه من السبّاكين وأصحاب الحرف».

ظلّت نيللي صامتة. لم تكن تريد مقاطعته.

«حصلت مورين على منحة جامعية، ثم ساهمت في دفع مصاريف دراستي...». شعرت بجسد ريتشارد يتوتّر تحت لمستها... «عشت معها حتى أوفّر المال؛ وقد استعنت بقروض كثيرة جداً. كما كنت أقتل نفسي بكثرة العمل».

أحسّت بأن ريتشارد لم يكشف قبل الآن عن هذا الجزء من نفسه... لم يكشف عنه أمام أي شخص غيرها.

ظلا صامتين مستلقيين معاً بضع دقائق تسرّب خلالها إلى نيللي إحساس بأن هذه المصارحة من جانب ريتشارد كانت تنقل إليها رسالة.

كان سلوكه من غير أي شائبة إلى درجة تجعله يبدو كأنه مصمم مسبقاً. إذا وجد نفسه في أي حديث فهو قادر على الإمساك بناصيته سواء أكان حديثاً مع سائق سيارة تاكسي أو مع عازف كمان محترف في حفلة تقيمها جمعية خيرية. كان يعرف كيف يستخدم أدوات الطعام بكل أناقة، ويعرف أيضاً كيف يبدل الزيت في محرك سيارته. كانت على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريره مجلات متنوعة، من مجلة ESBN الرياضية إلى ذا نيويوركر، إضافة إلى مجموعة من كتب السير. كانت تراه أشبه بالحرباء[1]... شخص قادر على أن يكون منسجماً من غير مشقة مع أي محيط يجد نفسه فيه.

سألته نيللي: «ماذا عن أمك؟ أعرف أنها كانت ربة منزل».

«هذا صحيح. كانت تدخن سجائر فيرجينيا سلِمز وكانت تحب متابعة المسلسلات التلفزيونية أيضاً». كان من الممكن أن يكون ما قاله نكتة، إلا أن الفكاهة كانت غائبة عن صوته عندما قال تلك الكلمات... «لم تذهب أمي إلى أية كلية. مورين هي التي كانت تساعدني في واجباتي البيتية. كانت تدفعني إلى الأمام وتقول لي إن لديّ من الذكاء ما يكفي لأن أفعل أي شيء أصمم عليه. أنا مدين لها بكل شيء».

«لكن أبوك وأمك... كانا يحبانك». فكرت نيللي في الصور الفوتوغرافية على الجدار في شقة ريتشارد. كانت تعرف أن والديه توفيا في حادث سيارة عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، وأنه ذهب عند ذلك للعيش عند مورين. لكنها لم تدرك قبل الآن كم كان الدور الذي لعبته أخته الكبيرة حاسماً في تكوينه.

---

(1) هنا، لا يحمل التشبيه بالحرباء أي معنى سلبي بل هو إشادة بالقدرة على التكيف بحسب الوسط المحيط.

قال لها: «بالتأكيد...». كانت نيللي موشكة على طرح مزيد من الأسئلة عن أبيه وأمه، لكن صوت ريتشارد أوقفها... «أنا مرهق. فلنكفّ عن هذا الحديث!».

وضعت نيللي رأسها على صدره: «أشكرك لأنك أخبرتني بهذا كله». انبعثت مشاعر الرقة في نفسها بعد أن صارت تعرف أنه ناضل كثيراً... وكان نادلاً أيضاً، ولم يكن واثقاً من نفسه هكذا على الدوام.

كان هادئاً تماماً فظنّت أنه قد غفا. لكنه انقلب فجأة فصار فوقها، ثم بدأ يقبلها. انزلق لسانه بين شفتيها وباعدت ركبته بين ساقيها.

لم تكن مستعدة لهذا. شهقت عندما ولجها؛ لكنها لم تطلب منه التوقف. ضغط بوجهه على رقبتها، وأحاطت كفاه برأسها من الجانبين. انتهى سريعاً وظل مستلقياً فوقها. كان تنفسه ثقيلاً.

قالت له نيللي بصوت خافت: «أحبك».

لم تكن واثقة من أنه سمع هذه الكلمة، لكنه رفع رأسه عند ذلك وطبع على شفتيها قبلة رقيقة.

راح يمسد شعرها بيده: «هل تعرفين ما فكرت فيه عندما رأيتك أول مرة يا نيللي؟».

هزّت رأسها.

«كنت تبتسمين لصبيّ صغير في المطار. بدوت مثل ملاك. قلت في نفسي إنك قادرة على إنقاذي».

كررت كلمته: «إنقاذك؟».

أجابها بصوت هامس: «إنقاذي من نفسي».

الفصل السادس عشر

منذ سنين، بعد مجيئي إلى نيويورك بفترة قصيرة، كنت سائرة إلى عملي أتأمل المدينة من حولي: بنايات شديدة الارتفاع، ونتف من أحاديث بلغات مختلفة، وسيارات تاكسي صفراء مسرعة في الشوارع، ونداءات من بائعين يعرضون كل شيء من البريتزل[1] إلى حقائب ومحافِظ Gucci المزوَّرة. ثم توقفت حركة السائرين على الأقدام توقفاً مفاجئاً. ومن خلال الحشد، استطعت رؤية بضعة رجال شرطة متجمعين على مسافة أمامي بالقرب من بطانية رمادية تركها أحد ما متجمعة على الرصيف. رأيت أيضاً سيارة إسعاف متوقّفة إلى جانبهم.

سمعت صوتاً يقول: «شخص قفز من البناية. لا بد أن هذا حدث قبل لحظات فقط».

أدركت عند ذلك أن البطانية كانت تغطي جسداً محطماً.

ظللت واقفة قرابة دقيقة لأنني شعرت كما لو أن هناك شيئاً من قلة الاحترام في عبور الشارع والسير مروراً بذلك المشهد، رغم أن رجال الشرطة كانوا يشيرون لنا بأن نفعل ذلك. وبعد ذلك، رأيت فردة حذاء على الرصيف، حذاء خفيف بلون أزرق ناعم وكعب منخفض. كان

(1) نوع من الكعك الجاف المملح.

مستلقياً على جانبه وقد ظهر على نعله شيء من الاهتراء. إنه ذلك النوع من الأحذية الذي يمكن أن تختار امرأة انتعاله للذهاب إلى وظيفة تتطلّب لباساً رسمياً، لكنها تفرض عليها أيضاً أن تظل واقفة على قدميها فترات طويلة من الزمن. لعلها موظفة في بنك، أو موظفة استقبال في فندق. رأيت شرطياً ينحني ويضع فردة الحذاء في كيس من النايلون.

لم أستطع الكف عن التفكير في فردة الحذاء تلك، أو في المرأة التي كانت صاحبتها. لا بد أنها نهضت من نومها ذلك الصباح، ثم ارتدت ملابسها، ثم ... قفزت من النافذة.

بحثت في صحف اليوم التالي، لكني لم أجد إلا ذكراً سريعاً لتلك الحادثة. لم أعرف ما جعلها تُقدم على هذا الفعل اليائس... لم أعرف إن كانت قد خططت له أو أن شيئاً انكسر في داخلها من غير سابق إنذار.

أظنّني توصّلت إلى معرفة الإجابة بعد هذه السنين كلها: الأمران معاً! أقول هذا لأن شيئاً في داخلي قد انكسر أخيراً، لكني صرت أدرك أيضاً أنني كنت متجهة صوب هذه اللحظة منذ زمن بعيد، الاتصالات الهاتفية، والمراقبة، وبقية الأشياء التي فعلتها، إنني أدور من حول بديلتي، أقترب منها أكثر فأكثر، أُقيّم حالتها. وأستعد.

إن حياتها مع ريتشارد تبدأ الآن. وحياتي تبدو كأنها تنتهي.

ستسير عما قريب في ثوبها الأبيض. وسوف تضع مواد التجميل على جلدها الفتيّ النقي. ستلبس شيئاً مستعاراً وشيئاً أزرق[1]. وسيحمل الموسيقيون آلاتهم ويرافقون بالعزف خطواتها البطيئة في الممر ماضية

(1) إشارة إلى تقليد أميركي تحمل العروس بمقتضاه شيئاً قديماً (لحماية الطفل الذي ستنجبه)، وشيئاً جديداً (رمز لبدء حياة جديدة)، وشيئاً مستعاراً (للحظ ـ يستعار من امرأة سعيدة بزواجها)، وشيئاً أزرق (رمز الإخلاص)، وقطعة نقدية من فئة خمسة بنسات (للرخاء ودرء شر الحاسدين).

في اتجاه الرجل الوحيد الذي أحبّته حباً حقيقياً. وفي اللحظة التي ينظر فيها كل منهما في عيني الآخر ويقول: «أقبل»، لن تكون هنالك عودة.

يجب أن أوقف هذا الزواج!

الساعة الآن الرابعة صباحاً. وأنا لم أنم. إنني أحدّق في الساعة وأراجع ما يجب أن أفعله... أستعرض السيناريوات المختلفة.

لم تنتقل من شقتها بعد. لقد تحقّقت من هذا.

سوف أكون في انتظارها، وسوف أعترضها اليوم.

أتخيّل عينيها تتسعان دهشة؛ وأتخيّل يديها ترتفعان لكي تحمي نفسها.

أتلهف إلى أن أصرخ فيها، إلى أن أقول لها: «فات الأوان! كان عليكِ أن تظلّي بعيدة عن زوجي!».

عندما يلوح ضوء النهار في الخارج آخر الأمر، أنهض من سريري وأذهب إلى خزانتي. ومن غير تردد أختار فستاني الحرير الأخضر الزمردي المفضّل لدى ريتشارد. كان يقول إنه يحب هذا الفستان لأنه يُظهر الخضرة التي في عينيّ. كان على قياسي تماماً ذات يوم، لكنه صار الآن فضفاضاً. ألفّ خصري بحزام على شكل سلسلة ذهبية دقيقة حتى أثبّت الفستان. وبعناية لم أعرفها منذ سنين، أضع الماكياج. أضع كريم الأساس متمهلة، وألفُّ أهداب عيني، وأضع طبقتين من الماسكارا. وبعد ذلك، أخرج أحمر الشفاه من حقيبة يدي وأمر بالقلم الوردي الناعم الدبق على شفتي. أضع حذائي المكشوف ذا الكعب المرتفع حتى تبدو ساقاي طويلتين رشيقتين. أكتب للوسيل رسالة نصية أقول فيها إنني لن آتي اليوم. أفعل هذا مدركة أن ردّها شبه المؤكد سيكون أن علي عدم المجيء إلى العمل بعد ذلك.

لدي مهمة واحدة قبل أن أذهب إلى شقتها. لقد حجزت موعداً في

ساعة مبكرة في صالون سيرج نورمانت في الحي الشرقي. سوف يكون لدي الكثير من الوقت لكي أنتهي من الصالون وأذهب إليها.

لم يكن اكتشاف برنامجها أمراً صعباً. أعرف خططها لهذا اليوم. أخرج من البيت بهدوء من غير أن أترك رسالة لخالتي شارلوت.

تستقبلني اختصاصية صبغ الشعر عندما أصل إلى صالون التجميل. أرى عينيها تنظران إلى جذور شعري التي لم أصبغها بعد. تسألني: «ما الذي تريدينه اليوم؟».

أناولها صورة امرأة شابة جميلة وأقول لها إنني أريد لوناً كلون شعرها الغني الدافئ.

تنتقل عينا المرأة من الصورة إليّ، ثم تعودان إلى الصورة من جديد. تسألني: «هل هذه أنت؟».

أجيبها: «نعم».

الفصل السابع عشر

عما قريب، سيعزف الموسيقيون مقطوعة الزفاف لباتشل بيل بينما تسير هي في الممر وقد لفّت منديل أبيها ـ شيء أزرق ـ حول ساق باقة من ورود بيضاء. وسيقول القس: «كونا معاً وابقيا معاً... وليحترم كل منكم الآخر، وليحبه... إلى أن يفرق الموت بينكما».

سوف تذهب نيللي إلى المطار بعد بضع ساعات. وضعت البيكيني الأحمر الجديد الذي اشترته في واحدة من حقيبتيها، ثم تفقّدت قائمة المهمات التي يجب إنجازها. كان فستان الزفاف قد سبقها إلى ذلك المنتجع؛ أُرسل عن طريق FEDEX. وقد أكّد مكتب الاستقبال هناك وصوله. لم يبق عليها غير وضع أدوات التجميل في الحقيبة. بقيت على جدار الغرفة مستطيلات بيضاء شاحبة حيث كانت صورها معلّقة. ستترك في الشقة سريرها وطاولة الزينة والمصباح. لقد عثرت سامانثا على شريكة سكن جديدة: مدرّبة تمرينات رياضية للياقة ستأتي غداً. وعدتها نيللي بأن ترتب أمر أخذ الأثاث الذي تركته من الشقة إذا لم تكن الساكنة الجديدة راغبة فيه. قالت لسامانثا: «وأيضاً، سوف أستمر في دفع الإيجار إلى أن تصير لكِ شريكة في الشقة».

كانت تعرف أن سامانثا غير راغبة في قبول هذا العرض، خاصة وأن

ريتشارد سوف يدفع تكلفة رحلتها إلى فلوريدا فضلاً عن أنه دفع أجر مصلح الأقفال.

وكانت نيللي تعرف أيضاً أن سامانثا غير قادرة على تحمل إيجار الشقة وحدها. قالت لها عندما جلست على سريرها تنظر إليها وهي تضع أشياءها في حقيبتيها: «ماذا بك؟ أنت تستحقين هذا».

عانقتها سامانثا معانقة قوية سريعة: «شكراً لك. إنني أكره لحظات الوداع».

قالت نيللي معترضة: «سوف أراك بعد بضعة أيام فقط».

«ليس هذا ما أعنيه».

أومأت نيللي برأسها: «أعرف هذا».

وبعد لحظة، كانت سامانثا قد ذهبت.

رن الهاتف بينما كانت نيللي تحرر شيكاً بإيجار الشقة لذلك الشهر. كانت تنظر إلى توقيعها على الشيك مدركة أن هذه قد تكون المرة الأخيرة التي تستخدم فيها اسم عائلتها القديم. قالت في نفسها: السيد والسيدة ثومبسون. بدا ذلك محترماً تماماً.

نظرت نيللي إلى اسم المتصل قبل أن تجيب على المكالمة: «مرحباً ماما».

«مرحباً يا حبيبتي. أردت أن أتأكد مرة أخرى من رقم رحلتك. إنها على شركة أميركان إيرلاينز، أليس كذلك؟».

«صحيح. مهلك لحظة...». فتحت نيللي اللابتوب وبحثت في بريدها الإلكتروني لتجد رسالة تأكيد الحجز التي أتت من شركة الطيران. قرأت معلومات الرحلة بصوت مرتفع... «تصل الطائرة في السابعة وخمس عشرة دقيقة».

هكتبة

«هل ستكونين قد تعشّيت؟».

«فقط إذا كنت تعتبرين عبوة صغيرة من الفستق وجبة عشاء».

«يمكنني أن أطهو لك شيئاً».

«من الأفضل ألا نعقّد الأمر... لماذا لا نشتري شيئاً جاهزاً في طريق عودتنا إلى البيت؟ وبالمناسبة، هل اخترت شيئاً في ما يتعلق بالمنتجع؟ لقد حجز لنا ريتشارد مواعيد للمساج ومعالجة الوجه؛ لكن عليك إخبارهم بنوع المساج الذي وقع عليه اختيارك... هل رأيت النشرة التي أرسلها إليك ريتشارد بالبريد الإلكتروني؟».

«ليس مضطراً إلى فعل ذلك من أجلي. تعرفين أنني أكره البقاء ساكنة من أجل هذه الأشياء».

كان هذا صحيحاً: الاسترخاء الذي تفضله والدة نيللي هو الخروج في نزهة على الأقدام إلى شاطئ البحر عند غروب الشمس. وهي لا تحبّ أن تنبطح على طاولة المساج. لكن ريتشارد ما كان يعرف هذا. أراد أن يقدّم لها شيئاً مميزاً، فكيف تستطيع نيللي إخباره أن أمها رفضت بادرته؟

«جرّبيه. أؤكد لك أنه سيعجبك أكثر مما تتوقّعين».

«سجلي اسمي معك لأي مساج تختارينه».

تعرف نيللي أنها ليست أبداً تلك الابنة وحيدة أمّها التي تغضب لما قد يبدو وخزة أمومية مستترة. كانت أمها قد دمدمت في المرة الماضية عندما رأت نيللي تلتهم كيساً من السكاكر أمامها: «هذه كمية كبيرة من السكر!»... وقد سألتها أكثر من مرّة كيف تستطيع أن تتحمّل «رهاب الأماكن المغلقة» في مانهاتن.

«أرجوك، على الأقل، أن تظهري شيئاً من الحماسة للأمر أمام ريتشارد».

«حبيبتي، يبدو لي أنك قلقة طيلة الوقت بشأن ما يفكر فيه ريتشارد».

«لست قلقة. أنا شكورة فحسب! إنه جيّد جدّاً معي».

«هل سألك إن كنت تريدين قضاء اليوم الذي يسبق زفافك في المساج ومعالجة الوجه؟».

«ماذا؟ ولماذا تكون لذلك أية أهمية؟». لا يستطيع أحد غير أمها أن يجعلها متوتّرة هكذا فيما يتعلّق بأمور سخيفة في المنتجع. لا، ليست سخيفة؟ ... إنها هدية من ريتشارد!

«دعيني أقول لك شيئاً واحداً فقط. لقد قلت لي إن معالجات الوجه تجعلك تصابين بالطفح الجلدي، فلماذا لا تقولين هذا لريتشارد؟ ثم إنه اشترى بيتاً من غير حتى أن تريه قبل شرائه. هل تريدين العيش في الضواحي؟».

زفرت نيللي وكزّت على أسنانها، لكن أمها واصلت كلامها: «إنني آسفة، لكن من الواضح أن له تلك الشخصية القوية أكثر مما يجب».

قالت نيللي معترضة: «أنت لم تريه إلا مرة واحدة!».

«مع هذا، أنت لا تزالين صغيرة جداً. يقلقني أن تذوي سريعاً... أعرف أنك تحبينه، لكن... أرجو أن تظلّي صادقة مع نفسك أيضاً».

لم تفعل نيللي هذا: لن تقبل الدخول في مشاجرة تبدو أمها مصرّة عليها: «عليَ إنهاء حزم أمتعتي. سأراك بعد ساعات قليلة»... بعد أن يكون شيء من النبيذ في الطائرة قد قوّاني على مواجهتك.

أغلقت نيللي هاتفها وذهبت إلى الحمام لتجلب أدوات التجميل. وضعت معجون الأسنان ومستحضرات التجميل والعطور في حقيبة صغيرة، ثم نظرت في المرآة التي فوق المغسلة. على الرغم من أنها لم تكن تنام جيداً في الفترة الماضية،.فإن وجهها يبدو في حالة ممتازة.

عادت إلى غرفتها فتناولت الهاتف واتّصلت بصالون التجميل في المنتجع حتى تلغي موعد معالجة الوجه. «هل يمكنني الحصول على جلسة لتدليك الجسم بالأعشاب البحرية بدلاً منه؟».

لن تُمضي إلا أياماً قليلة مع أمها إلى أن يأتي ريتشارد ويذهبان إلى المنتجع قبل الزفاف. ستكون قادرة على تجاوز تلك الفترة. ثم إن خالتها وسامانثا ستأتيان قبل يوم من الزفاف، ومن الممكن أن تلعبا دوراً في تخفيف حدّة الصدام بينهما.

وضعت حقيبة أدوات التجميل الصغيرة في الحقيبة التي لا تزال مفتوحة، ثم حاولت إغلاقها لكنها لم تستطع إغلاق سحابها بالكامل.

«اللعنة عليها!». حاولت أن تضغط غطاء الحقيبة إلى الأسفل.

كانت المشكلة أنها لا تزال جاهلة بالمكان الذي سيذهبان إليه لقضاء شهر العسل. كانت تتوقّع أن تكون وجهتهما منطقة مدارية لأن ريتشارد طلب منها أن تأخذ البيكيني. لكن الطقس يمكن أن يكون بارداً بعض الشيء خلال الليل، حتى في الجزر ذات المناخ الدافئ. لقد وضعت في الحقيبة فساتين نهارية عادية، ومناشف للشاطئ، وملابس رياضية، وبضعة فساتين مسائية لكي ترتديها إذا ذهبا إلى أماكن تتطلّب ملابس رسمية، إضافة إلى أحذية وشبشب منزلي.

عليها أن تعيد النظر في هذه الأشياء كلها. بدأت تُخرج من حقيبتها قطع الملابس التي طوتها بعناية. ثلاثة فساتين أنيقة بدلاً من أربعة، هكذا قرّرت... واستغنت أيضاً عن زوج من الأحذية فرمته في الصندوق البنّي عند خزانتها. لن يتسع المكان أيضاً لقبّعة البحر الواسعة التي بدت جميلة جداً في كاتالوج محلات J.Crew.

كان عليها أن تنجز هذا كله في وقت أبكر لأن طائرتها تقلع بعد ثلاث ساعات، كما أن ريتشارد في طريقه الآن لكي يأخذها إلى المطار.

أعادت طي ملابسها ونجحت هذه المرة في وضعها كلها في الحقيبة باستثناء تلك القبعة. وضعت القبعة على طاولة زينتها. ستتركها لسامانثا. ليس عليها الآن إلا أن تتأكد من عدم نسيان أي شيء لأنها لن تعود إلى هذه الشقة من جديد، و...

مناديل والدها؟

كانت في الحقيبة من الداخل بضعة جيوب. وكانت نيللي واثقة من أنها وضعت المنديل في واحد منها، لكنها لم تره عندما أعادت توضيب الحقيبة.

فتحت حقيبتها من جديد وتحسّست الجيوب بيدها باحثة عن كيس المنديل الناعم. بدأت حركاتها تصير عصبيّة متوتّرة.

تجعدت ملابسها كلها، لكنها أزاحتها جانباً حتى تدخل يدها في كل جيب من الجيوب. لم تجد كيس المنديل. كانت الجوارب وحمالات الثديين والسراويل الداخلية لا تزال هناك. لكنها لم تجد شيئاً غيرها.

جلست على حافة السرير ووضعت رأسها بين يديها. لقد جهّزت معظم أشيائها منذ بضع ليالٍ. وكانت منتبهة تماماً إلى وجود ذلك المنديل الأزرق المربّع. إنه الشيء الوحيد الذي لا تستطيع الاستغناء عن أخذه معها إلى حفل زفافها.

نقرة على باب غرفتها جعلتها تشهق. رفعت رأسها بسرعة.

«نيللي؟».

إنه ريتشارد!

لم تسمعه يدخل الشقة. لا بد أنه استخدم المفتاح الجديد الذي أعطته إياه.

صاحت قائلة: «لا أستطيع العثور على منديل أبي!».

هكتبة

«أين رأيته آخر مرة؟».

«في حقيبتي. لكنه ليس في الحقيبة الآن. لقد فتشت كل شيء وبعثرت كل شيء، وعلينا الآن أن نذهب إلى المطار. وإذا لم أستطع...».

نظر ريتشارد في أنحاء الغرفة، ثم رفع الحقيبة عن السرير. رأت المنديل الأزرق المربع فأغمضت عينيها.

«شكراً لك. لم أره حقاً؟ ظننت أني بحثت هناك، لكني كنت مضطربة تماماً. إنني... فقط...».

«لا بأس الآن. لديك طائرة يجب ألّا تتأخري عليها».

ذهب ريتشارد إلى طاولة الزينة فحمل قبعتها الجديدة وأدارها حول إصبعه. وضعها على رأسها وقال لها: «هل ستضعين هذه القبعة خلال سفرتك؟ تبدو جميلة جدّاً عليك».

«سوف أضعها الآن». اكتشفت أنها متناسبة مع بنطلون الجينز وقميصها المخطط قصير الكمين وحذائها الرياضي الخفيف الذي تفضل انتعاله دائماً عندما تسافر في الطائرة حتى توفر بعض الوقت خلال التفتيش الأمني.

لم تستوعب أمها الأمر. لقد رتب ريتشارد كل شيء. ستكون آمنة معه بصرف النظر عن مكان عيشها. حمل الحقيبتين واتجه نحو الباب. «أعرف أن لديك ذكريات جميلة في هذا البيت. لكننا سنصنع لأنفسنا ذكريات جديدة. بل سنصنع ذكريات أفضل، هل أنت مستعدة؟».

كانت مرهقة ومتوتّرة، ولا يزال وخز ملاحظات أمها يزعجها، ثم إنها لم تتمكّن أبداً من التخلّص من تلك الكيلوغرامات الأربعة الزائدة. لكن نيللي أومأت برأسها وسارت خلفه في اتجاه الباب. سوف يرسل ريتشارد من يأخذ الصناديق البنية التي تركتها في خزانتها، إضافة إلى

مكتبة

الأشياء التي وضعتها في غرفة المستودع الخاصة بشقته، فينقلها كلها إلى البيت الجديد.

وضع ريتشارد حقيبتها على الرصيف وقال لها: «أوقفت السيارة على مسافة بنايتين. سأعود خلال دقيقتين يا عزيزتي».

سار في اتجاه سيارته ووقفت نيللي تنظر في الشارع من حوله. توقّفت سيارة نقل صغيرة عند البناية المجاورة، وكان رجلان يحاولان انتزاع ظهر كرسي كبير الحجم.

وأما غير هذين الشخصين والمرأة المنتظرة عند موقف الباص مديرة ظهرها لنيللي، فقد كان الشارع هادئاً تماماً. أغمضت نيللي عينيها ومالت برأسها إلى الخلف. كانت مستمتعة بشمس العصر على وجنتيها. وكانت تنتظر صوت ريتشارد يخاطبها باسمها ويقول لها إن وقت الانطلاق قد حان.

الفصل الثامن عشر

بديلتي لا تراني قادمة إليها.

عندما تشعر باقترابي وتملأ الدهشة عينيها، أكون قد صرت قريبة جداً.

تنظر من حولها مذعورة، ولعلّها تحاول أن تجد سبيلاً للهرب.

تقول بصوت غير مصدّق: «فانيسا؟».

يفاجئني أنها عرفتني بهذه السرعة. أقول لها: «مرحباً».

إنها أصغر مني سناً، كما أن انحناءات جسدها أكثر غنى؛ لكننا يمكن أن نبدو أختين بعد أن عاد شعري إلى لونه القديم.

أنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل جداً. يفاجئني أنني لست أشعر بخوف على الإطلاق.

راحتا يدي جافتان. تنفُّسي ثابت منتظم.

إنني أفعلها أخيراً.

أنا الآن امرأة مختلفة تماماً عمَّ كنته عندما وقعنا في الحب، أنا وريتشارد، قبل تلك السنين كلّها.

لقد تحوّل شيء فيَّ.

هكتبة

عندما كنت في السابعة والعشرين، كنت فتاة طائشة... معلمة حضانة أطفال تحب الكلام وتكره السوشي وتحب فيلم نوتينغ هيل.

كنت أحمل صواني سندويتشات البرغر عندما عملت نادلة بدوام جزئي، وكنت أبحث عن قطع تعجبني في متاجر الملابس المستعملة وأخرج للرقص مع أصدقائي. لم أكن أعرف كم كنت جذابة. كم كنت محظوظة.

كان لدي أصدقاء كثر. فقدتهم كلهم. حتى سامانثا. لم يعد لي الآن أحد غير خالتي شارلوت.

بل كان لي اسم آخر في حياتي القديمة.

عندما التقينا أول مرة، أطلق عليّ ريتشارد اسم نيللي، كان لا يدعوني إلا بهذا الاسم.

أما لدى الآخرون جميعاً، فقد كنت دائماً فانيسا ـ ولا أزال.

لا أزال أستطيع سماع صوت ريتشارد العميق وهو يروي القصة، قصتنا، كلما سأله الناس كيف التقينا.

يقول لهم: «رأيتها في صالة المطار تحاول جر حقيبتها بإحدى يديها وتحمل باليد الأخرى محفظتها وزجاجة ماء وقطعة حلوى بالشوكولاته».

كنت عائدة إلى نيويورك بعد زيارة أمي في فلوريدا. كانت الرحلة جيدة على الرغم من أن زيارة بيتنا توقظ في نفسي دائماً ذكريات مؤلمة. أفتقد أبي أكثر من أي وقت آخر عندما أعود إلى بيتنا القديم. ولا أستطيع أبداً الهرب من ذكريات الوقت الذي أمضيته في الكلية. لكن تقلبات مزاج أمي العجيب قد هدأت واستقرت بعض الشيء بفعل دواء جديد. وكنت في ذلك اليوم أشعر بالقلق من أن أكون في الجو رغم أن السماء كانت لازوردية صافية تناثرت فيها غيوم قطنية قليلة.

لاحظته على الفور. كان في بدلة داكنة اللون وقميص أبيض. كان ينظر إلى اللابتوب متجهم الوجه وهو ينقر على المفاتيح.

وسوف يتابع ريتشارد حديثه: «كان ذلك الطفل الصغير في نوبة غضب. وكانت أمه المسكينة التي تدفع عربة أطفال أجلست طفلها الآخر الرضيع فيها موشكة على فقدان أعصابها».

كانت معي قطعة من المعجنات الحلوة فأشرت إلى الأم وسألتها إن كنت أستطيع تقديمها للطفل الباكي. أومأت الأم برأسها شاكرة. كنت معلّمة في حضانة الأطفال، وكنت أعلم قوة الرشوة التي تأتي في وقتها. انحنيت وأعطيت الطفل تلك المفاجأة اللذيذة فتبخّرت دموعه على الفور. عندما التفتّ في اتجاه ريتشارد بعد دقيقة من ذلك، كان قد اختفى.

مررت به عندما صعدت إلى الطائرة. كان جالساً في مقعد من مقاعد الدرجة الأولى... طبيعي! رأيته يرتشف سائلاً رائقاً في كأس. كانت ربطة عنقه مرخية حول عنقه. رأيت على الطاولة التي أمامه صحيفة مفتوحة، إلا أنه كان ينظر إلى الركاب المتدفّقين في ممر الطائرة إلى جانبه. أحسست كأن مغناطيساً يشدني عندما توقّفت نظراته عليّ.

يتابع ريتشارد رسم قصته: «كنت أنظر إليها حاملة حقيبتها الصغيرة في ممر الطائرة. لم يكن مشهداً سيئاً على الإطلاق».

جررت حقيبتي الزرقاء حتى الصف رقم عشرين. جلست في مقعدي وأديت طقوس التطير المعتادة قبل الطيران. خلعت حذائي الخفيف، وأغلقت ستارة النافذة، ولففت نفسي بشال دافئ.

يتابع ريتشارد وهو يغمز بعينه في اتجاهي: «كانت جالسة إلى جانب جندي شاب. وفجأة، أحسست بأنني وطني جداً».

اقتربت المضيفة وقالت إن واحداً من مسافري الدرجة الأولى يعرض على الجندي الجالس إلى جانبه تبادل مقعديهما. قال الجندي: هذا رائع!».

لا أدري كيف، لكني عرفت أنه هو صاحب العرض.

عندما بدأت الطائرة تصعد في السماء، أمسكت بمسند المقعد وابتلعت ريقي بصعوبة.

قدم لي كأس شرابه. لم أر خاتماً في يده. فوجئت بأنه غير متزوج ـ كان في السادسة والثلاثين ـ لكني علمت بعد ذلك أنه كان متزوجاً... عاشت معه امرأة داكنة الشعر. وقد كان الفراق شديد الصعوبة عليها.

استولى وجودها عليّ وسكنني بعد أن عرض ريتشارد عليّ الزواج. كنت أحسّ بها موجودة في كل مكان. وقد كنت محقّة في ذلك الإحساس ـ كانت هنالك امرأة تتبعني. لكن تلك المرأة لم تكن زوجة ريتشارد السابقة.

سيقول ريتشارد لمستمعيه المتشوقين إلى سماع بقية القصة: «جعلتها تثمل. رأيت في ذلك طريقة مناسبة لكي أحظى بفرصة أكبر للحصول على رقم هاتفها».

كنت أرتشف كأس الفودكا مع التونيك التي أعطاني إياها؛ وكنت منتبهة تماماً إلى الحرارة المنبعثة من جسده.

«أنا ريتشارد».

«وأنا فانيسا».

وهنا يأتي الجزء الثاني من القصة عندما يكف ريتشارد عن النظر إلى مستمعيه ويلتفت إلي التفاتة ويقول: «هي لا تبدو امرأة اسمها فانيسا، أليس هذا صحيحاً؟».

لقد ابتسم ريتشارد لي ذلك اليوم عندما كنا في الطائرة: «أنت أحلى وأكثر نعومة من أن يكون لك هذا الاسم الجاد».

فما الاسم الذي يجب أن يكون لي؟

اهتزت الطائرة عندما مرت بجيب هوائي فشهقت خائفة: «هذا ليس أكثر خطراً من مرور السيارة فوق حفرة في الطريق. أنت آمنة تاماً».

أخذت جرعة كبيرة من كأسي، فضحك.

«أنت نيللي المتوترة...» كان صوته رقيقاً لطيفاً إلى حد غير متوقّع... «سوف أدعوك بهذا الاسم: نيللي».

الحقيقة أن هذا الاسم المستعار لم يكن يعجبني في يوم من الأيام. كنت أراه اسماً على الطراز العتيق. لكنني لم أخبر ريتشارد بهذا أبداً. لقد كان الشخص الوحيد الذي دعاني باسم نيللي.

ظللنا نتحدّث طيلة الرحلة.

لم أستطع تصديق أن شخصاً مثل ريتشارد كان مهتماً بي إلى هذا الحد. عندما خلع سترته شممت نفحة من رائحة ليمونية سأظل دائماً أربط بينها وبينه. طلب مني رقم هاتفي عندما بدأت الطائرة انحدارها صوب الهبوط. وبينما كنت أكتب الرقم، مدّ يده ومرَّ بها على شعري. سرَت رعشة في ظهري. بدت تلك الحركة شديدة الحميمية، كأنها قبلة. قال لي: «شعرك جميل جداً، لا تقصّيه». ومنذ ذلك اليوم، كنت على الدوام فتاته نيللي ـ استمر ذلك طيلة مرحلة غزلنا العاصفة في نيويورك. ثم في حفل زفافنا في منتجع في فلوريدا، ثم خلال سنواتنا التي قضيناها معاً في بيت جديد كان ريتشارد قد اشتراه في ويستشستر.

كنت أتوقّع أن تسير حياتي بكل جمال وروعة. وكنت أظن أنه سيبقيني آمنة على الدوام. سوف أصير أماً، وسوف أستأنف التعليم عندما يكبر أولادنا. كنت أحلم بأن أرقص في حفل يوبيل زواجنا الفضي.

لكن، بالطبع، لم يحدث شيء من هذا!

الآن، ضاعت نيللي إلى الأبد.

إنني فانيسا فحسب!

هكتبة

تسألني بديلتي: «لماذا أنت هنا؟».

أستطيع رؤية أنها تقدّر الوضع وترى إن كانت قادرة على التحرك سريعاً حتى تلتف من حولي وتجري في الشارع. لكنها ترتدي صندلاً مرتفع الكعبين مربوطاً بشرائط، إضافة إلى تنورة ضيقة. أعرف أنها ذاهبة من أجل قياس فستان الزفاف. كان من السهل أن أعرف المهمات التي ستقوم بها اليوم.

أفتح يديّ العزلاوين حتى أقنعها بأنني لا أعتزم أن أوقع بها أذى جسدياً: «لا أريد منك إلا دقيقتين».

تتردّد، ثم تنظر في الاتجاهين. يمر بنا بعض الناس، لكن لا أحد منهم يتوقّف. لا شيء هنا لرؤيته! نحن امرأتان حسنتا الملبس واقفتان أمام بناء سكني في شارع مزدحم بالقرب من متجر المأكولات الجاهزة، على مسافة صغيرة من موقف الباص.

«سوف يكون ريتشارد هنا في أية لحظة. إنه يقفل باب شقتي فحسب».

«ذهب ريتشارد قبل عشرين دقيقة». لقد كنت قلقة من احتمال أن يقوم بتوصيلها من أجل جلسة قياس الفستان، لكني رأيته يشير إلى سيارة تاكسي ويأخذها ويذهب.

«استمعي فقط، أرجوك». أقول هذا للمرأة الشابة الجميلة ذات الوجه البيضوي والجسد البض، المرأة التي تركني ريتشارد من أجلها. يجب أن تعرف قصة تحوّلي من نيللي الثرثارة المرحة إلى الإنسانة المحطمة التي صرتها الآن... «يجب أن أخبرك بحقيقته».

مكتبة

الجزء الثاني

الفصل التاسع عشر

اسمها إيما.

«لقد كنت أنت»... أبدأ كلامي وأنا أنظر إلى الشابة الواقفة أمامي.

تتسع عيناها الزرقاوان عندما تستوعب مظهري. تنظر ملياً إلى شعري الذي تغيّر، ثم إلى الفستان الملفوف على جسدي الذي صار نحيلاً أكثر مما يناسب الفستان. من الواضح أنها غير قادرة، عندما تنظر إلى صورتي، على تخيّل نفسها في مكاني.

رقدت في سريري عدة ليالٍ أتمرّن على ما سأقوله لها. لقد كانت مساعدة ريتشارد... هكذا التقيا. تركني من أجلها قبل أن تمضي سنة على تعيينها بدلاً من سكرتيرته القديمة دايان.

لست محتاجة إلى أن أخرِج الورقة المطبوعة التي تحمل الكلام الذي سأقوله لها... إنها سندي الاحتياطي إذا ما خانتني الكلمات... «إذا تزوجتِ من ريتشارد، فسوف تندمين. سوف يؤلمك ويؤذيك». يتجهم وجه إيما.

بصوت متوازن، محسوب. كأنها تكلّم طفلاً صغيراً. إنها نبرة الصوت التي اعتدت استخدامها عندما أقول لأطفالي في الحضانة إنه حان وقت تنحية ألعابهم جانباً، أو إنهاء طعامهم... تقول لي: «فانيسا... أعرف أن

وقع الطلاق كان قاسياً عليكِ. لقد كان قاسياً على ريتشارد أيضاً. إنني أراه كل يوم. لقد حاول حقّاً أن يجعل الأمر ينجح. أعرف أنه كانت بينكما مشكلات، لكنه فعل كل ما استطاع فعله».

أشعر بشيءٍ من الاتهام في نظرتها. إنها مقتنعة بأنني الملومة في ما جرى.

أقاطعها: «تظنين أنك تعرفين ريتشارد...». إنني أخرج عن النص المكتوب، لكني أتابع... «لكن، ماذا رأيت؟ ريتشارد الذي تعملين لديه ليس هو ريتشارد الحقيقي. إنه حذِر يا إيما. وهو لا يكشف للناس عمَّ في نفسه. إذا مضيت في مشروع الزواج هذا...».

لكنها تقاطعني الآن: «لديّ إحساس سيئ تجاه كل شيء. وأريد أن تعرفي أنه بدأ ينفتح معي باعتباري زميلة، باعتباري صديقة. لست تلك المرأة التي يمكن أن تفكر بإقامة علاقة مع رجل متزوج. لم نكن نحسب أننا سنقع في الحب».

أصدّق هذا. رأيت الانجذاب المتبادل بينهما يبدأ بعد فترة قصيرة من توظيفه لها حتى تدير مكالماته الهاتفية وتدقّق في مراسلاته وترتب جدول أعماله.

«لكن الأمر حدث! وأنا آسفة». عينا إيما المدورتان صادقتين. تمد يدها فتمس ذراعي مسّاً رقيقاً. أجفل عندما أحس بأطراف أصابعها على جلدي... «إنني أعرفه. إنني معه عشر ساعات في اليوم، خمسة أيام في الأسبوع. رأيته مع عملائه، ورأيته مع زملائنا في العمل. رأيته مع الموظفين الآخرين، ورأيته معك عندما كنتما متزوجين. إنه رجل طيب».

تتوقّف إيما لحظة عن الكلام كما لو أنها تفكّر إن كانت تريد الاستمرار أم لا. لا تزال تنظر إلى لون شعري الذي صار فاتحاً أكثر من ذي قبل. جذور شعري الشقراء الطبيعية صارت أخيراً منسجمة مع بقيته. تقول

لي بنبرة فيها شيء من التوتّر: «لعلك أنت التي لم تعرفي ريتشارد أبداً».

«يجب أن تصغي إلى ما أقوله لك...». إنني أرتجف الآن... لا بد لي من إقناعها... «ريتشارد يفعل هذا! إنه يشوّش كل شيء حتى لا نتمكّن من رؤية الحقيقة».

«قال لي إنك قد تحاولين فعل شيء من هذا النوع». حل الازدراء محل التعاطف في صوتها. تطوي ذراعيها على صدرها فأعرف أنني بدأت أخسرها.

«قال لي إنك في حالة غيرة شديدة. لكن الأمر تجاوز الآن كل حدٍّ معقول. رأيتك بالقرب من بيتي في الأسبوع الماضي. قال ريتشارد إننا سنخبر الشرطة حتى تمنعك من الاقتراب مجدداً إذا فعلت شيئاً من هذا القبيل مرة أخرى».

حبات عرق تجري على ظهري. وعرق أكثر يتجمع على شفتي العليا. فستاني ذو الكمين الطويلين دافئ أكثر مما يلزم في هذا الطقس. تخيّلت أنني خطّطت بعناية تامة لكل شيء، لكني تعثّرت وصارت أفكاري الآن مشوَّشة ضبابية مثل هذا اليوم من أيام يونيو.

أقول لها من غير تفكير: «هل تحاولين الحَبَل؟ هل قال لك إنه يريد أن ينجب أطفالاً؟».

تتراجع إيما خطوة إلى الخلف، ثم تتجاوزني وتمضي. أراها تسير إلى حافة الرصيف وترفع يدها مشيرة إلى سيارة تاكسي.

تقول من غير أن تلتفت لكي تنظر في اتجاهي: «هذا يكفي».

«اسأليه عن آخر حفلة أقمناها...». صوتي حادّ لشدة قنوطي... «لقد كنتِ هناك. هل تذكرين كيف وصلت طلبية الطعام والشراب متأخرة ولم يأتوا بنبيذ رافينو! كانت تلك غلطة ريتشارد... لم يطلب ذلك النبيذ. ولذلك لم يأتوا به!».

تتوقف سيارة تاكسي أمامها. تستدير إيما في اتجاهي وتقول لي: «لقد كنتُ هناك، وأنا أعرف أنهم أتوا بالنبيذ. إنني مساعدة ريتشارد. من الذي تظنين أنه أرسل لهم تلك الطلبية برأيك؟».

هذا ما لم أكن أتوقّعه. تفتح باب السيارة قبل أن أتمكّن من تمالك نفسي.

أصيح بها: «لقد ألقى باللائمة عليّ. ساء الأمر كثيراً بعد الحفلة».

تقول إيما وهي تغلق باب السيارة: «أنت في حاجة إلى المساعدة حقّاً».

أنظر إلى سيارة التاكسي تبتعد عني.

أظل واقفة على الرصيف أمام شقتها مثلما فعلت مرات كثيرة من قبل؛ لكنني أتساءل في نفسي للمرة الأولى إن كان كل ما يقوله ريتشارد عني صحيحاً في واقع الأمر. هل أنا امرأة مجنونة، مثل أمي التي أمضت حياتها كلها وهي تحارب مرضها العقلي... بنجاح بعض المرات، ومن غير نجاح في مرات أخرى.

أظافري تنغرس في راحتَيْ يدَيّ. لا أستطيع تحمّل التفكير في وجودهما معاً هذه الليلة. سوف تقول له كل ما قلته لها. وسيضع ساقيها على ساقيه ويدلك قدميها. سيعدها بأنه سيحميها... سيحميها مني.

آمل أن تصغي إلى كلامي. آمل أن تصدّقني.

لكن ريتشارد كان يتوقّع بأن أقوم بهذه المحاولة! لقد قال لها هذا.

أعرف زوجي السابق أكثر مما يعرفه أي شخص آخر. وكان عليَّ أن أتذكّر أنه يعرفني أيضاً.

هطل المطر صبيحة يوم زفافنا.

لو كان أبي حيّاً لقال: «هذه بشارة حظ».

عندما مشيت على البساط الحريري ذي الزرقة الملكية الممتد في الصالة الكبرى في المنتجع وكانت أمي وخالتي شارلوت تحفّان بي من الجانبين، صحَت السماء وتوقف المطر. داعبت الشمس ذراعيَّ العاريتين. وكانت أمواج البحر تعزف موسيقى لطيفة.

مررت بسامانثا وجوزي ومورنييه الجالسات على كراسٍ مزينة بأوشحة حرير بيضاء؛ ثم مررت بهيلاري وجورج وبعدد من شركاء ريتشارد الآخرين. وعند نهاية البساط، عند المدخل المقنطر المزين بالزهور، كانت مورين واقفة إلى جانب ريتشارد باعتبارها وصيفة الشرف. كانت تضع عقد الخرزات الزجاجية البنفسجي الذي قدّمته لها.

كان ريتشارد ينظر إليّ مقتربة منه. لم أستطع التوقف عن الابتسام. وكان تعبير وجهه منتبهاً، مركزاً، وبدت لي عيناه داكنتين، أكثر من المعتاد. بعد أن تشابكت أيدينا وأعلننا القس زوجاً وزوجة، رأيت شفتيه ترتجفان انفعالاً قبل أن ينحني ويقبلني.

التقط المصور سحر تلك الأمسية: ريتشارد يدخل الخاتم في إصبعي، وعناقنا في نهاية مراسم الزواج، ورقصتنا البطيئة على أنغام أغنية «It Had To Be You». يحتوي ألبوم الصور التي اخترتها على صورة لمورين وهي تصحّح وضع ربطة عنق ريتشارد التي كانت على شكل فراشة، وعلى صورة لسامانثا رافعة كأس الشامبانيا، وصورة لأمي تسير عارية القدمين على شاطئ البحر عند الغروب، وكذلك صورة لخالتي شارلوت تعانقني عندما ودّعتني آخر ذلك المساء.

لقد كانت حياتي ملأى بالاضطراب وعدم الوضوح ـ طلاق أمي وأبي، ومعاناة أمي الصحية، ووفاة أبي، وبالطبع... السبب الذي جعلني أفر من مسقط رأسي ـ لكن مستقبلي بدا لي في تلك الليلة ممتداً أمامي من غير أية شائبة مثل ذلك البساط الحريري الأزرق الذي سرت عليه إلى ريتشارد.

طرنا إلى أنتيغوَا صباح اليوم التالي. كنا جالسَيْن في مقاعد الدرجة الأولى. طلب ريتشارد كأسَيْ ميموزا قبل أن تفارق عجلات الطائرة الأرض. لم تتحقق تلك الكوابيس التي عشتها.

ليس الطيران بالأمر الذي كان عليَّ أن أخافه!

لم يكن شهر عسلنا موثّقاً في ألبوم صور. لكني أفكّر فيه فأتذكّره هكذا أيضاً: سلسلة صور.

ريتشارد يفتح سرطان البحر لي ويبتسم ابتسامة موحية عندما أمتص اللحم اللذيذ من مخلبه.

نحن الاثنان مستلقيان جنباً إلى جنب على طاولة المسّاج عند الشاطئ.

ريتشارد واقف خلفي، يداه على يديّ، وأنا أحاول فتح شراع قارب استأجرناه طيلة ذلك اليوم.

كان المضيف الخاص في جناحنا يجهّز لنا كل ليلة حوض استحمام مزيناً بأوراق الورد تحفّ به شموع مستقرّة على حافته المقوَّسة. وذات ليلة، تسللنا إلى الشاطئ في ضوء القمر، ثم مارسنا الحب في كوخ تحجبه ستائر مرفرفة في نسيم الليل. كنا نجلس في حوض الجاكوزي الخاص بنا ونرتشف كوكتيلات الروم عند بركة السباحة التي كانت على شكل علامة اللانهاية. وكنا نأخذ قيلولة نهارية في أرجوحة شبكية لشخصين.

وفي يومنا الأخير هناك، حجز ريتشارد لنا موعداً حتى نذهب إلى الغطس. لم نكن مدرَّبَيْن على ذلك، لكن العاملين في المنتجع قالوا لنا إننا يمكن أن نأخذ درساً في بركة السباحة نستطيع بعده الذهاب للغطس في المياه الضحلة مع أحد المدرّبين.

لم أكن ممن يستمتعون كثيراً بالسباحة، لكن مياه حوض السباحة الدافئة المعقّمة لم تكن شيئاً مزعجاً لي. غطست فيها وكان بقية السابحين

من حولنا، وكان ضياء الشمس ينير سطح الماء فوق رأسي بأقدام قليلة. ولم تكن حافة بركة السباحة بعيدة عني إلا أمتاراً قليلة.

أخذت نفساً عميقاً عندما صعدنا إلى الزورق وحاولت أن أجعل صوتي هادئاً غير متوتّر عندما سألت إيريك، المدرب الشاب الذي كان طالباً في جامعة سانتا باربرا وجاء ليعمل هنا في عطلته الصيفية: «ما الزمن الذي سنمضيه تحت الماء؟».

«خمس وأربعون دقيقة. إن في اسطوانتَي الأوكسجين اللتين معكما ما يكفي لأكثر من ذلك. وهذا يعني أن بإمكاننا إطالة الوقت قليلاً، إن أردتما».

رفعت إبهام يدي، لكن الضغط في صدري بدأ يزداد مع ابتعادنا عن الأرض في اتجاه الحيد المرجاني المختفي تحت الماء. كانت أسطوانة الأوكسجين الثقيلة معلقة بالأحزمة على ظهري، وكانت زعنفتا السباحة ضاغطتين على قدمَيّ.

نظرت إلى قناع الوجه البلاستيك على رأس ريتشارد وأحسست بأن قناعي يشد الشعر الحساس عند صدغي. أوقف إريك القارب فبدا لي الصمت هائلاً مطلقاً مثل الماء المحيط بنا.

قفز إريك من حافة القارب، ثم أزاح شعره المبتل عن وجهه بعد أن خرج إلى سطح الماء من جديد: «لا يبعد الحيد المرجاني إلا عشرين متراً، اتبعا زعنفتي».

«هل أنت مستعدة يا حبيبتي؟». بدا ريتشارد مستثاراً متحمساً لرؤية أسماك الملاك الزرقاء والصفراء وأسماك الببغاء الملونة بألوان قوس قزح وقروش الرمل المسالمة. وضع قناعه. حاولت الابتسام وأنا أضع قناعي مثله، لكني أحسست بطوق القناع المطاطي يضغط بقوة من حول عيني.

يمكنني الخروج في أية لحظة... هكذا قلت لنفسي وأنا أنزل سلم القارب إلى الماء حيث ستساهم المعدات الثقيلة في شدي إلى الأسفل... لن أكون عالقة هناك!

أحسست بأن كل شيء يختفي ويحتجب بعد لحظات من نزولي في مياه المحيط الباردة المالحة.

لم أكن قادرة على سماع شيء سوى صوت أنفاسي.

لم أكن قادرة على رؤية شيء. قال لنا إريك إن علينا أن نزيح القناع قليلاً إذا تشكّل ضباب على زجاجه من الداخل بحيث نسمح للماء بإزالة البخار المتكاثف عليه. وقال لنا أيضاً: «فليرفع الواحد منكما يده إن كانت هناك أية مشكلة. ستكون هذه إشارة الطوارئ». لكني ما كنت قادرة على فعل شيء غير الرفس بساقيَّ والتلوّي يميناً ويساراً محاولة إيجاد طريقي إلى سطح الماء. كانت أسطوانة الأوكسجين تضغط على جسدي وتشعرني بضيق في صدري. حاولت مواصلة استنشاق الأوكسجين بينما راح القناع يزداد ضبابية.

كان الضجيج مخيفاً. لا أزال حتى اليوم قادرة على سماع صوت شهقاتي المتقطعة المعذبة يملأ أذنيّ، ولا زلت أشعر بذلك الضيق في صدري.

لم أستطع رؤية إريك وريتشارد. كنت أدور في المحيط وحدي... أضلاعي تنتفض... وصرخة تتجمع في رئتَيّ.

وعندها، أمسكني أحد من ذراعي وشعرت بأنه يشدني. فقدت قواي كلها.

بلغت سطح الماء فلفظت أنبوب الأوكسجين من فمي، ثم خلعت قناعي فانفجر الألم عندما انتزع المطاط بعض الشعر.

كنت ألهث وأسعل. حاولت إدخال مزيد من الهواء إلى رئتيَّ.

قال إريك: «ها هو القارب. أنا ممسك بك. عومي فقط».

مددت يدي وأمسكت بالسلّم. لكنني كنت خائرة القوى عاجزة عن الصعود على السلّم. صعد إريك إلى القارب، ثم انحنى ومد لي يده. جلست على المقعد. كان الدوار شديداً إلى حد جعلني أضع رأسي بين ركبتي.

سمعت صوت ريتشارد آتياً من الأسفل: «أنت في أمان. انظري إليّ».

الضغط الذي كان في أذني جعل صوته يبدو كأنه شخص غريب.

حاولت فعل ما قاله لي، لكنه كان لا يزال في الماء. جعلتني رؤية تموجات الماء الزرقاء أشعر بالغثيان.

ركع إريك إلى جانبي وبدأ يفك الأحزمة التي تطوّق جسدي. «أنت بخير. لقد أصابك الذعر! يحدث هذا أحياناً. لست الوحيدة التي يحصل معها هذا».

همست له: «لم أكن قادرة على رؤية أي شيء».

تسلّق ريتشارد سلم القارب وشد نفسه من فوق حافته. قعقعت معدّاته عندما اصطدمت بجسم القارب: «إنني هنا. أوه، يا حبيبتي، أنت ترتجفين. إنني آسف يا نيللي. كان يجب أن أعرف».

كان أثر القناع ظاهراً على شكل خط أحمر من حول عينيه.

قال إريك الذي انتهى في تلك اللحظة من فك أحزمتي: «ستكونين بخير. من الأفضل أن نعود».

طوّقني ريتشارد بذراعيه بينما كان القارب الصغير يشق الأمواج. وصلنا إلى المنتجع صامتَيْن. وبعد أن أرسى إريك القارب، فتح براداً صغيراً وناولني زجاجة ماء. قال لي: «كيف تحسين بنفسك الآن؟».

أجبته كاذبة: «أحسن بكثير...». كنت لا أزال أرتجف. وكانت زجاجة الماء تهتز بيدي... «ريتشارد، يمكنك أن تعود إلى الغطس».

هز رأسه وقال: «مستحيل».

قال إريك: «دعينا الآن نساعدك في النزول من القارب». قفز إلى رصيف المرسى، ثم قفز ريتشارد من خلفه. مد إريك يده حتى يمسك بيدي من جديد. كانت ساقاي غير ثابتتين. لكني أفلحت في مد ذراعي حتى يمسك بيدي.

قال ريتشارد: «أنا سأمسك بها».

قبض على أعلى ذراعي وجذبني إلى خارج القارب. أطلقت صرخة صغيرة عندما أحسست بضغط أصابعه الشديد على لحم ذراعي... لقد أمسكني بقوة حتى لا أقع.

قال ريتشارد لإريك: «سوف آخذها إلى الغرفة. أما أنت، فهل يمكنك أن تعيد المعدات؟».

أجابه إريك: «بالتأكيد». لكن القلق كان ظاهراً على وجهه... ربما بسبب نبرة صوت ريتشارد المقتضبة الجافّة. كنت أعرف أن صوت ريتشارد بدا كذلك لشدة قلقه عليّ. لكن، لعل إريك ظن أنه قد يقدم شكوى في حقّه.

ولأطمئنه قلت له: «أشكرك على مساعدتي. وأنا آسفة لأنني ذُعرت هكذا».

وضع ريتشارد منشفة جافة على كتفي، ثم سرنا مبتعدَيْن عن رصيف المرسى. مشينا على الرمل الناعم باتجاه غرفتنا.

تحسنت قليلاً بعد أن خلعت البكيني الرطب ولففت نفسي بثوب أبيض ناعم. وعندما اقترح ريتشارد أن نعود إلى الشاطئ، قلت له إن لديّ صداعاً، لكني ألححت عليه بأن يذهب.

قلت له: «سوف أستريح قليلاً».

كان هنالك شيء من الألم النابض في صدغي ـ لعله أثر جانبي من آثار الغطس، أو لعله قدر من التوتر لا يزال باقياً. ذهبت إلى الحمام فور سماعي صوت إغلاق الباب من خلف ريتشارد. أخرجت علبة مسكّن الصداع من حقيبة التجميل، ثم تردّدت. إلى جانب تلك العلبة، كانت في الحقيبة علبة بلاستيك صغيرة من دواء XANAX المهدئ اشتريتها تحسباً لاحتمال سفرنا في رحلة جوية طويلة.

ترددت عندما رحت أفكر في أمي مثلما يحدث دائماً عندما أبتلع قرص دواء. لكني أخرجت واحداً من تلك الأقراص البيضاوية المتطاولة وابتلعته مع قليل من ماء فيجي المعدني الذي توزعه خدمة الغرف مرتين في اليوم. أسدلت الستائر الثقيلة فحجبت ضياء الشمس. ثم دخلت في السرير وانتظرت أن يأخذ الدواء مفعوله. عندما شعرت بأنني بدأت أغرق في النوم، سمعت طرقاً على الباب. ظننت أنها خدمة الغرف، فصحت: «هل يمكنك المجيء في وقت لاحق».

«أنا إريك. نظارتك الشمسية معي. سوف أتركها هنا عند الباب».

أعرف أنه كان عليّ أن أنهض وأشكره، لكني شعرت بجسدي ثقيلاً جداً... أحسست أنني مثبتة في مكاني فأجبته: «لا بأس. أشكرك».

رن هاتفي بعد لحظة من ذلك. كان موضوعاً على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. فمددت يدي وأجبت: «مرحباً».

لا إجابة.

«ريتشارد؟».

شعرت بأن لساني قد صار ثقيلاً بسبب الدواء المهدئ.

ومن جديد، لا إجابة.

كنت أعرف ما سوف أراه حتى قبل أن أنظر إلى شاشة الهاتف: رقم محجوب.

انتصبت جالسة ويدي قابضة على الهاتف. وعلى نحو مفاجئ، صرت صاحية تماماً. لم أكن أسمع شيئاً غير اندفاع الهواء البارد عبر فتحة التهوية في غرفتنا.

كنت بعيدة عن بيتي ألف ميل، لكن هنالك أحد ما لا يزال يلاحقني.

أنهيت المكالمة. ثم تحاملت على نفسي فخرجت من السرير. أزحت الستائر ونظرت عبر الباب الزجاجي المنزلق المفضي إلى شرفتنا. لم أجد أحداً هناك. نظرت في الغرفة، إلى أبواب خزانتنا المغلقة. هل كانت أبواب الخزانة مفتوحة عندما خرجنا؟

مضيت إلى الخزانة فأمسكت بمقبض الباب وجذبته صوبي. لا شيء! نظرت إلى الهاتف على سريري. لا تزال شاشته الزرقاء مضاءة. أمسكته وقذفته إلى الجدار. انكسرت قطعة منه، لكن الشاشة ظلّت مضاءة. حملته من جديد وغمسته في دلو الثلج الصغير إلى أن دخلت أصابعي الماء المتجمد.

لكني ما كنت قادرة على تركه هناك لأن عاملة خدمة الغرف ستجده عندما تأتي لتغيير هذا الدلو. أدخلت يدي بين قطع الجليد مرة أخرى وأخرجت الهاتف، ثم رحت أنظر من حولي في الغرفة إلى أن رأيت سلة القمامة التي رمينا فيها صحف الصباح وبضعة مناديل ورقية. لففت هاتفي بصفحة من صفحات إحدى الصحف ثم أعدت القمامة كلّها إلى السلّة.

سوف يأخذه طاقم التنظيف بعيداً. وسوف ينتهي الأمر بهاتفي في حاوية قمامة ضخمة تتجمّع فيها فضلات مئة نزيل غيرنا.

سأقول لريتشارد إنني أضعته، وإنه لا بد أنه قد سقط من حقيبة الشاطئ. لقد اشتراه لي بعد خطوبتنا مباشرة قائلاً إنه يريد أن أحمل هاتفاً

ذا جودة رفيعة. كنت أعرف أنه لن يفعل شيئاً غير أن يشتري لي هاتفاً جديداً آخر.

لقد أفسدت عطلتنا بما فيه الكفاية؛ وما من حاجة إلى إثارة قلقه بإخباره عن هذا الاتصال.

هدّأت أنفاسي. بدأ قرص المهدّئ يهزم مخاوفي. كان جناحنا متسعاً بهيج المظهر فيه أزهار أوركيد بنفسجية موضوعة في مزهرية على الطاولة الزجاج. كانت أرضه من البلاط الأزرق وجدرانه بيضاً. ذهبت إلى الخزانة من جديد واخترت فستاني الصيفي البرتقالي المزين بالأزهار مع صندل ذهبي مرتفع الكعب. علّقت الفستان على باب الخزانة ووضعت الحذاء على الأرض تحته. سوف أرتدي هذا الفستان الليلة. كان في برادنا الصغير زجاجة شامبانيا، أخرجتها فوضعتها في دلو الثلج، ثم وضعت كأسين طويلتين رشيقتين إلى جانبها.

صارت أجفاني ثقيلة الآن. تلفتّ من حولي مرة أخيرة. بدا كل شيء لطيفاً. كل شيء في مكانه الصحيح. عدت فاندسست تحت الأغطية. تكوَّرت على جانبي الأيسر، فشعرت بألم جعلني أئن. نظرت إلى أعلى ذراعي فرأيت علامة حمراء. إنها بداية الكدمة التي سببها لي ريتشارد عندما قبض على ذراعي بقوة حتى يشدني من القارب.

لديَّ سترة خفيفة متناسبة مع فستاني. سوف أرتديها حتى أغطي هذه العلامة.

انقلبت على جانبي الآخر. قلت لنفسي إنني سأغفو غفوة صغيرة. وعندما يأتي ريتشارد سأقترح عليه أن نفتح زجاجة شامبانيا ونستعد للذهاب إلى العشاء معاً.

كنا عائدَيْن إلى نيويورك في اليوم التالي؛ وكان شهر عسلنا قد شارف على الانتهاء. لا بد لي من إزالة أثر ما حدث بعد ظهر اليوم. أردت أن نمضي ليلة رائعة أخرى قبل أن نعود إلى مدينتنا.

الفصل العشرون

كنت أنظر إلى عاملة البار تسكب الفودكا الشفافة في كأسي، ثم تضيف إليها رشة من التونيك شكلت طبقة كالزبد فوقها. علقت شريحة ليمون على حافة الكأس ثم دفعتها بيدها فجعلتها تنزلق على خشب المنضدة الصقيل. وبعد ذلك أخذت الكأس الفارغة التي كانت أمامي.

«هل تريدين بعض الماء أيضاً؟».

أهز رأسي. خصلات شعر رطبة ملتصقة برقبتي. أحسّ بتعرّق فخذيّ على الكرسي المصنوع من الفينيل. حذائي على الأرض، تحتي.

بعد أن رفضت إيما الاستماع إلى كلامي، ثم تركتني وذهبت بسيارة التاكسي، ظللت واقفة برهة طويلة عند زاوية الشارع غير عارفة في أي اتجاه أسير.

لم يكن لديَّ من أذهب إليه أو أستعين به. ولن يفهم أحد كم كان فشلي اليوم كبيراً.

وبعد ذلك، لأنني لم أستطع الاهتداء إلى خيار آخر، بدأت السير. كان عذابي ينمو ويتزايد مع كل خطوة أخطوها مثلما يكبر التثاؤب عندما لا أفلح في السيطرة عليه. وبعد أن سرت مسافة عدة بنايات، وجدت أمامي بار فندق روبرتسون.

هكتبة

تدفع عاملة البار الصامتة بكأس جديدة أمامي.

«أتريدين ماء؟».

أرفع رأسي وأنظر إليها متسائلة في نفسي إن كنت حقّاً قد هززت رأسي بالنفي أو أنني تخيّلت ذلك فقط. لكن الفتاة تتجنّب نظراتي. تحرّكت مبتعدة عني وراحت ترتب أكداس الجرائد على زاوية الطاولة.

لمحت نفسي في المرآة الكبيرة التي كانت خلفها؛ تلك المرآة التي تعكس صفوفاً من فودكا أبسولوت، وويسكي جوني ووكر، وجِن هندريكس، وتيكيلا ريبوسادو.

إنني أرى الآن في المرآة ما رأته إيما.

إنني أنظر إلى مرآة خداعة. الصورة التي كنت أريد تقديمها ـ صورتي القديمة، صورة نيللي ريتشارد ـ صارت مشوَّهة. شعري متقصّف نتيجة المبالغة في معالجته: الزائف فيه أكثر من الحقيقي. تبدو عيناي غائرتين في وجهي الناحل. ومواد التجميل التي وضعتها بعناية كبيرة أراها مشوَّهة أيضاً. لا عجب في أنّ عاملة البار تريد أن أظل صاحية لأنني في ردهة فندق فخم، فندق يستضيف رجال أعمال دوليين ويقدم كؤوساً من الويسكي يبلغ ثمن الواحد منها مئتي دولار.

أحسّ باهتزاز هاتفي من جديد. أرغم نفسي على إخراجه من حقيبة يدي، فأرى خمس مكالمات فائتة؛ ثلاث من محل ساكس، أولاها في الساعة العاشرة صباحاً. واتصالان من خالتي شارلوت خلال نصف الساعة الماضي.

شيء واحد قادر على اختراق هذا الألم الكليل الذي يغلّفني. تفكيري في قلق خالتي شارلوت. هذا ما يجعلني أتصل بها.

«فانيسا؟ هل أنت بخير؟».

لا أعرف أبداً كيف أجيبها.

«أين أنت الآن؟».

«في العمل».

«اتصلت بي لوسيل لأنكِ لم تذهبي إلى العمل». لقد كتبت رقم بيت خالتي عندما قدّمت طلب العمل في ساكس ليكون رقم اتصال احتياطياً.

«كنت فقط في حاجة إلى... سوف أذهب متأخرة».

تكرّر خالتي سؤالها بنبرة صارمة: «أين أنت الآن؟».

كان عليَّ إخبارها بأنني في طريق العودة إلى البيت. وكان عليَّ إخبارها بأن الأنفلونزا قد عاودتني. كان عليَّ اختلاق أية أعذار حتى أخفف من قلقها. لكن سماع صوتها ـ الشيء الآمن الوحيد الذي أمتلكه الآن ـ يحبط دفاعاتي. وهكذا أعطيها اسم الفندق.

تقول لي: «لا تتحرّكي من مكانك». ثم تنهي المكالمة.

يجب أن تكون إيما قد وصلت الآن إلى موعدها من أجل تجربة الفستان. لا أعرف إن كانت قد اتصلت بريتشارد وأخبرته كيف اعترضت سبيلها. أتذكر كيف تحولت الشفقة في عينيها إلى نظرة احتقار. لست واثقة أي النظرتين كان وقعها أسوأ على نفسي. أتذكّر ساقيها الجميلتين وهي تجلس في سيارة التاكسي ثم تغلق بابها، ثم تبتعد صورتها وأنا أحدّق في إثرها.

أتساءل إن كان ريتشارد سيتصل بي الآن.

قبل أن أفلح في طلب كأس شراب أخرى أسمع خطوات خالتي شارلوت على الأرض من خلفي وهي آتية في اتجاهي. أراها تنظر إلى لون شعري الجديد، وإلى كأس الكوكتيل الفارغة، وإلى قدميَّ الحافيتين.

أنتظر أن تكلمني، لكنها تجلس على كرسي البار المرتفع المجاور لي.

تسألها عاملة البار: «هل أحضر لك شيئاً؟».

تلقي خالتي شارلوت نظرة على قائمة الكوكتيلات، ثم تقول لها: «أعطني سايدكار من فضلك».

«إنه ليس في القائمة، لكنني أستطيع بالتأكيد تحضير كأس من أجلك».

تنتظر خالتي ريثما تسكب الفتاة الكونياك وشراب البرتقال على قطع الثلج في الكأس، ثم تعصر فوقها بعض قطرات الليمون.

ترشف خالتي شارلوت جرعة ثم تضع كأسها الباردة المضبَّبة. أستعد لتلقي مزيد من الأسئلة. لكنها لا تسألني عن أي شيء.

«لا أستطيع جعلك تخبرينني بما يحدث. لكن، كفّي عن الكذب عليّ من فضلك». أرى بقعة طلاء أصفر على أحد مفاصل إصبع يدها ـ نقطة صغيرة فحسب ـ فأظل محدّقة فيها.

أسألها بعد لحظة: «من كنتُ بعد أن تزوجت؟ ماذا كنتِ ترين فيّ؟».

تميل خالتي شارلوت للخلف قليلاً، ثم تضع ساقاً فوق ساق: «تغيرتِ. لقد افتقدتك».

وأنا افتقدتها أيضاً. لم تقابل خالتي شارلوت ريتشارد إلا قبيل زفافنا لأنها كانت تمضي سنة في باريس بعد اتفاقها مع رسّامة باريسية صديقة لها على تبادل شقتَيْهما. وبعد عودتها إلى نيويورك، صرنا نلتقي من حين إلى آخر... لقاءات أكثر في البداية، ثم تناقصت تلك اللقاءات على مرّ السنين.

«كان أول شيء لاحظته ليلة احتفالك بعيد ميلادك هو أنكِ لم تعودي شبيهة بما كنت عليه في السابق».

أعرف تماماً عن أية ليلة كانت تحدّثني. كان ذلك في شهر آب، بعد فترة قصيرة من الذكرى السنوية الأولى لزواجنا. أومئ برأسي وأقول لها:

«بلغت يومها التاسعة والعشرين»... أكبر بسنتين مما هي إيما الآن... «لقد جلبتِ لي باقة زهور وردية».

أهدتني يومها أيضاً لوحة صغيرة لا يزيد حجمها على حجم وجه كتاب. كانت صورة لي يوم زفافي. لم تكن تلك صورة وجهية فقد رسمتني خالتي شارلوت من الخلف وأنا أبدأ السير في اتجاه ريتشارد. شكلُ فستاني الذي يشبه الجرس، وخماري الرقيق، كانا متضادين مع زرقة سماء فلوريدا المشرقة. كان ذلك كما لو أنني سائرة إلى اللانهاية.

كنا قد دعونا خالتي شارلوت إلى ويستشستر حتى نتناول الشراب معاً ثم نذهب لتناول طعام الغداء في نادينا. وكنت قد بدأت قبلها بقليل أتناول أقراصاً للخصوبة. أتذكّر أنني لم أستطع إغلاق أزرار تنورتي التي كنت أعتزم ارتداءها ذلك اليوم. كانت تلك التنورات الحرير الضيقة من الأعلى واحدة من قطع ملابس جديدة كثيرة ملأت خزانتي الضخمة. غفوت قليلاً بعد ظهر ذلك اليوم ـ كانت أقراص الخصوبة تجعلني مشوَّشة الذهن ـ وقد تأخّرت فلم أكن مستعدة عندما وصلت خالتي. عندما تخلّيت عن لبس التنورة واخترت بدلاً منها فستاناً أكثر اتساعاً كان ريتشارد قد رحب بخالتي شارلوت وصبَّ لها كأساً من النبيذ. سمعتهما يتحدّثان عندما اقتربت من المكتبة.

سمعت خالتي شارلوت تقول له: «إنها الزهور التي تفضّلها دائماً».

قال ريتشارد: «حقّاً؟ هل تفضل هذه الزهور؟».

وعندما دخلت، وضعت خالتي شارلوت باقة الزهور على طرف الطاولة حتى تعانقني.

قال ريتشارد: «سوف أضعها في مزهرية»، وتناول خلسة منديلاً من مناديل مجموعة الكوكتيل فمسح به نقطة ماء تركتها الباقة على خشب المانغو. كانت الطاولة جديدة... وصلت قبل أقل من شهر.

قال لي ريتشارد: «يوجد ماء معدني من أجلك يا حبيبتي».

أمد يدي الآن إلى كأس الماء الموضوعة أمامي على البار وآخذ منها جرعة كبيرة. كانت خالتي شارلوت تعرف أنني أحاول أن أحمل؛ وعندما ابتسمت لما قاله ريتشارد أدركت أن من الممكن أن تكون قد توصلت إلى استنتاج خاطئ حول زيادة وزني وسبب الامتناع عن المشروبات الكحولية.

هززت رأسي قليلاً غير راغبة في قول الكلمات اللازمة لتصحيح ظنونها. ليس في تلك اللحظة، على الأقل، ليس في حضور ريتشارد.

قالت خالتي شارلوت: «مكان جميل»... لكني لم أكن أتابع الحديث بينهما. فهل كانت تعني بيتنا القديم أم النادي؟

كان كل شيء في حياتي يبدو جميلاً آنذاك: الأثاث الجديد الذي اخترته بمساعدة من مصمم داخلي، وقرطا حجر السفّير اللذان قدمهما لي ريتشارد هدية في ذلك اليوم، والممر الطويل الذي يمضي متعرجاً بين ساحات الغولف العشبية الخضراء فيمرّ ببركة ملأتها طيور البط. كنا نتقرّب من النادي ومن تفجر الريحان المزهر وأشجار القرانيا المحيطة بمدخل النادي ذي الأعمدة البيض.

قالت خالتي: «بدا لي الأشخاص الآخرون في النادي، كلهم، كأنهم أشخاص...». تتردد قليلاً... «مستقرون، على ما أظن. لكن أصدقاءك في المدينة كانوا في غاية الحيوية والنشاط، وفي سن الشباب».

كلمات خالتي شارلوت لطيفة، لكني أعرف ما تعنيه بها. كان الرجال في سترات رسمية في صالة الطعام ـ إنها أنظمة النادي ـ وبدت النساء كأنهن يتبعن قواعد سلوك ضمنية تحدّد كيف يجب أن يبدو شكل الواحدة منهن وكيف يجب أن تتصرّف. كما أن الأزواج الموجودين، في معظمهم، كانوا أكبر سناً مني بكثير. لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعلني غير متناسبة مع ذلك المكان.

تتابع خالتي شارلوت كلامها: «أذكر أننا جلسنا إلى طاولة صغيرة في الزاوية...».

كنت أحضر مع ريتشارد مناسبات كثيرة في ذلك النادي ـ الألعاب النارية في الرابع من تموز[1]، وشواء يوم عيد العمل، وحفلة الرقص في عطلة ديسمبر. كانت تلك الطاولة عند الزاوية المكان المفضل لدى ريتشارد لأنه هادئ ويسمح برؤية الصالة كلها.

تقول خالتي شارلوت: «فوجئت بدروس الغولف».

أومئ برأسي. كانت تلك الدروس مفاجئة لي أنا أيضاً. وبالطبع، كانت هدية من ريتشارد. كان يريد أن نلعب معاً، وكان قد أشار إلى قيامنا برحلة إلى بيبل بيتش عندما أُتقن اللعب. أخبرتها كيف تعلّمت التمييز بين المضارب المختلفة، وكيف كنت أضرب الكرة بطريقة خاطئة عندما لا أنفق الوقت الكافي في التمرين على حركة المضرب. أخبرتها أيضاً عن استمتاعي بقيادة سيارة الغولف الصغيرة. كان عليّ معرفة أن خالتي شارلوت سوف ترى ما وراء تلك الثرثرة النشطة كلّها.

تقول لي خالتي شارلوت: «عندما اقترب النادل، طلبتِ منه كأساً من نبيذ شاردونيه. لكني رأيت ريتشارد يمسّ يدك. وعند ذلك غيرتِ رأيك وطلبتِ ماءً فقط».

«كنت أحاول أن أحمل. ولم أكن أريد الشرب».

«أفهم هذا، لكن شيئاً آخر حدث عند ذلك». تتناول خالتي شارلوت جرعة من كأسها. تحمل الكأس الثقيلة بيديها الاثنتين، ثم تعيدها بعناية فتضعها على البار. لست أدري إن كانت متردّدة في متابعة حديثها، لكني في حاجة إلى معرفة ما فعلْته.

يأتيني صوت خالتي شارلوت ناعماً: «أتى النادل بسلطة سيزار التي

---

(1) اليوم الوطني في أميركا. ذكرى إعلان الاستقلال سنة 1776.

هكتبة

طلبتها. لكنك قلتِ له إنك تريدين صلصة السيزر مستقلة عن السلطة. لم يكن ذلك بالأمر المهم، لكنك كنت مصرّة على أنك طلبت السلطة على ذلك النحو. إلا أنني رأيت الأمر غريباً لأنك كنت نادلة يا عزيزتي. وأنت تعرفين أن من السهل تماماً أن تحدث أخطاء».

تتوقّف قليلاً ثم تتابع كلامها: «لكن المسألة هي أنك كنت مخطئة. أنا التي طلبت سلطة سيزار، وأنت قلت إنك تريدين ما طلبت أنا. لم تقولي أي شيء عن الصلصة».

أشعر بأنني أعبس: «أهذا كل شيء؟... أخطأت الطلب؟».

تهز خالتي شارلوت رأسها. أعرف أنها ستكون صادقة معي. أعرف أيضاً أنني قد لا أحب ما ستقوله بعد ذلك.

«كانت طريقة قولك ذلك هي الأمر الغريب. لقد بدا صوتك... مستثاراً، منزعجاً. اعتذر النادل، لكنك جعلت الأمر أكبر مما يجب أن يكون. لقد رحتِ تلومين النادل على شيء لم يكن هو المخطئ فيه».

«وماذا فعل ريتشارد؟».

«كان آخر الأمر هو من قال لك إنه لا بأس ، وقال إنك ستحصلين على طبق سلطة جديد خلال دقيقة واحدة».

لست أتذكّر تماماً الكلام الذي جرى بيني وبين النادل ـ رغم أنني أتذكر وجبات مطاعم متوترة أخرى خلال فترة زواجي. لكني واثقة من شيء واحد: إن لخالتي ذاكرة ممتازة. لقد أنفقت حياتها كلّها في تصنيف التفاصيل وترتيبها.

أتساءل كم من اللحظات الأخرى غير السارة التي كانت خالتي شارلوت شاهدة عليها خلال تلك السنوات لكنها ظلت تكتمها انطلاقاً من حبّها لي.

صحيح أننا كنا متزوجين حديثاً يومذاك، لكن تحوّلي كان قد بدأ بالفعل.

هكتبة

الفصل الحادي والعشرون

كنت أعرف دائماً أن حياتي مع ريتشارد لن تكون مثل حياتي القديمة.

لكني تخيلت أن تغيراتي ستكون خارجية ـ ستكون مجرد إضافات إلى المرأة التي كنتها وإلى ما كان لديَّ قبل الزواج. سأصير زوجة. سأصير أماً. وسأبني بيتاً. سأجد أصدقاء جدداً في حيِّنا الجديد.

لكن التركيز على ما كان ينقصني صار أمراً في غاية السهولة بعد غياب التفاصيل اليومية التي كانت تشكّل وجودي في مانهاتن... يجب أن أستيقظ ثلاث مرات خلال الليل حتى أرضع صغيري. وعليَّ أن أضع برنامج دروس «ماما وأنا». يجب أن أسلق الجزر وأصفّيه، وأن أقرأ لصغيري قصة «تصبح على خير يا قمر». يجب أن أغسل ملابس طفلي وأن أبرّد الحلقات التي توضع في فم الطفل عند ظهور أسنانه حتى تخفّف تورم اللثتين. ما كان عندي شيء من هذا!

كانت حياتي متوقّفة، تنتظر هذا كله. أحسست كما لو أنني معلّقة في مرحلة وسطى بين حياتي في الماضي وحياتي في المستقبل.

في ما مضى، كانت ينتابني القلق على حسابي المصرفي وأخشى عليه من عدم التوازن؛ وكان ينتابني قلق عندما أسمع صوت خطوات تسير خلفي في الليل. كان يقلقني أيضاً احتمال التأخر على المترو عند ذهابي إلى عملي في مقهى جيبسون. كنت قلقة أيضاً على طفلة صغيرة

في صفّي في روضة الأطفال لأنها تقرض أظافرها رغم كونها لا تزال في الثالثة من عمرها فحسب. وكان يقلقني التفكير إن كان ذلك الشاب الظريف الذي أعطيته رقم هاتفي سيتصل بي أم لا، وكذلك إن كانت سامانثا قد تذكّرت فصل أداة كَيّ الشعر عن الكهرباء بعد استخدامها.

ظننت أن زواجي من ريتشارد سيمحو هذه المخاوف كلّها.

لكن الأشياء التي كانت تقلقني في ما مضى تراجعت وأخلَت مكانها لأشياء أخرى. حلَّ تطاحن أفكاري الذي لا يهدأ محل صخب المدينة واندفاعها. لم يفلح محيطي الجديد المسالم في تهدئة عالمي الداخلي. السكون الدائم، والساعات الخالية من أي شيء، بدت كلها كأنها تهزأ بي. عاد إليَّ أرقي. وجدت نفسي أيضاً أعود إلى البيت كلما خرجت لأمر ما، فأتأكد من إقفال الباب رغم أنني قادرة على تذكّر صورتي وأنا أغلقه وأدير المفتاح في قفله. وذات مرة، خرجت من موعدي مع طبيب الأسنان قبل أن ينظّف أسناني لقناعتي بأنني نسيت إطفاء الفرن في المطبخ. كنت أفتح خزائن الجدارية الكبيرة مرتين لأتحقّق من أن النور مطفأ فيها. كانت مدبرة المنزل التي تأتينا مرة في الأسبوع تترك كل شيء نظيفاً لا شائبة فيه، وكان ريتشارد بطبيعته مرتباً إلى حد لا يصدَّق، لكنني كنت أتجوّل في الغرف، على الرغم من ذلك، وأبحث عن ورقة نبات ذابلة في الأصص حتى أقطفها أو عن كتاب ناتئ قليلاً من مكانه على الرف حتى أصحح وضعه فيصير في صف واحد مع بقية الكتب. كنت أخرِج المناشف من خزانة البياضات وأعيد طيّها من جديد.

تعلمت أن أطيل زمن أداء أي مهمة سهلة، كإعداد حلوى بسيطة مثلاً؛ وصرت قادرة على جعل يومي كلّه يدور من حول لقاء لجنة المتطوّعين الشباب في النادي. وكنت أنظر إلى الساعة باستمرار فأعدّ الساعات الباقية حتى يعود ريتشارد إلى البيت.

هكتبة

بعد فترة قصيرة من عيد ميلادي التاسع والعشرين، ومن تلك الليلة مع خالتي شارلوت، ذهبت إلى السوبرماركت لكي أشتري صدور الدجاج من أجل عشائنا.

كان ذلك قبيل الهالوين الذي كان العيد المفضل عندي على الدوام عندما كنت أعلّم الأطفال. لم أكن واثقة من أن لدينا ما يكفي من الحلوى والسكاكر ـ لم نشترِ القدر الكافي منها في العام الماضي لأن البيوت في حيّنا متباعدة كثيراً. لكني كنت في ذلك المتجر فأخذت بضعة أكياس Kitkat وM&M's آملة أن يكون ما أوزعه على الأطفال أكثر مما آكله منها. وضعت في سلة المشتريات أيضاً علبةفوط صحّية نسائية. وعندما هممت بالتوجه إلى باب الخروج انعطفت في ممر حفاضات الأطفال ومأكولاتهم، تراجعت فجأة وسلكت طريقاً أطول إلى صندوق المحاسبة.

اخترقني إحساسي بالوحدة عندما كنت أجهّز الطاولة من أجل العشاء، وأضع صحنين فقط عند زاوية تلك الطاولة الكبيرة من خشب الماهوغاني. سكبت لنفسي كأس نبيذ واتصلت برقم سامانثا. لا يزال ريتشارد يعارض أن أشرب؛ لكني كنت في حاجة إلى شيء يواسيني، بضعة أيام في كل شهر ـ لذلك، كنت أحرص على تنظيف أسناني ودفن الزجاجة الفارغة عميقاً في أسفل سلة المهملات المخصصة لإعادة التدوير. قالت لي سامانثا إنها تستعد للخروج إلى موعدها الثالث مع شاب تعرفت عليه. بدت لي متحمّسة حقّاً لذلك الشاب. أستطيع تخيلها وهي ترتدي بنطلون الجينز الضيّق المفضّل عندها، ذلك البنطلون الذي لم أعد أستعيره، أتخيلها الآن تضع أحمر الشفاه الداكن بلون الكرز.

رحت أرتشف كأس النبيذ وأنا أتشرّب ثرثرتها السعيدة واقترحت عليها أن نلتقي في المدينة عمَّ قريب. لم تأت سامانثا لرؤيتي إلا مرة

واحدة منذ زفافي. لكني لا ألومها لأن ويستشستر مكان مضجر لامرأة عازبة. كنت أذهب إلى مانهاتن أحياناً وألتقي سامانثا بالقرب من روضة الأطفال لنتناول معاً غداء متأخراً.

لكني اضطررت إلى تأجيل غدائنا الأخير لأن ألماً أصابني في معدتي؛ وكانت سامانثا قد ألغت موعد العشاء الذي اتفقنا عليه قبل ذلك عندما اكتشفت أنها نسيت عيد ميلاد جدتها التسعين الذي كان في ذلك المساء نفسه.

لم ترَ واحدتنا الأخرى منذ زمن بعيد.

لقد تعهدت بأن أظل على ثقة وثيقة مع سامانثا بعد زواجي، لكن الأمسيات وأيام نهاية الأسبوع ـ الأوقات الحرّة لدى سامانثا ـ كانت أيضاً فرصتي الوحيدة لأن أكون مع ريتشارد.

لم يكن ريتشارد يضع أي قيود على خططي. سألني ذات مرة إن كنت قد قضيت وقتاً ممتعاً عندما جاء لأخذي من محطة القطار بعد أن تناولت طعام الغداء مع سامانثا.

أجبته: «الوقت مع سامانثا ممتع دائماً». ثم ضحكت وأنا أخبره كيف صادفنا بعد خروجنا من المطعم مشهداً سينمائياً يجري تصويره على مسافة قريبة من حيث كنا. أمسكت سامانثا بيدي وشدتني إلى حيث تجمّع المتفرجون والعمال الفنيون. قيل لنا أن نغادر المكان، لكن سامانثا أفلحت في أخذ كيس كبير من المكسرات والفاكهة المجففة من على طاولة خدمة فريق العمل.

ضحك ريتشارد معي. لكنه قال لي على العشاء تلك الليلة إنه سيتأخر في عمله حتى المساء طيلة أيام ذلك الأسبوع.

قبل أن تنهي سامانثا المكالمة قالت لي أن أختار وقتاً حتى نلتقي: «فلنشرب التيكيلا ونذهب للرقص مثلما كنا نفعل».

تردّدت: «دعيني أولاً أتحقق من أوقات ريتشارد. قد يكون من الأسهل أن آتي إليك عندما يكون مسافراً خارج المدينة».

قالت سامانثا مازحة: «هل تخططين لاصطحاب شاب إلى البيت؟».

أجبتها بسرعة محاولة تغيير وجهة الحديث: «لماذا واحد فقط؟». فضحكت.

كنت في المطبخ بعد دقائق قليلة من ذلك، وكنت أقطع الطماطم من أجل السلطة، عندما انطلق زعيق جهاز الإنذار من السرقة.

لقد وفى ريتشارد بوعده فجعلهم يركّبون في الشقة جهاز إنذار متطوّراً قبيل انتقالنا إلى هذا البيت في ويستشستر. كان وجود نظام الإنذار مطمئناً لي عندما يكون في العمل، وخاصّة في الليالي التي يكون فيها مسافراً.

صحت: «من هناك؟».

خرجت إلى الممر وأنا أرتجف كلما سمعت نبضات صوت جهاز الإنذار المرتفعة تنتشر في الهواء من حولي. لكن باب بيتنا المصنوع من خشب البلوط كان مغلقاً.

كان في بيتنا أربع نقاط ضعف... هكذا قال لنا مقاول شركة أنظمة الإنذار وهو يرفع أربعة أصابع ليؤكد على فكرته. الباب الأمامي. مدخل القبو. النافذة المنخفضة الكبيرة في منطقة المطبخ فوق طاولة الطعام. والباب الزجاجي المزدوج المفضي من غرفة المعيشة إلى الحديقة.

كانت هذه النقاط كلها موصولة إلى نظام الإنذار. هرعت إلى الباب الزجاجي ونظرت إلى الخارج. لم أستطع رؤية شيء. لكن هذا لم يكن يعني عدم وجود أحد هناك... لم يكن يعني أن ما من أحد قد اختبأ بين الظلال. لو أن أحداً يقتحم البيت الآن لما سمعت الصوت لأن صوت جهاز الإنذار شديد الارتفاع. وباندفاعة غريزية، أسرعت فصعدت إلى الطابق العلوي وأنا لا أزال ممسكة بالسكين الكبيرة التي كنت أقطع

هـ ك ت ب ة

الطماطم بها. أخذت الهاتف من جانب السرير حيث كنت قد وضعته ووصلته إلى الشاحن، لحسن الحظ. اختبأت داخل خزانة ملابسي خلف صف من البنطلونات المعلّقة، ثم اتصلت بريتشارد.

«نيللي؟ ما الأمر؟».

كانت يدي قابضة بقوة على الهاتف وأنا متكوّرة على نفسي داخل الخزانة. قلت له هامسة: «أظن أن أحداً يحاول اقتحام البيت».

«أستطيع سماع جهاز الإنذار...». كان صوت ريتشارد متوتّراً ملهوفاً... «أين أنت الآن؟».

مكتبة أحمد

همست: «في خزانتي».

«سوف أتصل بالشرطة. ابقِي على الخط». تخيّلته كيف راح يعطي عنواننا للشرطة ملحّاً عليهم بأن يسرعوا في المجيء لأن زوجته وحدها في البيت. كنت أعرف أن شركة أنظمة الإنذار سوف تبلغ الشرطة أيضاً.

كان هاتف البيت يرن في تلك اللحظة. وكان قلبي يتقافز في مكانه. نبض مجنون يملأ صخبه أذنيّ. أصوات كثيرة جداً. كيف لي معرفة إن كان أحد ما واقفاً الآن أمام باب خزانتي المغلق على وشك فتحه؟

قال ريتشارد في الهاتف: «ستصل الشرطة في أية لحظة. أنا قادم أيضاً. إنني في القطار. بلغت بلدة ماونتكيسكو. سأصل البيت خلال خمس عشرة دقيقة».

طالت هذه الدقائق دهراً. ازددت تكوراً على نفسي في الخزانة وبدأت أعد الثواني مجبرة نفسي على العدّ ببطء. لا بد أن الشرطة ستصل عندما أبلغ المئتين... هكذا قلت في نفسي وأنا جالسة ساكنة في مكاني أتنفّس من غير صوت حتى لا يكتشف أحد وجودي إذا فتح باب الخزانة.

تباطأ جريان الزمن. كنت متنبّهة تماماً إلى كل تفصيل من التفاصيل المحيطة بي. ازدادت حدة حواسي كثيراً. رأيت ذرات الغبار على أرض

مكتبة

الخزانة. ورأيت التموجات الخفيفة في لون تلك الأرضية الخشب، واهتزاز البنطلونات السود المعلّقة على بعد سنتيمترات من وجهي عندما أتنفس.

قال ريتشارد عندما وصلتِ في العد إلى 287: «انتظري قليلاً يا حبيبتي. إنني أغادر القطار الآن». وفي تلك اللحظة، وصلت الشرطة أخيراً.

فتش عناصر الشرطة المكان، لكنهم لم يعثروا على ما يشير إلى وجود شخص دخيل: لا شيء مفقوداً، ولا أبواب مقتحَمة، ولا نوافذ مكسورة. جلست على الأريكة ملتصقة بريتشارد وأنا أرتشف شاي البابونج. قال لنا عناصر الشرطة إن الإنذارات الكاذبة ليست بالشيء غير المألوف، توصيلات خاطئة، أو حيوانات تتسبب في إطلاق الإنذار، أو خلل ـ قال الشرطي إن من المرجح أن يكون أحد هذه الأشياء هو السبب في انطلاق الإنذار.

وافقه ريتشارد: «أنا واثق من عدم وجود شيء...». لكنه تردّد ونظر إلى الشرطيين الواقفين أمامنا... «لعل ما سأقوله لا علاقة له بالأمر، لكني رأيت عندما كنت ذاهباً إلى عملي هذا الصباح شاحنة صغيرة كانت متوقفة عند نهاية الشارع. ظننت بأنها شاحنة شركة خاصة تعتني بالحدائق، أو شيء من هذا القبيل».

أحسست بأن قلبي توقّف لحظة.

سأله ذلك الشرطي، الذي كان يتحدّث أكثر من رفيقه: «هل أخذت رقم الشاحنة؟ هل أخذت رقم لوحة تسجيلها؟».

«لا، لم آخذ الرقم. لكني سأكون متنبّهاً عندما أراها مرة ثانية...». شدّني ريتشارد إليه... «آوه، يا حبيبتي، أنت ترتجفين. أعدك يا نيللي أنني لن أسمح بأن يحدث لك أي شيء».

سألني الشرطي من جديد: «لكن، هل أنتِ واثقة تماماً من أنك لم تري أحداً؟».

من خلال النافذة التي أمامي، كنت أرى دفقات اللونين الأزرق والأحمر منبعثة من المصابيح الدوارة فوق سيارة الشرطة. أغمضت عينيَّ، لكني ظللت قادرة على رؤية هذه الأضواء المجنونة تدور في الظلمة، فتعيدني إلى ليلة منذ زمن بعيد عندما كنت في سنتي الأخيرة في الكلية.

«لا. لم أرَ أحداً».

لكن ذلك لم يكن صادقاً تماماً!

لقد رأيت وجهاً، لكني لم أره عبر نافذة من نوافذ بيتنا. كان مرئياً في ذاكرتي فقط. وجه لشخص رأيته آخر مرة في فلوريدا، شخص يلومني ـ ويريد أن أنال عقابي ـ على أحداث عنيفة جرت في تلك الأمسية من أمسيات الخريف.

إن لي الآن اسماً جديداً. إن لي عنواناً جديداً. بل إني غيرت رقم هاتفي أيضاً.

لكني كنت أخشى دائماً من أن هذا كله لن يكون كافياً.

بدأت تلك التراجيديا في يوم جميل من أيام شهر تشرين الأول أيضاً، مثل هذا اليوم. كنت لا أزال شابة صغيرة آنذاك. وكنت في بداية سنتي الأخيرة في الكلية. كانت حرارة صيف فلوريدا الحارقة قد خفت فتحولت إلى دفء لطيف. وكانت زميلاتي في السنة الأخيرة ترتدين فساتين خفيفة أو بلوزات خفيفة مع بنطلونات قصيرة مطبوع على مؤخراتها اسم أخوية الفتيات «تشي أوميغا». وكان بيت الطالبات مفعماً بطاقة مبتهجة. سوف تجري مراسم القبول الرسمية للأعضاء الجدد في

الأخوية بعد غروب الشمس. وبما أنني كنت المديرة الاجتماعية، فقد وضعت خطة لأنخاب شراب الجيلو التي سنشربها، ولعصب عيون الفتيات الجدد، وللشموع، وللقفز المفاجئ في مياه المحيط.

لكني استيقظت مرهَقة أشعر بالغثيان. رحت أقضم قطعة شوكولا بالمكسرات وأنا أسير متحاملة على نفسي ذاهبة إلى «ندوة تطوّر الطفولة المبكرة». عندما أخرجت دفتري حتى أكتب مهمات الأسبوع التالي، انتبهت إلى شيء جعل قلمي يتجمد على الورقة: لقد تأخرت دورة الحيض عندي. لم أكن مريضة، بل حبلى!

عندما رفعت رأسي من جديد، رأيت أن بقية الطالبات قد جمعن دفاترهن وكتبهن وبدأن يخرجن من الصف. لقد سرقت تلك الصدمة مني بضع دقائق.

تغيبت عن الدرس الذي بعده، وذهبت إلى صيدلية عند آخر حرم الكلية فاشتريت علكة ومجلة وبعض الأقلام وشريط اختبار الحمل كما لو أن ذلك كان مجرد مادة إضافية عارضة على قائمة تسوّقي. كان إلى جانب الصيدلية واحد من محلات ماكدونالدز فدخلت إلى حمامه، ثم أغلقت باب المرحاض من خلفي ورحت أستمع إلى فتاتين لم تبلغا سن المراهقة تمشطان شعرَيْهما أمام المرآة وتتحدثان عن حفلة بريتني سبيرز التي تموتان شوقاً لحضورها. أكدت العلامة على شريط اختبار الحمل ما كان حتى تلك اللحظة مجرد شك عندي.

قلت في نفسي غاضبة إنني لا أزال في الحادية والعشرين، بل إني لم أنهِ دراستي بعد. لم تبدأ علاقتي مع صديقي دانييل إلا منذ بضعة شهور فقط.

خرجت من حجرة المرحاض ومضيت إلى صف المغاسل فأجريت الماء البارد على يدَيَّ ومعصمَيّ. نظرت إلى الفتاتين فصمتتا عندما شاهدتا وجهي.

في تلك اللحظة، كان دانييل في صف السوسيولوجيا الذي ينتهي عند الساعة الثانية عشرة والنصف. كنت أحفظ برنامج دروسه عن ظهر قلب. أسرعت إلى مبناه واجتزت الرصيف العريض الذي أمامه. رأيت بعض الطلاب جالسين على درجاتِ المدخل يدخنون. في حين كان نفر آخر منهم مستلقياً على العشب الأخضر... بعضهم يتناول طعامه، وبعضهم الآخر يتقاذف أقراص الفريزبي. كانت فتاة تضع رأسها في حضن شاب، وكان شعرها الطويل منسدلاً على فخذه كأنه بطانية. انطلق صوت أغنية «Greatful dead» منبعثاً من آلة تسجيل.

قبل ساعتين فقط، كان من الممكن أن أكون واحدة منهم.

بدأ الطلاب يخرجون من الباب، فرحت أنظر في وجوههم باحثة عن دانييل. هو ليس الشاب صاحب الشبشب وقميص جامعة غرانت، ولا ذلك الذي يحمل حقيبة ساكسوفون ضخمة، ولا حتى ذاك الذي يحمل حقيبة معلّقة من كتفه.

إنه لا يبدو مثل أي واحد منهم.

بعد تناقص عدد الخارجين من الباب، ظهر دانييل عند أعلى السلم وهو يضع نظارته في جيب سترته وقد علّق على كتفه حقيبة صغيرة كانت مستقرّة على صدره. رفعتُ يدي ولوّحت له. ترددت خطواته لحظة عندما رآني. ثم تابع نزول الدرجات حيث كنت واقفة.

اعترضت طريقه فتاة قالت له: «أستاذ بارتون!». لعل لديها سؤالاً متعلقاً بدروسه، أو لعلها تحاول مغازلته.

كان دانييل بارتون في أواسط الثلاثينات، وكان قادراً على جعل أبطال رمي الفريزبي، بكل قفزاتهم واندفاعاتهم عندما يلتقطون القرص، يبدون كأنهم جراء صغيرة. كان يلقي نظرات سريعة في اتجاهي وهو يتحدّث مع تلك الفتاة وقد بدا قلقه واضحاً. إنني أخالف القاعدة التي اتفقنا عليها: لا يعرف واحدنا الآخر داخل الكلية.

ذلك لأن من الممكن أن يُطرد من عمله! لقد أعطاني الدرجة النهائية في السنة الماضية، قبل أسابيع من بدء العلاقة بيننا. لقد كسبت تلك الدرجة بجهدي الخاص... لم يكن قد جرى بيننا أي حديث ذي طابع شخصي إلى أن صادفته بعد أن تركت أصدقائي عند خروجنا من حفل ديف ماثيوز الغنائي عند الشاطئ ـ لكن، هل يمكن أن يصدّقنا أحد؟

عندما اقترب مني بعد زمن بدا لي طويلاً جداً. همس لي: «ليس الآن، سأتصل بك في ما بعد».

«لاقني بالسيارة في مكاننا المعتاد عند الساعة الثالثة».

هز رأسه: «لا أستطيع اليوم. غداً». صعقتني نبرة صوته الفظة.

«الأمر مهمٌ حقّاً».

لكنه تجاوزني واضعاً يديه في جيبي بنطلونه ومضى في اتجاه سيارته الألفا روميو العتيقة التي أخذتنا إلى الشاطئ مرات كثيرة في ليالٍ مقمرة. نظرت إليه مصعوقة وهو يبتعد عني. شعرت بخذلانٍ عميق.

سوف ألتزم باتفاقنا؛ ولا بد أنه أدرك أهمية الأمر. ألقى بحقيبته على المقعد المجاور لمقعد السائق ـ على مقعدي ـ ثم انطلق بالسيارة.

طوقت بطني بذراعي ووقفت أنظر إلى سيارته تنعطف عند الزاوية ثم تختفي. وبعد ذلك، عدت بخطى بطيئة إلى بيت الطالبات حيث كان الجميع منهمكاً في الاستعدادات.

كان عليَّ إكمال ما بقي من ذلك النهار. هكذا قلت لنفسي وأنا أغالب الدموع التي ملأت عينيّ. بعد ذلك، أستطيع أن أتكلم مع دانييل. وسوف نضع معاً خطة.

«أين أنتِ؟»، سألتني رئيسة أخوية الفتيات عندما دخلت من الباب. لكنها لم تنتظر إجابتي. سوف تنضم إلينا الليلة عشرون فتاة جديدة.

هكتبة

ستبدأ الأمسية بتناول طعام العشاء، ثم بالطقوس المعتادة: أغنية بيت الطالبات، ثم لعبة «معلومات الأخوية» التي تشتمل على أسماء مؤسِّساتها وعلى بعض التواريخ المهمة. وبعد ذلك، ستحمل كل فتاة شمعة وتكرر قسَمنا المقدس. سوف أقف خلف «أختي الصغيرة» ماغي التي سأكون معها طيلة هذه السنة. وبعد ذلك، يبدأ «التعذيب» في حدود الساعة العاشرة. صحيح أنه من الممكن أن يستمر عدة ساعات، إلا أن الفتيات لن يصيبهن أي شيء سيئ. ما من شيء خطير. ومن المؤكد أن أياً منهن لن تصاب بأي أذى.

كنت أعرف هذا لأنني أنا من وضع الخطة كلها.

زجاجات من الفودكا من أجل أنخاب الجيلو مصفوفة على طاولة غرفة الطعام إلى جانب بعض أنواع أخرى من الكحول من أجل كوكتيلات أخرى. تساءلت: هل نحن في حاجة إلى هذا الكحول كلّه؟ أتذكّر هذا بسبب كل ما حدث بعد ذلك. تلك الأضواء الوامضة الزرق والحمر المنبعثة من سيارات الشرطة. وزعيق صفاراتها المرتفع الذي بدا أشبه بصوت صفارات الإنذار.

لكني صعدت السلم إلى غرفتي مزيحة تلك الفكرة العابرة جانباً. صعدت مارة بالجميع واستبدلت بقلقي من كثرة الشراب قلقي الآخر المتعلّق بحبلي. كان إحساسي بالغثيان يشعّ منبعثاً من داخلي فيملأ كياني كلّه. لم يلتفت دانييل في اتجاهي، ولو مرة واحدة، عندما قاد سيارته مبتعداً. ظللت أتذكّر في كل لحظة كيف سار مارّاً بي، وكيف همس لي «ليس الآن». كانت معاملته لي أقل احتراماً من معاملته لتلك الطالبة التي اعترضت طريقه قبل وصوله إليّ.

انسللت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي بكل هدوء، ثم أخرجت هاتفي. استلقيت على السرير ضامة ركبتيَّ إلى صدري، ثم اتصلت به.

رنَّ الهاتف أربع مرات، ثم سمعت رسالته المسجلة. وعندما طلبت الرقم مرة ثانية، مضى الاتصال مباشرة إلى البريد الصوتي.

يمكنني تخيل دانييل وهو ينظر إلى هاتفه فيرى الاسم الرمزي الذي أعطاني إياه ـ فيكتور ـ ظاهراً على تلك الشاشة. تمتد أصابعه الطويلة المستدقة، تلك الأصابع التي كانت تمسّد فخذيَّ كلما جلست إلى جانبه، فتلتقط الهاتف وتضغط على مفتاح إنهاء المكالمة.

رأيته يفعل الأمر نفسه تماماً بمتصلين آخرين عندما نكون معاً، لكني لم أفكر أبداً في أنه يمكن أن يفعل هذا بي.

طلبت رقمه من جديد آملة أن يرى الاتصال فيعرف كم كنت في حاجة ماسّة إلى الحديث معه. لكنه تجاهلني.

حل الغضب محل الألم. يجب أن يكون قد عرف أن هنالك شيئاً ما ليس على ما يرام. قلت في نفسي: قال لي إنه مهتم بأمري. لكن... إذا كنت مهتماً حقاً بفتاة ما، أفلن تجيب على اتصالها الهاتفي على الأقل؟

لم أكن قد ذهبت أبداً إلى حيث يعيش لأنه مقيم مع اثنين من الأساتذة الآخرين في المباني السكنية في الكلّية. لكني أعرف العنوان!

الأمر لا يحتمل الانتظار إلى الغد... هكذا قلت في نفسي.

الفصل الثاني والعشرون

بعد أن أتت خالتي شارلوت وأخذتني من بار فندق روبرتسون فأعادتني إلى البيت، أخذت حماماً فاتراً ورحت أزيل عني العرق ومستحضرات التجميل. كنت أتمنى لو أنني أستطيع إزالة ذلك اليوم كلّه بسهولة مماثلة حتى أستطيع أن أحظى بفرصة جديدة مع إيما.

كنت قد خططت كلامي بكل عناية. توقّعت أن تكون إيما متشكّكة أول الأمر. لو كنت محلها لكنت متشكّكة أيضاً ـ لا أزال أتذكّر كيف غضبت واتخذت موقفاً عدائياً عندما أظهرت سامانثا شكوكاً تجاه ريتشارد، أو عندما عبّرت أمي عن قلقها من أنني أفقد شخصيتي أمامه.

لكني افترضت أن إيما سوف تصغي إلى كلامي على أقل تقدير. افترضت أنني سأحظى بفرصة زرع بذرة الشك التي يمكن أن تجعلها تنظر نظرة أكثر تدقيقاً إلى الرجل الذي اختارته حتى تمضي معه بقية حياتها.

لكن من الواضح أن رأياً سلبياً عني قد تشكّل لديها قبل أن أتحدّث معها اليوم... رأي يقول لها إنني لست أهلاً لثقتها.

أدرك الآن كم كنت حمقاء عندما ظننت بأن هذا الأمر يمكن أن ينتهي بسهولة. عليَّ أن أجد طريقة أخرى حتى أجعلها تفهم.

أنتبه إلى أن ذراعي اليسرى صارت حمراء، وإلى أنها صارت تؤلمني قليلاً لأنني كنت أفركها بعنف. أغلق تيار الماء، ثم أضع الكولونيا على ذراعي المسكينة. وعندها، تدق خالتي شارلوت باب الحمام وتسألني من خلفه: «هل أنت مستعدة لنزهة على الأقدام؟».

«بالتأكيد»... لا أرغب بالخروج الآن، لكنه تنازل أقل من كافٍ لتعويضها عن القلق الذي سببته لها.

وهكذا نتوجه معاً إلى حديقة ريفرسايد. عادة ما تكون خطوات خالتي شارلوت سريعة، لكنها تسير ببطء اليوم. يساعدني الإيقاع الثابت المستقرّ المتكرّر لحركة ساقيَّ وذراعيّ، وكذلك النسيم اللطيف الآتي من نهر هدسون، في الإحساس بأنني صرت أكثر استقراراً وثباتاً.

تسألني خالتي شارلوت: «هل تحبين متابعة حديثنا؟».

أتذكر ما طلبَتْه مني: كفي عن الكذب عليَّ، من فضلك.

لن أكذب عليها، لكن يجب أن أفهم الأمر بنفسي حتى أصير قادرة على إخبارها بالحقيقة.

«نعم...». أمد يدي فأمسك بيدها... «لكني لست مستعدة بعد».

صحيح أن حديثنا في البار لم يتناول بالتفصيل إلا أمسية واحدة خلال فترة زواجي. إلا أن ذلك الحديث مع خالتي شارلوت خفف بعض الضغط المتراكم في داخلي. القصة الكاملة أكثر تعقيداً وتشابكاً من أن نتمكن من فكفكتها في أمسية واحدة. لكن لديَّ الآن، للمرة الأولى، ذكريات شخص آخر يمكنني الاعتماد عليها إضافة إلى ذكرياتي. شخص أستطيع الثقة به وأنا أحاول امتصاص الصدمات الارتدادية لحياتي مع ريتشارد.

آخذ خالتي شارلوت إلى المطعم القريب من شقتها. وهناك أطلب شوربة مينستروني. يأتي لنا النادل بخبز حار محمَّص، وأشرب ثلاث

كؤوس من الماء المثلج مدركة أنني كنت في ظمأ شديد. نتحدّث عن سيرة حياة الرسام ماتيس التي كانت تقرأها؛ ونتحدّث عن فيلم سينما أتظاهر بأنني راغبة في مشاهدته.

أتظاهر بأنني صرت أحسن من الناحية الجسدية. كما أن تلك الأحاديث السطحية تلهيني عمَّ في رأسي. لكن بديلتي عادت إلى أفكاري عندما رجعت إلى غرفتي وأغلقت ستائري وجاء المساء. إنها ضيف ملحاح غير مدعو، وأنا غير قادرة على طردها.

أراها تجرِّب فستان زفافها وتدور أمام المرآة. وأرى بريق الخاتم الماسي الجديد في إصبعها. أتخيّلها تسكب لريتشارد كأس شراب، ثم تأتي به إليه وتقبّله وهو يأخذ الكأس من يدها.

إنني أذرع الغرفة جيئة وذهاباً... أنتبه إلى هذا على نحو مفاجئ.

أسير إلى طاولة المكتب في غرفتي وأبحث في درجي عن دفتري ذي الورق الأصفر المسطَّر. آخذ الدفتر، ومعه قلم، وأعود إلى سريري. أحدق في الورقة البيضاء أمامي.

أبدأ كتابة اسمها، أبدأ تشكيله. يتعثّر قلمي عند زوايا حروف اسمها وانحناءاتها: إيما.

يجب أن أهتدي إلى الكلمات الصحيحة تماماً. يجب أن أجعلها تفهمني.

أنتبه إلى أنني أضغط بالقلم على الورقة ضغطاً شديداً جعل حبره ينزف وينتشر عليها.

لست أعرف ماذا أكتب بعد ذلك. لست أعرف كيف أبدأ.

لو كنت قادرة فقط على تحديد أين بدأت نهايتي لكنت قادرة على شرح الأمر لها. ماذا لو أنها بدأت مع مرض أمي العقلي؟ ماذا لو أنها بدأت مع وفاة أبي؟ ماذا لو أنها بدأت مع عجزي عن إنجاب طفل؟

أغدو متأكدة، أكثر فأكثر، من أنّ أصل ذلك كلّه كامن في تلك الليلة من شهر أوكتوبر عندما كنت في فلوريدا.

لكني لا أستطيع إخبار إيما عن تلك الليلة.

الجزء الوحيد من قصتي الذي يجب أن تفهمه هو دور ريتشارد في الأمر كله.

أمزّق الورقة، ثم أبدأ من جديد على ورقة خالية.

هذه المرة، أكتب: عزيزتي إيما!

وعندها أسمع صوته.

أتخيل لحظة أن عقلي هو الذي يخترع هذا الصوت الآن. لكني أدرك أنه في الشقة وأن خالتي شارلوت تناديني، تصيح باسمي. إنها تستدعيني إلى ريتشارد.

أقفز واقفة على قدمي وألقي نظرة على نفسي في المرآة. تركتني شمس بعد الظهر، وتلك النزهة، متورّدة الخدين. كان شعري مسرحاً ومربوطاً في حزمة تنسدل على ظهري. إنني في بنطلون قصير وبلوزة خفيفة. دوائر داكنة من حول عيني، لكن النور اللطيف الذي يخفي العيوب يخفف من ظهور زوايا جسدي الحادة.

في وقت سابق من هذا اليوم، تأنّقت حتى أرى إيما. لكني أبدو في هذه اللحظة أكثر شبهاً بنيللي التي وقع زوجي في حبها أكثر مما كنت شبيهة بها طيلة سنين مضت.

أخرج إلى غرفة الجلوس حافية فيستجيب جسدي استجابة غريزية ويتركّز بصري كما لو أنه يمر عبر نفق فلا أرى غيره أمامي. أراه عريض المنكبين متناسق الجسم. امتلأ جسده الرياضي، جسد العدّاء، خلال سنوات زواجنا. ريتشارد واحد من أولئك الرجال الذين تزداد جاذبيتهم كلما كبروا في السن.

«فانيسا...». ذلك الصوت العميق؛ الصوت لا أزال أسمعه في أحلامي، طيلة الوقت... «أريد أن أتكلم معك».

يلتفت إلى خالتي شارلوت، ثم يقول لها: «هل تسمحين لنا بلحظة على انفراد؟».

تنظر خالتي شارلوت إليّ، فأومئ لها برأسي. فمي جاف.

تقول خالتي: «بكل تأكيد». ثم تذهب إلى المطبخ.

«أخبرتني إيما بأنك ذهبت اليوم لرؤيتها». إنه يرتدي قميصاً لا أعرفه. لا بد أنه اشتراه بعد ذهابي. أو لعله هدية اشترتها له إيما. وجهه لوَّحته الشمس مثلما تلوِّحه في كل صيف لأنه يخرج للجري عندما يكون الطقس مناسباً.

أومئ برأسي مُقرّة فأنا أعرف أن من العبث إنكار ذلك.

وعلى غير انتظار، تغدو ملامح وجهه رقيقة. يتقدّم خطوة في اتجاهي: «تبدين مذعورة. ألا تعرفين أنني هنا لأنني قلق عليك؟».

أشير إلى الأريكة. أشعر بأن ساقيَّ غير مستقرّتين على الأرض. أقول له: «هل يمكننا الجلوس؟».

وسائد مكوَّمة على طرفَيّ الأريكة مما يعني أن الأمر انتهى بنا إلى الجلوس أكثر قرباً مما يتوقّعه أيٌّ منا. أشم رائحة الليمون. أحسّ بحرارته.

«سوف أتزوّج إيما. وعليك أن تتقبّلي هذا الأمر».

أقول في نفسي: لست مضطرة إلى تقبّل ذلك. ليس علي أن أتقبّل زواجك من أية امرأة.

لكني أقول له بدلاً من ذلك: «حدث الأمر كله بسرعة كبيرة. فيمَ العجلة؟».

لا يهتم ريتشارد لسؤالي: «يسألني الجميع عن السبب الذي جعلني أبقى معك طيلة تلك السنين. كنت تشتكين من أنني أتركك وحيدة في البيت وقتاً طويلاً. لكنك، عندما نكون مع أناس آخرين، كنت... ليلة حفلة الكوكتيل... لا بأس... لا يزال الناس يتحدّثون عنها».

لا أدرك أن دمعة تتدحرج على خدّي إلى أن يمسحها ريتشارد بحركة رقيقة.

تحدث لمسته انفجاراً للأحاسيس في داخلي. مرت شهور منذ آخر مرة شعرت فيها بهذا. ينكمش جسدي.

«إنني أفكر في هذا الأمر منذ فترة. وما كنت أريد أبداً أن أقوله لمعرفتي أنه سوف يجرحك. لكن، بعد ما حدث اليوم... لم يعد لديَّ خيار. أظن أن من الضروري أن تحصلي على بعض العون. إقامة في مصح في مكان ما... ربما في المكان الذي ذهبت إليه أمك. أنت لا تريدين أن تكون نهايتك مثلما كانت نهايتها».

«إنني أتحسّن يا ريتشارد». أحس باندفاعة من اندفاعات روحي القديمة... «حصلت على وظيفة. وأنا أخرج وأرى الناس أكثر من ذي قبل». يخونني صوتي. الحقيقة ظاهرة أمامه... «أنا لست مثل أمي».

لقد جرى هذا الحديث بيننا من قبل. ومن الواضح أنه لا يصدّقني.

يقول ريتشارد بنبرة رقيقة: «لقد تناولت أمك جرعة زائدة من الأدوية المسكّنة».

أقول معترضة: «لسنا متأكدين من أن ذلك ما حدث! من الممكن أن تكون قد فعلت هذا عن طريق الخطأ. ولعل الأدوية الكثيرة اختلطت عليها».

يتنهّد ريتشارد: «قبل وفاتها، قالت لك ولخالتك شارلوت إنها تتحسّن. لذلك، عندما تقولين لي الأمر نفسه... اسمعي، هل لديك

قلم؟». أتجمّد في مكاني متسائلة كيف يحسّ بما كنت أفعله في اللحظة التي سبقت وصوله.

«قلم...». يكرر تلك الكلمة وقد تغضن حاجباه عندما رأى ردة فعلي... «هل يمكن أن أستعير منك قلماً؟».

أومئ برأسي، ثم أقوم وأعود إلى غرفتي حيث لا يزال دفتري المسطر الذي يحمل اسم إيما في مكاني على سريري. ألتفت التفاتة سريعة وقد داهمني خوف مفاجئ من أن يكون قد لحق بي. لكنني لا أرى أحداً من خلفي. أغلق الدفتر وأتناول القلم، ثم ألاحظ ألبوم صور زواجنا الذي لا يزال ملقى على الأرض. أضع الألبوم على أرض خزانة ملابسي، ثم أعود إلى غرفة المعيشة.

تصطدم ركبتي اصطداماً خفيفاً بركبة ريتشارد عندما أعود فأجلس إلى جانبه.

يميل صوبي وهو يمد يده إلى جيبه الخلفي حتى يتناول محفظته. يخرج من المحفظة الشيك الوحيد الفارغ الذي يحمله معه دائماً. أنظر إليه وهو يكتب على الشيك رقماً ثم يضيف إليه أصفاراً كثيرة.

أفتح فمي دهشة أمام ذلك المبلغ: «لماذا هذا؟».

«لم تحصلي على ما فيه الكفاية عند تسوية الأمور بعد انفصالنا...». يضع الشيك على طاولة القهوة التي أمامنا... «لقد سيّلت بعض الأسهم من أجلك. وأخبرت البنك بأن عملية سحب مبلغ كبير من حسابي الجاري سوف تحدث قريباً. أرجو أن تستخدمي هذا المال حتى تحصلي على بعض المساعدة. لا أستطيع مسامحة نفسي إذا حدث لك أي مكروه».

عيناه ثابتتان على عينيّ... أقول: «لا أريد مالك يا ريتشارد... ولم كن أريده في يوم من الأيام».

أعرف أناساً لهم عيون بنّية يتغير لونها من الأخضر إلى الأزرق إلى البني بحسب الإنارة أو بحسب ألوان ملابسهم. لكني لم أعرف غير ريتشارد شخصاً تتحول عيناه تحولاً بطيئاً عبر درجات اللون الأزرق كلها ـ من الأزرق الداكن إلى البحري إلى الأزرق المخضرّ.

إن لعينيه في هذه اللحظة اللون الذي أفضله بين هذه الألوان كلها: الأزرق الفيروزي.

«نيللي...». إنها المرة الأولى التي يدعوني فيها بهذا الاسم منذ أن تركت البيت... «أنا أحب إيما».

ينفجر ألم حادٌّ في صدري.

«لكني لن أحب أبداً أيّ امرأة بقدر ما أحببتك أنت».

أواصل النظر في عينيه، ثم أبعد عينيَّ عنه. صعقني اعترافه هذا. لكن الحقيقة هي أنني أحس نحوه بالشعور ذاته. يظل الصمت معلّقاً في الهواء مثل كتلة من جليد موشكة على السقوط والتحطم.

ثم يميل في اتجاهي فتسلبني المفاجأة قدرتي على أي تفكير منسجم عندما تعثر شفتاه على شفتيَّ. تحيط يده بمؤخّر رأسي وتشدّني إليه. على امتداد ثوانٍ قليلة فقط، أعود نيللي من جديد، ويعود ريتشارد الرجل الذي وقعت في حبه.

ثم أعود إلى الواقع عودة مفاجئة. أدفعه عني وأمسح فمي بظهر يدي: «ما كان يجب أن تفعل هذا».

ينظر إلي لحظة طويلة، ثم يقف ويخرج من غير أن يقول كلمة واحدة.

الفصل الثالث والعشرون

في تلك الليلة عاد النوم يتفلّت مني كلّما تذكّرت تفاصيل لقائي مع ريتشارد.

وعندما غفوت أخيراً، زارني ريتشارد في أحلامي أيضاً.

أراه يقترب مني وأنا راقدة في سريري. أطراف أصابعه تلمس شفتي، ثم يقبّلني قبلة رقيقة... ببطء، على فمي أول الأمر، ثم ينحدر إلى رقبتي. يرفع ثوب النوم بإحدى يديه ثم تهبط شفتاه أكثر. يبدأ ردفاي الحركة من غير إرادة مني. أكتم أنّة تفلت مني عندما يخونني جسدي فيصير حارّاً مطواعاً.

ثم يثبّتني فوق الفراش، جذعه يطحن جذعي ويداه ممسكتان بيدي. أحاول دفعه عني، أحاول جعله يتوقّف. لكنه أقوى مني.

أنتبه فجأة إلى أنني لست التي تحت ريتشارد... ليست يداي هما اللتان تثبتهما يداه، ولا شفتاي تقبّلهما شفتاه.

إنها إيمّا!

أنتفض وأجلس في السرير. تخرج أنفاسي شهيقاً متقطعاً. أنظر في الغرفة من حولي ولا أعرف كيف أستعيد زمام نفسي.

أمضي مسرعة إلى الحمام فأغسل وجهي بالماء البارد حتى أزيل

الأحاسيس الباقية من حلمي. أتشبّث بحافة المغسلة الصلبة إلى أن تهدأ أنفاسي آخر الأمر.

* * *

أعود إلى سريري، وأفكر كيف رفرف قلبي وتنمَّل جلدي عندما كنت أحلم بريتشارد. لا أزال أحس بآثار تلك الاستجابة الخبيثة له.

كيف يمكن أن يثيرني، حتى في الحلم؟

ثم أتذكّر واحداً من المقاطع النفسية التي استمعت إليها في الآونة الأخيرة، كان يتحدّث عن ذلك الجزء من الدماغ الذي يتعامل مع المشاعر والانفعالاذت.

كان أحد العلماء يشرح ذلك قائلاً: «غالباً ما يستجيب الجسد البشري بالطريقة نفسها لحالتين من حالات المشاعر الطاغية: الإثارة العاطفية، والخوف». أغمض عينيَّ وأحاول أن أتذكّر بالضبط ما قاله ذلك الخبير... «فلنأخذ مثلاً خفقان الصدر واتساع بؤبؤَي العينين، وزيادة ضغط الدم. إنها انفعالات تظهر في حالتَيّ الذعر والإثارة».

هذا ما أعرفه تمام المعرفة.

قال الخبير أيضاً شيئاً عن كيفية تعامل تفكيرنا مع التغيرات التي تحدث في الحالتين. فعلى سبيل المثال، عندما نكون في حالة شديدة من حالات الحب العاطفي، فإن الآلية العصبية المسؤولة عن التقييم النقدي للأشخاص الآخرين يمكن أن تتعطّل.

أسأل نفسي: أهذا ما تعيشه إيما الآن؟ أهذا أيضاً ما مررت به اليوم؟

إنني مصدومة إلى حد يجعلني غير قادرة على النوم.

أظل مستيقظة تصفع ذهني صور زيارة ريتشارد. كانت صوراً حيّة ملموسة سائلة معاً ـ مثل السراب. ومع مضيّ ساعات الليل الطويل،

بدأت أتساءل إن كان ذلك قد حدث حقّاً أو أنه كان بدوره جزءاً من حلمي.

أسأل نفسي: «هل كان أي شيء في هذا المساء حقيقياً؟».

أستيقظ مع أول شعاع ذهبي في الصباح وأسير إلى خزانة ملابسي كأنني مأخوذة. أفتح الدرج العلوي. أرى الشيك المصرفي بين جواربي.

أعيده إلى مكانه، ثم أنظر إلى الأسفل فأرى الغلاف الأبيض اللامع لألبوم زفافنا. إنه الدليل المادّي الوحيد على أنني كنت متزوّجة.

لا أستطيع تخيّل أنه من الممكن أن أكون راغبة في زمن ما في رؤية هذه الصور من جديد بعد ما حدث اليوم. لكن يجب أن أراها مرة أخيرة. لا تزال صورنا الأخرى كلها في بيت ويستشستر، إلا إذا كان ريتشارد قد نقلها إلى غرفة المستودع في قبو بناية شقته في المدينة، أو ربما أتلفها. أظنّه فعل ذلك. من الطبيعي أن يريد ريتشارد التخلّص من كل أثر لي قبل أن تعثر إيمّا مصادفة على شيء من تلك البقايا المزعجة.

أخبرتني خالتي شارلوت بقليل فقط مما شهدته خلال فترة زواجي. أخبرتني سامانثا أيضاً عمَّ رأته عندما تحدّثنا آخر مرة: حديث انتهى إلى أسوأ مشاجرة يمكن أن أتخيل حدوثها بيننا. لكنني راغبة الآن في البحث عن نفسي بعينين جديدتين.

أعود فأجلس على سريري، ثم أضع ساقاً فوق ساق وأفتح الصفحة الأولى من ألبوم الصور. في الصورة الافتتاحية، أرى نفسي في غرفة الفندق أثبّت مشبك سوار لؤلؤي القديم ـ إنه «الشيء المستعار» من خالتي شارلوت. إنها واقفة إلى جانبي تلفّ بإتقان منديل أبي الأزرق حول ساق باقة الورود. أقلب صفحة أخرى فأرى خالتي شارلوت وأمي وأنا سائرات معاً على البساط الطويل. أصابعي وأصابع أمي متشابكة؛

أما خالتي شارلوت فقد وضعت ذراعها في ذراعي من الناحية الأخرى، لأن كفّي اليسرى ممسكة بباقة الورود البيض.

وجه خالتي شارلوت متورّد. وفي عينيها دموع تتلألأ. لكن من الصعب تفسير التعبير الظاهر على وجه أمي رغم أنها مبتسمة للكاميرا. كما أنها تبدو بعيدة قليلاً عني وعن خالتي شارلوت. لولا تشابك أصابعنا، لكنت قادرة على أن آخذ مقصّاً وأحذفها بكل سهولة من هذه الصورة.

لو جعلت شخصاً غريباً يرى هذه الصورة وطلبت منه أن يحزر أي المرأتين أمي فمن المؤكد أن يقع الاختيار على خالتي شارلوت رغم أني أشبه أمي جسدياً أكثر مما أشبه خالتي.

أقول لنفسي دائماً إنني ورثت صفاتي الشكلية عن أمي: رقبتها الطويلة وعيناها الخضراوان. أما من الداخل، فإنني ابنة أبي... لعل هذا يعني أنني أكثر شبهاً بخالتي.

لكن كلمات ريتشارد تعود إليّ في هذه اللحظة.

خلال فترة زواجنا، وكلما قال لي إنني لا أتصرف تصرفاً عقلانياً أو أنني غير منطقية، أو كلما صاح بي في لحظات أكثر احتداماً، «أنت مجنونة!»، كنت أنكر ذلك كله، أرفضه.

كنت أهمس لنفسي وأنا أسير في الطرقات الصغيرة في حيّنا: «إنه مخطئ». يغدو جسدي متصلّباً، وتضرب خطواتي الغاضبة أسمنت الرصيف.

كنت أضع قدمي اليسرى: إنه... ثم قدمي اليمنى... مخطئ.

إنه مخطئ. إنه مخطئ. إنه مخطئ.

كلما حدث ذلك، كنت أكرر هاتين الكلمتين مئات المرات. أظنني كنت أفكر في أن هذا التكرار، إن كان كافياً، قادر على دفن ذلك القلق المستمر الذي يحرق دماغي: ماذا لو كان محقّاً؟

أقلب الألبوم على صورة أخرى فأرى أمي ترفع نخباً. وعلى طاولة من خلفها مباشرة، أرى كعكة زفافنا ذات الطبقات الثلاث مزينة بتمثال العريس والعروس الذي ورثه ريتشارد عن أهله. الابتسامة المرسومة على وجه العروس البورسلانية ابتسامة رائقة صافية، لكني أتذكّر قلقي في تلك اللحظة. من حسن الحظ أن الكلمة التي ألقتها أمي خلال عشاء يوم الزفاف كانت متماسكة على الرغم من كونها أطول مما ينبغي. كانت أدويتها تؤدي مهمتها جيداً في ذلك اليوم.

لعلّي ورثت عن أمي أكثر مما أسمح لنفسي بتصديقه.

ترعرعت مع امرأة تعيش في عالم مختلف عن عالم أمهات أصدقائي وصديقاتي اللواتي يقدن سيارة العائلة ويقمن بإعداد شطائر الجبن المحمصة. كانت مشاعر أمي أشبه بألوان كثيفة قوية: الأحمر الناري، والأحمر المتوهّج، والوردي الناعم، والرمادي القاتم. كانت قوقعتها الخارجية قوية، أما داخلها فكان شديد الهشاشة. ذات مرة، رأت مدير إحدى الصيدليات يعنّف موظفة المحاسبة المتقدّمة في السن لأنها تتحرّك ببطء شديد، فصرخت أمي على ذلك المدير قائلة إنه يتنمّر على تلك المرأة، فصفق لها بقية الزبائن الواقفين في الصف. وفي مرة أخرى ركعت على الرصيف فجأة وراحت تذرف الدموع من غير صوت على فراشة كبيرة عاجزة عن الطيران لأن جناحها قد تمزق.

فهل تشرّبتُ بعضاً من نظرتها الغريبة إلى العالم، وبعضاً من ردود أفعالها ذات الاندفاعات الدراماتيكية؟ وهل كانت الجينات التي تتحكّم بقدَري أكثر تأثراً بها أم بأبي صاحب التكوين الثابت المستقرّ الصبور؟ كنت شديدة التوق إلى معرفة الخصال الخفية التي ورثتها عن كل منهما.

خلال المدة التي عاشها زواجي، كنت واقعة في قبضة إحساس مُلحٍ متنامٍ بضرورة معرفة الحقيقة. كنت ألاحق هذا السؤال في أحلامي. وكنتٌ أخشى أن تخبو ذكرياتي وتضمحل مثلما تضمحل ألوان صورة فوتوغرافية حالت بفعل الضوء. وهكذا حاولت إبقاء تلك الذكريات حية. بدأت أكتب كل شيء على نحو يشبه المذكرات... دفتر أسود ذو غلاف متين أنيق خبأته عن ريتشارد تحت فراش السرير في الغرفة المخصّصة للضيوف في بيتنا.

وأما الآن، فإنني أجد هذا شيئاً يدعو للسخرية لأنني كنت أحيط نفسي بالأكاذيب. وكنت أجد نفسي أحياناً واقعة تحت إغراء الاستسلام لتلك الأكاذيب. لعلّ الأمر أكثر بساطة من ذلك كله... أن أغرق بهدوء في الواقع الجديد الذي خلقته بنفسي... أن أغرق مثل من يغرق في رمال متحرّكة. أن أختفي تحت السطح.

أهمس لنفسي: سيكون من الأسهل كثيراً أن أتوقّف وأتخلّى عن كل شيء.

لكني غير قادرة على هذا. غير قادرة بسببها!

أضع ألبوم الصور جانباً وأسير إلى طاولة المكتب الصغيرة في زاوية غرفتي. أخرج دفتري وقلمي، ثم أبدأ من جديد.

عزيزتي إيمّا، telegram @ktabpdf

لو كنت مكانك، لما أصغيت أبداً إلى أي شخص يقول لي بألّا أتزوج ريتشارد. ولهذا فإنني أفهم ما يجعلك تقاومينني. لم أكن واضحة في كلامي معك لأن من الصعب أن يعرف المرء من أين يبدأ.

أواصل الكتابة إلى أن أملأ الصفحة كلّها. أفكّر في إضافة سطر أخير ـ زارني ريتشارد الليلة الماضية ـ لكني أتخلّى عن ذلك عندما أدرك أن

كتابة هذا السطر قد تجعلها تظن أنني أحاول إثارة غيرتها، أو أنني أحاول أن أخلق فيها شكوكاً غير التي أريد خلقها.

وهكذا أكتفي بكتابة اسمي أسفل الرسالة ثم أطوي الورقة مثالثة وأضعها في درج مكتبي العلوي حتى أقرأها مرة أخيرة قبل أن أعطيها إياها.

أخذت حماماً هذا الصباح، ثم ارتديت ملابسي بعد ذلك بوقت قصير. إنني أضع أحمر الشفاه على فمي فأغطي أثر لمسة ريتشارد عندما أسمع صياح خالتي شارلوت. أجري في اتجاه المطبخ.

أرى دخاناً أسود يتلوّى متصاعداً صوب السقف. وأرى خالتي شارلوت تضرب بمنشفة الأطباق شعلة لهب برتقالية متراقصة فوق سطح موقد الطهو.

تصيح بي: «هاتي الصودا!».

آخذ العلبة من الخزانة وأقذف ما فيها على اللهب فأخمده. تسقط خالتي شارلوت المنشفة من يدها ثم تفتح الماء البارد وتجعله يتدفق على يدها. أرى بقعة حمراء غاضبة تظهر على جلدها تحت الماء المنسكب عليها.

أُبعِد مقلاة اللحم المحترق عن الموقد وأُخرِجُ كيس ثلج من الفريزر. «خذي». أمد يدي فأغلق الصنبور عندما أراها تبعد يدها من تحته... «ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟».

«كنت أسكب الدسم الذي سال من اللحم في علبة القهوة القديمة...». أقرّب لها كرسياً فتجلس عليه متثاقلة... «لكني أخطأت وانسكب بعض الدسم على النار فاشتعل».

«ألا تريدين أن نذهب إلى الطبيب؟».

تزيح كيس الجليد عن ذراعها ثم تنظر إليها مضيّقة عينيها. حرق

هكتبة

بعرض الإصبع يبلغ طوله نحو خمسة سنتيمترات. لم تتشكّل عليه فقاعات، لحسن الحظ. تقول لي: «ليس سيئاً كثيراً».

أنظر إلى علبة السكر الفارغة التي رميتها على منضدة المطبخ. أنظر إلى حبيبات السكر المتناثرة على الموقد.

أقول: «لقد أخطأت فنثرت سكراً على النار. كان من الممكن أن يسوء الأمر أكثر!».

ثم أنتبه... «سأجلب لك مرهم الصبّار». أذهب مسرعة إلى حمامها فأجد أنبوب المرهم في خزانة الأدوية خلف علب المستحضرات الطبية وزجاجات الأدوية. آخذ أيضاً أقراصاً مسكنة للألم، ثم أعود إلى المطبخ. أخرج ثلاثة أقراص مسكّنة أقدمها إلى خالتي.

تتنهّد وهي تضع مرهم الصبّار: «إنه مفيد». أسكب لها كأس ماء فتبتلع أقراص الدواء. أنظر إلى النظارة السميكة الجديدة على أنف خالتي شارلوت، ثم أجلس على كرسي إلى جانبها.

كيف أمكّن لي ألّا أنتبه؟ كنت شديدة التركيز على كل ما يتعلّق بزواج إيما وريتشارد فلم أر ما كان جارياً أمامي تماماً.

خراقة حركاتها، وصداعها المتكرّر. موعدها مع الطبيب. إزاحة بعض قطع الأثاث حتى تصير الحركة في الشقة أكثر سهولة. خالتي تضيّق عينيها وهي تنظر إلى قائمة المشروبات في بار فندق روبرتسون، ثم تطلب شراباً غير موجود في تلك القائمة. خطواتها الأكثر حذراً وانتباهاً خلال نزهتنا على ضفة نهر هدسون. علبة السكر المربعة التي لا تشبه علبة الصودا أبداً لكنها يمكن أن تبدو شبيهة بها في عين شخص مستعجل، أو في عين شخص ينظر عبر غشاوة من دخان.

... شخص يفقد بصره.

يغصّ حلقي بنشيج أكتمه. لكن من غير الممكن أن تكون هي من يواسيني هذه المرة. أمسك بيدها. جلدها رقيق كالورق.

تقول خالتي شارلوت بهدوء: «إنني أُصاب بالعمى. لكنْ لديَّ موعد آخر مع الطبيب قبل تأكيد الأمر. إنه التنكّس البُقعي. كنت أعتزم إخبارك، لكن ربما ليس بهذه الطريقة الدراماتيكية».

أفكّر كيف أمضت ذات مرة أسبوعاً كاملاً في وضع مئات من ضربات فرشاتها على القماش حتى تصوّر لحاء شجرة عتيقة. أتذكّر كيف أخذتني مرة إلى شاطئ البحر خلال واحدة من نوبات مرض أمي فاستلقينا على ظهرينا وأخذنا ننظر إلى السماء. شرحت لي وقتها أن ضوء الشمس مكوّن من ألوان قوس قزح كلّها على الرغم من أننا نراه أبيض اللون.

أهمس لها: «يؤسفني هذا كثيراً».

لا أزال أفكّر في ذلك اليوم... سندويشات الديك الرومي مع الجبن، وترمس الليمونادة الذي أتت به خالتي، وورق اللعب التي وضعته في حقيبة يدها حتى تعلّمني إحدى الألعاب.

تتكلّم خالتي من جديد: «هل تتذكّرين عندما قرأنا معاً كتاب نساء صغيرات؟».

أومئ برأسي: «نعم».

أتساءل الآن عما تستطيع رؤيته وعمَّ لا تستطيع رؤيته.

«تقول آني في الكتاب: أنا لست خائفة من العواصف لأنني أتعلم كيف أبحر بسفينتي!... لا بأس، وأنا أيضاً، لم يكن الطقس العاصف يخيفني في يوم من الأيام». وبعد ذلك، تفعل خالتي شيئاً من أكثر الأشياء شجاعة: تبتسم.

الفصل الرابع والعشرون

أكره أن أكون غير قادرة على الرؤية.

كانت ماغي، الفتاة الخجول من جاكسونفيل ذات السبعة عشر عاماً المنتسبة حديثاً إلى أخويتنا، قد قالت لي هذه الكلمات نفسها ليلة مراسم قبول دفعة الفتيات في أخويتنا.

لكني لم أصغِ إليها. كان ذهني منشغلاً تماماً بدانييل الذي تجاهلني. كان غضبي في ازدياد فقلت في نفسي: لن أنتظر إلى الغد.

لا أعرف كيف استطعت المشاركة في معظم مراسم تلك الأمسية. ظللت خلف ماغي وهي واقفة ضمن دائرة الفتيات في غرفة المعيشة عندنا وقد أضاءت الشموع وجوههن. عندما اجتمعت الفتيات كلهن من أجل التصويت على قبول هذه الدفعة الجديدة، لم تكن ماغي على القائمة الأصلية التي ضمت أسماء عشرين فتاة وقع الاختيار عليهن. كانت بقية المتقدّمات جميلات نشطات مرحات... ذلك النوع من الفتيات الذي تتم دعوته إلى احتفالات أخويات الشباب والذي يعزّز روح بيتنا، بيت الفتيات. لكن ماغي كانت مختلفة عنهن. عندما تحدّثت معها في إحدى مناسباتنا الاجتماعية، عرفت أنها بدأت برنامجاً تطوعياً عندما كانت في المدرسة الثانوية. وأن ذلك البرنامج كان بهدف مساعدة الحيوانات الموجودة في مأوى بالقرب من بيت أسرتها.

هكتبة

قالت لي ماغي وهي ترفع كتفيها: «لم يكن لدي أصدقاء كثر في تلك الأيام. وكنت أحس بنفسي غريبة...» ابتسمتْ في تلك اللحظة، لكني رأيت في عينيها إحساساً بالضعف... «وأظن أن مساعدة الحيوانات حمتني من الشعور بالوحدة».

«هذا رائع. هل يمكنك أن تشرحي لي كيف بدأتِ ذلك البرنامج؟ أحب أن أجعل بيتنا أكثر مشاركة في الخدمة العامة».

كان وجهها متهللاً عندما روت لي كيف كان الكلب آيكي ذو القوائم الثلاث سبباً في إطلاق شرارة فكرتها. قررتُ عند ذلك أن من الضروري أن تكون ماغي واحدة من المنتسبات الجدد بصرف النظر عن آراء بقية الفتيات.

لكني كنت واقفة خلفها أستمع إلى أصوات أخواتي تصدح بالغناء، فتساءلت إن كنت قد أخطأت. كانت ماغي في ملابس طفولية: قميص قطني أبيض طبعت عليه صورة حبّات من الكرز، وشورت متناسب معه. لم تكد تنطق كلمة واحدة طيلة تلك الليلة. لقد قالت لي إنها تتطلّع إلى بداية جديدة في الكلية وإنها تريد إقامة صداقات مع بقية الفتيات. لكنها لم تكن تبذل أي جهد للتقرب من الأخوات. ثم إنها لم تحفظ نشيدنا. كان واضحاً لي أنها تتظاهر تظاهراً بتحريك فمها مع كلمات النشيد. تناولتْ رشفة واحدة من كوكتيل الروم، ثم بصقتها في كأسها وقالت «فظيع»، ثم تركت الكأس على الطاولة بدلاً من رميها. وبعد ذلك، جرّبت قدحاً من كوكتيل الجيلو.

كانت وظيفتي أن أشرف على ماغي وأراقبها. وأن أحرص على قيامها بمهماتها كلّها، بما في ذلك البحث عن أشياء نخفيها في أنحاء البيت. وكان عليَّ خاصة أن أراقبها خلال القفز في المحيط. لم يكن خافياً عن أذهاننا، حتى عندما كنا صغاراً في الكلية أن السباحة ليلاً وسط الأمواج المتلاطمة يمكن أن تكون أمراً خطيراً.

لكني لم أستطع التركيز على ماغي. كنت شديدة الإحساس بالتغير الذي طرأ على جسدي، وبصمت الهاتف الذي في جيبي. وعندما تذمّرت ماغي من أنها لم تستطع العثور على الديك النحاسي الذي كنا نقول مازحات إنه جالب الحظ لنا (كان من جملة الأشياء المخبأة في البيت حتى تبحث عنها الفتيات الجديدات). رفعت كتفي وشطبت ذلك البند من مهماتها. قلت لها وأنا أتفقد هاتفي مرة أخرى: «يمكنك الاكتفاء بالعثور على ما يمكنك العثور عليه». لم يتصل بي دانييل حتى تلك للحظة!

قاربت الساعة العاشرة عندما تقدمتنا رئيستنا في الطريق المنحدرة إلى الشاطئ من أجل الطقس الأخير من طقوس مراسم الانضمام إلى الأخوية. كانت الفتيات معصوبات الأعين. وكانت كل منهن ممسكة بالتي أمامها. سرن وهنّ يُطلقن قهقهات ثملة.

رأيت ماغي تنظر إلى الطريق من تحت العصبة التي على عينيها؛ ورأيتها تخرق قواعد أخرى أيضاً: «أكره كثيراً أن أكون غير قادرة على الرؤية. يجعلني هذا أشعر بأنني محبوسة في مكان مغلق».

أمرتها قائلة: «أعيديها مكانها. لم يبق إلّا بضع دقائق».

عند مرورنا ببيت الشباب، راح ساكنوه يصفّقون ويهلّلون لنا.

ما كان من جيسيكا (أكثر الفتيات انطلاقاً وجرأة) إلا أن رفعت قميصها مظهرة حمالة ثدييها الوردية المثيرة، فازداد تهليل الشباب وصخبهم ارتفاعاً. كنت واثقة تماماً من أن الأمر سينتهي الليلة بجيسيكا إلى النوم خارج بيت الطالبات. كانت تراقب الفتيات الجديدات مراقبة وثيقة.

وكانت إلى جانبي ليزلي، واحدة من أعز صديقاتي. سرنا بذراعَيْن متشابكتين، وكانت تغني أغنية «تسع وتسعون زجاجة بيرة على الجدار» مع بقية الفتيات. لو كنت في حالتي الطبيعية لمضيت أصرخ بكلمات

الأغنية معهن، لكني لم أتناول رشفة كحول واحدة. كيف يمكنني تناول الكحول وأنا أعرف أن هنالك حياة صغيرة في داخلي؟

كنت أفكر في الشاطئ. إنه المكان الذي حدث فيه حملي، على الأرجح. لا أستطيع الذهاب إلى ذلك المكان. همست لصديقتي: «اسمعي... أشعر بأن تشنجاً أصابني. هل تسدين لي معروفاً؟ انتبهي إلى ماغي في المحيط!».

كشرت ليزلي وقالت لي: «إنها فاشلة. لماذا صوّتنا لها؟».

«هي خجولة فحسب. وسوف ترين أنها جيدة. ثم إنني سألتها فقالت إنها سبّاحة ماهرة».

«فليكن. آمل أن تتحسّني سريعاً. تذكّري أنك مدينة لي بهذه».

لحقت بماغي وقلت لها إنني مريضة. رفعت العصبة عن عينيها، لكني تركتها تفعل ذلك هذه المرة.

«أين أنت ذاهبة؟ لا يمكنك تركي هكذا».

أزعجتني تلك النغمة المتشكّية في صوتها.

«سوف تكونين بخير. وسوف تراقبك ليزلي. إذا احتجت إلى أي شيء، فعليك أن تخبريها».

«هل هي تلك الشقراء النحيلة؟».

أشرت بعينيّ باتجاه ليزلي، ثم أجبتها: «إنها نائب رئيسة الأخوية».

ابتعدت عن المجموعة عندما انعطفتْ وبدأت تجتاز الكتلتين السكنيتين الباقيتين حتى بلوغ المحيط. كانت المساكن الخاصة بأساتذة الكلية في الجانب الآخر من حرَمها، أي على مسافة خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام عبر الساحة. جرّبت الاتصال بدانييل مرة أخيرة. ومن جديد، انتقل الاتصال إلى البريد الصوتي مباشرة. لعله أغلق هاتفه!

عدت أفكر في تلك الفتاة التي اقتربت منه عند انتهاء الدروس بعد ظهر اليوم. كان تركيزي كله منصبّاً على دانييل ولم أعرها أي انتباه. لكني رحت أتذكّر ذلك المشهد مثل من يتابع فيلماً. عادت الكاميرا إليها فرأيتها من جديد. كانت فتاة جذابة حقّاً. هل كانت واقفة على مقربة شديدة منه؟

لقد أخبرني دانييل بأنني الطالبة الأولى التي ينام معها. لم أشكّ في ما قاله لي إلا في هذه اللحظة.

من الممكن تماماً أن يكون الآن معها.

لم أدرك أن خطواتي صارت شديدة السرعة إلى أن تصاعد لهاثي نتيجة الجهد الذي أبذله.

كان هنالك صف من البيوت السكنية الخاصة بالأساتذة. وكانت تلك البيوت على حافة حرم الكلية خلف الدفيئة التابعة لقسم الزراعة. لم تكن تلك البيوت القرميدية المكونة من طابقين جميلة ولا فاخرة، لكنها مجّانية: مزية جذابة بالنسبة لأساتذة الكلية.

كانت سيارته الألفا روميو واقفة عند مدخل البيت رقم تسعة.

وكانت خطتي تقضي بأن أدق الباب وأسأل إن كان دانييل ـ لا الأستاذ دانييل ـ يعيش هنا. سأقول إن عليَّ تقديم ورقة عمل وإنني سلّمته، عن طريق الخطأ ورقة أخرى في الصف، لكن وجود السيارة ألغى الحاجة إلى هذه الخطة. صرت الآن أعرف مكان عيشه على وجه التحديد. ثم إن وجود السيارة يعني أنه في البيت.

ضغطت الجرس ففتحت لي واحدة من شركائه في سكن الأساتذة.

«بماذا أستطيع مساعدتك؟»

ردّت شعرها الذي بلون القمح إلى ما خلف أذنها. قفزت قطّة صغيرة في الغرفة وراحت تمسح رأسها بكاحل المرأة.

هكتبة

«إنه أمر غبي حقاً. هل يعيش الأستاذ بارتون هنا؟ لقد انتبهت قبل قليل... امم، إلى أنني أعطيته، عن طريق الخطأ...». كانت المرأة تستدير في تلك اللحظة لتنظر إلى أحد ينزل السلم من خلفها.

قالت له: «حبيبي؟ واحدة من طالباتك هنا».

اجتاز الدرجات الأخيرة بسرعة كأنه يجري. «فانيسا! ما الذي أتى بك إلى بيتي في هذا الوقت المتأخر من الليل؟».

«إنني... لقد سلمتك ورقة خاطئة». كنت أعرف أن عينيَّ كانتا تنتقلان بجنون بين دانييل والمرأة التي خاطبته بكلمة «حبيبي».

قال دانييل بسرعة: «أوه، لا مشكلة في هذا...». كان يبتسم ابتسامة مبالغاً فيها... «قدّمي النسخة الصحيحة غداً».

«لكني، أنا...». رفرفت عيناي بقوة محاولتين منع الدموع من الانهمار بينما كان يغلق الباب في وجهي.

«انتظر لحظة». تقدّمت المرأة لتمنع الباب من الانغلاق. وفي تلك اللحظة رأيت خاتم الزواج الذهبي في إصبعها. قالت لي: «هل أتيت هذه المسافة كلها لكي تخبريه عن الورقة؟».

أومأت برأسي، وسألتها: «هل أنت زوجته؟». كان لا يزال لدي أمل أن تكون هذه المرأة شريكته في السكن. كنت آمل أن يكون هنالك نوع من سوء الفهم. حاولت إبقاء صوتي متوازناً هادئاً، لكنه خرج من فمي متقطعاً متكسراً.

«نعم، أنا زوجته. اسمي نيكول».

نظرت إلى وجهي بتمعّن أكبر: «دانييل، ما الأمر؟».

اتسعت عينا دانييل: «لا شيء. أظنها أخطأت في تقديم الورقة».

سألتني زوجته: «في أي صف ورقتك؟».

أجبتها سريعاً: «سوسيولوجيا العائلة».

كان ذلك صفّاً أخذته في الفصل الماضي. لم أشأ أن أكذب حتى أحمي دانييل. فعلت ذلك من أجل المرأة الواقفة أمامي. كانت حافية القدمين من غير أي ماكياج. بدت لي مرهقة.

أظنها أرادت تصديقي. ولعلها كان يمكن أن تصدقني. ربما كانت على وشك إغلاق الباب والذهاب لتسخين الزيت من أجل إعداد البوشار والجلوس مع دانييل على الأريكة ومشاهدة برنامج تلفزيوني. كان في وسع دانييل أن يصرفني كأنني بعوضة يبعدها عنه. كان يمكن أن يقول لها: «هؤلاء الأطفال يبالغون في التوتر بخصوص درجاتهم. ذكريني... كم بقي لي حتى أستطيع التقاعد؟».

لولا شيء واحد فقط...

في اللحظة نفسها التي قلت فيها: «سوسيولوجيا العائلة»، قال دانييل: «حلقة بحث للسنة الأخيرة».

لم تكن استجابة زوجته فورية.

قال دانييل بطريقة مسرحية: «هذا صحيح! ...». لكنه بالغ في الأداء... «إنني أعلّم خمسة صفوف في هذا الفصل. شيء جنوني! لكننا في ساعة متأخرة الآن. فلنترك هذه الفتاة المسكينة تعود إلى سكنها. وسوف نعالج الأمر غداً. لا تقلقي بخصوص الورقة فهذا يحدث كثيراً».

«دانييل!».

مع الصيحة من زوجته، صمت دانييل تماماً.

أشارت إليّ بإصبعها وقالت: «لا تقتربي من زوجي». كانت شفتها السفلى ترتجف.

قال دانييل مستعطفاً: «حبيبتي...». لم يكن ينظر إليّ؛ بل لم يكن

يراني على الإطلاق. امرأتان مكسورتان كانتا واقفتين أمامه. لكنه ما كان مبالياً إلا بواحدة فقط.

همست: «أنا في غاية الأسف. لم أكن أعرف».

أُغلق الباب. كنت قادرة على سماعها تصرخ بشيء ما. عندما نزلت درجات المدخل، كان عليّ أن أمسك بقضيب الحديد حتى لا أتعثر بالدراجة الصفراء ذات العجلات الثلاث التي كانت على العشب، لقد كانت شجرة تحجبها عن نظري عندما أتيت إلى البيت. وعلى مقربة منها رأيت حبل قفز ورديّ اللون.

إن لديه أطفالاً!

بعد زمن طويل من ذلك، بعد أن عدت إلى بيت الطالبات ولعنت دانييل وبكيت وتلظيت غضباً... وبعد أن أتى لي دانييل بباقة رخيصة من أزهار القرنفل وباعتذار أرخص منها عندما قال إنه يحب أسرته ولا يستطيع أن يبدأ أسرة جديدة معي... وبعد أن ذهبت إلى عيادة على مسافة ساعة بالسيارة فكانت تجربة موجعة معذِّبة لم أستطع الحديث عنها مع أي شخص... وبعد أن انتهيت من سنتي الأخيرة بدرجات ممتازة وتوجهت إلى نيويورك متلهفة على وضع فلوريدا خلف ظهري... حتى بعد ذلك كلّه، ظلت الصورة التي أتذكرها بأكبر قدر من الوضوح كلما عاد ذهني إلى تلك الليلة الدافئة من شهر تشرين الأول هي اللحظة التالية:

عندما عادت المنتسبات الجديدات من المحيط، لم تكن ماغي معهن... كانت مفقودة.

ما من شيء مشترك بين ماغي وإيمّا. ما من شيء مشترك إلا ما يتعلّق بي. لقد غيّرت هاتان الشابتان مجرى وجودي كله. إحداهن غير موجودة في حياتي الآن؛ لكن الأخرى حاضرة جدّاً.

كنت في ما مضى أفكر في ماغي كثيراً، بقدر ما أفكر في إيمّا الآن. ولعل هذا ما يجعلهما تندغمان معاً في ذهني.

أقول مذكّرة نفسي: لكن إيمّا ليست مثل ماغي.

بديلتي باهرة الجمال، واثقة. تألّقها يجذب العيون.

عندما رأيتها أول مرة، نهضت من خلف مكتبها حتى ترحب بي... نهضت بحركة رشيقة انسيابية، ثم قالت: «سيدة ثومبسون! ما أسعدني بمقابلتك أخيراً!».

جرى قبل ذلك حديث بيننا على الهاتف، لكن صوتها العميق الأبحّ لم يسمح لي بأن أكون مستعدة لرؤية جمالها وشبابها.

«أوه، من فضلك، فانيسا فقط». أحسست بأنني عجوز هرمة رغم أنني كنت في أواسط الثلاثينات، لا أكثر.

كان ذلك في شهر ديسمبر، في ليلة احتفال مكتب ريتشارد السنوي. كنا متزوجَيْن منذ سبع سنوات. وكنت في فستان فضفاض أسود... محاولة لإخفاء بضعة كيلوغرامات زائدة. بدا فستاني جنائزياً مقارنة بثوب إيمّا الأحمر الرشيق.

خرج ريتشارد من غرفة مكتبه وقبّلني على خدي.

سأل إيمّا: «هل أنت صاعدة إلى أعلى؟».

«إذا قال مديري إنه موافق على ذلك!».

قال ريتشارد مازحاً: «مديرك يقول لك إن هذا أمر». وهكذا أخذنا المصعد نحن الثلاثة إلى الطابق الخامس والأربعين.

قالت لي إيمّا وهي تمنحني ابتسامة تشبه الابتسامات في إعلانات معجون الأسنان: «يعجبني فستانك يا سيدة... أعني... يا فانيسا».

نظرت إلى فستاني البسيط وأجبتها: «شكراً لك».

من الممكن أن تشعر نساء كثيراً بالخطر بسبب الاحتمالات التي يطرحها وجود امرأة مثل إيمّا. تلك الليالي المتأخّرة في المكتب عندما يُطلب طعام صيني ويُؤتى بزجاجة فودكا من بار يملكه أحد الشركاء؛ وتلك الرحلات لمدة يوم واحد من أجل رؤية أحد العملاء؛ وقربها اليومي من مكتب زوجي الذي في الزاوية.

لكني لم أكن قلقة أبداً. لم يكن ينتابني أي قلق أبداً عندما يتصل بي ريتشارد ويقول إنه سيعمل حتى ساعة متأخرة وإنه سينام في شقته في المدينة.

في ما مضى، أيام مواعيدنا الأولى، عندما كنت لا أزال نيللي في نظر ريتشارد... أتذكّر كيف كنت أعجب من الطابع الذكوري الصرف لشقته، كأنها معقّمة. لقد عاشت امرأة أخرى في تلك الشقة قبل لقائنا. لم يخبرني عنها شيئاً غير أنها لا تزال تعيش في المدينة، وأنها تتأخّر عن مواعيدها دائماً. بعد زواجي من ريتشارد، لم يعد ينتابني أي قلق من أن هنالك أي خطر يمكن أن يشكل تهديداً لي. وما كان لزوجته السابقة أي ظهور في حياتنا، على الرغم من أنني صرت، مع مرور الزمن، أكثر فضولاً لأن أعرف عنها شيئاً.

لكني، أنا أيضاً، لم أترك أيّ علامة لي في تلك الشقة. لقد ظلّت على حالها مثلما كانت أيام عزوبية ريتشارد: الأريكة الجلد البنية، ونظام الإنارة المعقّد، وصفٍّ الصور العائلية المنتظم في الممر، ذلك الصف الذي زيدت عليه صورة لي ولريتشارد في يوم زفافنا، صورة ضمن إطار بسيط أسود متناسب مع إطارات بقية الصور.

خلال تلك الشهور، عندما كان ريتشارد وإيمّا يظنان أنهما في علاقة غرامية سرية ـ عندما كان يأخذها إلى شقته أو يزور شقتها ـ كنت في حقيقة الأمر مستمتعة بأن أكون وحدي. كان ذلك يعني أنني لست في

حاجة إلى تغيير ملابسي عندما أتعرّق. وكان يعني أنني قادرة على شرب زجاجة نبيذ كاملة من غير أن أهتم بإخفاء الدليل على فعلتي. صرت غير محتاجة إلى اختلاق قصة عمَّ فعلته خلال ذلك اليوم أو ابتكار أسلوب جديد لتجنّب ممارسة الجنس مع زوجي.

كانت علاقته معها نوعاً من مهلة لي. كانت عطلة في حقيقة الأمر. فقط، لو أنها ظلت كذلك... لو ظلت علاقة، لا أكثر.

أمضيت معظم فترة الصباح في الحديث مع خالتي شارلوت. وافقت على أن تسمح لي بمرافقتها إلى الطبيب حتى أصير أكثر إدراكاً لما أستطيع فعله من أجل مساعدتها. لكنها أصرّت أيضاً على الذهاب لملاقاة أحد الأصدقاء من أجل محاضرة في المتحف الحديث مثلما كانت قد خطّطت.

لقد قالت لي خالتي: «لن تتوقف حياتي». كانت بهذا القول تزيح جانباً ما اقترحته عليها من أنني يمكن أن أتغيّب عن العمل حتى أذهب معها، أو أن أطلب لها سيارة تاكسي على أقل تقدير.

نظّفت المطبخ، ثم فتحت اللابتوب وبدأت أبحث عن مصطلح «التنكّس البقعي». قرأت: تحدث هذه الحالة نتيجة تلف الجزء المركزي في شبكية العين. إذا تخيّلنا أن العين آلة تصوير، فإن البقعة المركزية في الشبكية هي الجزء المركزي الأكثر حساسية من «الفيلم»... هكذا شرح الأمر ذلك الموقع على الإنترنت. في الحالة الطبيعية، تلتقط تلك البقعة صوراً شديدة التفصيل لما يكون في مركز الرؤية، ثم ترسلها إلى الدماغ عبر العصب البصري. وعندما تتلف خلايا تلك البقعة، لا تعود العين قادرة على استقبال تلك الصور على نحو سليم.

يبدو هذا شيئاً طبّياً بحتاً... كأنه معقَّم! ... كما لو أن هذه الكلمات لا علاقة لها بخالتي التي لن تعود قادرة على مزج الأزرق والأحمر

والأصفر والبني لكي تصوّر جلد يد إنسان بعروقها وغضونها وبما فيها من انخفاضات وارتفاعات صغيرة عند مفاصل الأصابع.

أغلق اللابتوب وآخذ شيئين من غرفتي: شيك ريتشارد الذي وضعته في محفظتي حتى أصرفه في وقت لاحق من هذا الأسبوع. قال لي أن أستخدمه لكي أحصل على مساعدة؛ وسوف أفعل ذلك. مساعدة لخالتي شارلوت. مصاريف الأطباء، والكتب المسموعة، وبقية المواد، وكل ما قد تكون في حاجة إليه.

آخذ من درج المكتب أيضاً رسالتي إلى إيما فأقرأها مرة أخيرة.

عزيزتي إيمّا،

لو كنت مكانك، لما أصغيت أبداً إلى أي شخص يقول لي ألّا أتزوج ريتشارد. ولهذا فإنني أفهم ما يجعلك تقاومينني. لم أكن واضحة في كلامي معك لأن من الصعب أن يعرف المرء من أين يبدأ.

كان يمكنني إخبارك ما حدث حقاً ليلة تلك الحفلة عندما لم يكن لدينا نبيذ رافينو في القبو. لكني واثقة من أن ريتشارد سوف يكون قادراً على إزالة أي شك يمكن أن أثيره في نفسك. لذلك ـ إذا كنت لا تريدين الحديث معي، وإذا كنت لا تريدين رؤيتي ـ فأرجو أن تصدّقي شيئاً واحداً فقط: جزء منك يعرف من هو ريتشارد منذ الآن.

إن في دماغ كل منا شيء موروث عن الزواحف ينبّهنا إلى وجود الخطر. لا بد أنك تحسّين هذا الشيء الآن. لقد قررتِ التغاضي عنه. هذا ما فعلته أنا أيضاً. إنك تختلقين أعذاراً حتى لا تنتبهي إليه. هذا ما فعلته أنا أيضاً. لكن، استمعي إليه عندما تكونين وحدك، أرجوك، استمعي إليه. قبل زواجي، كانت هنالك إشارات تجاهلتها؛ وكان هنالك تردد أشحت بوجهي عنه. لا ترتكبي هذه الأغلاط نفسها.

لم أستطع إنقاذ نفسي. لكن وقت إنقاذك نفسك لم يفت بعد.

أطوي الرسالة من جديد، ثم أبحث عن ظرف أضعها فيه.

الفصل الخامس والعشرون

ظهرت لي إحدى الإشارات حتى قبل أن نتزوج. حملتُ ذلك الدليل في يدي. وقد رأته سامانثا. رآه كل من كان حاضراً في حفل زفافنا.

تمثال صغير لعروس شقراء مع عريسها الوسيم متجمدَين في لحظة مثالية.

«يا ربي!... يبدوان مثلكما تماماً!». هكذا قالت سامانثا عندما جعلتها ترى التمثال الصغير الذي سيوضع في رأس كعكة زفافنا.

عندما أخرجه ريتشارد من غرفة المستودع في قبو بناية شقته في المدينة، قال لي إنه ورثه عن أبيه وأمه. لم يكن عندي في ذلك الوقت أي سبب يجعلني أشكك في الأمر.

لكنَّ أمرين حدثا بعد سنة ونصف سنة من زفافنا ليلة ذهبت إلى المدينة حتى أرى سامانثا. أدركت ليلتها كم صرنا متباعدتَيْن. وبدأت أيضاً أجد أسباباً تجعلني أشك في زوجي.

كنت شديدة التوق إلى رؤية سامانثا. أحسست كما لو أن دهراً قد انقضى منذ حظينا آخر مرة بما هو أكثر من وجبة غداء سريعة معاً. حددنا موعداً للقائنا ليلة يوم جمعة عندما يكون ريتشارد مسافراً من أجل اجتماع عمل في هونغ كونغ. كان من المقرر أن تطول سفرته ثلاثة أيام فقط. وقد دعاني إلى مرافقته، لكننا كنا مقتنعين معاً بأن سفري لا معنى له.

قال لي ريتشارد: «لن تكوني قد شفيت من عوارض السفر الطويل بالطائرة عندما يحل موعد عودتنا».

كما في كل شيء آخر، كان ريتشارد قادراً على التكيف مع فروق التوقيت من غير أيّ مشكلة. لكني كنت أعرف أن ترافق الدواء المهدئ الذي لا بد لي منه في حالة السفر الجوي الطويل ودواء «كلوميد» الذي كنت أتناوله للمساعدة في الحمل سوف يجعلني مرهقة كأنني سكرى ولن يتركني أستمتع بتلك الإقامة السريعة في آسيا.

من غير تفكير، حجزت لنا طاولة في مطعم بيكا وقررت أن أدعو سامانثا إلى العشاء هناك. ذهبت إلى المدينة بالقطار. وكنت أعتزم قضاء الليلة في شقة ريتشارد. حتى بعد مرور هذا الوقت كلّه، بل حتى رغم احتفاظي ببعض الملابس ومواد التجميل هناك، فقد كنت لا أزال أعتبر ذلك المكان شقته هو.

اتفقت مع سامانثا على اللقاء في شقتها، تلك الشقة التي كنا نعيش فيها معاً. رحبت بي عند الباب وتعانقنا. أرخت سامانثا ذراعيها بعد قليل لكنني واصلت معانقتها بضع لحظات مستمتعة بدفئها. لقد اشتقت إليها أكثر مما كنت أظن. كانت سامانثا في فستان ضيق مكشوف من غير أكمام، إضافة إلى حذاء مرتفع الساق. صار شعرها أكثر نضارة مما كان عندما رأيتها آخر مرة؛ وبدت لي ذراعاها أحسن تكويناً من ذي قبل.

«هل تارا هنا؟».

سرت خلف سامانثا فعبرنا الممر الصغير عند مدخل الشقة، ثم عبر المطبخ إلى أن صرنا في غرفتها. وبعد غرفتها، كان الباب المفضي إلى غرفتي القديمة مغلقاً... إنها الآن غرفة تارا.

قالت سام عندما جلست على سريرها: «نعم. لقد عادت من الاستوديو قبل قليل. وهي الآن في الحمّام».

كنت أسمع صوت جريان الماء في الأنابيب القديمة، تلك الأنابيب التي كانت تسلقني أحياناً بالماء الساخن... من غير سابق إنذار. لا تزال المصابيح البيض مثبتة عند رأس سرير سامانثا؛ ولا تزال ملابسها مبعثرة على الأرض. كان كل شيء مثلما تركته تماماً، لكنه كان مختلفاً أيضاً. بدت لي الشقة أصغر وأكثر تواضعاً مما كانت تبدو لي من قبل. جاءني ذلك الإحساس بالغربة الذي عرفته عندما زرت مدرستي الابتدائية القديمة بعدما صرت مراهقة.

«أظن أن هنالك منافع للعيش في شقة واحدة مع مدرّبة لياقة. تبدين لي رائعة».

«شكراً...». مدت يدها إلى سوار عريض على شكل سلسلة كان موضوعاً على طاولة الزينة فثبّتته على معصمها... «لا تفهمي كلامي بطريقة خاطئة، لكنك تبدين لي... كيف أعبر عن هذا تعبيراً لطيفاً؟... « تبدين فظيعة نوعاً ما».

أمسكت بإحدى الوسائد وقذفتها بها: «هل هناك طريقة لطيفة لسماع هذا؟». كانت نبرة صوتي لا مبالية، لكني أحسست جرحاً لما قالته.

«أوه، أطبقي فمك... أنت لا تزالين رائعة الجمال. لكن... ما هذه الملابس، بحق الله؟ عقدك يعجبني، لكن شكلك يوحي بأنك ذاهبة إلى واحد من اجتماعاتنا مع أهالي الأطفال».

نظرت إلى بنطلوني الأسود (يجعلني أبدو أكثر رشاقة)، وإلى قميص الشيفون الرمادي الناعم الذي تركته مرخياً فوق البنطلون. وكنت أضع «خرزاتي السعيدة».

نظرت سامانثا إلى قميصي نظرة أكثر تدقيقاً، وقهقهت: «أوه، يا ربي!... هذا القميص...».

«ما به؟».

ضحكت سامانثا بقوة أكبر، ثم أفلحت أخيراً في القول: «كانت السيدة بورتر ترتدي القميص نفسه تماماً في حفلة تناول المعجنات في العطلة!».

«هل تعنين أم جوناه؟».

عدت بذاكرتي إلى تلك المرأة المتأنّقة إلى كانت تأتي إلى اجتماعها معي وقد وضعَت أحمر شفاه بلون مطابق تماماً للون فستانها الأحمر... «لا، لم تكن ترتدي قميصاً كهذا!».

مسحت سامانثا عينيها... «أقسم لكِ... إن أخت جوناه الصغيرة في صفي. وأنا أتذكّر ذلك لأن طفلاً لوث قميصها ببعض الطعام فكان عليَّ أن أساعدها في تنظيفه. ماذا بك؟... لسنا ذاهبتين إلى تناول الشاي في فندق ريتز!». بحثْتُ في الملابس المكومة فوق ظهر الكرسي... «لدي هذا البنطلون الجديد. اشتريته من محل أنثروبولوجي... انتظري... سيبدو رائعاً عليك». وجدت البنطلون فرمته لي مع بلوزة سوداء بياقة مدورة متسعة.

لقد رأتني سامانثا أرتدي ملابسي وأخلعها مئات المرات. لم أكن أشعر بأي حرج تجاهها. لكني لم أكن مرتاحة للأمر تلك الليلة. كنت أعرف أنني لا أستطيع لبس بنطلونها مهما كانت نسبة الليكرا فيه.

«أنا مرتاحة هكذا... لا أظنني سأحاول إثارة إعجاب أحد ما». ضممت ركبتي بذراعي مدركة أنني أفعل هذا في محاولة لأن أبدو أصغر حجماً...

هزّت سامانثا كتفيها: «لا بأس. هل تحبين تناول كأس نبيذ قبل أن نخرج؟».

«بالتأكيد». قفزت من السرير ولحقت بها إلى المطبخ. كانت خزائن المطبخ لا تزال مطلية بذلك اللون الحليبي الذي طليناها به معاً عندما

انتقلنا للسكن معاً في الشقة. لكن اللون صار حائلاً، وظهرت بضع تقشرات عند مقابض الأبواب. كانت طاولة المطبخ مزدحمة بعلب فيها أنواع مختلفة من الشاي: البابونج، والخزامى، والزعتر، وأوراق القراص. لا تزال عبوة العسل موجودة عند سام، كحالها دائماً. لكنها صارت الآن من النوع الذي يعصر منه العسل عصراً.

حملتها وقلت لسامانثا: «أرى أنك صرت أكثر حرصاً على النظافة!».

عندما فتحت سامانثا باب البراد، رأيت علب الحمص وأكياس الجزر العضوي الصغير والكرفس. لم تقع عيناي على أيّ علبة فيها بقايا طعام صيني. عندما كنت هنا، كانت تلك العلب موجودة دائماً في برادنا، حتى بعد أيام من موعد انتهاء صلاحيتها.

تناولت سامانثا كأسين من الخزانة، ثم سكبت النبيذ فيهما وناولتني واحدة.

تذكّرت فجأة زجاجة النبيذ التي تركتها في الممر عند الباب في بيتنا، فقلت لها: «كنت سأجلب معي بعض النبيذ».

«لدي الكثير...». قرعنا كأسينا وتناولت كل منا رشفة... «أظنّه ليس جيداً كالنبيذ الذي تشربينه مع الأمير، أليس ما أقوله صحيحاً؟».

فاجأني هذا: «من هو الأمير؟».

ترددت سامانثا لحظة: «أنت تعرفين، ريتشارد». صمتت قليلاً، ثم أضافت: «أميرك الساحر».

«أنت تقولين هذا كما لو أنه أمر سيئ».

«ليس أمراً سيئاً. بالطبع، إنه أمير، أليس أميراً؟».

أطرقت برأسي ورحت أنظر في كأس النبيذ. كان في طعمه شيء من الحموضة - أتساءل كم من الزمن مر على هذه الزجاجة في براد سامانثا،

هـ ك ت ب ة

بعد فتحها ـ ثم إنه كان يبدو أكثر شبهاً بعصير التفاح منه بذلك السائل الذهبي الذي صرت معتادة على شربه. القميص الذي كنت أرتديه، القميص الذي سخرت سامانثا منه، ثمنه أكبر من أجرة السكن التي كنت أدفعها لهذه الشقة.

أشرت إلى المكان الفارغ في رف باب البراد... «ما عدتِ تشربين دايت كولا... صرت الآن تشربين شاي أوراق القراص بدلاً منها؟».

سمعت صوتاً ناعماً مرحاً يقول: «لم أستطع بعد أن أقنعها بتجريبه». استدرت فرأيت تارا. لم تكن الصور التي جعلتني سامانثا أراها على هاتفها تفي تارا حقها. كانت امرأة طافحة بالعافية... أسنان بيض مستوية، وجلد لامع، وعينان متألقتان. رأيت عضلات فخذها المتطاولة نافرة من تحت بنطلونها الضيق. كانت من غير زينة أو ماكياج... هي ليست في حاجة إليها.

«قرأت لي تارا محتويات الدايت كولا ذات يوم. هل تتذكرين هذا يا تارا؟».

ضحكت تارا وقالت: «عندما وصلت إلى بنزوات البوتاسيوم(1)، أغلقت صديقتك أذنيها بيديها».

تابعت سامانثا تلك القصة: «كنت ثملة كثيراً، فجعلني ذلك أكاد أتقيأ».

قلت لها وأنا أضحك ضحكة صغيرة: «كنت تشربين كمية كبيرة منها. هل تتذكرين كيف كنا ندوس على العلب الفارغة؟».

قالت تارا وهي ترفع يديها لتربط شعرها الرطب فوق رأسها: «لقد جعلتها تحب شرب الماء. إنني أنقع البقدونس في ذلك الماء لأنه يخلص الجسم من الالتهابات التي تحدث بشكل طبيعي».

---

(1) مادة حافظة تستخدم في أنواع كثيرة من المأكولات والمشروبات المعلبة.

قلت لسامانثا: «لا بد أن هذا ما جعل ذراعيك في هذه الحالة الممتازة».

قالت سامانثا: «عليك أن تجربيه».

ألأنني منتفخة؟ أنهيت كأس النبيذ بسرعة وقلت لها: «هل أنت مستعدة؟ إن لدينا حجزاً في المطعم...». غسلت سامانثا كأسينا في المجلى ثم وضعتهما على مشبك الأواني الذي لم يكن موجوداً عندما كنا نعيش هنا معاً. قالت لي: «فلننطلق!». ثم التفتت إلى تارا... «أكتبي لي رسالة نصّية في ما بعد إذا وجدت نفسك راغبة في ملاقاتنا لتناول كأس من الشراب معاً».

أضفت من جانبي: «صحيح، سيكون هذا جميلاً جداً». لكني لم أكن راغبة في وجود تارا معنا. لم أكن راغبة في أن تأتي وتضحك مع سامانثا وتتحدّث عن شرب منقوع البقدونس.

ذهبنا إلى المطعم بسيارة تاكسي فأعطيت اسمي لموظف الاستقبال. سرنا في مدخل المطعم ذي السجادة الكبيرة ودخلنا قاعة الطعام. كانت الطاولات ممتلئة كلّها تقريباً... حظي هذا المطعم بقدر كبير من المديح في مقالة في صحيفة التايمز. هذا ما جعلني أختاره.

قالت سامانثا عندما سحب لها النادل الكرسي إلى الخلف لكي تجلس: «شيء لطيف. لعلك كنت محقّة عندما رفضت تغيير ملابسك وارتداء ذلك البنطلون».

ضحكت لما قالته. لكني أدركت على الفور أن هذا النوع من المطاعم ـ قائمة نبيذ من عشر صفحات في غلاف جلدي فخم، وفوط الطاولة الملفوفة على الأطباق بطريقة متقنة معقّدة ـ هو ذلك النوع من المطاعم الذي يمكن أن يأخذني إليه ريتشارد. ليس هذا ما تفضله

سامانثا. تمنيت فجأة لو أنني اقترحت أن نبقى جالستين على سريرها وأن نطلب دجاج «زدشونا» ولفافات أوراق الأرز بالخضار واللحم، مثلما كنا نفعل.

قلت لها عندما فتحنا قائمتَي الطعام: «اطلبي ما تريدين. تذكري أن العشاء على حسابي. ما رأيك في أن نتشارك زجاجة نبيذ بورغوندي أبيض؟».

«بالتأكيد، كما تريدين».

طلبت تذوّق أنواع النبيذ المختلفة لديهم، ثم قررنا أن نتشارك قطعة تارت بالطماطم وجبن الماعز، وطبقاً من سلطة الكريب فروت والبقلة. كانت تلك هي المقبلات. وبعد ذلك طلبت فيليه مينيون غير مطهو كثيراً، وطلبت أنت تكون الصلصة على جانب الطبق. اختارت سامانثا سمك السلمون.

جاء نادل إلى طاولتنا حاملاً سلة فيها أربعة أنواع من الخبز مصفوفة بطريقة فنية. عدد لنا مواصفات كل نوع من تلك الأنواع فبدأت معدتي تطالب بها كلها. لقد كنت طيلة عمري شديدة الضعف أمام رائحة الخبز الساخن.

لكني أجبته: «لا أريد خبزاً».

قالت سامانثا: «إذاً، سآخذ حصتها. هل يمكنك أن تضع لي قطعة فوكاشيا وقطعة من خبز خلطة الحبوب؟».

سألتها: «هل تأكل تارا الخبز؟».

غمست سامانثا قطعة الخبز في زيت الزيتون: «بالتأكيد، لماذا تسألين؟».

رفعت كتفي: «تبدو لي في صحة ممتازة».

هكتبة

«صحيح... لكنها ليست مهووسة بالأمر. إنها تشرب، بل تدخن الماريجوانا من وقت لآخر. عندما فعلنا ذلك آخر مرة، ذهبنا إلى سنترال بارك وركبنا الأرجوحة الدوارة».

«ماذا؟ هل صرت تدخنين المخدرات؟».

«ربما... مرة في الشهر، ليست هذه مشكلة». رفعت سامانثا قطعة الخبز إلى فمها فلاحظت خطوط عضلات ذراعها من جديد.

وبعد قليل، أحضر النادل لنا السلطة والتارت فأكلت كل منا قليلاً منهما. سألتها: «أخبريني، هل ما زلت تقابلين ذلك الشاب... المصمم الغرافيكي؟».

«لا. لكني ذاهبة ليلة غد إلى موعد مع شقيق واحدة ممن تدربهن تارا».

تناولت لقمة من السلطة، ثم سألتها: «حقّاً؟ وما القصة؟».

«اسمه توم. بدا لي على الهاتف أنه شخص رائع. إنه يدير عمله الخاص...» حاولتُ التظاهر ببعض الحماسة بينما كانت سامانثا تخبرني عن توم. لكني كنت أعرف أن توم لن يكون عندها أكثر من ذكرى غامضة عندما نتحدث في المرة القادمة. مدت سام يدها إلى الملعقة ووضعت في طبقها مزيداً من التارت. قالت لي: «أنت لا تأكلين كثيراً!».

«لست جائعة حقاً».

نظرت سامانثا في عينيّ نظرة مباشرة: «فلماذا أتينا إلى المطعم؟».

كنت أحب على الدوام أسلوبها المباشر وأكرهه في الوقت نفسه. أجبتها: «لأنني أردت أن أدعوك إلى مكان لطيف».

اصطدمت ملعقة سام بالطبق صدمة قوية عندما أنزلتها: «هل هذا نوع من الإحسان؟ يمكنني أن أشتري طعاماً لنفسي».

«تعرفين أنني لا أقصد هذا». قلت هذه الكلمات ضاحكة، لكني شعرت للمرة الأولى بأن إيقاع حديثنا صار وعراً.

جاء النادل وملأ لنا كأسَيّ النبيذ من جديد. كنت ممتنة لمجيئة في تلك اللحظة. شربت قليلاً من الكأس الجديدة. ثم رن هاتفي. أخرجته من حقيبة يدي فرأيت رسالة ريتشارد.

ماذا تفعلين الآن يا حبيبتي؟

كتبت مجيبة: أتناول طعام العشاء مع سامانثا. إننا في مطعم بيكا.

أنا ذاهب إلى ملعب غولف مع أحد العملاء. هل ستعودين إلى البيت بسيارة تاكسي؟ تذكري تشغيل جهاز الإنذار قبل أن تنامي.

سأفعل هذا. أحبك!

لم أقل له إنني أعتزم النوم في شقته في المدينة. لست أعرف السبب الذي جعلني أمتنع عن ذكر ذلك له. ربما لظني أن ريتشارد قد يشك في أنني أخطط لسهرة شرب طويلة مثلما كنت أفعل مع سامانثا قبل أن أعرفه.

«آسفة...». وضعت الهاتف على الطاولة، لكني أدرت وجهه إلى الأسفل... «كان هذا ريتشارد... يريد الاطمئنان عليّ وعلى عودتي إلى البيت».

«إلى الشقة؟».

هززت رأسي نفياً: «لم أقل له إنني سأنام هناك. إنه في هونغ كونغ... وبالتالي لم يبدُ لي أن هنالك ما يوجب إخباره».

لاحظت كما لو أن سامانثا قد سجّلت في ذهنها ملاحظة، لكنها لم تعلّق بشيء.

«إذاً!...». حتى أنا كنت قادرة على سماع النبرة الزائفة في صوتي المبتهج. ولحسن الحظ، ظهر النادل في تلك اللحظة ليأخذ أطباق المقبلات ويأتي لنا بالطبق الرئيسي.

«كيف هو ريتشارد؟ أخبريني عن حياتكما».

«الحقيقة... لا يزال يسافر كثيراً، كما ترين».

«وأنت تشربين، هذا يعني أنك لست حبلى».

«صحيح».

أحسست بدمعة تحرق عيني. شربت مزيداً من النبيذ حتى أكسب بعض الوقت ريثما أتمالك نفسي.

«هل أنت بخير؟»

حاولت أن أبتسم: «بالتأكيد. لكني أظن بأن الأمر استغرق زمناً أكثر مما كنا نتوقع». شعرت بنوبة حنين موجع إلى الطفل الذي لم أنجبه بعد.

رحت أنظر إلى الناس الآخرين من حولنا: أزواج يتبادلون الكلام متقاربين على الطاولات، ومجموعات أكبر تثرثر بنشاط وحماسة. وددت أن أتحدّث مع سامانثا مثلما كنا نتحدث في السابق، لكني لم أعرف كيف أبدأ. كان يمكنني إخبارها عن اختصاصية التصميم الداخلي التي ساعدتني في اختيار القماش من أجل تنجيد كراسي غرفة الطعام لدينا. كان يمكنني أيضاً ذكر حوض الاستحمام الحار الذي يريد ريتشارد تركيبه في فناء بيتنا الخلفي. كنت أستطيع أن أجعلها ترى كل ما يثير الإعجاب في حياتي... تلك الأشياء السطحية التي لا تهتم بها سامانثا على الإطلاق.

جرت في ما مضى مشاجرات بيني وبين سامانثا... مشاجرات من أجل أشياء غبية، مثلما حدث عندما فقدت واحداً من قرطيها المفضلين لديها، أو عندما نسيتُ إرسال الشيك لدفع إيجار الشقة. لكننا لم نكن نتشاجر هذه الليلة. كان الأمر أسوأ من ذلك. كانت بيننا مسافة ليست ناتجة عن طول فترة البعد بيننا ولا عن انفصالنا المكاني.

«أخبريني عن أطفالك في الحضانة هذه السنة». قطعت جزءاً من شريحة اللحم ورحت أنظر إلى عصارتها التي انسابت في الطبق. يطلب ريتشارد اللحم ناضجاً تماماً، لكن الحقيقة أنني أفضله متوسط النضج، بين الوردي والأحمر.

«إنهم رائعون... معظمهم. جيمس بوند هو المفضل عندي... إن لذلك الطفل أسلوباً متميزاً جداً. لكنني متعلقة أيضاً بـ'النعسان' وبـ'الغاضب'!».

«يمكن أن يكون الوضع أسوأ من ذلك. فربما تأتيك 'شقيقة الشيطان'!».

لمع في ذهني اللقب الذي أطلقته سامانثا على ريتشارد: الأمير. الشاب شديد الوسامة الذي يهجم راكباً حصانه لإنقاذ الموقف، ثم يقدّم للبطلة حياة رغيدة.

«أهكذا ترين ريتشارد؟ تعتبرينه منقذي؟».

«ماذا؟».

«أطلقت عليه قبل قليل لقب الأمير». وضعت شوكتي على الطاولة. فجأة، لم أعد جائعة على الإطلاق... «كنت أتساءل دائماً إن كان لديك اسماً تطلقينه عليه». صرت فجأة متنبهة إلى قميصي باهظ الثمن، وإلى تكلفة النبيذ الذي كنا نشربه، وإلى حقيبة يدي ماركة برادا المعلقة على ظهر الكرسي.

هزت سامانثا كتفيها وقالت: «لا تجعلي من الأمر قصة كبيرة». أسدلت عينيها ناظرة إلى طبقها، ثم راحت ترش الفلفل الأسود على سمك السلمون.

«لماذا لا تريدين أبداً أن تأتي إلى بيتي؟». كنت أتساءل عن السبب الذي جعلها تختار هذه اللحظة لكي تتجنّب أسلوبها المباشر المعتاد. لقد ذهبت إلى بيتي مرة واحدة فقط. رحّب بها ريتشارد وعانقها. ثم أعدّ لنا الشواء. كان يتذكّر أن سامانثا لا تحب الخبز بالسمسم... «اعترفي بهذا... ريتشارد لا يعجبك أبداً».

«ليس الأمر أنه لا يعجبني... ليس كذلك. أحس بأنني لا أعرفه على الإطلاق».

«وهل كنت راغبة في معرفته أصلاً؟ إنه زوجي يا سامانثا. ونحن صديقتان حميمتان. الأمر يهمني كثيراً».

«لا بأس...». لكنها تركت الأمر هناك، تركته معلقاً، ففهمت أن لديها كلاماً لا تريد أن تقوله. لم يحدث أبداً أن نشأ بين سامانثا وريتشارد تواصل بالطريقة التي كنت أتمناها. كنت أقول لنفسي إن الأمر هكذا لأنهما شخصان مختلفان تماماً. كنت أضغط عليها من أجل المزيد، لكن الحقيقة هي أنني لم أكن راغبة في سماع ذلك الكلام الذي لم ترد قوله.

نظرت سامانثا إلى طبقها من جديد وتناولت بشوكتها قطعة سلمون رفعتها إلى فمها. لعل الأمر أكثر من أنها لا تريد أن تعرف ريتشارد. لعلها لا تريد معرفتي أنا، لا تريد معرفة زوجة ريتشارد!

قالت سامانثا: «على أيّ حال، دعينا الآن نفكّر في المكان الذي سنذهب إليه بعد المطعم. هل أنت مستعدة للرقص؟ سوف أتصل بتارا لأقول لها إننا انتهينا من تناول الطعام».

إلا أنني لم أذهب معهما. بعد أن دفعت حساب المطعم، أحسست بأنني مرهقة حقاً رغم أنني لم أفعل بعد ظهر ذلك اليوم أي شيء باستثناء طي الملابس المغسولة، وانتظار السباك الذي أتى لإصلاح بعض التسرب في المغسلة. أما سامانثا فقد عملت طيلة النهار وأفلحت أيضاً في الذهاب إلى درس الرقص. كما أن ملابسي لم تكن مناسبة للرقص... مثلما قالت سامانثا، كنت أبدو كأنني ذاهبة إلى اجتماع مع أهالي التلاميذ.

أوصلت سامانثا بسيارة التاكسي إلى النادي الذي كانت تارا تنتظرها فيه، ثم عدت بالسيارة نفسها إلى شقة ريتشارد. كانت الساعة قد بلغت العاشرة، لا أكثر! ... كتبت لريتشارد: أنهينا سهرتنا في وقت مبكر. وأنا الآن ذاهبة إلى الفراش.

قلت لنفسي إن هذا ليس كذباً في واقع الأمر.

وجدت في ردهة المدخل بواباً جديداً فعرّفته بنفسي. وبعد ذلك، أخذت المصعد إلى طابقنا، وسرت بحذر من أمام باب جارتنا الفضولية السيدة كين، ثم دخلت شقة ريتشارد مستخدمة المفتاح الذي أعطاني إياه منذ زمن بعيد. عبرت الممر متجاوزة الصور العائلية المصطفة على امتداد الجدار.

لم أخبر سامانثا أبداً عن نشأة ريتشارد، ولا عن أمه التي كانت من غير عمل، ولا عن أبيه محاسب الحي. كشف لي ريتشارد هذا كله في لحظة حميمة بيننا فأحسست بأن القصة قصته، وأن من حقه وحده أن يرويها. ليت سامانثا تسأل ريتشارد عن نفسه بدلاً من تصنيفه هكذا مثلما تفعل تجاه أطفالها في الحضانة فلربما تراه بعين مختلفة! ... هكذا كنت أقول في نفسي.

لم تكن سامانثا تحب ما تراه فيّ عندما أكون مع ريتشارد... صار ذلك الآن واضحاً. لكني كنت أعرف أيضاً أن ريتشارد لا يحب طريقة تصرفي عندما أكون مع سامانثا.

توجّهت إلى غرفة المعيشة ملاحظةً كيف كان ترتيب الإنارة ـ ظلام الغرفة مع مصباح المطبخ الكروي الساطع من خلفي ـ يحيل النافذة الزجاجية التي تشغل الجدار كله وتشرف على سنترال بارك إلى شيء يشبه المرآة. رأيت صورتي الغريبة... صورة غائمة غير ملموسة كأنها غيمة، أو كأنني شخص عالق داخل كرة من ثلج.

بدوت في ملابسي السوداء والرمادية فاقدة كل لون. بدوت كما لو أنني أذوي وأختفي.

تمنيت لو أنني ذهبت في هذه الرحلة مع ريتشارد. وتمنيت لو أنني تمكّنت من إدارة العشاء مع سامانثا على نحو أفضل. كنت في توق شديد إلى شيء صلب أتمسك به. كنت في توق إلى لمس شيء حقيقي أكثر من هذا الأثاث النظيف والسطوح اللامعة في شقة ريتشارد.

ذهبت إلى المطبخ وفتحت البراد. كان فارغاً باستثناء بضع زجاجات من نبيذ بيرييه وزجاجة شامبانيا فوفكليكو. كنت أعرف أن في خزائن المطبخ سباغيتي وبضع علب من سمك التونة، إضافة إلى مظاريف الإسبرسو الصغيرة.

وفي غرفة المعيشة، كان العددان الأخيران من ذا نيويوركر وذي إيكونومست موضوعين على طاولة القهوة الصغيرة. وعلى الرفوف في غرفة مكتب ريتشارد، كانت عشرات الكتب مصطفة، أكثرها من كتب السِيَر ومعها بعض الأعمال الكلاسيكية لشتاينبك وفولكنر وهيمنغواي.

بدأت أسير في الممر متجهة إلى غرفة النوم حتى أستعد للنوم. مررت بالصور العائلية من جديد.

ثم توقفت.

واحدة منها غير موجودة.

أين هي صورة والدَيْ ريتشارد يوم زفافهما؟... الصورة التي كانت معلّقة هنا؟ لا يزال واضحاً الثقب الصغير في الجدار حيث كان مسمارها.

كنت أعرف أنها ليست في بيتنا في ويستشستر. تفقّدت بقية جدارن الشقة، بل نظرت في الحمام أيضاً. كانت الصورة أكبر حجماً من أن توضع في أحد الأدراج، لكني فتشت تلك الأدراج. لم أجدها في أي مكان.

هل وضعها ريتشارد في غرفة المستودع في القبو؟ إن بقية الصور هناك، بما فيها بعض من صور ريتشارد عندما كان طفلاً.

لم أكن متعبة... لم أعد متعَبة في تلك اللحظة. فتحت حقيبة يدي وبحثت عن مفاتيحي، ثم عدت أدراجي في اتجاه المصعد.

كانت غرف المستودع المخصّصة للسكان في قبو المبنى. لقد نزلت إليها مرة مع ريتشارد قبل فترة قصيرة من زفافنا عندما أتيت ببضعة صناديق حتى أحفظها هناك إلى أن ننتقل إلى البيت الجديد. كانت غرفة المستودع الخاصة به الخامسة إلى جهة اليسار. يومها، بعد أن أدار ريتشارد القرص المرقم على القفل الثقيل ووضع أشيائي في الغرفة، فتح واحدة من علبه البلاستيك الزرقاء المصفوفة على امتداد الجدار، ثم أخرج منها عشر صور، أو أكثر... صور من النوع اللامع من قياس أربعة بستة إنشات كانت موضوعة في مغلف أصفر حائل اللون يحمل اسم شركة كوداك. كانت الصور كلها ملتقطة في يوم واحد: سلسلة لقطات لريتشارد وهو يتمرن على لعب البيسبول.

بدا لي أن المصور كان يحاول التقاط صورة لريتشارد لحظة ضرب الكرة، لكنه (أو لكنها) كان يضغط على زر التصوير في لحظة غير صحيحة.

سألت ريتشارد: «كم كان عمرك في هذه الصور؟».

«نحو عشر سنين أو إحدى عشرة سنة. إنها من تصوير مورين».

«هل يمكنني أن آخذ واحدة منها؟». أعجبني تعبير الانتباه الشديد على وجه ريتشارد في الصورة، وكيف كان أنفه الصغير مجعداً لشدة تركيزه.

ضحك ريتشارد: «كنت أمر بمرحلة جنون. سوف أعثر لك على صورة أفضل من هذه».

لكنه لم يفعل؛ لم يعطني صورة في ذلك اليوم. كنا في عجلة من أمرنا لأن لدينا لقاء غداء متأخر مع جورج وهيلاري، فأعاد ريتشارد الصور إلى مغلفها ووضعه فوق بقية المغلفات الصفر المتماثلة، ثم أقفل الباب وصعدنا إلى ردهة المدخل.

لعله وضع صورة زفاف والديه في تلك العلبة الكبيرة. دخلت المصعد وأنا أقول لنفسي إنني في حالة فضول فحسب.

لكني أتساءل (مستفيدة من قدرة المرء على إعادة التفكير في ما مضى) إن كان لا وعيي هو ما قادني في تلك اللحظة. أتساءل إن كان هو ما حثني على معرفة المزيد عن زوجي في ليلة لم تكن لديه فيها أي فكرة عن مكان وجودي الحقيقي... في ليلة كان فيها، من الناحية المادية، بعيداً عني إلى أقصى حد ممكن. كان القبو مكاناً مزرياً موحشاً، حتى في وضح النهار: إنه أحشاء ذلك البناء الأنيق المنتصب فوقه. مكان نظيف لكن المصابيح المعلقة في السقف تجعل جدرانه الرمادية تبدو كأنها متسخة. وكانت الغرف مفصولة بشباك من قضبان

حديد ثخينة. بدا لي كأنه سجن للأمتعة التي لا يحتاج أصحابها إلى استخدامها كل يوم.

كان ريتشارد يستخدم تاريخ ميلاد مورين رقماً سرياً للقفل. إنه الرقم السري المؤقت الذي يستخدمه دائماً مع خزنات غرف الفنادق كلما سافرنا. وهكذا، فقد كنت أعرفه. أمسكت القفل المعدني البارد الثقيل في يدي وأدرته فانفتح القفل. خطوت إلى داخل الغرفة. كانت الغرفتان اللتان إلى جانبيها ممتلئتين بمجموعة متنوعة من الأشياء: قطع أثاث، وزلاجات، وشجرة عيد ميلاد من البلاستيك. لكن غرفة ريتشارد كانت مرتبة على النحو الذي يميزه دائماً. فباستثناء الزلاجتين الخضراوين اللتين استخدمناهما يوم لقائنا الثاني، لم يكن في الغرفة إلا ست علب زرقاء كبيرة متماثلة مصفوفة عند الجدار، كل اثنتين معاً.

ركعت، فأحسست بالأرض الإسمنتية خشنة على جلد ركبتي. فتحت العلبة الأولى. دفاتر مدرسية، وكأس بيسبول تقشر طلاؤه الذهبي، ومصنف فيه بضع من بطاقات النتائج المدرسية ـ كان يجد صعوبة في الكتابة بحروف متصلة؛ وكان طالباً هادئاً... هكذا قالت الكلمات التي كتبتها معلمته في الصف الثاني ـ وكدسة من بطاقات عيد ميلاد قديمة تحمل كلها توقيع مورين. فتحت واحدة منها. كانت عليها صورة شخصية سنوبي الكرتونية حاملة بالوناً. كتبت مورين: إلى أخي الصغير. أنت نجم متألّق! وسوف تكون هذه السنة أفضل سنواتك! أحبك.

تساءلت أين هي البطاقات التي أتته من أبيه وأمه. تابعت البحث في العلبة مزيحة مغلفات الصور التي اعتزمت أخذها معي إلى الأعلى حتى أراها من غير استعجال. لكنني كنت حريصة على عدم أخذ كمية كبيرة منها، وكذلك على أن أتذكر أين كان كل واحد منها حتى أستطيع إعادته إلى مكانه في الصباح.

كان في العلبة الثالثة كومة من بطاقات الكفالات والوثائق الضريبية القديمة وعقد ملكية شقة ريتشارد السابقة وعقود ملكية سياراته، وأوراق أخرى. أعدتها كلها إلى أماكنها، ثم انتقلت إلى العلبة التالية.

سمعت هديراً بعيداً يشبه صوت آلية ميكانيكية ثقيلة تبدأ الحركة.

شخص ما يستدعي المصعد.

تجمدت ساكنة في مكاني ورحت أصغي منتظرة سماع صوت فتح باب المصعد الواقع خلف الزاوية. لكن، لم يأت أحد.

لعله واحد من السكان يصعد من ردهة المدخل إلى شقته!

كنت أعرف أنه يجب أن أعود إلى الشقة... لأسباب كثيرة من بينها أن البواب الجديد قد يقول لريتشارد إنني نزلت إلى القبو.

لكني أحسست بأنه عليَّ متابعة البحث.

عندما رفعت غطاء العلبة الرابعة، رأيت شيئاً مسطحاً كبيراً ملفوفاً بعدة طبقات من ورق الجرائد. أزحت هذا الغلاف الورقي فظهر لي وجها والديّ ريتشارد.

قلت في نفسي: لماذا نقل الصورة إلى هنا؟

رحت أنظر متمعّنة إلى وجه أبيه المتطاول الهزيل وشفتيه الممتلئتين، وإلى عيني أمه الثاقبتين اللتين ورثهما ريتشارد وإلى شعرها الداكن المتموّج عند كتفيها. كان تاريخ زواجهما مسجلاً بخط زخرفي عند أسفل الصورة.

رأيت ذراع والد ريتشارد محيطة بخصر زوجته. كنت أفترض أن والدي ريتشارد عاشا زواجاً سعيداً، لكن صورة الزفاف هذه كانت متصنّعة إلى حد يجعلها غير موحية بأي شيء. في غياب أية

معلومات حقيقية، ملأ عقلي المواضع الفارغة فخلق الصورة التي أردت رؤيتها.

لم يخبرني ريتشارد أبداً بأي شيء إضافي عن أبويه. وكان يجيبني دائماً عندما أسأله بأن من المؤلم له كثيراً أن يفكر فيهما. وبدا لي أن مورين أيضاً ملتزمة بتلك القاعدة الضمنية نفسها في حضور ريتشارد بدلاً من الحديث عن ماضيهما المشترك مع أهلهما. لعلهما كانا أكثر كلاماً عن طفولتهما عندما يذهبان معاً في رحلات التزلج السنوية أو عندما يسافر ريتشارد إلى بوسطن في عمل له فيلتقي أخته ويتناولان طعام العشاء معاً.

لكن أحاديثنا، عندما أتت مورين لزيارتنا، كانت تدور دائماً من حول عمله وعملها، ورياضة الجري التي يمارسانها، وخطط الأسفار، والحوادث العالمية.

لا يزال الحديث عن أبي يجعلني أشعر بأنني على صلة به؛ لكنني تمكّنت من وداعه ومن القول له في لحظاته الأخيرة إنني أحبه. أفهم ما قد يكون سبب رغبة ريتشارد ومورين في حجب ذكريات موت أبيهما وأمهما المفاجئ العنيف في حادث سيارة.

عندما يكون الأمر متعلّقاً بالأجزاء الأكثر ظلاماً وألماً في ما مضى من حياتي أحاول، أنا أيضاً، حذف بعض التفاصيل وإغفالها عندما أحكي تلك القصص لزوجي. لقد صِغت قصتي على نحو حذر فحذفت منها الأجزاء التي كنت أعرف أنه سيجدها كريهة وبائسة. وحتى بعد اكتشاف ريتشارد أنني حبلت عندما كنت في الكلية، لم أكشف له أبداً عن أن ذلك الأستاذ كان متزوجاً. لم أرد أن أجعله يظن بأنني كنت حمقاء وغبية، وبأنني أتحمّل قسماً من الملامة على ما حدث. ثم إنني لم أكن صادقة في ما يتعلّق بكيفية انتهاء ذلك الحمل.

بينما كنت راكعة في غرفة المستودع، رحت أسأل نفسي إن كان ذلك غلطة ارتكبتها. أدركت أن الزواج لا يضمن نهاية كالنهايات التي نجدها في القصص: المستقبل السعيد الممتد دائماً إلى ما بعد الصفحة الأخيرة، والكلمات التي يتردّد صداها في اللانهاية. لكن، أليست هذه هي العلاقة الأكثر حميمية التي يفترض أن تكون حيزاً آمناً، حيث يعرف شخص آخر أسرارك وأخطائك كلّها، لكنه يحبّك على الرغم من ذلك؟

فجأة، انتزعني من تلك الأفكار صوت صغير حاد.

أدرت رأسي يميناً وشمالاً وحدقت في تلك الإضاءة الخافتة. كانت الغرفة المجاورة لغرفة ريتشارد مزدحمة بالأثاث. كانت تحجب النظر.

قلت في نفسي إنها بناية قديمة تعود إلى ما قبل الحرب. ليس هذا الصوت إلا صوت قرقعة في أنابيب المياه. لكني غيرت وضعيتي بحيث صرت في مواجهة الباب بحيث أستطيع أن ألمح أي شخص قد يكون مقترباً من الغرفة.

أسرعت فأعدت الغلاف الورقي كما كان على لوحة الزفاف. لقد وجدت ما أتيت باحثة عنه. وعلي أن أذهب الآن. لكني شعرت بنفسي مدفوعة إلى رؤية الأشياء الأخرى الموضوعة هناك، تلك الأشياء المخفية عن دائرة حياة ريتشارد اليومية. أردت مواصلة التنقيب في طبقات ماضي ريتشارد.

مددت يدي في العلبة من جديد فأخرجت لوحة خشب صغيرة عليها رسم قلب وكلمة ماما محفورة في أعلاها. كان اسم ريتشارد محفوراً على الجهة الأخرى. لا بد أنه صنعها بنفسه لأمّه؛ ولعل ذلك كان في درس الأعمال اليدوية في المدرسة. وجدت أيضاً بطانية صفراء من الصوف المحبوك وزوجاً من أحذية الأطفال برونزي اللون.

وعلى مقربة من أسفل العلبة، وجدت ألبوم صور صغيراً. لم أعرف أحداً من الأشخاص الذين في الصور. لكني تعرّفت على ابتسامة أمّه في وجه واحدة من الفتيات كانت ممسكة بيد امرأة ترتدي بنطلوناً يصل إلى ربلة ساقها ومن فوقه صدار قصير. قلت في نفسي إن هذا الألبوم كان لأمّه. وكان الشيء التالي الذي وجدته علبة بيضاء فيها ذلك التمثال الصغير الذي كان في رأس كعكة زفافنا.

فتحت غطاء العلبة وأخرجت التمثال منها. كان بورسلان التمثال صقيلاً ناعماً، وكانت ألوانه لطيفة نضرة.

هل خطر في ذهنك أنه يبدو شخصاً جيّداً إلى حد يصعب تصديقه؟

إنه السؤال الذي طرحته عليَّ سامانثا يوم أريتها هذا التمثال. أتمنى لو أنها لم تطرح علي هذا السؤال أبداً!

نظرت إلى العريس الوسيم وإلى العروس ذات التكوين البديع وإلى عينيها الزرقاوين. رحت أداعب التمثال شاردة الذهن وأنا أديره في يدي.

وعندها، انزلق التمثال من بين أصابعي.

أسرعت لالتقاطه بحركة سريعة محمومة راجية أن أستطيع إنقاذه من التحطم على الأرض الإسمنتية. أمسكت به قبل أن يصل إلى الأرض بسنتيمترات قليلة.

أغمضت عينيّ وتنفّست الصعداء.

كم مضى على وجودي هنا؟ بضع دقائق... أو لعل المدة قاربت ساعة كاملة؟ لقد نسيت الوقت نسياناً تاماً.

من الممكن أن يكون ريتشارد قد رد على رسالتي. وسوف ينتابه القلق إذا لم أجبه الآن. لحظة جاءتني تلك الفكرة، سمعت من جديد صوتاً خافتاً آتياً من جهة اليسار. أهي الأنابيب؟ أو... لعله صوت أقدام تقترب!

انتابني إحساس مفاجئ بأنني محبوسة في هذا القفص المعدني. لقد تركت هاتفي في الأعلى، في حقيبتي. ولا يعلم أحد بمكان وجودي. هل يمكن أن يبلغ الصوت البواب الجالس في الردهة إذا صرخت؟

حبست أنفاسي، وتسارعت دقات قلبي. انتظرت أن يظهر لي وجه من خلف الزاوية.

لم يأتِ أحد.

قد أهدّئ نفسي: إنها مخيلتي، لا أكثر!

لكن يدي كانت ترتجف عندما أعدت التمثال إلى علبته. وعندما وضعته فيها، لاحظت أرقاماً صغيرة مطبوعة على أسفله. قرّبته من عيني وحاولت قراءة الأرقام في تلك الإنارة الخافتة. إنه تاريخ: 1985. لا بد أنه تاريخ صنع التمثال.

لكني قلت في نفسي: لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً!

أخرجت التمثال من علبته مرة أخرى ونظرت إلى الأرقام. التاريخ صحيح، لا مجال للخطأ.

لكن والدَيْ ريتشارد تزوجا قبل ذلك بسنين. وقد كان مراهقاً في سنة 1985!

لقد تزوجا قبل أكثر من عشر سنين من وجود هذا التمثال. لا يمكن أن يكون لهما.

من الممكن أن تكون أمه قد عثرت على هذا التمثال في متجر للأنتيكا فاشترته لأنها وجدته جميلاً... هكذا كنت أفكر وأنا صاعدة إلى شقة ريتشارد. أو لعلّي مخطئة. من الممكن، بكل بساطة، أن أكون قد فهمت ما قاله ريتشارد لي على نحو غير صحيح.

سمعت صوت هاتفي يرن في داخل الشقة لحظة وضعت مفتاحي

في القفل. أسرعت إلى حقيبة يدي، لكن الرنين صمت قبل أن أتمكّن من إخراج الهاتف.

ثم بدأ هاتف الشقة يرن.

جريت إلى المطبخ ورفعت السماعة.

«نيللي؟ الشكر لله. أحاول الاتصال بك عدة مرات». بدا لي صوت ريتشارد أكثر ارتفاعاً من المعتاد... بدا لي متوتّراً. كنت أعرف أنه في الناحية الأخرى من العالم، لكن الاتصال كان شديد الوضوح كأن الصوت يأتيني من الغرفة المجاورة.

كيف عرف أنني هنا؟

قلت له مسرعة: «إنني آسفة. هل كل شيء على ما يرام؟».

«ظننتك في البيت».

«أوه، كنت على وشك الذهاب إلى البيت، لكنني شعرت بتعب شديد وقلت في نفسي إن من الأسهل لي أن أمضي الليلة في الشقة».

ران صمت بيننا.

«لماذا لم تخبريني بهذا؟».

لم تكن لديّ إجابة على هذا. على الأقل، لم تكن لدي إجابة أحس بأنني قادرة على قولها له.

«لقد كنت سـ...» ثم توقفت. لست أعرف السبب الذي جعل الدموع تداهمني. رفرفت بعيني لأطردها عنهما... «فكّرت في أن من الممكن أن أشرح لك الأمر غداً بدلاً من كتابة رسالة طويلة وأنت منشغل مع عملائك. لم أرد إزعاجك».

«إزعاجي؟...». أطلق صوتاً لم يكن ضحكة حقيقية... «كان أكثر إزعاجاً لي بكثير تخيّل أن شيئاً قد حدث لك».

«أنا آسفة جدّاً. طبعاً، أنت محق. كان عليّ أن أخبرك».

لم يستجب على الفور.

لكنه قال آخر الأمر: «ولماذا لم تجيبي على اتصالي؟ هل أنت وحدك؟».

لقد أغضبته. كان هذا واضحاً من نبرات صوته المبتورة. أكاد أستطيع رؤية عينيه متقلّصتين، عابستين.

خرجت الكذبة تلقائياً من فمي: «كنت في الحمام. وأنا وحدي بالطبع. خرجت سامانثا مع شريكتها في السكن للرقص، لكنني لم أكن راغبة في الذهاب معهما. وهكذا أتيت إلى الشقة».

أطلق ريتشارد زفيراً وقال: «اسمعي... أنا سعيد لأنك بخير. أظن أنه يجب أن أعود الآن إلى ملعب الغولف».

«اشتقت إليكِ».

عندما تكلّم من جديد، كان صوته لطيفاً: «وأنا اشتقت إليك يا نيللي، سوف أعود سريعاً».

أدركت عندما كنت أخلع ملابسي وأرتدي قميص النوم أن وجودي في ذلك القبو هزّني. وهزّني أيضاً أن ريتشارد ضبطني وأنا أخون ثقته. ذهبت وتأكّدت من إحكام قفل باب الشقة.

دخلت حمام ريتشارد واستخدمت معجون أسنانه والمنشفة الاحتياط. كانت رائحة الليمون قوية إلى حد مزعج إلى أن اكتشفت أن ثوب الحمام الذي يلف به ريتشارد نفسه بعد الاستحمام كان معلقاً على خطّاف إلى جانبي تماماً. كانت رائحة صابونه معشّشة في نسيج الثوب الكثيف.

أطفأت النور، ثم تردّدت وأشعلته من جديد وأغلقت الباب نصف إغلاق حتى لا يكون النور في عينيّ. أزحت اللحاف الأبيض الخفيف المفروش على سرير ريتشارد وأنا أتساءل عمَّ يفعله زوجي في تلك اللحظة.

لعلّه يتحدّث مع شركائه من رجال الأعمال المهمّين في ملعب الغولف. ولعل معهم في عربة الغولف مع صندوق تبريد فيه علب بيرة وزجاجات مياه، إضافة إلى مترجم جاهز لتسهيل تبادل الحديث في ما بينهم. تخيّلت ريتشارد وهو يركز على ضربة الكرة وقد تغضن وجهه وصارت تعابيره مثلما رأيتها في صورته عندما كان طفلاً صغيراً يلعب البيسبول.

لقد فتشت تلك العلب في المستودع حتى أفهم ريتشارد فهماً أفضل. ولا أزال تواقة إلى مزيد من الإجابات حول ما يتعلّق بزوجي.

لكني، عندما استلقيت على ملاءته المكوية في سريره الواسع، أدركت أن زوجي يفهمني إلى الحد الكافي لأن يخمّن بالضبط مكاني عندما لم يجدني في البيت.

إنه يعرفني أكثر مما أعرفه.

هكتبة

الفصل السادس والعشرون

أحس رسالة إيمّا ثقيلة في يدي... أحس وزنها غير متناسب مع ثقلها المادي الحقيقي. أطوي الورقة من جديد، ثم أبحث عن مغلف في غرفة خالتي شارلوت حيث تحب الجلوس إلى مكتب ذي سطح متحرّك حتى تنجز بعض الأعمال الورقية وتحرّر الفواتير. وجدت مغلفاً، لكني تجاهلت البحث عن طوابع. يجب أن أسلم هذه الرسالة باليد فأنا لا أستطيع الاعتماد على خدمة البريد لإيصالها في الوقت المناسب.

فوق الأوراق التي على مكتب خالتي، وجدت أيضاً صورة كلب. كلب جيرمان شيبرد له فراء ناعم بني وأسود.

شهقت، ثم مددت يدي إلى الصورة. ديوك!

لكنها لم تكن صورة ديوك! ليست إلا بطاقة ترويجية من شركة توفر الكلاب لمساعدة فاقدي البصر.

لكنه شديد الشبه بالصورة التي لا أزال أحملها في محفظتي.

عليَّ إيصال هذه الرسالة إلى إيمّا. وأيضاً البحث عن طرق لمساعدة خالتي شارلوت. يجب أن أتحرّك الآن. لكني لم أستطع منع نفسي من التهاوي فوق سريرها عندما داهمتني الصور سريعاً وانقضّت عليَّ مثل أمواج متلاحقة شدتني من جديد إلى مجاري الذاكرة الخفية.

عاودني أرقي الليلي بعد عودة ريتشارد من هونغ كونغ. وجدني جالسة في غرفة الضيوف في الساعة الثانية صباحاً. المصباح مضاء فوق رأسي وكتاب مفتوح في حضني. قلت له: «لست قادرة على النوم».

«لا أحب أن أكون في السرير من دونك». مدّ لي يده وعاد بي إلى غرفتنا.

لكن إحساسي بذراعيه ملتفتين من حولي وبأنفاسه المنتظمة تدفئ أذنيَّ ما عاد يساعدني في النوم. صرت أستيقظ في معظم الليالي فأخرج من الفراش بهدوء وأسير في الممر على أطراف أصابعي متجهة إلى غرفة الضيوف، ثم أتسلل عائدة إلى سريرنا قبيل الفجر.

لكن، لا بد أن ريتشارد عرف بذلك.

في صباح يوم أحد متجمّد تخترق برودته العظام، كان ريتشارد جالساً في غرفة المكتبة يقرأ «أخبار الأسبوع» في صحيفة التايمز، وكنت أبحث عن وصفة جديدة للتشيز كيك. كنا على وشك استضافة أمي ومورين على العشاء في نهاية الأسبوع القادم احتفالاً بعيد ميلاد ريتشارد. كانت أمي تكره البرد ولم يسبق لها أبداً أن سافرت شمالاً خلال شهور الشتاء. كانت تزورني كل ربيع وكل خريف حتى تراني وترى خالتي شارلوت. وخلال تلك الرحلات، كانت تمضي معظم وقتها متجوّلة على المعارض الفنية، أو سائرة في شوارع المدينة حتى «تمتص الجو» مثلما كانت تقول. لم تكن تزعجني قلة الوقت الذي أمضيه معها لأن صحبة أمي تسلتزم احتياطاً كبيراً من الصبر، إضافة إلى طاقة غير محدودة.

لم أكن متأكّدة من الشيء الذي دفعها إلى تغيير موعد زيارتها.

لكني ظننت بأن الأمر عائد إلى حديث جرى بيننا خلال مكالمتنا الأخيرة.

لقد ضبطتني في يوم سيئ - يوم من أيام الوحدة - في يوم لم أخرج فيه من البيت. كانت الشوارع مغطاة بطبقات من الثلج القديم وبقع من الجليد. ونظراً لقلة خبرتي في قيادة السيارة شتاء، فإنني لم أكن أشعر براحة عندما أخرج بسيارة المرسيدس التي اشتراها لي ريتشارد. عندما اتّصلت أمي عند العصر وسألتني عما كنت أفعله، أجبتها إجابة صادقة. وتخلّيت عن حذري معها.

«لا أزال في السرير».

«هل أنت مريضة؟».

أدركت على الفور أنني كشفت لها عن أكثر مما ينبغي.

«لم أنم جيداً الليلة الماضية». ظننت بأن هذه الإجابة كفيلة بإرضاء فضولها.

إلا أن ما قلته لم يفعل أكثر من جعلها تطرح مزيداً من الأسئلة: «هل يحدث لك هذا كثيراً؟ وهل لديك ما يقلقك؟».

«لا، لا. كل شيء على ما يرام».

صمت قصير، ثم: «هل تعرفين؟... كنت أفكر في أنني راغبة في زيارتك».

حاولت جعلها تتخلّى عن هذه الفكرة، لكنها كانت مصممة. وهكذا، لم أجد أمامي غير أن أقترح عليها توقيت زيارتها في موعد عيد ميلاد ريتشارد. سوف تزورنا مورين أيضاً لتحتفل معنا بعيد ميلاده، وهي تفعل ذلك كل سنة. ولعل وجودها يكون مفيداً في تخفيف تركيز أمي عليّ.

عندما رن جرس الباب صبيحة ذلك الأحد، كان أول ما خطر في ذهني هو أن أمي قررت مفاجأتنا بأن تصل مبكرة عدة أيام، أو أنها أخطأت في التاريخ. لم يكن هذا شيئاً جديداً في طبعها.

لكن ريتشارد وضع الصحيفة التي كان يقرأها، ثم نهض واقفاً وقال لي: «أظن بأن هديتك وصلت».

«هديتي؟ أنت من لديه عيد ميلاد عما قريب».

كنت خلفه ببضع خطوات فسمعته يرحب بشخص ما، لكن جسده كان يحجب الرؤية عني. ثم رأيته ينحني ويقول: «مرحباً يا فتى!».

كان كلب الشيبرد الألماني ضخماً. رأيت عضلات كتفَيْه تتحرك عندما أمسك ريتشارد برسنه وأدخله إلى البيت، ومن خلفه دخل الرجل الذي جاء به.

«نيللي... رحبي بديوك. هذا الفتى الضخم أفضل أمان يمكنك التفكير فيه». تثاءب الكلب كاشفاً عن أنيابه الحادة.

ضحك ريتشارد: «وهذا هو كارل. واحد من مدربي ديوك. آسف يا كارل».

«لا مشكلة في هذا فأنا معتاد على أن يستقطب ديوك الاهتمام كله». لا بد أن كارل لاحظ خوفي من الكلب... «إنه يبدو عنيفاً، لكن تذكّري أيضاً أنه سيبدو هكذا في نظر أي شخص آخر. كما أن ديوك يعرف أن وظيفته حمايتك».

أومأت برأسي. لعل وزن ديوك يقارب وزني. وإذا وقف على قائمتيه الخلفيتين سيكون في نفس طولي أيضاً.

«لقد أمضى سنة في أكاديمية شيرمان كانين للكلاب. وهو يفهم عدداً من الأوامر. انظري... سأقول له أن يجلس». عندما نطق كارل تلك الكلمة، جلس الكلب على قائمتيه الخلفيتين. أمره كارل «انهض»، فنهض الكلب بحركة يسيرة انسيابية.

قال ريتشارد لي: «جرّبي هذا يا حبيبتي».

«اجلس». بدا صوتي أشبه بالصرير. لم أصدق أن الكلب سيطيعني، لكنه نظر إلي بعينيه البنيتين ووضع مؤخرته على الأرض من جديد. أبعدت نظري عنه. كنت أعرف، منطقياً، أن الكلب مدرب على إطاعة الأوامر. لكن، أليس مدرباً أيضاً على أن يهجم عندما يستشعر خطراً؟ تذكرت بأن الكلاب قادرة على الإحساس بالخوف، فانكمشت على نفسي ملتصقة بالجدار.

لم أكن أجد مشكلة في الاقتراب من الكلاب الصغيرة، تلك الأنواع ذات الشعر الكثيف التي يصادفها المرء كثيراً في مدينة نيويورك، بل يراها أحياناً جالسة في حقائب اليد أو يراها تجري متراقصة في نهاية أرسانها ذات الألوان البهيجة. بل كنت أتوقّف أحياناً لأربت على واحد منها؛ ولم أكن أجد أية مشكلة في وجودي في مصعد شقة ريتشارد مع السيدة كين وكلبها الصغير الأبيض ذي الشعر الذي يشبه تسريحة صاحبته.

لكن الكلاب الكبيرة مثل هذا الكلب نادرة في المدينة لأن مساحات الشقق تجعل عيشها فيها غير عملي. لم أقترب من كلب كبير منذ سنوات كثيرة.

لكن جيراننا في فلوريدا كان لديهم كلبان كبيران عندما كنت طفلة. كان الكلبان محبوسين دائماً ضمن ما يشبه قفصاً من شبك معدني. وكان ينقضّان في اتجاهي كلما قدت دراجتي مارة بفناء جيراننا فيصطدمان بسياج قفصهما كما لو أنهما يحاولان اقتحامه. كان أبي يقول لي إنهما ودودان لكنهما يفعلان هذا نتيجة الإثارة فحسب. لكن نباحهما العميق الأجش، وصوت قعقعة السياج الحديد، كانا يخيفانني.

لكن سكون ديوك غير الطبيعي جعل أعصابي أكثر توتّراً.

سألني كارل: «هل تريدين التربيت عليه؟ إنه يستمتع بمداعبة ما خلف أذنيه».

«بالطبع. مرحباً يا ديوك!». مددت يدي وربّتّ على رأسه بحركة سريعة. كان فراؤه الأسود والبني أكثر نعومة مما توقعت.

«سوف أحضّر طعامه ولوازمه». خرج كارل متّجهاً إلى سيارة النقل الصغيرة البيضاء.

ابتسم لي ريتشارد ابتسامة مشجعة: «تذكري ما قاله لنا ذلك الشخص من شركة أنظمة الحماية. الكلاب أفضل رادع للمتطفّلين. إنها أفضل من أي نظام إنذار يمكن للمرء شراؤه. سوف تنامين جيداً عندما يكون قريباً منك».

كان ديوك لا يزال جالساً على الأرض محدّقاً في اتجاهي. هل كان ينتظر مني إخباره بأنه يمكنه أن يقف من جديد؟ لم أمتلك في حياتي أكثر من قطة... منذ زمن بعيد، عندما كنت طفلة.

عاد كارل حاملاً فراش الكلب وآنيته وكيساً من الطعام: «أين تريدان أن أضع هذه الأشياء؟».

قال ريتشارد: «أظن أن المطبخ هو المكان الأفضل. إنه هناك».

عندما سمع كلمة قصيرة أخرى من كارل، سار الكلب من خلفه. كان يسير على أرض البيت الخشب من غير صوت تقريباً. انصرف كارل بعد بضع دقائق تاركاً لنا بطاقته وقائمة بالكلمات التي يعرفها ديوك: تعال. قف. هجوم. وقد أوضح لنا أن ديوك لا يستجيب لهذه الكلمات إلا عندما تكون موجهة إليه بنبرة آمرة وعندما تكون صادرة عني أو عن ريتشارد.

داعب كارل رأس ديوك مرة أخيرة قبل ذهابه وقال: «إنه فتى ذكي. لقد اخترتم كلباً جيداً».

ابتسمت ابتسامة ضعيفة باهتة وأنا أفكر خائفة في الصباح التالي عندما

يذهب ريتشارد إلى عمله وأبقى وحدي مع الكلب الذي من المفترض أن يشعرني بالأمان.

لازمت الناحية الأخرى من البيت طيلة الأيام الأولى التي تلت ذلك. ولم أكن أذهب إلى المطبخ إلا لآخذ موزة أو لأضع الطعام في إناء ديوك. كان كارل قد قال لنا إن علينا إخراجه في نزهة ثلاث مرات في اليوم؛ لكنني لم أكن راغبة في مد يدي إلى حلقة تثبيت الرسن في الطوق الذي على رقبته. ولهذا، كنت أفتح له الباب الخلفي وأقول له أن يخرج ـ هذا واحد من الأوامر التي يفهمها ـ وكنت أنظف مكانه قبل أن يعود ريتشارد إلى البيت.

وفي اليوم الثالث، كنت جالسة أقرأ في غرفة المكتبة فرفعت رأسي ورأيت ديوك واقفاً من غير صوت عند باب الغرفة. كان ينظر إليّ. لم أسمع صوت اقترابه أبداً. وكنت لا أزال خائفة من مقابلة نظراته ـ ألا تعتبر الكلاب التحديق في أعينها تحدياً لها؟ ـ عدت أنظر إلى كتابي متمنية أن ينصرف عني. كان ريتشارد يأخذ ديوك كل ليلة في نزهة قصيرة قبل أن ينام. وكان لدى ديوك طعام كثير وماء عذب وفراش مريح. ليس عندي مبرر لأن أشعر بالذنب تجاهه. كان ديوك يعيش حياة رائعة يتوفر له فيها كل ما قد يكون راغباً فيه.

اقترب مني، ثم انبطح على الأرض إلى جانبي واضعاً رأسه بين قائمتيه الأماميتين. رفع رأسه وتنهّد. كان ذلك صوتاً شديد القرب من صوت تنهد إنسان.

استرقت نظرة إليه من فوق حافة الرواية التي في يدي، فرأيت غضوناً فوق عينيه البنيتين اللتين بلون الشوكولاته. بدا لي حزيناً. تساءلت إن كان معتاداً على صحبة الكلاب الأخرى وعلى أن يكون محاطاً بالصخب والحركة. قلت في نفسي: لا بد أن بيتنا يبدو له غريباً جداً. ومن غير

تفكير، مددت يدي وربّتّ على رأسه، خلف أذنيه... تلك الحركة التي قال مدربه إنه يحبها. اهتز ذيله مرة واحدة ثم سكن كما لو أنه لا يريد أن يأتي بأية حركة...

«أنت تحبّ هذا! لا بأس يا فتى. يمكنك أن تهز ذيلك قدر ما تريد».

انزلقت عن الكرسي وجلست إلى جانبه من غير أن أكفّ عن مداعبة رأسه. وبدا لي أنني عثرت على الإيقاع الذي يعجبه. كان لهذا أيضاً تأثيره المهدّئ عليّ... إحساسي بأصابعي منسابة عبر فرائه الكثيف الدافئ.

نهضت بعد قليل وذهبت إلى المطبخ وأتيت برسنه.

لحق بي ديوك.

«سوف أضع هذا الرسن الآن. كن كلباً طيباً واجلس!».

وللمرة الأولى، بدا لي سكونه لطيفاً. لكنني ثبّتّ المشبك المعدني الفضي إلى طوقه بأقصى سرعة ممكنة حتى لا أتأخر في إبعاد يدي عن أسنانه. كان الهواء الشتائي النضر في الخارج بارداً. شعرت بأنه يقرص أنفي وأذني لحظة خطوت خارج البيت. لكن الطقس لم يكن شديد البرودة إلى حد يجعلني أستعجل العودة. أظن أنني سرت مع ديوك ذلك اليوم قرابة ثلاثة أميال فاستكشفت في حيّنا أماكن لم أذهب إليها من قبل. كان يسير بخطوات تساير خطواتي من غير أن يتقدمني أو يتأخر عني. ولم يكن يتوقف إلا حتى يتشمّم العشب أحياناً، أو حتى يبول.

وعندما عدنا إلى البيت، لم يكن فك رسنه مخيفاً مثلما كان تثبيته. ملأت له إناء الماء، ثم سكبت لنفسي كأساً من الشاي المثلج وشربته سريعاً. كنت ظمأى. شعرت بثقل لذيذ في ساقيَّ وأدركت أن حاجتي إلى هذه النزهة لم تكن أقل من حاجة ديوك إليها. هممت بالعودة إلى غرفة المكتبة، ثم توقفت عند الباب ونظرت إلى ديوك.

«تعال».

جاء متمهلاً وجلس إلى جانبي.

«أنت فتى طيب حقاً!».

في يوم ميلاد ريتشارد، ذهبنا لملاقاة أمي في المطار وعدنا بها إلى البيت. وعند وصول مورين بعد بضع ساعات من ذلك، كانت أمي قد نثرت أشياءها في أنحاء البيت ـ وضعت حقيبة يدها في المطبخ، وعلّقت شالها على واحد من كراسي غرفة الطعام، وكان كتابها مفتوحاً على المقعد العثماني المفضل لدى ريتشارد ـ كما رفعت حرارة تدفئة البيت خمس درجات إضافية.

كان واضحاً لي أن هذا قد سبّب شيئاً من الإزعاج لريتشارد، إلا أنه لم يقل أية كلمة.

سارت الأمور على العشاء بكل يسر رغم أن أمي ظلت تسقط لديوك الجالس تحت الطاولة قطعاً من شريحة اللحم التي أمامها ـ كانت قد تخلّت عن نزعتها النباتية قبل فترة قصيرة من ذلك.

قالت أمي: «إنه كلب ذكي إلى حد غير معتاد».

أزاحت مورين كرسيها قليلاً حتى تبتعد بعض الشيء عن ديوك وعن أمي. ثم سألت ريتشارد عن أسهم كانت تفكر في شرائها. قالت إنها ليست من الأشخاص الذين يحبون الكلاب كثيراً، لكنها خاطرت ومدت يدها بشجاعة فربتت على رأس ديوك مرة واحدة.

بعد تناول الحلوى، ذهبنا جميعاً إلى غرفة الجلوس لنفتح الهدايا. فتح ريتشارد هديتي أولاً فكانت قميصاً لنادي رينجرز عليه تواقيع لاعبي الفريق جميعاً، ومعه طوق لديوك يحمل اسم الفريق.

مكتبة

كانت هدية أمي لريتشارد كتاباً جديداً من تأليف ديباك تشوبرا[1]. قالت له: «أعرف أنك تشتغل كثيراً. ولعلك تستطيع قراءة هذا الكتاب في طريق ذهابك إلى العمل وعودتك منه!».

فتح ريتشارد الكتاب متأدّباً، مقلّباً بضع صفحات.

قال ريتشارد: «أظن أن هذا ما يلزمني بالضبط». وعندما ذهبت أمي حتى تأخذ شيئاً من حقيبة يدها، غمز لي ريتشارد بعينه.

قلت له مازحة: «سوف أشتري لك ملخّص كليفس نوتس[2] للكتاب لأنها يمكن أن تسألك عنه».

كانت هدية مورين بطاقتين لمباراة فريق نيكس في الليلة التالية. قالت ضاحكة: «لدينا هنا مهمة رياضية». كان الاثنان، ريتشارد ومورين، من مشجعي كرة السلة.

قلت له: «عليك أن تأخذ مورين معك إلى هذه المباراة».

ردّت مورين مسرورة: «تلك هي خطتي. تذكّري عندما حاول ريتشارد أن يشرح لك ذات مرة أسلوب الدفاع في كرة السلة، فرأيت أن انتباهك قد سرح بعيداً».

«اعترف بأنني مذنبة بالتهمة الموجّهة إليّ!».

انتقلت عينا أمي من مورين إلى ريتشارد، ثم استقرّتا عليّ: «حسناً، أمر جيد أنني هنا. لولا هذا، لبقيت في البيت وحدك يا فانيسا. لماذا لا نذهب غداً إلى المدينة ونتعشى مع خالتك شارلوت؟».

«عظيم!». كان واضحاً لي أن أمي فوجئت بأن مورين لم تأت بثلاث

---

(1) ديباك تشوبرا كاتب أميركي واسع الانتشار من دعاة الطب البديل.

(2) كليفس نوتس سلسلة من الملخّصات المعدة كنوع من المساعدة للطلبة. وهي تقدّم عرضاً وشرحاً لعدد كبير من الأعمال الأدبية وغير الأدبية.

تذاكر للمباراة. ولعلها ظنّت أنني أحسست بنفسي متروكة مهملة نتيجة ذلك؛ لكن الحقيقة أنني كنت مسرورة برغبة أخت ريتشارد في الذهاب معه. ليس له أقارب غيرها.

ظلّت أمي عندنا يومين بعد ذلك. وعلى الرغم من أنني كنت مستعدة للتعامل مع تصريحاتها التي لا تمر بأي نوع من المصافي، إلا أنها لم تقل شيئاً. كانت تخرج معي كلما أخذت ديوك في نزهة، كما اقترحت علي أن نمنحه أول حمام له في بيتنا. تقبّل ديوك الحمام بجلاله المعتاد، لكن عينيه البنيتين كان فيهما شيء من الملامة، ثم انتقم منا بأن هز جسمه بعد خروجه من حوض الحمام فرشّنا بالماء. كانت ضحكاتنا أنا وأمي عند ذلك أجمل لحظة عندي في زيارتها كلها. وأظنّها كانت أجمل لحظة عندها أيضاً.

عندما ودّعناها في المطار، احتضنتني زمناً أطول بكثير من عادتها.

«أحبّك يا فانيسا. وأحب أن أراك أكثر. ألا تستطيعين القدوم إلى فلوريدا بعد شهر أو شهرين؟».

لقد كنت خائفة من الذهاب لزيارتها، لكنني وجدت في عناقها لي راحة مفاجئة فقلت لها: «سوف أحاول».

كنت أعتزم الذهاب إليها. لكن كل شيء تغيّر من جديد.

سرعان ما اعتدت وجود ديوك الراسخ في البيت؛ وسرعان ما اعتدت نزهاتنا الصباحية القصيرة، وكذلك اعتدت الحديث معه وأنا أحضّر طعام العشاء. كنت أمشط فراءه فترات طويلة من الزمن بينما يجلس واضعاً رأسه على ساقيّ. وصرت أَعجب من أنني كنت خائفة منه. عندما أدخل لأستحم، كان ينتظرني أمام الباب، كأنه حارس. وكلما عدت إلى البيت، أجده جالساً في الممر، قبالة الباب مباشرة،

وقد انتصبت أذناه على شكل مثلثين. كان يبدو عليه الارتياح عندما أعود فأصير ضمن مجال رؤيته.

كنت شديدة الامتنان لريتشارد. لا بد أنه عرف أن ديوك سيوفّر لي ما هو أكثر من الإحساس بالأمان. ففي غياب الطفل الذي كنا شديدَي التوق إليه، كان ديوك رفيقاً لي.

بعد أسابيع من مجيء ديوك، قلت لريتشارد ذات ليلة: «أحب ديوك كثيراً. لقد كنت محقّاً فهو يجعلني أحسّ بالأمان حقّاً». حكيت له كيف كان ديوك سائراً معي على الرصيف على مسافة بضعة عشرات الأمتار من بيتنا عندما ظهر فجأة ساعي البريد خارجاً من فرجة في السور المحيط بفناء بيت جيراننا. سرعان ما وقف ديوك بيني وبينه وسمعت زمجرة خفيضة تنبعث من حنجرته. ابتعد ساعي البريد عنا مسرعاً، ثم تابع طريقه، وتابعنا طريقنا: «كانت تلك المرة الوحيدة التي أرى فيها ذلك الجانب من ديوك».

أومأ ريتشارد برأسه وهو يتناول سكيناً ليدهن بالزبدة قطعة الخبز التي كانت في يده. قال لي: «حسناً أن يتذكّر المرء أنه موجود دائماً».

وعند ذهاب ريتشارد في رحلة عمل ليوم واحد، أخذت فراش ديوك ووضعته إلى جانب سريري. استيقظت في الليل ونظرت إليه فرأيته مستيقظاً أيضاً. تركت يدي متدلية من السرير حتى أستطيع لمس رأسه، ثم غرقت في النوم سريعاً. نمت نوماً عميقاً من غير أحلام. وكان أفضل نوم حظيت به منذ شهور.

كنت قد أخبرت ريتشارد بأنني أسير كثيراً مع ديوك حتى أتخلّص من الوزن الزائد الذي راكمته منذ انتقالنا للسكن في الضواحي. لم تكن زيادة الوزن بسبب حبوب الخصوبة وحدها. ففي المدينة، كنت أسير كل يوم مسافة لا تقل عن أربعة أيام، لكنني صرت الآن أقود السيارة من أجل

شراء نصف غالون من الحليب. ثم إننا نتناول العشاء في وقت متأخّر حقّاً. لم يكن ريتشارد قد علّق على زيادة الوزن بأي كلمة، لكنه كان يقف على الميزان كل صباح ويمارس التمرينات الرياضية خمس مرات في الأسبوع. أردت أن يكون شكل جسمي متناسقاً مثله.

عندما عاد ريتشارد، لم يطاوعني قلبي إلى إعادة ديوك إلى الأسفل، إلى مطبخنا البارد الموحش. ولم يكن ريتشارد قادراً على استيعاب كيف تغيّر موقفي تجاه ديوك إلى هذا الحد. قال لي مازحاً: «أظن أحياناً أنك تحبين هذا الكلب أكثر مني».

ضحكت وقلت له: «إنه صديقي. وهو رفقتي الوحيدة عندما لا تكون هنا». لكن الحقيقة كانت أن حبي لديوك كان أنقى عاطفة عرفتها في حياتها وأبعدها عن التعقيد.

كان ديوك أكثر من مجرّد حيوان منزلي. لقد صار سفيري إلى العالم. ذات يوم، توقف رجل يمارس رياضة الجري في الخارج عندما صادفنا خلال مشوارنا اليومي وسألني إن كنت أسمح له بالتربيت على ديوك. انتهى الأمر بأن توقفنا برهة نتبادل الحديث. وكان من يأتون للعناية بالحدائق يجلبون له عظماً ويسألونني على استحياء بأن أسمح لهم بتقديمه إليه. بل إن ساعي البريد صار يحبّه أيضاً. قلت لديوك ذات مرة إن ساعي البريد «صديق» ـ كلمة أخرى يفهمها ديوك. وخلال مكالمتي الهاتفية الأسبوعية مع أمي، كنت أحدّثها كثيراً عن آخر مغامراتنا معاً.

وعندها، في يوم من أيام أوائل الربيع، عندما تبدو كل شجرة وكل نبتة موشكة على الإزهار، أخذت ديوك حتى نتنزّه في درب للمشي على مسافة بضعة احياء من بيتنا.

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام، يمكنني القول إن ذلك اليوم كان آخر أيامنا الجميلة ـ أيام ديوك وأيامي ـ لكنني جلست في ذلك اليوم على

هكتبة

صخرة كبيرة مسطّحة، وكانت الشمس دافئة من فوقنا، وراحت أصابعي تسرح في فرو ديوك فبدا لي أن ذلك اليوم من أجمل أيام حياتي.

رن هاتفي عند عودتنا إلى البيت: «حبيبتي، هل جلبت الملابس من المصبغة؟».

كنت قد نسيت أن ريتشارد طلب مني أن أمر على المصبغة لجلب قمصانه: «أوه، آسفة. سوف أسدّد الآن حساب من يعتنون بالحديقة، ثم أذهب لجلب القمصان».

كان عمال الحدائق الثلاثة قد صاروا شديدي الولع بديوك إلى حد يجعلهم، عندما يكون الطقس لطيفاً، يتأخّرون قليلاً بعد انتهاء عملهم لكي يلعبوا معه.

غبت عن البيت ثلاثين دقيقة، أو خمساً وثلاثين دقيقة بالحد الأقصى، وعندما عدت، كانت سيارتهم قد ذهبت. لحظة فتحت باب البيت، أحسست ببرودة تسري في جسدي.

ناديته: «ديوك!».

لا شيء.

صرخت من جديد، لكن بصوت مرتجف هذه المرة: «ديوك!». هرعت إلى الفناء الخلفي حتى أبحث عنه. لم أجده هناك. اتصلت بشركة العناية بالحدائق. أقسموا لي على أنهم أغلقوا بوابة الفناء الخلفية عند ذهابهم. رحت أجري في الحي منادية باسمه، ثم اتصلت بالجمعية الإنسانية وببعض خبراء الحيوانات المنزلية. عاد ريتشارد إلى البيت مسرعاً فمضينا بالسيارة في الشوارع ننادي باسم ديوك عبر نوافذ السيارة المفتوحة إلى أن بحّت أصواتنا. لم يذهب ريتشارد إلى عمله في اليوم التالي. ظل جالساً يحتضنني وأنا أبكي. وزّعنا ملصقات عليها صورة ديوك. وعرضنا جائزة مالية كبيرة. كنت أقف خارج البيت كل

ليلة وأنادي ديوك. كنت أتخيل أن أحداً ما قد أخذه، أو أن ديوك قفز من فوق السور حتى يلاحق شخصاً حاول دخول البيت. بل حتى بحثت في غوغل عن أية أخبار عن مشاهدة حيوانات مفترسة في المنطقة متسائلة إن كان ديوك قد وقع ضحية هجوم حيوان أكبر منه حجماً.

زعمت إحدى الجارات أنها رأته في شارع أوركاد. وزعم شخص آخر أنه لمحه في شارع ويلو. اتصل شخص برقم الهاتف الذي وضعناه على الملصق، ثم أتى لنا بكلب. لكن ذلك الكلب لم يكن ديوك. ثم بلغ بي الأمر أن اتصلت بواحد من الروحانيين الذين يهتمون بالحيوانات فقال لي إن ديوك كان في ملجأ للحيوانات في فيلادلفيا. لكن أحداً لم يستطع أن يرشدنا إلى ديوك. كما لو أن ذلك الكلب الذي يكاد يبلغ وزنه خمسين كيلوغراماً قد اختفى من حياتي بطريقة سحرية مثلما ظهر فيها.

كان ديوك مدرباً تدريباً ممتازاً. وليس من الممكن أن يكون قد هرب. ثم إنه كان سيهاجم أي شخص يحاول سرقته. لقد كان كلب حراسة!

لكن ذلك لم يكن ما فكرت فيه في الساعة الثالثة صباحاً عندما انسللت من السرير وسرت في الممر مبتعدة عن زوجي.

قبل اختفاء ديوك مباشرة، كان ريتشارد قد اتصل ليسألني عن القمصان. وقد افترضت آنذاك أنه يتصل بي من عمله رغم أنني لم أكن قادرة على التحقّق من ذلك. لم يعطني كلمتي المرور لهاتفيه الاثنين، ولم أطلب منه ذلك أبداً، وهكذا كنت غير قادرة على التحقق من سجل المكالمات لديه.

لكن السيدة لي استقبلتني بترحيبها المبتهج عندما ذهبت إلى المصبغة، وقالت لي: «ما أجمل أن أراك. اتصل زوجك قبل قليل وقلت له إن القمصان جاهزة... نشاء خفيف، كالعادة».

لماذا يتصل ريتشارد بالمصبغة ليتأكد من أنني لم أمرّ لجلب القمصان، ثم يتصل بي ليسألني إن كنت قد جلبتها.

لم أسأله عن الأمر مباشرة، لكني سرعان ما صرت عاجزة عن التفكير في أي أمر آخر.

غارت عيناي لكثرة الأرق. وعندما أفلح في الإغفاء قليلاً، بعض الليالي، كنت غالباً ما استيقظ فأجد ذراعي متدلية من حافة السرير وأصابعي تلمس المكان الخالي حيث اعتاد ديوك الاستلقاء.

صرت أشعر بنفسي مخدّرة معظم الوقت. كنت أنهض مع ريتشارد وأعدّ له القهوة؛ وكنت أشرب بضعة فناجين زائدة. كنت أقبّل زوجي مودعة عندما يخرج إلى العمل وأنظر إليه وهو يسير بخطواته واسعة صوب سيارته مهمهماً بأغنية ما.

بعد أسابيع من اختفاء ديوك، عندما كنت أزرع الأزهار بسأم شديد في فناء بيتنا الخلفي، وجدت مصادفة واحدة من ألعاب ديوك المفضلة: تمساح مطاطي أخضر اللون كان يحب أن يمضغه. ضممت التمساح إلى صدري وبكيت مثلما لم أبك منذ جنازة أبي.

عندما تمكّنت أخيراً من كفكفة دموعي، دخلت البيت. وقفت في ذلك الهدوء الكريه، وكان التمساح لا يزال في يدي. وبعدها، سرت في اتجاه غرفة المعيشة غير مكترثة بأن يترك حذائي آثار وحل على سجادتنا الجديدة، ثم وضعت لعبة ديوك على الطاولة في الممر حيث يضع ريتشارد مفاتيحه. أردته أن يرى التمساح لحظة عودته إلى البيت.

هذا ما لم أفعله بعد ذلك: لم أخلع ملابسي المتسخة بالتراب. ولم

هكتبة

أرتّب الصحف. ولم أطو الملابس المغسولة. ولم أُعد أدوات الحديقة إلى مكانها. لم أعبأ بإعداد السمكة والبازلاء والتورتولليني[1] التي كنت أعتزم إعدادها من أجل العشاء.

وهذا ما فعلته بدلاً من ذلك: أعددت لنفسي كأساً من الفودكا مع التونيك، ثم جلست في صدر الغرفة. انتظرت بينما كان ضياء النهار يتحوّل إلى عتمة الغسق. ثم سكبت لنفسي كأس فودكا آخر، من غير تونيك هذه المرة. لم أكن أشرب إلا عرَضاً. وحتى إذا شربت، فإنني لا أتناول إلا كأساً أو كأسين من النبيذ. شعرت بالكحول القوي يسري في جسدي.

بقيت ساكنة في مكاني عندما دخل ريتشارد من الباب آخر الأمر.

صاح يناديني: «نيللي».

للمرة الأولى منذ زواجنا، لم أجب بعبارة من نوع «أهلاً حبيبي»، ولم أسرع للترحيب به وتقبيله.

«نيللي؟». نطق اسمي هذه المرة كنوع من سؤال، لا كنداء.

أجبته آخر الأمر: «إنني هنا».

ظهر بباب الغرفة حاملاً تمساح ديوك المتّسخ بالوحل الذي لم يبق منه إلا نصفه.

«ماذا تفعلين وأنت جالسة هنا في الظلمة؟».

حملت كأسي وشربت ما كان باقياً فيه من الفودكا.

رأيته ينظر إلى ملابسي ـ بنطلون الجينز القديم ذو اللون الحائل والركبتين المتّسختين بالتراب، والقميص الفضفاض ذو الكمين القصيرين. وضعت كأسي على الطاولة من غير اهتمام بعدم وجود صينية تحته.

---

(1) نوع من المعجنات المحشوة باللحم أو بالجبن.

«حبيبتي، ما الأمر؟».

اقترب مني ووضع ذراعيه من حولي.

أحسست بدفئه الصلب وبدأ تصميمي يذوب ويتلاشى. كنت في أشد الغضب منه طيلة فترة بعد الظهر. لكن ما أردته الآن أكثر من أي شيء هو أن يكون الرجل الذي سبّب كربي كلّه إلى جانبي ليواسيني. صارت الاتهامات التي كانت تتبلور في ذهني غائمة ضبابية: كيف يمكن أن يكون ريتشارد قد فعل شيئاً رهيباً إلى هذا الحد؟ من جديد، ما عاد لشيء من ذلك كله أي معنى.

بدلاً من قول ما كنت أعتزم قوله، أجبته مسرعة: «إنني في حاجة إلى استراحة».

«استراحة؟»... ابتعد عني قليلاً... «استراحة من أي شيء؟...». رأيت حاجبيه مقطّبين.

أردت أن أقول له: من كل شيء، لكني أجبته: «من الكلوميد».

«أنت ثملة. ولا تعنين ما تقولين».

«صحيح، أظنني سكرت بعض الشيء. لكني عنيت ما قلته. لن أتناوله بعد الآن».

«ألا ترين أن هذا شيء يتعيّن علينا مناقشته نحن الاثنين. إنه قرار مشترك».

«وهل كان قراراً مشتركاً أن تتخلّص من ديوك؟».

مع خروج هذه الكلمات من فمي، عرفت أنني تجاوزت خطاً في علاقتنا.

لكن ما فاجأني كان مدى إحساسي بالراحة بعد أن قلت ذلك. كان

في زواجنا قواعد غير منطوقة، مثل كل زواج، وقد خرقت واحدة من أهم تلك القواعد: ألّا أتحدى ريتشارد.

أدرك الآن أن التزامي بتلك القاعدة كان هو ما يمنعني من سؤاله عن السبب الذي جعله يشتري بيتاً من غير أن أراه قبل ذلك، وعن السبب الذي يجعله على الدوام غير راغب في الحديث عن طفولته، إضافة إلى أسئلة أخرى كنت أحاول إبعادها عن ذهني.

لكن ريتشارد لم يكن وحده من وضع تلك القاعدة؛ لقد كنت شريكاً متعاوناً موافقاً. كم كان من الأسهل علي أن أكتفي بترك زوجي ـ الرجل الذي يجعلني دائماً أشعر بالأمان ـ يتولّى مسؤولية إدارة حياتنا.

لكني لم أعد أشعر بالأمان.

«ما الذي تقولينه ؟». كان صوت ريتشارد بارداً، محسوباً.

«لماذا اتصلت بالسيدة لي وسألتها إن كانت قمصانك جاهزة؟ لقد عرفت أنني لم أستلمها. فهل كنت تحاول جعلي أخرج من البيت؟».

«يا إلهي!...». نهض ريتشارد واقفاً على نحو مفاجئ.

كان عليَّ أن أرفع رأسي حتى أنظر إليه وهو منتصب فوقي وأنا جالسة في الكرسي.

«نيللي، أنت الآن غير منطقية على الإطلاق». كنت أرى يده الممسكة بالتمساح تضغط عليه وتشوّهه. بدا لي أن ملامحه تتصلب وأن عينيه تضيقان وشفتيه تنضغطان إلى الداخل. كان ذلك كما لو أن زوجي يختفي خلف قناع.

«وما علاقة المصبغة بديوك؟ وما علاقته بأن ننجب طفلاً؟ ولماذا أريد جعلك تخرجين من البيت؟».

لقد بدأت أتوه عن طريقي، لكني لم أكن قادرة على التراجع: «لماذا

سألتني إن كنت قد جلبت قمصانك في حين كنت تعرف بالفعل أنني لمأجلبها؟». كان صوتي حادّاً ومرتفعاً.

رمى بالتمساح على الأرض: «ما الذي تريدين قوله؟ أنت تتصرّفين بجنون. السيدة لي عجوز، وهي على عجلة من أمرها دائماً. لا بد أنك أسأت الفهم». أغمض عينيه لحظة قصيرة، وعندما فتحهما رأيته قد عاد ريتشارد من جديد. لقد زال القناع عن وجهه: «أنت مكتئبة. لقد تعرّضنا لخسارة كبيرة. كلانا كان يحب ديوك. وأنا أعرف أن أقراص الخصوبة ثقيلة عليك. أنت محقّة. فلنأخذ استراحة صغيرة».

كنت لا أزال في غاية الغضب تجاهه؛ لماذا أشعر كما لو أنه يصفح عني؟

قلت همساً: «أين هو ديوك؟ أرجوك، قل لي إنه حي. لا أريد أن أعرف إلا أنه في أمان. لن أسألك عنه بعد الآن أبداً».

«عزيزتي...». ركع ريتشارد إلى جانبي وضمّني بين ذراعيه... «إنه آمن بالطبع. إنه كلب شديد الذكاء والقوة. لعله الآن على مسافة بضع بلدات منا، ولعله يعيش مع أسرة جديدة تحبّه مثلما أحببناه. ألا تستطيعين تخيّله يجري خلف كرة تنس في حديقة بيت كبيرة؟». مسح الدموع الجارية على وجنتي... «دعينا نخلع عنك هذه الملابس المتّسخة ونذهب إلى الفراش».

نظرت إلى شفتَيْ ريتشارد الممتلئتين وهو يتكلّم، وحاولت أن أقرأ عينيه. كان عليَّ أن أتخذ قراراً؛ ولعل ذلك القرار أهم قرار واجهته في حياتي. إذا لم أتخل عن شكوكي فسوف يعني هذا أن كل ما آمنت به في ما يتعلّق بزوجي أو في ما يتعلّق بنا كان زائفاً، وأن كل لحظة على امتداد السنتين الماضيتين كانت كذبة شنيعة. لن أكون في حالة شك في ريتشارد فحسب، بل سأدمر غرائزي نفسها وأحكامي وأعمّق الحقائق عندي.

هكذا قررت أن أقبل ما يقوله ريتشارد لي. كان ريتشارد يحب ديوك وكان يعرف أيضاً كم أحبه. كان محقّاً؛ وأنا كنت مجنونة عندما ظننت أنه يمكن أن يفعل أي شيء بكلبنا.

انزاح عن جسدي التوتر الذي كان فيه، انزاح كلّه فتركني أحس كأنني ثقيلة وكثيفة كالإسمنت.

قلت لريتشارد وهو يأخذني إلى الطابق العلوي: «إنني آسفة».

عندما خرجت من الحمام بعد تغيير ملابسي، رأيت أنه قد أزاح الأغطية عن الفراش ووضع لي كأساً من الماء على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير.

«هل تريدين أن أستلقي هنا معك؟».

هززت رأسي وقلت له: «لا بد أنك جائع. يؤسفني أنني لم أحضر لك طعام العشاء».

قبّلني على جبهتي: «لا تدعي هذا الأمر يقلقك. نالي قسطاً من الراحة يا حبيبتي».

كان ذلك كأن شيئاً لم يحدث أبداً.

في الأسبوع الذي تلا ذلك، انتسبت إلى دورة جديدة للطبخ ـ مطبخ آسيوي هذه المرة ـ وانضممت أيضاً إلى لجنة تعليم الأطفال في النادي. كنا نجمع كتباً من أجل توزيعها على المدارس في مناطق مانهاتن التي لا تحظى بخدمات كافية. كانت المجموعة تلتقي وقت الغداء. وكان النبيذ يقدم في هذه الوجبات دائماً. عادة ما كنت الشخص الذي يسبق الجميع في إفراغ الكأس وطلب ملئها قبل الجميع. صرت أحمل علبة أدفيل في حقيبة يدي حتى أعالج الصداع الذي يسببه لي أحياناً تناول الشراب في النهار. كنت أنتظر تلك الاجتماعات بفارغ

الصبر لأنني أنال بعدها قيلولة؛ وهكذا كان لدي في تلك الأيام ما يشغلني عدة ساعات.

صارت أنفاسي برائحة النعناع دائماً، وصرت أستخدم قطرة لعينَيَّ حتى يكون الاحمرار قد زال من عيني عندما يحين موعد عودة ريتشارد إلى البيت.

فكرت في اقتراح اقتناء كلب آخر... ربما من نوع آخر. لكنني لم أقترح ذلك أبداً. وهكذا عاد بيتنا ـ من غير حيوانات ومن غير أطفال ـ مجرد بيت فحسب.

بدأت أكره ذلك البيت وأكره ذلك السكون المستمر الذي لا ينتهي.

مكتبة

الفصل السابع والعشرون

أضع البطاقة البريدية التي تحمل صورة الشيبرد الألماني على مكتب خالتي شارلوت. لقد أضعت وقتاً كثيراً. لا يمكنني أن أتأخر مرة أخرى. أضع رسالة إيمّا في حقيبة يدي. سوف أوصلها بعد انتهاء نوبة عملي في المحل. وعندما أبدأ السير في اتجاه وسط المدينة، أتخيل أنني أحس بثقلها يجذب سير الحقيبة المعلّق من كتفي.

يرن هاتفي عندما أكون قد بلغت منتصف الطريق. وللحظة قصيرة أظن بأن المتّصل ريتشارد. لكني أنظر إلى الشاشة فأرى رقم محل ساكس.

أتردّد، ثم أجيب على المكالمة وأقول مسرعة: «كدت أصل. خمس عشرة دقيقة بالحد الأقصى». تزداد خطواتي سرعةً.

تقول لوسيل: «فانيسا، لا أحبّ أن أقول لك هذا...».

«أنا آسفة جداً. لقد أضعت هاتفي. ثم...». أسمعها تتنحنح قليلاً فأسكت.

«لكن علينا أن نصرفك من العمل».

أقول يائسة راجية: «امنحيني فرصة واحدة أخرى...». بالنظر إلى وضع خالتي شارلوت، صرت الآن في حاجة إلى العمل أكثر من ذي

قبل... «لقد مررت بوقت عصيب، لكنني أعدك، أعدك بأن الأمور تتغير الآن».

«التأخّر عن العمل مشكلة. والتغيب المتكرر عن العمل مشكلة أخرى. ولكن إخفاء البضاعة المعروضة في المحل... ماذا كنت تعتزمين أن تفعلي بتلك الفساتين؟».

أوشك على إنكار الأمر، لكن شيئاً في صوتها يقول لي ألّا أجشّم نفسي عناء الإنكار. لعل أحدهم رآني آخذ فساتين ألكساندر ماكوين المزهرة البيض والسود وأخبئها في غرفة المستودع.

لا طائل من الأمر. ليس لديّ ما أدافع به عن نفسي.

«صار شيك حسابك النهائي جاهزاً. سوف أرسله لك بالبريد».

«في الحقيقة... هل يمكنني المرور حتى أستلمه بنفسي؟».

آمل أن أستطيع إقناع لوسيل عندما أقابلها شخصياً بأن تمنحني فرصة أخرى.

تتردّد لوسيل قليلاً: «لا بأس. لدينا بعض الازدحام في هذه اللحظة. هل يمكنك أن تكوني هنا بعد ساعة من الآن؟».

«بالتأكيد. أشكرك كثيراً».

صار لدي الآن وقت لإيصال الرسالة إلى مكتب إيمّا بدلاً من الانتظار إلى ما بعد العمل وتركها لها في مكان سكنها. لم تمض حتى الآن إلا أربع وعشرون ساعة منذ أن رأيت خطيبة ريتشارد، لكن هذا يعني أيضاً أن موعد زفافها قد اقترب يوماً كاملاً.

لا بد لي من استخدام هذا الوقت المتاح لي حتى أستعدّ للكلام مع لوسيل. لكني غير قادرة على التفكير إلا في قضاء هذا الوقت في الشارع أمام المكتب لأرى إن كانت إيمّا ستخرج لتناول قهوة أو لأداء مهمّة ما.

ربما أتمكّن أن أعرف من تعبير وجهها إن كان ريتشارد قد أخبرها عن زيارته لي.

دخلت هذا المبنى الرشيق المرتفع آخر مرة من أجل الحفل السنوي لمكتب ريتشارد... الليلة التي بدأ فيها كل شيء.

لكن لديّ ذكريات كثيرة أخرى عن هذا المكان: القدوم إليه من حضانة الأطفال لملاقاة ريتشارد والنظر إليه وهو ينجز اتصالاته الخاصّة بالعمل. كان صوته شديد التصميم حتى ليكاد يكون صارماً، لكنه كان ينظر إليَّ في الوقت نفسه ويتّخذ وجهه أشكالاً مضحكة من فوق السماعة. أتذكّر أيضاً كيف كنت آتي إلى هذا المكان من ويستشستر لكي أنضمّ إلى ريتشارد وزملائه على العشاء، وكيف كنت أتوقّف عندما أكون مارّة من هذه الناحية فأفاجئ ريتشارد بحضوري... عندها، كان يحتضنني سعيداً وأتعلّق به فترتفع قدميَّ عن الأرض.

أدفع الباب الدوّار وأقترب من مكتب حارس الأمن. ليست ردهة المدخل مزدحمة في هذا الوقت، عند العاشرة صباحاً. وهذا ما يريحني. لا أريد مصادفة أي شخص أعرفه هنا.

لديّ إحساس غامض بأنني أعرف هذا الحارس. وهكذا أترك نظارتي الشمسية على عينَيّ. أناوله المغلف الذي يحمل اسم إيمّا: «هل يمكنك تسليم هذه الرسالة في الطابق الثاني والثلاثين؟».

«لحظة واحدة...». يلمس شاشة الكمبيوتر على مكتبه ويكتب اسمها، ثم يرفع رأسه وينظر إليّ... «لم تعد تعمل هنا». يدفع المغلّف في اتجاهي عبر سطح الطاولة.

«ماذا؟ متى تركت العمل هنا؟».

«ليست لدي معلومات عن هذا الأمر يا سيدتي».

تدخل من خلفي موظفة توصيل من شركة UPS فينتقل انتباه الرجل إليها.

آخذ المغلف وأسير عائدة عبر ذلك الباب الدوار. إنّ في الفناء الخارجي المجاور مقعداً خشبياً صغيراً... كنت قد فكرت في انتظار إيمّا هناك. أنهار الآن على هذا المقعد.

لا يجوز أن يفاجئني هذا كثيراً. فأنا أفهم أن ريتشارد لن يريد أن تعمل امرأته، لا يريدها خاصة أن تعمل لديه! أتساءل لحظة إن كانت تعمل الآن في وظيفة أخرى، لكني أعرف أنها لن تبحث عن عمل آخر قبل زفافها القريب. وأنا واثقة أيضاً من أنها لن تعود إلى العمل بعد زواجها.

لقد بدأ عالمها بالتقلّص.

يجب أن أصل إليها الآن، فوراً. لقد هدّدتني بأن تطلب الشرطة إذا اقتربت من شقتها مرة أخرى؛ لكني غير قادرة الآن على جعل ذهني ينشغل بتلك العواقب.

أنهض واقفة وأفتح حقيبة يدي لكي أضع المغلف فيها. تمس أصابعي محفظتي. المحفظة التي فيها صورة ديوك.

أُخرِج الصورة الصغيرة الملوّنة من غلافها البلاستيكي الواقي. ينتابني غضب عنيف؛ ولو كان ريتشارد هنا الآن لانقضضت عليه وخمشت وجهه وزعقت بكل ما أعرفه من شتائم بذيئة.

لكني أرغم نفسي على العودة مرة أخرى إلى مكتب الحارس الأمني.

أسأله بأدب: «من فضلك، هل لديك مغلف؟».

يناولني مغلفاً من غير أي تعليق. أضع صورة ديوك داخل المغلف. ثم أبحث عن قلم في حقيبتي. لا أجد إلا قلم تخطيط العينين الرمادي فأستخدمه. أكتب «ريتشارد ثومبسون» على المغلف. يترك القلم الطري غير المدبب على الورق أثراً متزايد التشوش؛ لكني لا أبالي.

«الطابق الثاني والثلاثون. أعرف أنه لا يزال يعمل هنا».

يتناول الحارس المغلف وينظر إليه، لكنه لا يقول شيئاً ولا يظهر على وجهه أي تعبير، حتى لحظة ذهابي على الأقل.

يجب أن أذهب إلى محل ساكس، لكنني أعتزم الذهاب مباشرة إلى شقة إيمّا بما أن مهمتي هنا قد انتهت. أتساءل عمَّ تفعله في هذه اللحظة تحديداً. هل تحزم حقائبها استعداداً للانتقال. هل تشتري قميص نوم مثيراً من أجل شهر عسلها. هل تشرب قهوتها الأخيرة مع أصدقائها وتعدهم بأنها ستعود مرات كثيرة لرؤيتهم؟

تصطدم قدمي اليسرى بسطح الرصيف الصلب. أنقذي... تصطدم قدمي اليمنى بسطح الرصيف الصلب... إيمّا.

أسير مسرعة، ثم أزيد سرعتي. تتردد تلك الكلمتان في دماغي. أنقذي إيمّا... أنقذي إيمّا... أنقذي إيمّا...

لقد وصلت متأخّرة مرات كثيرة من قبل... عندما كنت في سنتي الأخيرة في فلوريدا في أخوية الفتيات. لن يحدث ذلك مرة أخرى.

ليلة اختفاء ماغي، عدت من بيت دانييل إلى بيت الطالبات لحظة كانت المنتسبات الجدد راجعات إليه مبلّلات مقهقهات تفوح منهن رائحة البحر. صاحت ليزي: «ظننت أنك كنت مريضة!».

اندفعت مخترقة مجموعة الفتيات الجديدات وصعدت إلى الطابق العلوي، إلى غرفتي. كنت ممزقة، غير قادرة على التفكير بشكل واضح. لست أعرف ما جعلني ألتفت وأنظر إلى الفتيات اللواتي كن في تلك اللحظة يجفّفن أنفسهن بمناشف رمتها فتاة ما إليهن من أعلى السلم.

استدرت سريعاً وصحت: «ماغي!».

غمغمت ليزي غير واثقة: «إنها هنا... إنها هنا...». راح صدى تلك

الكلمتين يتردّد في رأسي بينما بدأت عيون بقية الأخوات تفتش بين وجوه الفتيات في القاعة. خبت ضحكاتهن شيئاً فشيئاً وهن ينتقلن من وجه إلى وجه باحثات عن تلك التي لم تكن هناك.

تبيّنتْ قصة ما حدث على الشاطئ من خلال نتف وأجزاء سمعتها من هذه وتلك... ذكريات قريبة مشوّهة بفعل الكحول وبفعل البهجة التي تحوّلت إلى فزع. كان بعض الفتيان من أخوية الطلاب قد تسلّلوا خلف الفتيات أثناء سيرهن في اتجاه الشاطئ وقد دبت الحماسة فيهم بعد رؤية تلك اللمحة من حمالة الثديين الوردية المثيرة. كانت المنتسبات الجديدات قد خلعن ملابسهن كما أُمرن، ثم جرين إلى المحيط.

صحت برئيسة الأخوية: «تفقّدي غرفتها، وسوف أذهب إلى الشاطئ».

ظلّت ليزي تقول لي ونحن نجري في اتجاه المحيط: «لقد رأيتها تخرج من الماء».

لكن الفتيان رأوها أيضاً. كان الأولاد في ذلك الوقت قد بلغوا رمل الشاطئ صائحين ضاحكين فجمعوا قطع ملابس الفتيات المبعثرة هنا وهناك وأبعدوها عن متناول الفتيات العاريات. كان ذلك مقلباً؛ لكننا لم نخطط له.

«ماغي!». بدأت أصرخ عندما صرنا على الشاطئ تماماً.

كانت الفتيات تصرخن في ذلك الوقت؛ واندفع بعضهن ممن كن لا يزلن في ملابسهن لمطاردة الأولاد. حاولت المنتسبات الجديدات تغطية أنفسهن بقمصان أو بفساتين تساقطت من الأولاد وهم ينسحبون على الرمل مبتعدين عن الماء. حصلت الفتيات أخيراً على ملابسهن وعدن متراكضات إلى البيت.

صاحت ليزلي: «إنها ليست هنا، فلنذهب إلى البيت فلعلها عادت في غيابنا».

في تلك اللحظة، رأيت البلوزة القطنية البيضاء بكرزاتها الصغيرة ملقاة على الرمل وإلى جانبها بنطلون ليزلي الذي في مثل لونها.

أضواء تتراقص، زرقاً وحمراً. وغطاسون يفتشون في المحيط ويجرّون شباكاً عبر المياه، وضوء كشّاف يتراقص شعاعه على الأمواج.

ثم زعيق مرتفع فزع عندما أُخرجت جثة من الماء. كان ذلك زعيقي.

استجوبتنا الشرطة كلنا، واحدة فواحدة، محاولة تكوين قصة ما جرى. ملأت الصحيفة المحلية أربع صفحات بمقالات وأعمدة وصور لماغي. وعرضت محطة إخبارية من ميامي خبراً مصوراً عن بيت أخوية الفتيات، وبثت تقريراً خاصاً عن مخاطر الشرب خلال الطقوس التي تقام في أسبوع قبول المنتسبات الجديدات. لقد كنت المديرة الاجتماعية، وكنت أيضاً أخت ماغي الكبيرة. أوردت الصحافة هذه المعلومات. وظهر اسمي مطبوعاً. ظهرت صورتي أيضاً.

أرى دائماً في ذهني ماغي النحيلة المنمّشة تتراجع إلى مياه المحيط محاولة إخفاء جسدها فيه. أراها تدخل عميقاً في الماء، ثم تفقد توازنها على الرمال غير المستقرة. تتكسّر موجة من فوقها. لعلها تصرخ، لكن صوت صرختها يختلط بصرخات كثيرة أخرى. تبتلع الماء المالح. تقع وتنقلب، ثم تفقد قدرتها على معرفة الاتجاهات في سواد الليل. لا تستطيع الرؤية. لا تستطيع التنفس. تأتي موجة أخرى فتطويها تحتها.

اختفت ماغي. لكن، لعلها لم تكن لتختفي لولا أنني اختفيت قبلها.

سوف تختفي إيمّا أيضاً... إذا تزوجت ريتشارد. سوف تفقد أصدقاءها. ستصير غريبة عن أسرتها. وسوف تصير منفصلة عن نفسها، مثلما صرت أنا. عندها، سوف يسوء الأمر كثيراً.

ظل عقلي يردّد... أنقذي إيمّا.

الفصل الثامن والعشرون

أدخل عبر باب المستخدمين، ثم آخذ المصعد إلى الطابق الثالث. أجد لوسيل تعيد طي بعض الكنزات. لديها نقص في العاملين، بسببي أنا. إنها تقوم الآن بعملي.

أمد يدي إلى كدسة كنزات الكشمير الفضية: «إنني آسفة حقاً. أنا في حاجة إلى هذا العمل. يمكنني توضيح ما كان يحدث...».

تستدير لوسيل في اتجاهي عندما يضمحل صوتي ويصمت. أحاول قراءة تعبير وجهها وهي تنظر إلى شكلي: إنها الحيرة! هل كانت تظن بأنني سأكتفي بأخذ الشيك والذهاب؟ تتوقف نظرة عينيها عند شعري فألتفت بحركة غريزية إلى المرآة التي على الجدار. إنها حائرة طبعاً... لم ترَني أبداً إلا بشعر داكن.

«فانيسا، أنا آسفة فعلاً. لكني منحتك فرصة أخرى مرات عدة».

كنت موشكة على رجائها من أجل فرصة أخرى، لكني رأيت المكان ممتلئاً بالزبائن. ورأيت بائعات أخريات ينظرن إلينا. لعل واحدة منهن أخبرت لوسيل عن تلك الفساتين التي أخفيتها.

لا طائل من الأمر كله! أضع الكنزات من يدي.

تأتي لوسيل بالشيك وتسلّمني إياه. تقول لي: «حظّاً طيّباً يا فانيسا».

وخلال سيري عائدة إلى المصعد، أرى الفساتين ذات الخطوط البيض والسود معلّقة في مكانها السابق. أحبس أنفاسي إلى أن أتجاوزها بسلام.

* * *

كان ذلك الفستان مناسباً لي تماماً، كأنه قفّاز... كأنه مفصَّلٌ تفصيلاً وفق انحناءات جسدي.

في ذلك الوقت، كانت قد مرّ على زواجنا عدة سنوات. انقطعت علاقتي مع سامانثا. ولم يظهر أي تفسير لاختفاء ديوك. قامت أمي أيضاً، على نحو غير متوقع، بإلغاء رحلة الربيع لزيارتنا وقالت إنها تعتزم الذهاب إلى نيومكسيكو في رحلة جماعية.

لكني كنت قد بدأت أعود إلى الحياة بدلاً من الانسحاب منها.

لم أتناول رشفة كحول واحدة منذ قرابة ستة أشهر. كما أن الانتفاخات التي كانت ظاهرة في عدة أماكن في جسدي اختفت شيئاً فشيئاً مثلما يتسرّب غاز الهليوم تسرّباً بطيئاً من منطاد. بدأت أنهض في وقت مبكّر كل صباح لكي أجري عبر الطرقات المحيطة والتلال الصغيرة في حيّنا.

كنت قد أخبرت ريتشارد أيضاً أنني بدأت أركّز على استعادة صحتي من جديد. أظنه صدَّقني وقبل سلوكي الجديد على أنه تحوّل إيجابي. فبعد كل حساب، كان ريتشارد هو الذي يطبع لي الفواتير التي تأتيه بالبريد الإلكتروني من النادي كل شهر قبل اقتطاعها من بطاقته الائتمانية. لقد بدأ يترك لي تلك الفواتير على طاولة المطبخ بعد أن يضع إشارات على ما فيها من مشروبات كحولية. اتضح لي أنني ما كنت في حاجة إلى قطرة العين لإخفاء احمرار عينيّ ولا إلى رذاذ النعناع لتمويه رائحة فمي. كان يعرف تماماً الكمية التي أشربها خلال لقاءات اللجنة على الغداء.

لكني كنت أعيش تغيراً يتجاوز صحتي الجسدية. لقد بدأت أيضاً

عملاً تطوّعياً جديداً. كنت أذهب بالقطار مع ريتشارد كل يوم أربعاء، ثم آخذ سيارة تاكسي إلى الحي الشرقي حيث أقرأ قصصاً للأطفال ضمن برنامج «البداية الأولى». تعرّفت على منظّمي هذا البرنامج عندما كنت أقوم بإيصال الكتب التي توزّعها لجنة النادي. لم أكن أعمل مع الأطفال إلا بضع ساعات في الأسبوع. لكن هذا العمل منحني هدفاً. كانت العودة إلى المدينة منعشة، منشطة أيضاً. وكنت أشعر بأن ذاتي القديمة قد بدأت تعود إلي. كنت أشعر بهذا أكثر من أي وقت مضى منذ شهر عسلي.

«افتحيها»... هكذا قال لي ريتشارد ليلة ذهابنا إلى حفل آلفين آيلي عندما نظرت إلى العلبة البيضاء اللامعة المربوطة بشريط أحمر على شكل فراشة.

رفعت غطاء العلبة الحريري. بعد أن تزوجت ريتشارد، صرت أعرف كيف أميّز الملمس والتفاصيل التي تميز ملابسي الأساسية القديمة التي كنت أشتريها من محلات H&M عن القطع الفاخرة التي تحمل أسماء مصمميها. كان هذا الفستان من أكثر الفساتين التي رأيتها أناقة. كان فيه سر أيضاً. يبدو من بعيد كأنه فستان عليه رسوم بسيطة بالأسود والأبيض. لكن ذلك كان خدّاعاً. عند النظر إليه عن قرب، يتبيّن أن كل خيط فيه قد اتخذ مكانه لغاية محددة... غرزة بعد غرزة... لخلق عالم عجائبي مزهر.

قال ريتشارد: «البسيه الليلة. تبدين فاتنة».

ارتدى بدلته الرسمية السوداء فأزحت يده جانباً عندما كان يهم بربط عقدة عنقه.

ابتسمت وقلت له: «دعني أربطها». يبدو بعض الرجال في ربطة العنق السوداء أشبه بصبيان ذاهبين إلى حفل التخرج بأنوفهم اللامعة وشعرهم المسرّح إلى الخلف. ويبدو آخرون أشبه بمستعرضين

هكذا

معجبين بأنفسهم... أولئك الذين يحاولون أن يكون كل شيء في مكانه مئة بالمئة. لكن ريتشارد كان يمتلك الشيء الحقيقي. عقدت ربطة العنق على شكل فراشة، ثم قبلته تاركة أثراً وردياً لامعاً على شفته السفلى.

أستطيع الآن رؤيتنا في تلك الليلة كما لو أنني أنظر إلينا من أعلى: نخرج من السيارة الفاخرة إلى الثلج الخفيف المتساقط ونسير بذارعَيْن متشابكتين فندخل الصالة. نجد بطاقة طاولتنا التي كُتب عليها بخط مزيَّن بالأزهار ـ السيد والسيدة ثومبسون: الطاولة رقم 16 ـ نتوقّف ضاحكين لكي تُلتقط صورة لنا. نقبل كأسَيْ شامبانيا يقدمهما إلينا نادل يتجول بين الضيوف.

ثم، أوه... تلك الرشفة الأولى ـ تلك الفقاعات الذهبية تتفجّر في فمي، وذلك الدفء ينساب في حلقي. كان مذاقها كأنها بهجة مسكوبة في كأس.

بعد أن جلسنا ننظر إلى الراقصين يقفزون ويتحلّقون، يلوّحون بأذرعتهم كالأمواج وتتحرك سيقانهم ذات العضلات البارزة دائرة في دورات سريعة كأنها مغازل، وتتلوّى أجسادهم متخذة أشكالاً لا تصدّق بينما يتعالى قرع الطبول المحموم. لم أدرك أنني أتمايل أماماً وخلفاً وأصفق تصفيقاً خفيفاً إلى أن ضغطت يد ريتشارد ضغطة خفيفة. كان يبتسم لي، لكنني شعرت بموجة من الحرج. لم يكن أحد غيري يتحرّك مع الموسيقى.

عندما انتهى العرض، كان هناك مزيد من كؤوس الكوكتيل والمقبلات. تحدّثنا، أنا وريتشارد، مع بعض زملائه. كان أحدهم، رجل أبيض الشعر اسمه بول، عضواً في مجلس إدارة الشركة المنظّمة للحفل، وقد حجز طاولة للعشاء. كنا من بين ضيوفه إلى تلك الطاولة.

اختلط الراقصون بالضيوف. كانت أجسادهم منحوتات نابضة بالحياة فبدوا كأنهم آلهة نزلوا من السماء.

في هذا النوع من المناسبات الاجتماعية، عادة ما يؤلمني وجهي آخر الليل لكثرة الابتسام. كنت أحاول أن أبدو مهتمة بالأحاديث تعويضاً عن عدم قدرتي على قول الكثير، خاصة لحظة ذلك الصمت الثقيل الذي يعقب سؤالاً لا مهرب منه... السؤال الذي يظنه الغرباء دائماً سؤالاً عادياً لا يحمل أية أذية: «هل لديك أطفال؟». لكن بول كان مختلفاً. عندما سألني عن عملي وقلت له إنني أعمل متطوعة في ذلك البرنامج، لم يقل لي «أوه، شيء لطيف»، ولم ينصرف عني ليبحث عن شخص أكثر أهمية. سألني: «كيف بدأت العمل التطوعي؟». فوجدت نفسي أخبره عن السنوات التي أمضيتها معلّمة في حضانة الأطفال وعن عملي التطوّعي الحالي مع برنامج «البداية الأولى».

قال لي: «لقد ساهمت زوجتي في تأمين التمويل من أجل مدرسة مستقلة[1] جديدة رائعة لا تبعد كثيراً عن هذا المكان. يجب أن تفكّري في المشاركة في نشاطاتها».

تعجبني الفكرة كثيراً. لقد اشتقت إلى التعليم.

امتدت يد بول إلى جيب سترته وأخرج منها بطاقته: «اتصلي بي الأسبوع القادم». انحنى مقترباً مني قليلاً وهمس: «عندما أقول إن زوجتي ساهمت في تأمين التمويل أعني أن زوجتي قالت لي أن أحرر لهم شيكاً بمبلغ كبير. إنهم مدينون لنا». ظهر أثر ابتسامة عند زاويتَيْ عينيه، فابتسمت له. كنت أعرف أنه واحد من أكثر الرجال الموجودين في القاعة نجاحاً، وأنه لا يزال يعيش زواجاً سعيداً مع زوجته التي كانت حبيبته منذ المدرسة... امرأة ابيضّ شعرها كانت في تلك اللحظة تتحدّث مع ريتشارد.

---

(1) المدرسة المستقلة: نوع من المدارس في الولايات المتحدة يؤسسه معلمون أو أهالي أطفال أو مجموعة من أفراد المجتمع المدني ويتلقى تمويلاً عامّاً بموجب عقد مع السلطات المحلية أو الوطنية.

تابع بول قائلاً: «سوف أقوم باتصالاتي. وأراهن أنني أستطيع أن أجد مكاناً لكِ. إن لم يكن الآن، فربما في العام القادم».

اقترب نادل يحمل صينية فقدم لنا كأسين من النبيذ. ناولني بول كأساً وقال: «في صحتك، فلنشرب نخب بدايات جديدة». أسأت التقدير عندما قرعت كأسي بكأسه. تحطم الزجاج الرقيق ولم يبق في يدي غير ساق الكأس بنهايتها المسننة. أما النبيذ فسال على ذراعي.

«آسفة جداً...»، قلت مسرعة عندما اندفع النادل عائداً وقدم لي بعض المناديل التي كانت على الصينية ثم أخذ ساق الكأس من يدي.

قال بول: «بل هي غلطتي أنا. لم أحسن تقدير قوتي! أنا من يجب أن يكون آسفاً. انتظري، لا تتحرّكي. هنالك قطع زجاج على فستانك».

ظللت واقفة مثلما كنت في حين راح يلتقط نثرات الزجاج عن نسيج الفستان ويضعها في صينية النادل. توقّفت الأحاديث الجارية حولنا لحظة واحدة، لكنها عادت فتواصلت من جديد. لكني ظللت أشعر بانتباه الجميع منصبّاً عليّ. وددت لو أستطيع الذوبان والاختباء في تلك السجادة التي كنت واقفة عليها.

أتى ريتشارد ووقف إلى جانبي: «دعيني أساعدك!...». بدأ يجفف ثوبي المبتل بالنبيذ... «أمر حسن أنك لم تكوني تتناولين نبيذاً أحمر».

ضحك بول، لكن ضحكته بدت مفتعلة. كان واضحاً لي أنه يحاول إزالة الحرج الذي اكتنف تلك اللحظة... «حسناً، الآن صرت مديناً لك حقاً بتلك الوظيفة...». نظر إلى ريتشارد وقال: «كانت زوجتك اللطيفة تخبرني كم هي مشتاقة إلى التعليم».

كوّر ريتشارد المنديل الرطب في يده ووضعه في صينية النادل، ثم صرفه قائلاً: «شكراً»، ثم أحسست بيده على أسفل ظهري وهو يقول لبول: «إنها ناجحة مع الأطفال». انتبه بول إلى زوجته التي كانت تلوّح له

بيدها فقال لي: «رقم هاتفي معك. فلنتكلم عمَّ قريب».

لحظة ابتعاده عنا، مال ريتشارد صوبي وقال لي بصوت منخفض: «لماذا تشربين بهذه الكثرة يا حبيبتي؟». كانت كلماته بريئة من كل توتّر، لكن سكون جسده كان غير طبيعي.

أجبته سريعاً: «لم أشرب كثيراً».

«بحسب ما رأيت فقد شربت ثلاث كؤوس من الشامبانيا. ثم شربت ذلك النبيذ كله». زاد ضغط يده على أسفل ظهري وهمس في أذني: «انسي أمر العشاء. فلنعد إلى البيت».

«لكن... بول، حجز الطاولة. سوف يظلّ مقعدانا خاليين. أعدك بأن أشرب الماء فقط».

قال ريتشارد بهدوء: «أظن من الأفضل أن نذهب. بول سيتفهّم الأمر». مضيت لأجلب دثاري. وبينما كنت أنتظر، رأيت ريتشارد يقترب من بول ويقول له شيئاً ثم يضرب بيده على كتفه. قلت في نفسي إن ريتشارد يعتذر نيابة عني، لكن بول سيدرك ما بين السطور: على ريتشارد أن يعيدني إلى البيت لأنني ثملت إلى حد لا يسمح لي بالبقاء على العشاء.

لكني لم أكن ثملة!

كل ما في الأمر إن ريتشارد أراد أن يظنني الجميع أنني ثملة!

قال لي ريتشارد عندما عاد: «كل شيء على ما يرام». كان قد طلب سيارتنا؛ وكانت تنتظرنا أمام المبنى.

الآن، صار تساقط الثلج أكثر كثافة. ورغم أن سائقنا قاد السيارة ببطء في الشوارع التي صارت شبه خاوية، إلا أنني شعرت بالغثيان. أغمضت عينيّ واستندت على باب السيارة بقدر ما سمح لي حزام الأمان. تظاهرت بالنوم، لكني كنت واثقة تماماً من أن ريتشارد أدرك أنني لا أريد مواجهته.

قد يتغاضى عن الأمر... قد يتركني أصعد إلى غرفة النوم وأرتمي في السرير.

لكني تعثّرت وأمسكت بالدرابزون الحديد بينما كنت أصعد الدرجات المفضية إلى باب البيت.

قلت مرتبكة: «إنه حذائي الجديد. لست معتادة عليه بعد».

قال لي ساخراً: «بالطبع، إنه الحذاء! لا يمكن أن يكون السبب تلك الكؤوس كلّها على معدة فارغة. كانت تلك مناسبة عمل يا نيللي. كانت ليلةً مهمةً بالنسبة إليَّ».

وقفت صامتة خلفه وهو يفتح قفل الباب. وعندما صرت في الداخل، جلست على المقعد الصغير في الردهة فخلعت حذائي. وضعت فردتي الحذاء جنباً إلى جنب على الدرجة الأولى بحيث صار كعباهما متحاذيين تماماً، ثم خلعت دثاري وعلقته في الخزانة.

كان ريتشارد لا يزال واقفاً هناك عندما أغلقت الخزانة واستدرت: «يجب أن تأكلي شيئاً. تعالي!».

تبعته إلى المطبخ حيث أخرج زجاجة ماء معدني، وناولني إياها صامتاً. فتح إحدى الخزائن وأخرج علبة بسكويت من غير دسم أو سكر.

بسرعة، أكلت قطعة من البسكويت وقلت له: «صرت الآن أحسن. كنت محقاً في إعادتي إلى البيت... لا بد أنك جائع أيضاً. هل تريد أن أضع لك بعض الجبن؟ لقد اشتريته اليوم من سوق الفلاحين».

«لا أريد شيئاً». كنت أعرف أن ريتشارد موشك على الاختفاء مثلما كان يفعل عندما جرت بيننا مشاجرات أخرى كنت أحاول نسيانها. كان يبذل كل جهده حتى يمنع غضبه من الظهور... كان يحاول ابتلاعه.

قلت له بسرعة محاولة إزالة انزعاجه: «في ما يتعلق بالعمل... عرض عليَّ بول أن يعرفني على الأشخاص الذين يديرون إحدى المدارس

المستقلة. من الممكن أن يكون عملاً بوقت جزئي، ومن الممكن أيضاً ألّا يحدث ذلك أبداً».

أومأ ريتشارد برأسه بحركة بطيئة: «هل هناك سبب خاص يجعلك راغبة في الإكثار من الذهاب إلى المدينة؟».

نظرت إليه... من بين كل الأشياء التي كان يمكن أن يقولها، لم أتوقّع هذا على الإطلاق: «ماذا تعني؟».

«ذكر لي شخص من الجيران أنه رآك في محطة القطار. قال إنك كنت متأنقة، شيء غريب لأنني اتصلت بك ذلك الصباح فقلت لي إنك لم تردّي على الهاتف لأنك كنت تسبحين في النادي».

لم أستطع إنكار ذلك. إذا حاولت الكذب، فسوف يمسك بي عقل ريتشارد. تساءلت في نفسي: أي جار هذا؟ كانت المحطة شبه خالية في ذلك الوقت من النهار.

«كنت أسبح في ذلك الصباح. لكني ذهبت بعد ذلك لرؤية خالتي شارلوت. كانت زيارة قصيرة».

هز ريتشارد رأسه: «طبعاً، طبعاً. بسكويتاً أخرى؟ لا؟». أعاد غطاء العلبة المنزلق... «ما من سبب لعدم زيارة خالتك؟ كيف حالها؟».

أجبته سريعاً وقد بدأ نبض قلبي يهدأ قليلاً: «جيّدة...». سوف يتغاضى عن الأمر كله: لقد صدّقني... «شربت الشاي عندها في شقتها».

فتح ريتشارد الخزانة ليعيد علبة البسكويت فصار الباب الخشبي بيننا وبقيت لحظة غير قادرة على رؤية وجهه.

كان ينظر إليّ عندما أغلق الباب. كان وجهه شديد القرب من وجهي. أحسست بأن عينيه الضيقتين تحرقان عينيّ: «ما لا أستطيع فهمه هو أنك انتظرتني إلى أن ذهبت إلى عملي، ثم لبست وتأنّقت وذهبت بالقطار إلى المدينة، ثم عدتِ في الوقت المناسب لكي تحضري طعام العشاء.

وبعدها جلست معي تأكلين اللازانيا من غير أن تفكّري مرة واحدة بأن تذكري لي أنك زرت خالتك...». سكت لحظة قصيرة... «أين ذهبتِ حقّاً؟ مع من كنتِ؟».

سمعت صوتاً يشبه صراخ طائر، ثم أدركت أنني صاحبة ذلك الصوت. كان ريتشارد يضغط على معصمي ويلويه وهو يتكلم معي.

نظر إلى الأسفل، ثم ترك يدي على الفور. إلا أن بقعاً بيضاً ظلت ظاهرة في المكان الذي كانت أصابعه عليه. بدت لي كأنها حروق.

«إنني آسف...». تراجع خطوة إلى الخلف. مرر أصابعه في شعري. زفر ببطء... «لكن، لماذا كذبتِ عليّ بحق الشيطان؟».

كيف أخبره بالحقيقة؟ كيف أقول له إنني لم أكن سعيدة وإن كل شيء قدّمه لي لم يكن كافياً؟ لقد أردت مقابلة شخص أستطيع أن أناقش معه مخاوفي إزاء زواجي. لقد أصغت إليَّ المرأة التي ذهبت إليها بكل انتباه، ثم طرحت عليَّ بضعة أسئلة تثير التفكير. لكني كنت أعرف أن جلسة واحدة معها لن تكون كافية. كنت أعتزم أن أذهب خفية إلى المدينة بعد شهر حتى أراها مرة أخرى.

لكن الوقت قد فات على اختلاق عذر يمكن تصديقه أبرّر به كذبي.

لقد أمسك بي ريتشارد.

لم أر يده المفتوحة آتية إلى أن اصطدمت بوجهي صدمة شديدة مرتفعة الصوت.

لم أكد أنم طيلة الليتين اللتين أعقبتا ذلك. كان رأسي ينبض ألماً وتورَّم حلقي لكثرة البكاء. غطيت الكدمات التي على معصمي بأكمام القميص الطويلة، ووضعت مزيداً من كريم الوجه على الدوائر الداكنة

تحت عيني. لم أكن قادرة على التفكير إلا في ما إذا كان عليّ أن أبقى مع ريتشارد أو أن أحاول تركه.

عندها، بينما كنت أحاول القراءة في السرير من غير أن أفهم أيّ كلمة في الصفحة التي أمامي، نقر ريتشارد باب غرفة نوم الضيوف التي كنت فيها نقراً خفيفاً، ثم فتحه. رفعت رأسي لأقول له أن يدخل، لكني رأيت التعبير الذي على وجهه فذابت كلماتي.

كان هاتف البيت اللاسلكي في يده. قال لي: «إنها أمّك...». تغضَّن وجهه... «أقصد إنها خالتك شارلوت. وهي تتصل الآن...».

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، أي إنها تجاوزت موعد نوم خالتي المعتاد. عندما تكلّمت مع أمي آخر مرة، قالت لي إنها في حالة جيدة، لكنها لم تردّ على آخر اتصالاتي.

مد ريتشارد يده بالهاتف: «يؤسفني هذا كثيراً يا عزيزتي».

كان مد يدي والإمساك بالهاتف من أصعب الأشياء التي اضطررت إلى فعلها في حياتي كلها.

الفصل التاسع والعشرون

بعد وفاة أمي، كان ريتشارد كل ما أردت أن يكونه.

طرنا إلى فلوريدا مع خالتي شارلوت من أجل حضور الجنازة. حجز ريتشارد جناحاً في فندق مع غرف متلاصقة حتى نكون كلنا معاً. عندما ودّعتها الوداع الأخير، رحت أتذكّر كيف كان شكل أمي في أسعد أوقاتها... في المطبخ تقرقع بالقدور أو تنثر التوابل في طبق من الأطباق، أو تغني لي في صباحات أغنية مضحكة حتى توقظني، أو تضحك وهي تمسح عن وجهها الماء الذي رشه عليها ديوك يوم حمّامه. حاولت أن أتذكّر صورتها ليلة زفافي عندما سارت على رمل الشاطئ عارية القدمين وكان وجهها متجهاً صوب الشمس الغاربة. لكن صورة أخرى ظلّت ملحّة على الحضور في ذهني: صورة أمي عندما ماتت وحيدة على الأريكة وإلى جانبها زجاجة أقراص دواء فارغة، وصوت التلفزيون مرتفعاً.

لم تترك رسالة... وهكذا، بقينا مع أسئلة لا سبيل إلى الإجابة عليها.

عندما انهارت خالتي شارلوت وبكت عند القبر لائمة نفسها على جهلها بأن حالت أمي قد ساءت، راح ريتشارد يواسيها قائلاً: «لا ذنب لك على الإطلاق. لا ذنب لأحد على الإطلاق. لقد كانت تتحسّن. لقد كنت دائمة الاهتمام بأختك؛ وكان حبّكِ محسوساً لديها».

اهتم ريتشارد أيضاً بالأمور الإدارية وتدبّر أمر بيع البيت القرميدي الصغير الذي ترعرعتُ فيه؛ أما أنا وخالتي شارلوت فقد اهتممنا بحاجيات أمي الشخصية.

كانت بقية البيت في حالة مقبولة نسبياً، لكن الفوضى عمّت غرفة أمي... كتب وقطع ملابس متناثرة في كل مكان. أدركت من فُتات الخبز في سريرها أنها كانت تتناول معظم وجباتها في الفراش خلال الآونة الأخيرة. وعلى الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، تزاحمت فناجين قهوة قديمة وكؤوس ماء كثيرة. رأيت حاجبَيْ ريتشارد يرتفعان دهشة عندما رأى هذه الفوضى. لكن الشيء الوحيد الذي قاله: «سوف أتصل مع واحدة من شركات التنظيف حتى تهتم بهذا المكان».

لم آخذ الكثير من حاجيات أمي: اقترحت خالتي شارلوت أن تختار كل واحدة منا بعض أوشحتها؛ كما انتقيت لنفسي أيضاً بضع قطع من حليّها. كانت صورنا العائلية القديمة الشيء الوحيد الذي أردت أخذه، إضافة إلى اثنين من كتب الطبخ المهترئة التي كانت أمي تحبها كثيراً.

كنت أعرف أيضاً أن عليّ أخذ بعض الأشياء من غرفتي القديمة التي كانت قد تحوّلت إلى غرفة نوم للضيوف. لقد تعمّدت ترك بعض الأشياء على رف خزانتي. راحت خالتي شارلوت تنظّف البراد، وكان ريتشارد يتحدّث على الهاتف مع وكيل عقاري، فأتيت بالسلم الصغير وصعدت عليه حتى أصل إلى ذلك الرف المرتفع. ألقيت بشعار أخوية الفتيات في كيس قمامة، ثم ألقيت فيه سجلّ درجاتي الدراسية في الكلّية وآخر الأوارق والواجبات التي قدّمتها. ألقيت في الكيس أيضاً بطاقات الشهادات التقديرية التي حصلت عليها في سنواتي المدرسية الأولى، ثم مددت يدي إلى آخر الرف حتى أخرج شهادة الكلية التي لا تزال ملفوفة على شكل أسطوانة ومربوطة بشريط صار لونه باهتاً.

رميتها حتى من غير أن أنظر فيها أبداً.

تساءلت عن السبب الذي جعلني أحتفظ بها بعد هذه السنين كلها.

لم أكن قادرة على النظر إلى سجل الدرجات الدراسية أو إلى شارة أخوية الفتيات من غير التفكير في ماغي. وما كنت قادرة على النظر في شهادتي من غير التفكير في ما حدث يوم تخرّجي.

كنت أربط الكيس عندما دخل ريتشارد غرفتي وقال لي: «أفكر في الخروج لشراء طعام للعشاء...». نظر إلى الكيس الذي في يدي... «هل تريدين أن أرمي هذا الكيس في القمامة؟».

تردّدت لحظة ثم ناولته الكيس وقلت: «بالتأكيد».

رأيته يخرج مبتعداً بآخر ما بقي لي من أيامي في الكلية، ثم راحت عيناي تنتقلان في أرجاء الغرفة الخاوية. لا تزال بقعة الرطوبة على السقف ظاهرة؛ وإذا أغمضت عينيَّ، أكاد أستطيع تخيل قطتي السوداء متجمعة على نفسها إلى جانبي فوق لحافي المخطط بالوردي والبنفسجي وأنا جالسة أقرأ كتاباً لجودي بلوم.

كنت أعرف أنني لن أرى هذا البيت بعد ذلك أبداً.

عدنا إلى فندقنا في تلك الليلة. كنت مستلقية في حوض الحمّام الحارّ، وأتى لي ريتشارد بفنجان من البابونج فتناولته شاكرة له. على الرغم من حر ذلك اليوم في فلوريدا فقد بدا لي أنني غير قادرة على الإحساس بالدفء.

«هل أنت صامدة يا حبيبتي؟». كنت أعرف أن سؤاله هذا لا يشير إلى وفاة أمي وحدها.

هززت كتفي وقلت: «لا بأس».

ركع ريتشارد إلى جانب الحوض ومد يده ليتناول ليفة الحمّام:

«يقلقني أنك لست سعيدة في الآونة الأخيرة. لا أريد إلا أن أكون زوجاً جيّداً لك. لكني أعرف أنني لست على الدوام كذلك. أنت تشعرين بالوحدة لأنني أعمل ساعات طويلة، ثم إن مزاجي...». ظهرت بحّة في صوت ريتشارد. تنحنح، ثم بدأ يمسح ظهري بلطف... «إنني آسف يا نيللي. لقد كنت متوتراً مضغوطاً... السوق في حالة جنونية، لكن لا أهمية لشيء إلا أنت. لا أهمية لشيء إلا نحن الاثنان. سوف أعوّضك عن ذلك».

كنت أعرف تماماً أنه يحاول جاهداً أن يصل إليّ، أن يعيدني إليه. لكني ظللت أشعر بالوحدة وبالبرد في داخلي.

رحت أحدّق في تيار الماء المتدفق بطيئاً من الدوش وهو يهمس لي: «أريد أن تكوني سعيدة يا نيللي. لم تكن أمك سعيدة على الدوام. وأمي أيضاً لم تكن سعيدة. كانت تحاول التظاهر بالسعادة من أجلي ومن أجل مورين. كنا نعرف ذلك. لا أريد أن يحدث هذا لك».

نظرت إليه عند ذلك، لكن عينيه كانتا بعيدتين، كانتا غائمتين، فرحت أحدق في الندبة الفضية فوق عينه اليمنى.

لم يكن ريتشارد يتحدّث عن أبويه أبداً. كان معنى هذا الاعتراف الآن أكبر من وعوده كلها.

«لم يكن أبي طيّباً مع أمي على الدوام...» ظلت راحت يده تتحرّك في دوائر على ظهري كما لو أنه أم تهدئ من روع طفلها... «يمكنني التعايش مع كل شيء إلا أن أكون زوجاً سيئاً لك... لكني كنت سيئاً معك بالفعل».

كان هذا أصدق حديث يجري بيننا. تساءلت عن السبب الذي جعل قوله هذه الكلمات يقتضي حدثاً كبيراً كموت أمي. لكن، لعل الأمر لم يكن بسبب وفاتها بعد تناولها جرعة زائدة من الدواء. لعلها كان نتيجة ما

حدث قبل يومين من وفاتها... يوم عدنا إلى البيت من حفلة آلفين آيلي.

قال لي: «أحبك».

مددت يدي إليه عند ذلك. تبلل قميصه من ماء الحمام الذي حملته ذراعاي.

قال لي: «كلانا صار الآن يتيماً. لذلك، سيكون كل منا أسرة للآخر».

احتضنته بقوة متشبّثة به، متشبّثة بالأمل.

في تلك الليلة، تضاجعنا للمرة الأولى منذ زمن طويل. أحاط خدي براحتَيْ كفَّيْه وحدق في عيني برقّة وتوق جعلاني أحسّ بأن شيئاً في داخلي، ذلك الشيء الذي كنت أحسه أشبه بعقدة محكمة، قد بدأ يسترخي وينحلّ. وعندما احتضنني ريتشارد بعد ذلك، رحت أفكر في الجانب اللطيف الرقيق في شخصيته.

تذكّرت كيف سدد فواتير أمي الطبية، وكيف كان يحضر افتتاح كل معرض فني لخالتي شارلوت حتى لو كان ذلك يعني التخلي عن عشاء عمل مع أحد عملائه. تذكّرت كيف كان يأتي إلى البيت مبكراً في كل ذكرى سنوية لوفاة أبي حاملاً كيساً ورقياً أبيض فيه آيس كريم بالروم والزبيب، تلك النكهة المفضّلة عند أبي، الآيس كريم الذي يطلبه عندما نذهب معاً في نزهة بالسيارة كلما تحسّنت حالة أمي.

كان ريتشارد يضع لكل منا كرة من الآيس كريم، وكنت أحكي له عن أبي ذكريات كان من الممكن أن يعلوها الغبار وأنساها من غير ذلك... ذكريات من قبيل سماحه لي، رغم تطيره، بتبني قطة سوداء وقعت في حبها عندما كنت طفلة صغيرة. كان الآيس كريم يذوب على لساني في تلك الليالي فيملأ فمي حلاوة. تذكّرت أيضاً كيف يقدّم ريتشارد بقشيشاً سخياً لعمال المطاعم وسائقي التاكسي وكيف يتبرّع لجمعيات خيرية.

لم يكن التركيز على ما هو حسن في ريتشارد أمراً صعباً على الإطلاق. كان ذهني يهتدي إلى هذه الذكريات بكل سهولة كأنه دولاب مسنَّن يدخل من غير عناء في المجرى المصمّم من أجل دورانه.

نظرت إليه وأنا راقدة بين ذراعيه. كانت معالم وجهه شبه غائبة في الظلمة. همست له: «عدني بشيء واحد».

«أعدك بأي شيء يا حبي».

«عدني بأن أمورنا لن تسوء مرة أخرى».

«لن تسوء».

كان ذلك أول وعد لي يحنث به... لأن أمورنا لم تلبث أن صارت أسوأ من ذي قبل.

عندما أقلعت طائرتنا متجهة إلى نيويورك صباح اليوم التالي، نظرت إلى تلك المعالم التي بدأت تبتعد وتصغر شيئاً فشيئاً. كنت في غاية الارتياح لمغادرة فلوريدا. الموت يحيط بي هنا كأنه حلقات متتالية من حولي. أمي. أبي. ماغي.

لم تكن شارة أخوية الفتيات التي رميتها شارتي أنا. كان من المفترض أن أقدّمها لماغي بعد قبولها الرسمي في بيت الطالبات. لكني ذهبت مع أخواتي إلى جنازتها بدلاً من وليمة الغداء الاحتفالية التي كنا نعتزم إقامتها في نهاية الأسبوع.

لم أخبر أمي أبداً بما حدث بعد القداس الذي أقيم على روح ماجي لأن من الممكن أن تكون ردة فعلها غير متوقَّعة أبداً. بدلاً من ذلك، اتصلت مع خالتي شارلوت لكني لم أخبرها شيئاً عن أنني كنت حبلى. ريتشارد أيضاً، لم يعرف إلا جزءاً من تلك القصة. عندما استيقظت في سريرنا ذات ليلة عندما داهمني أحد الكوابيس، شرحت لريتشارد السبب

الذي يجعلني غير قادرة على العودة وحيدة إلى البيت في الليل ويجعلني أحمل عبوة رذاذ الفلفل وأضع هراوة إلى جانبي عندما أنام.

وصفت لريتشارد وأنا مستلقية بين ذراعيه كيف ذهبت لتعزية أسرة ماي. اكتفى والداها بالإيماء لي برأسيهما، وبدا لي أن ألمهما الشديد جعلهما غير قادرَيْن على الكلام. لكن جيسون، أخاها الأكبر الذي كان مثلي في السنة الأخيرة في جامعة غرانت، مد يده وأمسك بيدي الممدودة. لم يمسك بها لكي يصافحها، بل أمسك بها لكي يثبتني في مكاني.

قال هامساً: «أنت السبب». شممت في أنفاسه رائحة كحول بائتة، ورأيت خطوطاً قرمزية تتخلل بياض عينيه. كانت له بشرة ماغي الشاحبة، ونمش ماغي، وشعر ماغي الأحمر.

بدأت أقول له: «إنني آسفة جداً...»، لكنه ضغط على يدي أكثر. أحسست كأنه يطحن عظامها. اقترب منه أحد حتى يحتضنه مواسياً فأفلت يدي، لكني ظللت أحس بعينيه تلاحقانني. بقيت أخواتي في الأخوية مع المعزّين في الغرفة الاجتماعية في الكنيسة، لكني انسللت مبتعدة بعد بضع دقائق وخرجت.

عندما كنت أخرج من الباب، صادفت الشخص الذي كنت أحاول تجنبه: جيسون.

كان واقفاً وحده على الدرجات الأمامية ينقر على علبة مارلبورو حمراء في يده. كان صوت النقرات رتيباً متكرراً. حاولت خفض رأسي وتجاوزه سريعاً.

لكن صوته أوقفني: «لقد أخبرَتْني عنك». أشعل القداحة وعب نفساً عميقاً من سيجارته. نفث في اتجاهي تياراً من دخان... «كانت خائفة من طقوس أسبوع القبول في الأخوية، لكنك قلت لها إنك سوف تساعدنيها.

لقد كنت صديقتها الوحيدة في الأخوية. أين كنت عندما ماتت؟ لماذا لم تكوني معها في تلك اللحظة؟».

أتذكّر كيف تراجعت إلى الخلف وأنا أحسّ بعينَيْ جيسون مطبقتَيْن عليّ، تماماً مثلما أطبقت يده على كفي.

قلت من جديد: «إنني في غاية الأسف». لكن هذا لم يخفف الغضب الظاهر على وجهه. بل بدا لي أن كلماتي زادت من غضبه.

بدأت أتراجع بخطى بطيئة وأنا ممسكة بالدرابزون حتى لا أسقط على تلك الدرجات. ظلّت عينا شقيق ماغي مثبتتين عليّ. وقبل أن أصل إلى الرصيف، ناداني بصوت فظ خشن.

«لن تنسي أبداً ما فعلته بأختي...». كان وقع كلماته مثل وقع لكمات قوية... «وسوف أحرص على ألّا تنسي».

لكني ما كنت في حاجة إلى تهديده حتى أظل محتفظة بذكرى ماغي. كنت أفكر فيها دائماً. لم أذهب أبداً إلى ذلك الشاطئ بعد ذلك. جرى تعليق نشاط أخويتنا طيلة ما تبقى من تلك السنة، لكن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي جعلني أعمل نادلة في مقهى الجامعة في ليالي يومي الخميس والسبت. لم تعد حفلات أخوية الفتيات ورقصاتها تجتذبني أبداً. وصرت أضع جانباً قسماً من البقشيش الذي أحصل عليه؛ وكلما تجمع عندي بضع مئات الدولارات، كنت أذهب إلى مأوى الحيوانات الذي عملت فيه ماي متطوّعة فأتبرع بالمال باسمها. عاهدت نفسي على أن أستمر بإرسال المال باسمها كل شهر. لم أكن آمل أن تُحلّني تبرعاتي الصغيرة تلك من إحساسي بالذنب ومن دوري في موت ماغي. كنت أعرف أنني سأحمله معي دائماً، وأنني سأظل أسأل نفسي عما كان يمكن أن يحدث لو أنني لم أترك مجموعات الفتيات الماضيات إلى المحيط. لو أنني انتظرت، لو حتى ساعة واحدة، قبل أن أذهب لمواجهة دانييل.

بعد شهر تماماً من وفاة ماغي، استيقظت على صراخ أخواتي في بيت الفتيات. نزلت إلى الأسفل راكضة وأنا في سروال داخلي وقميص خفيف فرأيت الكراسي مقلوبة والمصباح محطماً وشتائم مكتوبة برذاذ الطلاء الأسود على امتداد غرفة المعيشة. عاهرات. قذرات.

كانت على الجدار أيضاً تلك الرسالة التي أدركت أنها موجهة إليَّ وحدي: أنت من قتلها.

شهقت ورحت أنظر إلى تلك الكلمات الثلاث التي تعلن عن جريمتي أمام الجميع.

نزلت الفتيات كلهن إلى الأسفل، في حين اتصلت رئيسة القسم بأمن الكلية. انفجرت إحدى طالبات السنة الأولى باكيةً؛ ورأيت اثنتين من الفتيات تبتعدان عن المجموعة وتهمس كل منهما للأخرى. تخيلت أنهما تنظران في اتجاهي خفية.

كانت الغرفة عابقة برائحة دخان السجائر. رأيت عقب سيجارة على الأرض. انحنيت والتقطته، مارلبورو أحمر! عندما وصل عنصر الأمن، سألنا إن كانت لدينا أي فكرة عمن قد يكون قد فعل ذلك في بيتنا. كان يعرف بوفاة ماغي. لكن... كان معظم أهل فلوريدا على علم بالأمر في ذلك الوقت.

جيسون... هكذا قلت في نفسي. لكني لم أستطع قولها بصوت مسموع.

قالت إحداهن: «قد يكون أحد أصدقائها! أو أخوها! إنه طالب في السنة الأخيرة، أليس كذلك؟».

نظر عنصر الأمن في أرجاء المكان، ثم قال: «لا بد لي من استدعاء الشرطة، هكذا هي الإجراءات، سأعود بعد دقيقة». خرج من البيت، لكني اعترضته قبل أن يصل إلى جهاز اللاسلكي في سيارته: «أرجوك،

لا تجعله يقع في أية مشكلة. إن كان الفاعل أخوها، جيسون... لا نريد أن يوجَّه إليه أي اتهام».

«أتظنين أنه هو؟».

أومأت برأسي: «بل أنا واثقة من ذلك».

تنهّد الرجل وقال: «خلع الباب واقتحام المكان، وتخريب الممتلكات... إنها فعلة خطيرة. عليكن، يا بنات، أن تبدأن إقفال الأبواب عليكن».

التفتّ ونظرت إلى بيتنا. إن جاء أحد وصعد السلم، فإن غرفتي ثاني غرفة إلى جهة اليسار.

من الممكن أن يزداد غضب جيسون إذا استجوبته الشرطة. وقد يعتبرني مسؤولة عن ذلك أيضاً.

جاءت الشرطة والتقطت صوراً وجمعت أدلة. وبعد ذلك، انتعلت حذائي حتى لا يجرحني الزجاج المتناثر على الأرض وبدأت أساعد الفتيات في تنظيف المكان. لكننا لم نستطع إزالة تلك الكلمات القبيحة عن الجدار، مهما حاولنا.

ذهبت مع بضع فتيات إلى متجر مواد البناء لشراء سطل طلاء.

رنّ هاتفي بينما كانت الفتيات تناقشن اختيار اللون. مددت يدي إلى جيبي. رأيت على شاشة الهاتف أن رقم المتّصل محجوب، وهذا يعني أن الاتصال آت من هاتف بحصالة. في اللحظة التي سبقت مباشرة قطع المكالمة، ظننت أنني سمعت صوتاً... صوت تنفس.

سألتني واحدة من الفتيات: «فانيسا، ما رأيك في هذا اللون؟».

كان جسدي متيبساً وفمي جافاً، لكني أفلحت في الإيماء برأسي والقول لها: «يبدو لي جميلاً». ثم ذهبت إلى ممر آخر في المتجر،

الممر الذي يعرض أقفالاً، اشتريت قفلين: قفل لباب غرفتي، وقفل آخر للنافذة.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، جاء اثنان من عناصر الشرطة إلى بيتنا. أبلغنا الأكبر سناً بينهما أن الشرطة استجوبت جيسون فاعترف بالجريمة.

قال الشرطي لنا: «كان ثملاً تلك الليلة. وهو آسف جدّاً لما فعله. إنه يحاول الآن ترتيب اتفاق مع المحكمة لكي يخضع لمعالجة نفسية».

قالت واحدة من الفتيات: «هذا جيد شريطة ألا يأتي إلى هذا المكان بعد الآن».

لن يأتي. كان ذلك جزءاً من الاتفاق. عليه أن يبقى بعيداً عن هذا المكان مسافة لا تقل عن مئة متر.

ظنت أخواتي أن الأمر قد انتهى. تفرقن بعد ذهاب الشرطيَّيْن، بعضهن إلى المكتبة والبعض الآخر إلى الصفوف أو إلى أصدقائهن.

بقيت في غرفة المعيشة أحدّق في الجدار ذي اللون البني الخفيف. لم أعد قادرة على رؤية تلك الكلمات، لكني كنت أعرف أنها لا تزال موجودة، وأنها ستظل موجودة دائماً.

ستظلّ موجودة مثلما ستظل دائماً تتردّد في رأسي.

أنتِ من قتلها.

كان مستقبلي يبدو واعداً بإمكانات كثيرة قبل ذلك الخريف. كنت أحلم بمدن يمكن أن أنتقل إليها بعد تخرّجي وأفكّر فيها كما لو أنني أحمل مجموعة بطاقات في يدي: سافانا، دِنفر، أوستن، سان دييغو. كنت أريد العمل في التعليم. كنت أريد السفر. كنت أريد بناء أسرة.

لكني بدلاً من الانطلاق صوب مستقبلي، بدأت أضع خططاً للفرار من الماضي.

كنت أعدّ الأيام الباقية حتى أصير قادرة على الفرار من فلوريدا. كانت نيويورك تدعوني إليها... تلك المدينة ذات الملايين الثمانية. كنت أعرف نيويورك من خلال زياراتي لخالتي شارلوت. هناك... يمكن لامرأة ذات ماضٍ معقَد أن تجد لنفسها بداية جديدة. كتب مؤلفو الأغاني عنها كلمات عاطفية حماسية، وجعلها الروائيون في مركز قصصهم، وكان الممثلون يعترفون بحبهم لها في مقابلاتهم التلفزيونية في آخر الليل. كانت نيويورك مدينة الإمكانات المفتوحة. كانت مدينة يمكن لأي شخص أن يختفي فيها.

ارتديت ثوبي الأزرق مع قبعته في يوم التخرج في شهر أيار من تلك السنة. كانت كليتنا كبيرة جداً، فتوزع الطلاب بعد انتهاء الكلمات الافتتاحية إلى مجموعات أصغر، بحسب اختصاصاتهم، لكي يستلموا الشهادات. وعندما خطوت على منصة مدرج بياجيه في «قسم التعليم»، نظرت إلى جمهور الحاضرين لكي أبتسم لأمي وخالتي شارلوت فلفت انتباهي شخص بينما كنت أبحث عنهما بين الناس: شاب أحمر الشعر كان واقفاً إلى جانب المحتشدين بعيداً من بقية الطلاب الخريجين رغم ارتدائه الثوب الأزرق اللامع نفسه.

إنه جيسون، شقيق ماغي.

«فانيسا؟». وضع عميد قسمنا بين يدي شهادتي الملفوفة على شكل أسطوانة، ولمع فلاش كاميرا. نزلت درجات المنصّة مرفرفة بعينيّ بسبب ضوء الفلاش، ثم عدت إلى مقعدي. كنت أشعر بعيني جيسون تحفران في ظهري طيلة ما بقي من تلك الأمسية.

نظرت في اتجاهه من جديد، عندما انتهت مراسم التخرج ، لكنه اختفى.

إلا أنني كنت أعرف ما يريد جيسون قوله لي. لقد ظل متقيداً بالشروط المفروضة عليه طيلة مدة سريانها، حتى التخرّج. لم يكن مسموحاً له أن يقترب مني في الجامعة حتى مسافة مئة متر. لكن، ما من قيود كانت مفروضة على ما يستطيع فعله بعد أن أغادر الجامعة.

بعد عدة شهور من تخرجنا، أرسلت ليزلي إلى عدد منا رابطاً إلى موقع إحدى الصحف على الإنترنت. لقد اعتُقل جيسون عندما ضُبط يقود السيارة وهو في حالة سكر. كانت أمواج أثر ما فعلتُه لا تزال تنتشر وتتسع. وعلى الرغم من ذلك، سرى في نفسي عندها شعور بالارتياح لما حدث له: لعل جيسون قد صار غير قادر على مغادرة فلوريدا للبحث عني.

لم أعرف عنه شيئاً بعد ذلك. لم أعرف إن كان قد ذهب إلى السجن أو خضع لإعادة التأهيل، أو توصّل من جديد إلى تسوية مع المحكمة من أجل الخروج من هذا الموقف. لكني كنت في المترو بعد سنة من ذلك؛ ولحظة إغلاق الأبواب، رأيت شخصاً نحيلاً له شعر أحمر... كان يجري مسرعاً بين الناس. نظرت إليه، ثم اندسست عميقاً بين ركاب عربة المترو محاولة الاختفاء عن نظره. قلت لنفسي وقتها إن رقم هاتفي باسم سامانثا، وإنني لم أستبدل برخصة قيادة السيارة رخصة جديدة من نيويورك. وإن أحداً لا يستطيع العثور على مستند يقوده إليّ لأنني أعيش في شقة مستأجرة.

ثم فاجأتني أمي بأن وضعت إعلاناً عن خطوبتي في صحيفة محلية في فلوريدا. حمل الإعلان اسمي واسم ريتشارد ومكان إقامتنا، فبدأت الاتصالات الهاتفية. لا كلمات... تنفّس فحسب... لا بد أن هذا جيسون يخبرني أنه قد وجدني... جيسون يخبرني أنه لم ينسَ القصة. كما لو أنني كنت قادرة على نسيانها!

لا أزال أرى ماغي في كوابيسي، لكن جيسون دخل أحلامي الآن وصرت أرى وجهه الذي شوّهه الغضب ويديه ممتدتين لكي تمسكا بي. كان هو السبب الذي جعلني أمتنع عن سماع الموسيقى الصاخبة عندما أمارس الرياضة. وكان وجهه هو الوجه الذي ظننت أنني أراه ليلة انطلق صوت الإنذار في بيتنا.

صرت شديدة الانتباه إلى كل ما يحيط بي. درّبت نفسي على استشعار أية نظرة في اتجاهي... وعلى ألّا أقع فريسة من غير انتباه. ذلك الإحساس بشيء يشبه الكهرباء الساكنة ينتشر على جلدي، وحركة رأسي الغريزية بحثاً عن زوج من العيون المحدقة... كنت أعتمد على علامات الإنذار تلك من أجل حماية نفسي.

لم أفكر في أي سبب آخر يمكن أن يكون قد جعل جهازي العصبي شديد الحساسية مباشرة بعد خطوبتي من ريتشارد. لماذا صار عندي هاجس تفقد الأقفال، ولماذا بدأت أتلقّى اتصالات صامتة من أرقام محجوبة، ولماذا دفعت ريتشارد بعيداً عني عندما ثبّتني خطيبي المحب المثير وراح يدغدغني عندما كنا نشاهد فيلم «المواطن كين»؟

يمكن لعلامات الإثارة والذعر أن تختلط على ذهن الإنسان.

لكني كنت أضع عصابة على عينَيّ!

الفصل الثلاثون

أخرج من محل ساكس للمرة الأخيرة، وأتجنّب عينَي الحارس الأمني عندما يتفقّد حقيبتي، ثم أبدأ السير في اتجاه شقة إيمّا. أحاول القول لنفسي إنني ذاهبة إليها للمرة الأخيرة أيضاً. سأتركها وشأنها بعد هذه المرة. سوف أنتقل إلى شيء آخر.

أنتقل إلى ماذا؟... هكذا كان عقلي يهمس لي.

أمامي على الرصيف، كان رجل وامرأة يسيران بيداً بيد. أصابعهما متشابكة، وحركتهما متناغمة. لو أردت تقييماً سريعاً لوضع علاقتهما لقلت إنهما سعيدان. عاشقان. لكن، بالطبع، هذان الشعوران ليسا متداخلين على الدوام.

أتأمّل كيف صاغت التصورات مجرى حياتي؛ كيف كنت أرى ما أريد رؤيته ـ ما أنا في حاجة إلى رؤيته ـ خلال تلك السنين التي عشتها مع ريتشارد. لعل كون المرء واقعاً في الحب يحمل معه شرط النظرة الانتقائية... لعل الأمر هكذا لدى كل إنسان!

كان في زواجي ثلاث حقائق، ثلاثة بدائل... وفي بعض الأحيان، ثلاث نسخ للواقع متنافسة في ما بينها. كانت هنالك حقيقة ريتشارد. وكانت هنالك حقيقتي. وكانت هنالك أيضاً الحقيقة الفعلية التي هي دائماً أصعب الحقائق تمييزاً. قد يكون الوضع هكذا في كل علاقة إذ

نظن أننا دخلنا في وحدة مع شخص آخر في حين نكون، في واقع الأمر، قد شكّلنا مثلثاً يقف عند أحد رؤوسه قاضٍ صامت لكنه يرى كل شيء: إنه الواقع الفعلي؛ إنه الحَكَم!

يرنّ هاتفي وأنا أتجاوز الرجل والمرأة. أعرف المتصل حتى قبل أن أنظر فأرى اسم ريتشارد على الشاشة.

يقول لي على الفور: «ماذا دهاك يا فانيسا؟».

يعاودني الغضب الشديد الذي أحسسته في وقت سابق من هذا اليوم عندما نظرت إلى صورة ديوك فأقول له مسرعة: «هل طلبت منها أن تترك عملها يا ريتشارد؟ هل قلت لها إنك سترعاها؟».

«استمعي إليَّ جيداً...». كان زوجي السابق ينطق كل كلمة كأنه يقضمها قضماً. كنت أسمع أبواق سيارات من حوله. من الواضح أنه خرج إلى الشارع بعد أن تلقى الصورة.

«قال لي الحارس الأمني إنك حاولت تسليمه رسالة إلى إيمّا. لا تقتربي منها أبداً».

«هل اشتريت لها بيتاً في الضواحي أم أنك لم تشتر البيت بعد؟».

لا أستطيع الكفّ عن استفزازه... كأنني أنفّس الآن عن كل شيء كنت أرغم نفسي على كبته خلال فترة زواجي كلها... «وماذا ستفعل عندما تغضبك أول مرة؟... عندما لا تكون زوجتك الصغيرة المثالية».

أسمع صوت إغلاق باب سيارة فيختفي الضجيج المحيط على نحو مفاجئ ـ ضجيج المدينة من حوله. لحظة سكون، ثم أسمع ذلك الصوت المميز الذي يتكرّر دائماً على محطة بث سيارات التاكسي في نيويورك: «اربط الحزام من أجل سلامتك».

عادة ما يكون ريتشارد قادراً على أن يسبقني بخطوة، ولا بد الآن يعرف وجهتي على نحو التحديد. إنه في سيارة تاكسي. وهو يحاول الوصول إلى إيمّا قبلي.

لم تبلغ الساعة منتصف النهار بعد؛ ولا تزال حركة السير خفيفة. أقدّر أن سيارة التاكسي ستستغرق خمس عشرة دقيقة من مكتب ريتشارد إلى شقة إيمّا، لكني أقرب منه إليها: كانت رحلتي إلى متجر ساكس في اتجاه شقتها نفسه. لا أبعد عنها إلا عشر بنايات. إذا أسرعت، فقد أسبقه. أزيد من سرعة خطواتي وأتلمّس الرسالة في محفظتي. لا تزال موجودة. أشعر بالنسيم بارداً على جسدي الذي بدأ يتعرّق.

«أنت مجنونة». أتجاهل هذا لأن سماع تلك الكلمات منه ما عادت لها قدرة على إحباط عزيمتي... «هل قلت لها إنك قبّلتني الليلة الماضية؟».

يصيح في الهاتف: «ماذا؟ أنت التي قبلتني!».

تضطرب خطواتي لحظة، ثم أتذكّر ما قلته لإيمّا عندما واجهتها أول مرة: ريتشارد يفعل هذا: إنه يخلط الأشياء بحيث لا نعرف الحقيقة!

اقتضاني إدراك هذه الحقيقة سنوات عدة. ولم أتوصّل إلى إدراك وجود نموذج متكرّر لسلوكه إلا بعد أن بدأت أدوّن الأسئلة التي ترهق دماغي.

بدأت ذلك بعد نحو سنة من وفاة أمي. بدأت أكتب يوميات سرية أخبئها تحت فراش السرير في غرفة نوم الضيوف. كنت أسجل في دفتري ذي الغلاف الجلد المقوّى أشياء قالها ريتشارد من الممكن تفسيرها بعدة طرق. وصرت أسجل الثغرات والهفوات المفترضة في ذاكرتي ـ تلك الأشياء غير المنسجمة أبداً من قبيل تصريحي عن رغبتي في العيش في بيت في الضواحي (لم أقل هذا أبداً). أو ذلك الصباح بعد حفلة توديع العزوبية عندما نسيت أن ريتشارد كان مسافراً إلى أتلانتا ـ

إضافة إلى أشياء أصغر منها، كقولي ـ كما أكد لي ـ إنني أردت تلقي دروس في الرسم، أو ظني أن طبق لحم الخروف من الأطباق المفضلة لدى ريتشارد.

كنت أيضاً أوثّق بدأب الأحاديث المثيرة للقلق التي ما كنت قادرة على سؤال زوجي عنها... مثلاً، كيف عرف أنني ذهبت لرؤية أحد غير خالتي عندما ارتحلت سراً إلى المدينة. سجلت بعض ما جرى من كلام خلال ذلك اللقاء السرّي الأول. بعد تقديم اسمي للمرأة ذات المظهر المتعاطف التي أدخلتني إلى غرفة مكتبها، أشارت لي بأن أجلس على أريكة مقابل حوض فيه أسماك كثيرة ملونة. جلست على كرسي مرتفع الظهر على يساري وقالت لي أن أخاطبها باسم كيت. سألتني: ما الذي تحبّين الحديث عنه؟ فأجبتها: يقلقني أحياناً أنني لا أعرف زوجي على الإطلاق. سألتني قبيل نهاية كلامنا: هل يمكنك إخباري بالسبب الذي يجعل ريتشارد يحاول إفقادك توازنك؟ ما الدافع الذي قد يكون لديه لفعل ذلك؟

هذا ما كنت أحاول أن أحزر أسبابه خلال تلك الأيام الطويلة الفارغة عندما يكون ريتشارد في عمله. كنت أخرِج دفتري وأفكر كيف بدأت تأتيني تلك المكالمات الهاتفية الصامتة بعد وقت قصير جداً من خطبتنا، وكيف أن تلك المكالمات لا تأتي إلا عندما لا يكون ريتشارد موجوداً. كتبت في الدفتر أنني واثقة من إخباري ريتشارد بأنني كنت نادمة على إصراري على أن تضع ماغي عصابة العينين. وكنت واثقة أيضاً من أنني أوضحت له أن ذلك الأمر التفصيلي تحديداً (جعلها تعصب عينيها) كان مزعجاً لي على نحو خاص. فلماذا أعطاني قناعاً للعينين عندما قاد بي السيارة إلى بيتنا الجديد؟ سجّلت في الدفتر أيضاً اكتشافي أن التمثال الصغير الذي كان على كعكعة زواجنا كان مصنوعاً بعد سنين من زواج والدَيْ ريتشارد. كانت الكلمات على صفحات دفتري مبقّعة في بعض

الأماكن لأن دموعي تساقطت عليها وأنا أتذكّر اختفاء ديوك الغامض.

كنت أخرج من فراشي عندما يصيبني الأرق فأسير على أطراف أصابعي نازلة إلى الصالة، فأملأ صفحات بالأفكار الملحّة التي غزت دماغي في أكثر ساعات الليل ظلمة، وتغدو كلماتي التي أكتبها سريعة متداخلة مع زيادة احتدام مشاعري. وضعت خطوطاً تحت بعض الملاحظات، ورسمت أسهماً تربط بين أفكار مختلفة، وأضفت ملاحظات أخرى في الهوامش. خلال أشهر، صار أكثر من نصف دفتري المبقَّع بالحبر ممتلئاً.

أمضيت في الكتابة ساعات طويلة جداً، كلمات تتلوها كلمات، وصفحات بعد صفحات. وكنت في هذه العملية أفكك زواجي وأحلله. كان ذلك كما لو أن زواجي من ريتشارد كان ثوباً رائعاً مُحاكاً باليد، ثم وجدت خيطاً صغيراً ظللت أشده وأفتله بين أصابعي. كنت أديره وأسحبه فتتفكك رسوم الثوب وألوانه ويتشوّه شكله مع كل سؤال ومع كل حالة عدم اتساق أسجلها عارية في دفتر مذكراتي.

إنه... القدم اليسرى... مخطئ. ملأت هاتان الكلمتان دماغي بينما كانت خطواتي تزداد سرعة. يجب أن أدرك إيمّا قبل وصوله.

«لا يا ريتشارد. أنت الذي قبّلني». لا يكره ريتشارد شيئاً أكثر من تحديه إلا إظهار أنه مخطئ.

أعبر محل تشوبت وأنعطف خلف الزاوية ملتفّة إلى الخلف لأنظر في الشارع. أرى عدة سيارات تاكسي قادمة في اتجاهي. من الممكن أن يكون في أي واحدة منها.

«هل أنت تشربين الآن؟». إنه ماهر جداً في تضييع التركيز وفي كشف نقاط ضعفي ووضعي في حالة دفاع.

لكني لا أمانع في هذا طالما أنه مستمر في الكلام. يجب أن أجعله يظل معي على الهاتف حتى لا يحذّر إيمّا من أنني قادمة إليها.

أستفزه قائلة: «هل أخبرتها عن العقد الماسي الذي قدمته لي؟ وهل تظن أن عليك أن تشتري لها واحداً مثله ذات يوم؟».

أعرف أن هذا السؤال يعادل إلقاء قنبلة في اتجاهه عبر سيارة التاكسي، وهذا ما أقصده تماماً. أريد إثارة غضبه. أريد أن يشد قبضتيه وأن تضيق عيناه. بهذه الطريقة، وإذا استطاع الوصول إلى إيمّا قبلي، فسوف تفهم آخر الأمر ما هو ماهر في إخفائه. سوف ترى قناعه.

أسمعه يصيح مخاطباً سائق السيارة: «ماذا بك، كان عليك أن تسرع حتى لا نقف على الإشارة الحمراء». أتخيله متجمّعاً على حافة مقعد السيارة من خلف سائقها.

أسأله من جديد: «هل قلت لها؟».

أسمع أنفاسه متقطعة. أعرف من خلال تجربتي أنه موشك على فقدان السيطرة على نفسه... «لن أشاركك هذا الكلام السخيف. إذا اقتربت منها مرة أخرى فسوف أجعلك تدخلين السجن».

أضغط على زر إنهاء المكالمة. أفعل ذلك لأنني صرت قبالة شقة إيمّا.

لقد قسوت عليها كثيراً. لقد استفدت من براءتها.

تماماً مثلما لم أكن الزوجة التي ظنّها ريتشارد، لم أكن أيضاً المرأة التي ظنّتها إيمّا.

في ليلة أول لقاء لي مع بديلتي في حفلة عطلة المكتب، نهضتُ من

خلف مكتبها في بدلتها الحمراء الفاقعة. ابتسمت لي تلك الابتسامة العريضة المرحّبة، ثم مدت يدها.

كان ذلك الحفل أنيقاً مثل كل شيء في عالم ريتشارد: جدار زجاج مشرف على مانهاتن. وطبق سيفيتشي[1] فيه ملاعق صغيرة كثيرة حتى يستخدم كل شخص واحدة منها لتذوّقه. وقطع صغيرة من لحم الخروف المتبل بالنعناع يقدمها نُدُل في بدلات رسمية سوداء. طاولة عليها مأكولات بحرية ومن خلفها امرأة تفتح للضيوف محار كوماموتو المملّح. موسيقى كلاسيكية تعزفها مجموعة من أربعة موسيقيين.

اتجه ريتشارد إلى البار حتى يحضر لنا كؤوس الشراب. سأل إيمّا: «فودكا بالصودا مع قطعة ليمون؟».

«أنت تتذكّر هذا!». تبعته عيناها وهو متجه إلى البار.

بدأ الأمر كله في تلك اللحظة: كان مستقبل جديد قد بدأ يتجسّد تحت ناظريَّ.

خلال الساعات القليلة التي أعقبت ذلك، كنت أشرب رشفات من الماء المعدني وأتبادل أحاديث مهذّبة مع زملاء ريتشارد. هيلاري وجورج كانا حاضرَيْن، لكن هيلاري بدأت منذ ذلك الوقت تضع مسافة بيني وبينها.

طيلة تلك الليلة كنت أحس بطاقة ممتدة بين زوجي ومساعدته. لم يكن ذلك تبادلاً لابتسامات خاصّة سرّية بينهما أو وقوفهما جنباً إلى جنب في مجموعة واحدة تتجاذب أطراف الحديث. كان سلوكهما طبيعياً من حيث الظاهر، لكني رأيت عينيه تطيران إليها كلما انطلقت ضحكتها العميقة. كنت أحس بانتباه كل منهما منشدّاً إلى الآخر؛ كان

(1) طبق من أميركا الجنوبية مؤلف من لحم السمك النيء المتبل. وهو يقدم كنوع من المقبلات.

ذلك رابطة ملموسة لامعة تربط بينهما عبر الصالة كلها. وفي نهاية الحفل، طلب ريتشارد لها سيارة تاكسي لكي تصل إلى بيتها بأمان على الرغم من اعتراضها بالقول إنها قادرة على إيقاف أي سيارة تاكسي في الشارع. خرجنا كلنا معاً وانتظرنا إلى أن أتت سيارة التاكسي الفاخرة التي طلبها لها قبل أن نتوجّه إلى سيارتنا.

قلت لريتشارد: «إنها لذيذة».

«إنها ممتازة في عملها».

عندما وصلت إلى البيت مع ريتشارد عائدَيْن من احتفال المكتب، بدأت أصعد السلم إلى غرفة النوم متلهفة على خلع جوربي الطويل الذي كان مطاطه يحز بطني. أطفأ ريتشارد مصباح الممر وتبعني إلى الأعلى. لحظة توقفي في غرفة النوم، أدارني ريتشارد بحيث صار وجهي إلى الجدار وراح يقبل رقبتي من الخلف ويضغط بجسده على جسدي. كان منتصباً منذ تلك اللحظة.

عادة ما يكون ريتشارد عاشقاً رقيقاً مراعياً. وفي فترات ماضية، كان يمضي متمهّلاً، يتذوقني كأنني وجبة من خمسة أطباق متتالية. أما في تلك الليلة، فقد أمسك بيديَّ الاثنتين، ثم استخدم يداً واحدة لتثبيتهما على الجدار فوق رأسي. وبيده الأخرى، أنزل الجورب. سمعت صوت فرقعة فأدركت أن الجورب قد تمزق. شهقت عندما ولجني من الخلف. لقد مر زمن طويل، ولم أكن مستعدة لهذا. استمر في اختراقي وأنا أحدق في ورق جدران غرفة نومنا المخطط. ثم بلغ الذروة سريعاً وترددتْ في الغرفة أصداء أنينه الخشن. ظل مستنداً إلى جسدي، لاهثاً، ثم أدارني وقبلني قبلة واحدة على شفتي.

كانت عيناه مغمضتين. لا أعرف أي وجه كان يرى في تلك اللحظة.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، رأيتها مرة أخرى عندما أتت إلى حفل

كوكتيل استضافه ريتشارد في بيتنا في ويستشستر. كانت جميلة من كل ناحية، مثلما أتذكرها.

وبعد وقت غير طويل من تلك الأمسية، كان من المفترض أن أذهب إلى الفيلهارموني مع ريتشارد. لكني اختلقت قصة ألم في معدتي وقلت إنني مضطرة إلى إلغاء الأمر في آخر اللحظة. فأخذ إيمّا معه. كان آلان جلبرت يقود الفرقة الموسيقية التي قدّمت معزوفات لبيتهوفن وبروكوفييف. تخيلتهما جالسين جنباً إلى جنب يصغيان إلى الألحان المعبرة الناطقة. تخيلتهما يخرجان لتناول الكوكتيل في فترة الاستراحة فيشرح ريتشارد لها منابع أسلوب بروكوفييف الوعر مثلما شرحها لي ذات مرة.

لزمت سريري وغفوت على صوَرهما معاً. بات ريتشارد في المدينة تلك الليلة.

ليست لدي طريقة تجعلني أعرف على وجه اليقين، لكني أتخيل أن تلك الليلة كانت ليلة قبلتهما الأولى. أراها رافعة رأسها تنظر إليه بعينيها الزرقاوين المدوَّرتين وتشكره على الأمسية الرائعة. يتردّدان لحظة غير راغبين في الفراق. لحظة صمت. ثم تغمض عينيها عندما ينحني صوبها وتتضاءل المسافة بينهما. وبعد فترة وجيزة من تلك الأمسية في الفيلهارموني، طار ريتشارد إلى دالاس للاجتماع مع أحد عملائه هناك. في ذلك الوقت، كنت قد بدأت أهتم بمتابعة جدول تحرّكاته متابعة أفضل. كان ذلك العميل مهماً بالنسبة إلى ريتشارد، وكانت إيمّا مسافرة معه. لم يفاجئني هذا لأن دايان أيضاً كانت تسافر معه بعض الأحيان.

لكن ريتشارد لم يتصل بي ولم يكتب لي رسالة نصية تقول: «تصبحين على خير».

كنت واثقة من أن علاقتهما قد اتخذت مجراها بعد تلك الرحلة.

يمكنكم تسميته «حدس الزوجة». ذهبت إلى المدينة بعد بضعة أسابيع من ذلك. أردت إلقاء نظرة أخرى على إيما. جلست في الباحة التي أمام بناية المكتب حاجبة وجهي بصحيفة. ذلك هو اليوم الذي رأيت فيه ريتشارد يضع يده بلطف على ظهر بديلتي ويفتح لها الباب وهما خارجان. كانت في فستان زهري متورّد متناسب تماماً مع احمرار وجنتيها وهي ترفع رأسها وتنظر إلى زوجي من تحت أهداب عينيها.

كنت قادرة على مواجهتهما في تلك اللحظة. أو كان يمكنني أن أناديهما متظاهرة بالحماسة والبهجة، وأن أقترح عليهما أن نتناول الغداء معاً. لكني اكتفيت بالنظر إليهما وهما ذاهبان.

أجد نفسي الآن أضغط بسرعة على مفاتيح الإنترفون كلها عند مدخل بناية إيمّا آملة أن يفتح لي أحدٌ ذلك الباب. أسمع أزيز القفل بعد ثانية واحدة. فأندفع داخلة عبر الردهة الصغيرة المتواضعة. ألتفت إلى صف صناديق البريد فأرى اسمها ورقم شقتها مكتوبين على واحد منها: الطابق الخامس، الشقة ج. أصعد السلم جرياً وأنا أتساءل إن كانت ستحمل اسم عائلة ريتشارد. هل سيصير ذلك الاسم رابطاً بيني وبينها أيضاً؟

أقف أمام شقتها وأدق الباب بقوة.

أسمع صوتها تصيح: «من الطارق؟». أقف متنحّية عن الباب قليلاً حتى لا تستطيع رؤيتي عبر منظاره. إذا عرفت إيمّا صوتي فقد لا تقرأ رسالتي. وهكذا أدفع المغلف عبر الشق تحت الباب. أنظر إليه يختفي، ثم أستدير وأمضي مسرعة في اتجاه السلم آملة في الخروج قبل وصول ريتشارد.

أتخيلها تفتح رسالتي، وأفكر في كل ما لم أقله من أشياء.

أشياء من قبيل تظاهري بالمرض ليلة ذهابهما إلى الفيلهارموني.

«لماذا لا تأخذ معك إيمّا؟». هكذا قلت لريتشارد مقترحة عندما اتصلت به حتى أبلغه بأنني غير قادرة على الذهاب معه. حرصت على أن يبدو صوتي ضعيفاً... «لا زلت أذكر عندما كنت صغيرة فقيرة في المدينة. سوف تكون هذه الدعوة شيئاً عظيماً بالنسبة إليها».

«هل أنت واثقة مما تقولين؟».

«بالطبع! لا أريد الآن إلّا أن أنام. ولا أحب أن تفوتك هذه الأمسية».

وافق على كلامي.

لحظة انتهاء المكالمة، أعددت لنفسي فنجاناً من الشاي وبدأت أفكر في الخطوة التالية.

كنت أعرف أنه عليَّ الانتباه. لا يمكنني تحمل غلطة واحدة. يجب أن يكون انتباهي إلى التفاصيل دقيقاً مثلما هو ريتشارد دائماً.

عند ذهابي إلى السرير تلك الليلة، وضعت زجاجة بيبتوبيزمول[1] على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريري، وإلى جانبها كأس ماء.

كنت أضبط نفسي! لم آت على ذكرها أبداً على امتداد عدة أسابيع، لكني اقترحت على ريتشارد، عندما نجح في إبرام صفقة كبيرة، أن يشكر إيمّا على مساعدتها بأن يقدم إليها بطاقة هدية من متجر بارنيز[2]، وأن تكون بمبلغ محترم.

قلقت لحظة من احتمال أن أكون قد بالغت في الأمر. كان ريتشارد

---

(1) بيبتو ـ بيزمول: دواء لمعالجة آلام المعدة والإسهال.

(2) بارنيز: سلسلة متاجر أميركية للملابس الفاخرة.

يحلق ذقنه في تلك اللحظة، فتوقف قليلاً ونظر إليَّ ملياً: «لم تقترحي عليَّ أبداً تقديم أي شيء لديان».

هززت كتفي وتناولت فرشاة أسناني. قلت له محاولة التغطية على الأمر: «أظنني أجد نفسي شبيهة بإيمّا. ديان متزوّجة ولها أسرة. إيمّا تذكّرني بنفسي عند مجيئي إلى نيويورك. وأظن بأن هذه الهدية ستكون فعالة جداً في جعلها تشعر بنفسها موضع تقدير.

«فكرة حسنة».

تنفّست الصعداء، لكن بحذر.

تخيّلتها تفتح المغلف وتخرج منه بطاقة الهدية فيرتفع حاجباها لتلك المفاجأة. ربما تدخل مكتبه لكي تشكره. ربما تأتي إلى المكتب بعد بضعة أيام مرتدية الفستان الذي اشترته بتلك البطاقة حتى يراه.

كانت تلك مغامرة كبيرة. حاولت مواصلة برنامجي المعتاد. لكن كنت مفعمة حماسة. صرت أجد نفسي أسير في البيت من غير توقّف. تبخّرت شهيتي وانخفض وزني. كنت أستلقي صاحية إلى جانب ريتشارد أراجع خطتي في عقلي وأبحث عن ثغراتها ونقاط ضعفها. كنت تواقة إلى استعجال الأمر، لكني أرغمت نفسي على الالتزام بالوقت الذي حدّدته. كنت مثل صياد كامن ينتظر وصول فريسته إلى المكان المطلوب.

جاءتني فرصة كبيرة عندما اتصلت بي إيمّا من دالاس ذات مساء وقالت إن ريتشارد مضطر إلى القدوم في رحلة جوية متأخرة لأن اجتماعه طال كثيراً.

كنت أصلّي لكي تأتيني فرصة كهذه الفرصة. وكان كل شيء متعلقاً بما سيحدث بعد ذلك. لا بد لي من أن ألعب دوري على أكمل وجه. لا يمكن أن تتخيّل إيمّا أنني أبني بيتاً من أوراق اللعب

يمكن أن ينهار عند أي خلل وأنني موشكة على وضع الورقة الأخيرة في مكانها.

قلت لها: «يا للمسكين! إن عمله مرهق حقاً. لا بد أنه مستنزف الآن».

«أعرف. إن لهذا العميل مطالب لا تنتهي!».

«وأنت أيضاً تعملين كثيراً...». قلت هذا كأن فكرة خطرت على ذهني في تلك اللحظة فقط... «ليس ريتشارد مضطراً للاستعجال. لماذا لا تقترحي عليه تناول عشاء هادئ وإجراء حجز في فندق لقضاء هذه الليلة؟ تعالا غداً صباحاً. سيكون هذا أكثر سهولة لكِ وله»... أرجوك، التقطي الطعم!

«هل أنت متأكّدة يا فانيسا؟ أعرف أنه يريد العودة سريعاً من أجلك».

«أنا مصرّة...» تظاهرت بالتثاؤب... «سأقول لك الحقيقة: أنا راغبة في الاسترخاء تماماً ومشاهدة فيلم تافه في التلفزيون، أما ريتشارد فسيكون راغباً في أن يحدثني عن العمل».

الزوجة البليدة الكسول! هكذا أردتها أن تراني.

يستحق ريتشارد أفضل من هذا، أليس كذلك؟ يستحق ريتشارد امرأة تعرف كيف تقدّر تعقيدات عمله، وتعرف كيف تعتني به بعد يوم شاق... امرأة لا تجعله يشعر بالحرج أمام زملائه... امرأة توّاقة كل التوق إلى أن تكون معه كل ليلة.

امرأة مثلها تماماً.

أرجوك!... هكذا قلت في نفسي من جديد.

أجابتني إيمّا آخر الأمر: «سوف أقول له هذا، وإذا وافق فسوف أخبرك بتوقيت وصولنا غداً فور تأكيد حجز الطائرة».

«شكراً لك».

عندما أنهيت المكالمة، أدركت أنني، وللمرة الأولى منذ زمن بعيد، كنت أبتسم.

لقد وجدت بديلتي المناسبة تماماً. سرعان ما يهيم ريتشارد بها حباً فأصير حرة أخيراً.

ما كان أحد منهما يعرف ما رتّبته. لا يزالان جاهلين بما رتّبته لهما!

مكتبة

الجزء الثالث

مكتبة

الفصل الحادي والثلاثون

أنزل درجات السلم مسرعة فأنزلق عندما ألتفّ عند زاوية الطابق الثالث. يصطدم وركي بحافة إحدى الدرجات قبل أن أتمكّن من إمساك درابزين السلم ويشعّ الألم في جانب جسدي الأيسر كله. أشد نفسي حتى أقف، وأتابع نزولي السريع من غير توقّف تقريباً. إن قرّر ريتشارد استخدام السلم بدلاً من المصعد، فسوف يصطدم أحدنا بالآخر.

تجعلني تلك الفكرة أزيد من سرعتي. ينتهي السلم فأندفع إلى الردهة تماماً في اللحظة التي أرى فيها أبواب المصعد تنغلق. أتمنى أن أقف لكي أراقب الأرقام الوامضة فوق باب المصعد إن كان سيتوقف، عند طابق إيمّا. لكنني لا أستطيع المغامرة حتى بثوانٍ قليلة لكي أتأكد.

أطير إلى الشارع فأرى سيارة تاكسي تبدأ بالابتعاد عن الرصيف. أضرب على مؤخرة السيارة بكف يدي فيومض مصباح الفرملة الأحمر.

أدخل السيارة، ثم أقفل الباب من خلفي قبل أن أنهار على المقعد. أفتح فمي لكي أعطي السائق عنوان شقة خالتي شارلوت. لكن الكلمات تعلق في حنجرتي.

رائحة الليمون تحيط بي. أحسها تتخلل شعري وتخترق جلدي. أستطيع الإحساس بنفحات الليمون الحادة تغزو منخريَّ وتتغلغل نازلة حتى رئتيّ. لا بد أن ريتشارد قد خرج من هذه السيارة قبل لحظات فقط.

كلما كان مهتاجاً، فتقسو ملامحه وتتوتّر ويختفي الرجل الذي أحببته ـ كلما ازدادت رائحة الليمون شدة.

أود أن أفر من جديد، لكني لا أستطيع تحمل انتظار سيارة تاكسي أخرى. لهذا، أفتح النافذة إلى أقصى حد ممكن وأنا أخبر السائق بوجهتنا.

رسالتي من صفحة واحدة، لا أكثر. ولن تُمضي إيمّا في قراءتها أكثر من دقيقة واحدة. آمل أن تفرغ من قراءتها قبل أن يفلح ريتشارد في بلوغ بابها.

ينعطف السائق في الشارع التالي فأسند رأسي إلى المقعد بعد إلقاء نظرة أخيرة من النافذة حتى أتأكّد من أن ريتشارد لا يتبعني. أسأل نفسي كيف سهوت عن ذلك الخلل في خطتي للفرار من زوجي. كان لديَّ وقت طويل لصياغتها؛ فبعد احتفال عطلة المكتب السنوية، صار هذا الأمر عملي الوحيد، ثم صار هاجسي. لقد كنت في غاية الانتباه، لكني ارتكبت أسوأ غلطة ممكنة في حساباتي.

لم أفكر في أنني أضحّي بامرأة شابة بريئة. ولم أكن قادرة إلا على التفكير في العثور على مهرب لي. كدت أتخلّى عن كل أمل في أن هذا قد يكون ممكناً إلى أن أدركت أنه لن يتركني إلّا إذا كان مقتنعاً بأن الفكرة فكرته.

كنت واثقة من هذا نتيجة ما فعله بي من قبل عندما ظن أنني كنت أحاول تركه.

لقد بدأت الانسحاب من زواجي قبيل حفلة آلفين آيلي. كنت لا أزال صغيرة قوية، نسبياً. لم أكن محطمة بعد.

بعد الحفلة مباشرة، عندما واجهني ريتشارد في المطبخ ثم نظر إلى معصم يدي اليمنى الذي كان يبيض لونه تحت ضغط أصابعه القوية. بدا

لي أنه غير مدرك حقيقة أنه كان يلوي معصمي؛ كما لو أن شخصاً غيري قد أطلق صرخة الألم تلك التي تشبه صيحة طائر، تلك الصرخة التي أفلتت من شفتي.

لم يؤذني ريتشارد قبل تلك الليلة. لم يؤذني جسدياً، على الأقل.

كان في بعض الأحيان يتوقف عند الحافة تماماً... يتوقّف عند ما صرت الآن أعرف أنه الحافّة. لقد سجّلت كل حادثة من تلك الحوادث في دفتري ذي الجلد الأسود: في سيارة التاكسي بعد أن قبّلت نيك في حفلة توديع العزوبية، وفي مطعم سفوغليا عندما قدم لي رجل كأس شراب على البار؛ وفي الليلة التي واجهت ريتشارد فيها بمسألة اختفاء ديوك. كانت هنالك أوقات أخرى اقترب فيها من الحافة أكثر من ذلك. رمى ذات مرة صورة زفافنا على الأرض فتناثرت شظايا الزجاج وراح يتهمني اتهامات شنيعة. قال إنني كنت أغازل مدرب الغطس إريك خلال شهر عسلنا. «رأيته يتوقّف عند باب غرفتنا». هكذا صاح بي ريتشارد فتذكّرت كيف تركت أصابعه كدمات على أعلى ذراعي عندما أمسك بي ليساعدني في الخروج من القارب. وفي وقت آخر، بعد فترة بسيطة من زيارتنا إلى طبيبة الخصوبة، أي عندما اضطر إلى تضييع عميل كبير، صفق ريتشارد باب مكتبه بقوة شديدة جعلت المزهرية تسقط عن الرف.

لقد أمسك بي من ذراعي بهذه الطريقة في عدة مناسبات أخرى وضغط عليها بقوة شديدة. خفضت عينيَّ عندما كان يستجوبني ذات مرة في ما يتعلق بالشرب، فأمسك بذقني ورفع رأسي إلى الأعلى حتى يرغمني على النظر إليه.

كنت في هذه المناسبات كلّها قادرة على احتواء غضبه فينسحب إلى غرفة نوم الضيوف أو يخرج من البيت ولا يعود إلا بعد أن يهدأ غضبه.

في ليلة حفلة ألفين آيلي، بدا لي أول الأمر كما لو أن صيحتي الحادة قد لمست شيئاً في نفسه.

قال لي وهو يترك معصمي: «إنني آسف». تراجعت خطوة إلى الخلف. مرر أصابعه في شعره وأطلق زفيراً بطيئاً، ثم قال: «لكن، لماذا كذبتِ عليّ؟».

همست من جديد: «خالتي شارلوت. أقسم أنني لم أذهب إلّا إليها».

ما كان يجب أن أقول هذا. لكني كنت قلقة من أن يقودني إقراري بأنني ذهبت إلى أحد ما للحديث عن زواجنا إلى مزيد من انفجارات غضبه أو إلى طرح أسئلة ما كنت مستعدة للإجابة عليها.

أدت كذبتي المكرّرة إلى جعل شيء يفلت في داخلي. ما عاد قادراً على إمساك نفسه.

كان صوت اصطدام كفه بخدي أشبه بصوت طلقة بندقية. سقطتُ على الأرض الصلبة. غلبت الصدمة ألمي بضع لحظات وأنا راقدة على الأرض في فستاني الفاخر الذي قدمه لي، ذلك الفستان الذي صار مكرمَشاً حول ساقي.

وضعت يدي على خدي ونظرت إليه واقفاً فوقي: «ماذا... كيف يمكنك أن...».

مد يده إليَّ فظننت أنه سيساعدني في النهوض على قدمي، وظننت أنه سيطلب الصفح مني ويقول إنه أراد أن يضرب الخزانة التي خلفي.

إلا أن أصابعه قبضت على شعري وشدتني إلى أعلى.

صرت واقفة على رؤوس أصابعي وارتفعت يداي إلى يده الممسكة بشعري حتى يتركني. شعرت كما لو أنه ينتزع جلدة رأسي. انفجرت دموعي وقلت متوسلة: «توقف، أرجوك».

تركني، لكنه انحنى صوبي وثبتني على حافة منضدة المطبخ. لم يكن يؤلمني في تلك اللحظة، لكني عرفت أنها أكثر اللحظات خطراً في تلك الليلة. أكثر اللحظات خطراً في حياتي.

تقلّص شيء في وجهه، وصارت عيناه الضيقتان قاتمتي اللون. لكن صوته كان مخيفاً أكثر. إنه ذلك الجزء منه الذي لا أزال أذكره... الصوت الذي كان يهدئني في ليالٍ كثيرة... الصوت الذي أقسم أن يحبني ويحميني.

«عليك أن تتذكّري أنني معك دائماً، حتى عندما لا أكون هنا».

ظل برهة يحدّق في عيني.

ثم عاد زوجي إلى الظهور. تراجع خطوة إلى الخلف وقال: «عليكِ الآن أن تذهبي إلى السرير يا نيللي».

في صبيحة اليوم التالي، أتى ريتشارد بصينية الفطور إلى السرير. لم أكن قد نمت ليلتها، ولم أتحرّك من فراشي.

حافظت على هدوء صوتي واعتداله عندما قلت له: «شكراً». كنت خائفة من إغضابه مرة أخرى.

وقع نظره على معصمي الأيمن الذي كانت الكدمات قد ظهرت عليه. خرج من الغرفة، ثم عاد حاملاً كيساً من قطع الثلج. ومن غير أن يقول أية كلمة، وضع الكيس على تلك الكدمات.

«سوف أعود في وقت مبكر يا حبيبتي، وسوف آتي بطعام للعشاء».

أكلت الغرانولا[1] والفراولة من غير اعتراض. صحيح أن أي أثر

---

(1) غرانولا: نوع من أنواع وجبات الفطور الجاهزة مؤلف من الشوفان والسكر البني أو العسل مع الفاكهة المجففة والمكسرات.

للصفعة لم يكن ظاهراً على وجهي إلا أن فكي كان شديد الحساسية، وكان مضغ الطعام يؤلمني. نزلت إلى الأسفل وغسلت الطبق. أطلقت صرخة ألم صغيرة عندما فتحت باب آلة غسل الأطباق بيدي المصابة.

رتبت السرير، وحرصت على عدم إجهاد معصمي عندما أدخلت أطراف الملاءة تحت زوايا الفراش. دخلت إلى الحمام، وأجفلت عندما سقط رشاش الماء ثقيلاً على رأسي. ما كنت قادرة على احتمال غسل شعري بالشامبو ولا على تجفيفه، فتركته رطباً. عندما فتحت باب خزانة ملابسي، وجدت فستان ألكساندر ماكوين الذي ارتديته معلقاً بكل عناية. لم أتذكّر كيف خلعته... بل إن بقية تلك الليلة كلها كانت غائمة. لم أتذكّر شيئاً غير إحساسي بأنني كنت أحاول الانكماش على نفسي... بأنني كنت راغبة في أن أصير صغيرة الحجم إلى أقصى حد ممكن كأنني أريد جعل نفسي غير مرئية.

تجاوزت ذلك الفستان وأخرجت ملابس أخرى: بنطلون طويل وجوارب ثقيلة وقميص طويل الكمين ووشاح دافئ. كانت حقائبي ظاهرة في الرف العلوي. رحت أنظر إليها.

كان من الممكن في تلك اللحظة أن أحزم بعض أمتعتي وأخرج من البيت. كان من الممكن أن أحجز غرفة في فندق أو أذهب إلى بيت خالتي. كان من الممكن أيضاً أن أتصل بسامانثا رغم أن أي تواصل لم يجرِ بيننا منذ زمن بعيد، منذ أن اتسع الصدع الذي قام بيننا. لكنني كنت أعرف أن ترك ريتشارد ليس بتلك السهولة.

عندما خرج من البيت في ذلك الصباح، سمعت أصوات الطنين التي تعني أن ريتشارد كان يشغل نظام الإنذار. وبعد ذلك، سمعت صوت إغلاق باب البيت من خلفه.

هكتبة

لكن أكثر الأصوات ارتفاعاً في أذني كان صدى كلماته التي قالها: أنا معك دائماً.

كنت لا أزال أحدّق في حقائبي عندما رنّ جرس الباب.

رفعت رأسي ونظرت. كان ذلك صوتاً غير مألوف لأنه لا يكاد يأتينا أحد من غير إخبارنا مسبقاً. ما كان هنالك ضرورة لأن أفتح الباب... إنه، على الأرجح، موظف لتوصيل المشتريات يترك لنا شيئاً عند الباب.

لكن الجرس رنّ من جديد. وبعد لحظة من ذلك، سمعت صوت رنين هاتف البيت. عندما رفعت السماعة، سمعت صوت ريتشارد يقول لي: «حبيبتي، أين أنت؟». كان صوته قلقاً.

نظرت إلى الساعة الموضوعة على الطاولة. لا أدري كيف صارت الساعة الحادية عشرة. أجبته: «كنت أستحم. خرجت من الحمام هذه اللحظة». سمعت قرعاً على الباب من جديد.

«عليك أن تذهبي وتفتحي الباب».

وضعت السماعة ونزلت إلى الأسفل. أحسست بضيق على صدري. أبطلت نظام الإنذار بيدي السليمة ثم فتحت الباب. يداي ترتجفان. لم تكن لدي أية فكرة عمن قد يكون خلف الباب، لكن ريتشارد أخبرني بما يتعين عليَّ فعله.

ارتعدت عندما هب هواء الشتاء البارد في وجهي. رأيت شخصاً واقفاً هناك حاملاً لوحاً إلكترونياً وكيساً أسود صغيراً. قال لي: «فانيسا ثومبسون؟».

أومأت برأسي.

«وقّعي هنا من فضلك». مد لي اللوح الإلكتروني. كان الإمساك بالقلم صعباً. كتبت اسمي كيفما اتفق. عندما رفعت رأسي، كان الرجل ينظر إلى معصمي. كانت كدمات بلون الباذنجان تلوح من تحت قميصي.

انتبه الرجل فأبعد عينيه سريعاً وقال: «هذا لك». ثم ناولني الكيس.

«كنت ألعب التنس. وقد وقعت».

رأيت ارتياحاً يظهر في نظرة عينيه. لكنه استدار والتفت إلى الثلج الذي غطى كل شيء في الحديقة. أغلقت الباب سريعاً.

فككت رباط الكيس فرأيت فيه علبة. عندما رفعت غطاء العلبة، وجدت فيها سواراً ذهبياً من تصميم فيردورا. كان عرض السوار لا يقل عن خمسة سنتيمترات.

مددت يدي إلى العلبة ورفعت السوار منها. من الممكن لهذا السوار الذي أرسله ريتشارد أن يغطي الندوب القبيحة التي على معصمي تغطية كاملة.

قبل أن تسنح لي فرصة اتخاذ قرار إن كنت سأتمكن من لبس ذلك السوار في يوم ما، تلقينا المكالمة الهاتفية التي أخبرتنا أن أمي توفيت.

خلال سنين كثيرة، كنت أسمح للخوف بالسيطرة عليّ. لكنني أحسست بمشاعر أخرى تطفو إلى السطح بعد أن جلست في سيارة التاكسي: إنه الغضب! شعرت بأن من المريح لنفسي أن أفلت غضبي على ريتشارد بعد أن ظللت زمناً طويلاً جداً أحاول امتصاص غضبه.

كنت أخنق مشاعري خلال فترة زواجنا. كنت أنوّمها بالكحول وأدفنها بالنكران. كنت كأنني أسير على أطراف أصابعي من حول تقلبات مزاج زوجي آملة أن أستطيع ضبط المناخ المهيمن في بيتنا إذا خلقت بيئة سارّة بهيجة إلى الحد الكافي، إذا قلت الأشياء الصحيحة، وإذا فعلت الأشياء الصحيحة... تماماً مثلما كنت أضع رسمة الشمس المبتسمة في صفّي في روضة الأطفال.

كنت ناجحة في ذلك أحياناً وكانت مجموعة مجوهراتي ـ كان سوار فيردورا القطعة الأولى من بين مجموعة قطع قدمها لي ريتشارد بعدما أطلق عليه اسم «سوء التفاهم بيننا» ـ تذكّرني بالأوقات التي لم أكن فيها كذلك. لم أفكّر في أخذ هذه القطع معي عندما رحلت. حتى إن بعتها، فسوف يكون المال الذي أتلقاه ثمناً لها ملوثاً أيضاً.

خلال زواجي كلّه، وحتى بعد زواجي، كانت كلمات ريتشارد تتردّد في عقلي فتجعلني أشك في نفسي دائماً وتحد من قدرتي على الفعل. لكني أتذكّر الآن ما قالته لي خالتي شارلوت هذا الصباح: أنا لا أخاف العواصف لأنني أتعلم كيف أبحر فيها.

أغمض عينَيَّ وأستنشق هواء شهر يونيو المتدفّق عبر نافذة السيارة... تيار الهواء الذي كان يزيل أثر رائحة ريتشارد.

ليس كافياً أنني قد هربت من زوجي. وأعرف أن تمكّني من إيقاف هذا الزواج لن يكون كافياً أيضاً. حتى إذا تركتْ إيمّا ريتشارد، فأنا واثقة من أنه سينتقل إلى شابة أخرى، سينتقل إلى بديلة أخرى.

ما يتعين عليَّ فعله هو العثور على طريقة لإيقاف ريتشارد.

أين هو الآن، في هذه اللحظة تحديداً؟ أراه يضم إيمّا، يحيط بها، ويقول لها إنه آسف لأن زوجته السابقة تستهدفها. يأخذ الورقة من يدها ويقرأها سريعاً، ثم يكرمشها بين أصابعه حتى تصير كرة صغيرة. إنه غاضب ـ لكن، لعلها تظن أن أفعالي تبرر غضبه. إلا أن أملي أن أكون قد أقنعتها بإعادة تفحّص ماضيهما معاً والنظر إلى تاريخهما بعين جديدة. لعلها تتذكّر الآن المرات التي بدت لها فيها ردود أفعال ريتشارد غريبة بعض الشيء... تلك اللحظات التي تتكشّف فيها حاجته إلى كبح جماح نفسه.

فما هي خطوته التالية؟

سوف ينتقم مني.

أفكر لحظة، ثم أفتح عيني وأنحني إلى الأمام.

أقول لسائق التاكسي الذي يأخذني إلى شقة خالتي شارلوت: «لقد غيّرت رأيي. عليَّ أن أذهب إلى مكان آخر». أفتش على العنوان في هاتفي وأقرأه للسائق.

تنزلني السيارة أمام فرع سيتي بنك في مركز المدينة. إنه الفرع الذي فيه حسابات ريتشارد المصرفية.

عندما ترك لي ريتشارد ذلك الشيك، قال لي أن أستخدم المال للحصول على مساعدة. بل إنه أخبر المصرف أيضاً بأنني سأسحب المبلغ. لكنني أظهرت له من خلال إرسالي صورة ديوك ومن خلال رسالتي إلى إيمّا أنني لن أختفي من حياته بهدوء مثلما يريد.

أظنه سيحاول اليوم إيقاف صرف هذا الشيك. هكذا سيبدأ ريتشارد معاقبتي. وستكون هذه طريقة سهلة لإفهامي بأنه لن يتسامح تجاه رفضي الخضوع له.

هذا يعني أن عليَّ صرف الشيك قبل أن تسنح له فرصة تغيير رأيه.

أجد شبّاكين خاليين من العملاء. واحد فيه شاب في قميص أبيض وربطة عنق. والآخر فيه امرأة في أواسط العمر. أقترب من شباك المرأة رغم أن الشاب كان هو الأقرب إليّ. تستقبلني بابتسامة ترحيب. اسمها ظاهر على البطاقة: بيتي.

أخرج شيك ريتشارد من محفظتي وأقول لها: «أريد أن أصرف هذا الشيك».

تومئ برأسها ثم تنظر إلى الرقم المكتوب على الشيك فيتغضن حاجباها وتسألني: «هل تريدين المبلغ نقداً؟». تنظر إلى الشيك من جديد.

«نعم». تبدأ قدمي بقرع الأرض فأوقفها. يقلقني احتمال أن يتصل ريتشارد بهم وأنا واقفة هنا.

«هل يمكنك التفضل بالجلوس؟ أظن من الأفضل أن يساعدك مديري في هذا الأمر».

ألقي نظرة إلى يدها. ليس في إصبعها خاتم زواج.

ليس من الصعب أن تتفادى الأسئلة إذا تعلّم المرء الحيل اللازمة لذلك. اروِ قصصاً مختلقة ملونة تحرف الانتباه عن حقيقة أنك لا تعطي أية معلومات. تجنّب الأشياء المحدّدة. كن غامضاً. اكذب، لكن فقط عندما يكون ذلك ضرورياً.

أنحني مقتربة من شبّاكها إلى أقصى حد ممكن: «انظري يا بيتي... واو، إن هذا... أعني، كان هذا، اسم أمي. كانت وفاتها قبل فترة قصيرة». هذه كذبة ضرورية.

«يؤسفني سماع هذا». تعبير وجهها متعاطف. لقد اخترت الموظفة المناسبة.

«سوف أكون صادقة معك...». أتوقف لحظة... «إن زوجي، السيد ثومبسون، يطلّقني».

تكرر عبارتها: «يؤسفني سماع هذا».

«نعم، يؤسفني أنا أيضاً. سوف يتزوج هذا الصيف». أبتسم لها ابتسامة حزينة... «على أية حال، هذا الشيك منه. وأنا أريد أن أحصل على المال لأنني أحاول استئجار شقة. لقد انتقلت خطيبته الشابة الجميلة للسكن معه منذ الآن». خلال كلامي، أتخيل صورة ريتشارد ممسكاً بهاتفه وهو يطلب رقم المصرف.

«المسألة هي أن المبلغ كبير».

«ليس كبيراً بالنسبة إليه. وكما ترين، إن لنا اسم العائلة نفسه...». أخرج رخصة قيادة السيارة من حقيبتي وأقدمها لها... «ولا يزال لدينا العنوان نفسه رغم أنني تركت البيت. إنني مقيمة الآن في فندق بائس على مسافة قريبة من هنا».

يحمل الشيك عنوان بيتنا في ويستشستر. يعرف أي شخص من سكان نيويورك إنها ضاحية ثرية. تنظر بيتي إلى رخصة قيادتي، ثم تتردّد قليلاً. على الرخصة صورتي منذ عدة سنوات، قرابة الفترة التي بدأت فيها التخطيط لترك ريتشارد. كانت عيناي متألقتين وكانت ابتسامتي حقيقية.

«أرجوك يا بيتي. سأقول لك... يمكنك الاتصال بمدير فرع بارك آفنيو. لقد أخبره ريتشارد بأنني سأصرف الشيك نقداً».

«أعذريني لحظة واحدة».

أنتظر بينما تتنحى بيتي جانباً وتتكلّم في الهاتف بصوت خفيض. أشعر بشيء من الدوار نتيجة توتري، وأتساءل إن كان ريتشارد قد سبقني من جديد.

تستدير الموظفة فلا أستطيع قراءة شيء في تعابير وجهها. تنقر مفاتيح لوحة الكمبيوتر أمامها، ثم ترفع رأسها وتنظر إلي أخيراً وتقول: «أعتذر لأنني أخّرتك. كل شيء سليم. لقد أكد المدير صلاحية الشيك. أرى في السجلات هنا أنك والسيد ثومبسون كنتما تملكان حساباً مشتركاً لم يجرِ إغلاقه إلا قبل بضعة شهور».

أجيبها هامسة: «شكراً لك». تعود بعد بضع دقائق حاملة عدة حزم من الأوراق النقدية. تضع المال في آلة العد، ثم تتحّقق من كل ورقة مئة دولار مرتين بينما يزداد توتري الداخلي شدة. أتوقّع في أي لحظة أن يأتي أحد ما إليها مسرعاً ويأخذ النقود منها. لكنها تدفع المال في اتجاهي عبر الفتحة المنخفضة تحت النافذة الزجاجية ومعه مغلف كبير الحجم مزود بشريط لاصق.

أقول لها: «أتمنى لك يوماً لطيفاً».

«حظّاً طيباً».

أغلق حقيبة يدي على المال وأشعر بثقل حقيبتي المطمئن عند خصري.

إنني أستحق هذا المال. وبما أنني فقدت عملي الآن، فأنا محتاجة إليه أكثر من أي وقت مضى... حتى أساعد خالتي.

ثم إن من المُرضي إلى حد غريب أن أفكّر في رد فعل ريتشارد عندما يقوله له موظف المصرف إن ماله قد طار منه.

لقد أفقدني توازني على امتداد سنوات كثيرة. كنت أعاني العواقب كلما سببت له انزعاجاً ما. لكن من الواضح أيضاً أنه كان يستمتع بمواساتي كلما وجدني منزعجة. كانت هذه الازدواجية في شخصية زوجي قد جعلته لغزاً بالنسبة إلي. لا أزال غير قادرة على فهم السبب الذي يجعله في حاجة إلى السيطرة على كل شيء في محيطة سيطرة دقيقة تشبه دقة ترتيبه لجواربه وقمصانه.

لقد استعدت جزءاً من القدرة التي سلبني إياها. لقد فزت في معركة صغيرة. إنني ممتلئة بهجة.

أتخيّل غضبه مثل إعصار... يدور ويدوّم منطلقاً خارجه. لكني بعيدة عن متناوله في هذه اللحظة.

أخرج إلى الرصيف وأسير مسرعة إلى أقرب فرع لمصرف تشيز مانهاتن. أودع المبلغ في حسابي الجديد الذي فتحته بعد انفصالي عن ريتشارد. صرت الآن مستعدة للعودة إلى خالتي شارلوت. لكني لن أعود إلى أمان سريري فأنا مصممة على التخلص من تلك المرأة المهزومة التي كنتها.

أجد نفسي مفعمة بالطاقة عندما أفكر في ما سأفعله في الخطوة التالية.

هـ ك ت ب ة

الفصل الثاني والثلاثون

«أنا في السادسة والثلاثين. وأنا أحب ريتشارد. سوف نتزوج عما قريب». هكذا أهمس لنفسي وأنا أنظر في المرآة. مزيد من أحمر الشفاه... أمد يدي إلى علبة أدوات التجميل... «وأنا أعمل هنا مساعدة لريتشارد».

إنني في فستان أحمر ورديّ اشتريته بعد ظهر اليوم من متجر آن تايلر. ليس هذا الفستان مطابقاً تماماً، لكنه مظهره قريب، خاصة بعد أن وضعت حشية إضافية في حمالة الثديين.

لكن وقفتي ليست صحيحة تماماً. أشد كتفيَّ إلى الخلف وأرفع ذقني. هذا أفضل.

أقول في المرآة: «اسمي إيمّا». ثم أبتسم... ابتسامة واثقة عريضة.

لن أستطيع خداع أي شخص يعرفها معرفة جيدة. لكني لست في حاجة إلا إلى تجاوز عمال التنظيف في مكتب ريتشارد.

إذا كان أحد زملائه يعمل حتى وقت متأخر في هذه الليلة، فسوف ينتهي أمري. وإذا شاءت الصدفة أن يكون ريتشارد هنا... لكن لا، لا أستطيع حتى أن أترك نفسي أفكر في ذلك وإلا فلن تكون لديّ الشجاعة الكافية لإنجاز الأمر.

أكرر مرة بعد مرة: «اسمي إيمّا»... أكررها حتى أصير راضية عن البحّة في صوتي.

أسير إلى باب الحمام وأفتحه قليلاً، ثم أنظر إلى الخارج. الممر خالٍ، والأنوار خافتة. لا أستطيع رؤية ما بعد الزاوية حيث الباب الزجاج المزدوج المؤدي إلى شركة ريتشارد. أعرف أن الباب سيكون مقفلاً مثلما يكون كل ليلة. لا يحمل مفتاح هذا الباب غير عدد قليل من الأشخاص. إن المعلومات المالية لمئات العملاء مخزنة في كمبيوترات الشركة. كلّها محمية بكلمات مرور، إضافة إلى ثقتي في أن خبراء أمن المعلومات في الشركة يتلقّون إنذاراً فورياً إذا حاول أي شخص اختراق النظام.

لكني لست ساعية خلف أي سجلات إلكترونية. لا أريد أكثر من وثيقة بسيطة من مكتب ريتشارد؛ وثيقة لا أهمية لها عند أي شخص غيره.

حتى لو تسنّت لإيمّا فرصة قراءة رسالتي، وحتى إذا بدأت تتشكّل في ذهنها بضعة شكوك عابرة، فأنا أعرف أنها شابة منطقية عاقلة. فمن عساها تصدّق آخر الأمر؟... خطيبها الكامل المستقر أم زوجته السابقة المجنونة.

أنا في حاجة إلى برهان يزعزع ثقتها. إيمّا هي الشخص الذي كشف لي كيف أحصل على ذلك البرهان.

عندما واجهتُها في الشارع أمام شقتها، قلت لها أن تسأل ريتشارد عن نبيذ رافينو المفقود الذي أرسلني حتى آتي به من قبو النبيذ تلك الليلة عندما أقمنا حفلة كوكتيل في بيتنا. ومن الذي تظنين أنه طلبه؟ ... هكذا كان سؤالها لي قبل أن تتركني وتصعد إلى سيارة التاكسي.

كانت حركة ذكية من جانب ريتشارد أن يجعل إيمّا، باعتبارها مساعدته، تطلب النبيذ من أجل تلك الحفلة.

ظل ريتشارد فترة طويلة غير محتاج إلى معاقبتي. لقد حافظت على سلوك حسن عدة أشهر: كنت أستيقظ معه في وقت مبكر وأمارس التمرينات الرياضية كل صباح وأعد طعاماً صحياً لعشائنا. وهذا ما جعل ريتشارد يرى نفسه محسناً إلي. عندما بلغت تلك المرحلة في زواجي، لم تعد لدي أية أوهام أو شكوك في أن زوجي يمكن أن يصير خطيراً جداً إذا خشي أن يكون حبي له قد بدأ ينزلق بعيداً.

لذا كنت أتوقّع أن أدفع ثمناً باهظاً عندما أجريت تعديلات على شعري قبل أيام قليلة من أمسية الكوكتيل تلك. طلبت من مصففة الشعر في البداية أن تصبغه بلون الكراميل البني. اعترضت الفتاة قائلة إن النساء يدفعن لها مئات الدولارات حتى يحصلن على لون شعر يماثل لون شعري الطبيعي. لكني كنت مصممة. وعندما انتهت من صباغته، أمرتها بأن تقص منه نحو عشرين سنتيمتراً حتى صار بالكاد يصل إلى كتفي.

عندما التقينا أول مرة، طلب مني ريتشارد ألا أقص شعري أبداً. كانت تلك القاعدة الأولى التي يضعها لي رغم مجيئها متنكرة على شكل مديح.

وقد أطعت تلك القاعدة طيلة زواجنا.

لكني قابلت إيمّا. وعرفت أن عليَّ أن أمنح زوجي سبباً يجعله يتخلّص مني، مهما تكن نتائج ذلك.

عندما رأى ريتشارد شعري، صمت لحظة ثم قال لي إن هذا تغيير لطيف خلال الشتاء. فهمت أنه يريد أن يعود شعري مثلما كان مع قدوم الصيف. وبعد تلك الملاحظة المقتضبة، صار يعمل حتى ساعة متأخرة في الليل إلى أن حان موعد حفلتنا.

لقد جعل ريتشارد إيمّا تطلب النبيذ حتى يتمكّن من بناء حجّته ضدي.

والآن، يمكنني استخدام ذلك حتى أبني حجّتي ضده.

في تلك الليلة، كانت هيلاري واقفة مع ريتشارد عند البار المؤقت في غرفة المعيشة في بيتنا. تأخّرت الشركة التي ستقدم الطعام؛ وكنت أتمتم للمدعويين باعتذارات عن هُزال ما كان متوفراً لديَّ من جبن بري وجبن شيدر اللذين وضعتهما على الطاولة.

ناداني ريتشارد من الناحية الأخرى من الغرفة: «حبيبتي؟ هل يمكنك أن تأتي ببضع زجاجات نبيذ رافينو من القبو؟ لقد طلبت الأسبوع الماضي صندوقاً منها. إنها على الرف الأوسط في براد النبيذ».

سرت في اتجاه القبو بخطوات أحسستها بطيئة جداً لأنني كنت أحاول تأخير اللحظة التي أخبر فيها ريتشارد أمام أصدقائه وشركائه جميعاً بما كنت أعرفه أصلاً: ليس في قبونا نبيذ رافينو.

لكن، ليس لأنني شربته!

بالطبع، ظن الجميع أنني شربت ذلك النبيذ. كان ذلك ما أراده ريتشارد. وكان ذلك هو النموذج الذي يتكرّر بيننا دائماً: أتحدّى ريتشارد من خلال محاولة التأكيد على استقلاليتي فيجعلني أدفع ثمن شذوذي. كانت عقوبتي على الدوام متناسبة مع جريمتي المفترضة. ففي ليلة حفلة آلفين آلين، كنت أعرف أن ريتشارد قال لشريكه بول إنني في حاجة إلى الذهاب إلى البيت بعد أن أكثرت من الشراب. لكن ذلك لم يكن صحيحاً: كان ريتشارد حانقاً لأن بول عرض عليَّ المساعدة في الحصول على عمل. وأكثر من هذا كان زوجي يعرف أنني ذهبت إلى المدينة من أجل لقاء سرّي... ذلك اللقاء الذي قلت له آخر الأمر إنه كان زيارة إلى مُعالِجة نفسية.

كان جعلي أبدو سيئة في أعين الناس... أي جعل الآخرين يرونني امرأة غير مستقرة، والأسوأ من ذلك جعلي أشك في نفسي... واحداً من

مكتبة

أساليب ريتشارد المفضَّلة من أجل تأديبي. كان في ذلك الأسلوب فعالية خاصّة بالنظر إلى معاناة أمي.

قلت له عندما عدت من القبو خالية اليدين: «حبيبي، ليس لدينا نبيذ رافينو».

«لكنني وضعت الصندوق هناك بنفسي...». قطع ريتشارد جملته وظهر على وجهه تعبير حيرة سرعان ما حل محله تعبير حرَج واضح.

كان ممثلاً ماهراً حقاً.

قالت هيلاري بمرح مبالغ فيه: «أوه... سأكون سعيدة بأي نبيذ أبيض معتَّق!».

كانت إيما واقفة في الناحية الأخرى من الغرفة. وكانت في فستان بسيط أسود مع حزام يُظهِر رِقَّة خصرها. وكان شعرها الأشقر الغني منسدلاً مع تموّجات في نهاياته... رائعة مثلما أتذكرها دائماً.

كان لا بد لي من إنجاز ثلاثة أمور في تلك الليلة: إقناع كل واحد من الحاضرين بأن زوجة ريتشارد فوضوية بعض الشيء. وإقناع إيمّا بأن ريتشارد يستحق زوجة أفضل. وأهم من ذلك كله، إقناع ريتشارد بالأمر كله.

جعلتني شدّة التوتر أشعر بنوع من الدوار. نظرت إلى إيمّا لكي أستمد الشجاعة منها، ثم قمت بشيء من التمثيل من جانبي.

شبكت ذراعي بذراع هيلاري آملة ألّا تحس ببرودة أصابعي الثلجية عبر كم فستانها وقلت لها: «سوف أنضم إليك في ذلك. من الذي يقول إن الشقراوات أكثر جمالاً؟ أحب كوني امرأة داكنة الشعر. هيا يا ريتشارد... افتح لنا زجاجة».

أفرغت كأسي الأولى في مجلى المطبخ عندما ذهبت لإحضار مزيد من مناديل الكوكتيل، وحرصت على أن يكون ريتشارد ضمن مدى

السمع عندما سألتُ هيلاري إن كانت تريد ملء كأسها مرة أخرى. كانت كأسها لا تزال في نصفها. اتجهت نظرة عينيها إلى كأسي الفارغة قبل أن تهز رأسها نفياً.

بعد لحظة من ذلك، ناولني ريتشارد كأساً من الماء وقال لي: «أليس من الأفضل يا حبيبتي أن تتّصلي بالشركة التي ستقدم الطعام».

بحثت عن رقم هاتف الشركة، ثم نقرت على الأعداد الستة الأولى منه وأنا أبتعد عن ريتشارد حتى لا يلاحظ الإيقاع غير الطبيعي لمكالمة من جانب واحد. أومأت له بعد تلك المكالمة وقلت: «من المتوقّع أن يكونوا هنا في أية لحظة». ثم شربت كأس الماء.

كنت أتظاهر بشرب كأس النبيذ الثالثة عندما وصل عمال تلك الشركة.

وعندما راحوا يجهزون البوفيه، استدعى ريتشارد كبيرهم إلى المطبخ فذهبت خلفهما.

سألته قبل أن يتمكّن ريتشارد من قول أي شيء له: «ماذا يجري؟ ...». لم أبذل أي جهد في إبقاء صوتي منخفضاً... «كان من المفترض أن تصلوا قبل ساعة من الآن».

«إنني آسف يا سيدة ثومبسون...». نظر الرجل إلى اللوحة الإلكترونية التي يحملها... «لكنا أتينا في الوقت المحدّد لنا».

«هذا غير ممكن. بدأت حفلتنا في الساعة السابعة والنصف. وأنا واثقة من قولي لكم إننا نريدكم أن تكونوا هنا في الساعة السابعة».

كان ريتشارد واقفاً إلى جانبي لإبداء اعتراضه الشديد على هذه الغلطة من جانب الشركة.

لم يقل الرجل أي كلمة، لكنه أدار اللوح في اتجاهنا وأشار إلى

التوقيت المسجل عليه: الساعة الثامنة مساء ـ وكان توقيعي على تلك الصفحة واضحاً.

تنحنح ريتشارد محرجاً بعض الشيء، لكن، ماذا حدث؟

كان من الضروري أن يكون رد فعلي في محله تماماً. وكان لا بد لي من إظهار سوء تدبيري، إضافة إلى قلة اكتراثي بالإزعاج الذي سببته له.

قلت من غير اهتمام: «أوه، أظن أن الغلطة غلطتي. المهم أنهم قد جاؤوا آخر الأمر».

«كيف يمكنكِ أن... ؟». خنق ريتشارد بقية كلمات جملته. أطلق زفيراً بطيئاً، لكن التوتّر لم يفارق وجهه.

شعرت بالغثيان يصعد من معدتي إلى حلقي وعرفت أنني غير قادرة على الاستمرار في التمثيل أكثر من ذلك. فأسرعت إلى الحمام وغسلت يديَّ ووجهي بالماء البارد. ورحت أحصي أنفاسي إلى أن هدأت ضربات قلبي آخر الأمر.

خرجت من الحمام بعد ذلك ونظرت إلى الضيوف. لم أنجز بعد كل ما كان يُفترَض إنجازه.

كان ريتشارد يتحدّث مع واحد من شركائه ومع أحد زملائه في لعب الغولف في النادي، لكن ما يشبه إحساساً بالوخز في جلدي نبّهني إلى أن عينيه كانتا تنظران في اتجاهي تكراراً. شعري، وشربي، وردة فعلي تجاه «غلطتي» مع شركة تقديم الطعام... كنت أتصرّف تصرّف امرأة مختلفة تماماً عن المرأة التي راجعت معه تفاصيل الحفلة كلّها بدقّة تامّة خلال الأسابيع الماضية. لقد أمضينا ساعات في مراجعة قائمة المدعوين؛ وكان ريتشارد يذكّرني بالمعلومات الشخصية عن كل واحد من شركائه حتى لا أجد صعوبة في الحديث معهم وتقديم كل واحد منهم للآخرين. ناقشنا الخيارات المتعلّقة بترتيب الزهور. نبّهني ريتشارد إلى عدم طلب

الروبيان لأنه يسبب مشكلة تحسسية لأحد ضيوفنا. وقد قلت له إنني سوف أتحقّق مرة أخرى من أن لدينا العدد الكافي من علّاقات الملابس حتى لا نضطر إلى وضع معطف أي شخص على السرير.

بعد ذلك، كان يجب إنجاز بند آخر من بنود قائمتي السرية؛ ذلك البند الذي سجّلته في رأسي فقط وراجعته مرات كثيرة خلال وجود ريتشارد في عمله: التكلّم مع إيمّا.

مرّ أحد الخدم فعرض عليَّ شطيرة جبن بارميزان حارة من التي كان يحملها في صينيته. أرغمت نفسي على الابتسام له، ثم تناولت واحدة لكني لففتها بمنديل.

انتظرت لحظة إلى أن وصل الخادم نفسه إلى المجموعة التي كانت إيمّا واقفة معها، ثم اقتربت منها.

قلت لها: «عليك أن تجربي واحدة من هذه». ضحكت لها ثم تابعت... «لا بد لك من المحافظة على قواكِ إن كنت تعملين مع ريتشارد».

عبست إيمّا لحظة، ثم صفا وجهها من جديد: «إنه يعمل ساعات طويلة. لكني لا أجد مشكلة في ذلك».

أخذت شطيرة وتناولت قضمة منها. رأيت ريتشارد آتياً في اتجاهنا من آخر الغرفة، لكن جورج اعترضه.

قلت لها: «أوه، ليست المسألة مسألة ساعات طويلة فحسب، بل لأنه شديد التدقيق، أليس هذا صحيحاً؟».

أومأت برأسها، ثم وضعت ما بقي من الشطيرة الصغيرة في فمها.

«حسناً، يسعدني أن كل امرئ صار لديه أخيراً ما يأكله. كنت أتوقع، على الأقل، أن يأتي هؤلاء الناس في موعدهم بالنظر إلى المبلغ الكبير الذي يتقاضونه». كنت أتكلم بصوت مرتفع إلى الحد الكافي لجعل

الرجل متوسط العمر الذي يحمل طبق الطعام قادراً على سماعي، والأهم من ذلك، أردت أن تظن إيمّا بأنني أوجّه تلك الملاحظة الخشنة إليه. شعرت بالحرارة في وجنتي، لكني أملت أن تظن إيمّا أنها نتيجة إكثاري من النبيذ. عندما لاقيت نظرة عينيها، رأيت فيهما استنكاراً لجلافتي.

خلّص ريتشارد نفسه من جورج وسار في اتجاهنا مباشرة. قبل أن يصل بلحظة واحدة، استدرت وسرت في الاتجاه الآخر.

فلأعطهم سبباً آخر أيضاً... كنت أعرف أنه عليَّ أن أفعل هذا الآن قبل أن أفقد شجاعتي.

كانت كل خطوة صراعاً عندما عبرت الغرفة بخطوات بطيئة، كانت ضربات قلبي تتردّد في أذنَيّ. وكانت قطرات من العرق البارد تتجمع على شفتي العليا.

كانت حواسّي كلها تصرخ بي قائلة لي أن أتوقف، وأن أستدير وأعود من حيث أتيت. لكني أرغمت نفسي على مواصلة التقدّم متحرّكة بين تلك المجموعات الصغيرة من الأشخاص المبتسمين. لمس أحدهم ذراعي، لكني ابتعدت عنه من غير أي التفاتة.

كانت القوة الوحيدة التي تدفعني إلى الأمام هي تفكيري في أن إيمّا وريتشارد ينظران إليّ.

كنت أعرف أنني لن أحظى في وقت قريب بفرصة أخرى للاقتراب منها.

وصلت إلى جهاز آيبود المتصل بمكبرات الصوت. كان ريتشارد قد اعتنى بانتقاء مجموعة من مقطوعات الجاز ومن أعمال المؤلفين الكلاسيكيين المفضّلين لديه. كانت الموسيقى الناعمة محلّقة في أرجاء الغرفة.

نقرت على واحد من تطبيقات الأغاني واخترت موسيقى ديسكو من السبعينات. كنت قد تمرّنت على فعل هذا. ثم رفعت الصوت كثيراً.

صحت وأنا أرفع ذراعي في الهواء: «فلنبدأ الحفلة! ...». تقطّع صوتي وكاد يخونني... «من يريد الرقص؟».

توقف الناس عن الكلام. واستدارت إليَّ كل الوجوه كما لو أنهم يتحرّكون وفق برنامج معَدّ مسبقاً.

صحت: «هيا يا ريتشارد!».

حتى الخدم صاروا ينظرون إليّ الآن. لمحتُ هيلاري تنظر إليّ، ثم رأيت إيمّا فاغرة الفم قبل أن تستدير سريعاً وتنظر إلى ريتشارد. أتى إليّ ريتشارد بخطى واسعة فأحسست بما في داخلي ينقبض كله ويتوتر.

صاح بي، وكان صوته مفعماً ببهجة مصطنعة يرغم نفسه عليها: «لقد نسيتِ قواعد بيتنا يا حبيبتي... لا شيء من هذه الموسيقى قبل الساعة الحادية عشرة»... خفّض صوت الموسيقى.

تخلّلت الغرفة ضحكات ارتياح بينما كان ريتشارد يعيد الجهاز إلى مقطوعة باخ، ثم أمسك بيدي وشدّني إلى الممر: «ماذا أصابك؟ وكم شربتِ؟». ضاقت عيناه فلم أكن مضطرة إلى اصطناع نبرة الخوف في صوتي المعتذِر.

«لم أشرب... إنها... كأسان فقط. لكني... أنا آسفة. لن أشرب إلا الماء بعد الآن».

مد يده إلى كأسي نصف الممتلئة، لكنه لم يلبث أن تركها.

ظللت أشعر بنظرات زوجي مسلطة علَّي طيلة ما بقي من تلك الليلة. رأيت أصابعه مشدودة على كأس الويسكي الذي في يده. حاولت أن أتذكّر نظرة التعاطف الممزوج بالإعجاب على وجه إيمّا وهي تراقب تصرّفه خلال ذلك المشهد الذي اختلقته. أمدّني هذا النجاح بالطاقة الكافية لمواصلة تلك الأمسية.

لقد أنجزت كل ما قررت إنجازه.

كان الأمر يستحق ذلك على الرغم من أن كدماتي لم تشفَ إلا بعد أسبوعين.

لم يرسل ريتشارد بعد ذلك أي قطعة مجوهرات على سبيل التعويض عن «سوء التفاهم بيننا». كان هذا تأكيداً على أنه أقلع عن محاولة إصلاح الأمر بيننا. لقد بدأ اهتمامه يتحوّل في اتجاه آخر.

أقول مرة أخيرة وأنا أنظر في الممر الخالي: إنني أحب ريتشارد، ومن المفترض أن أكون هنا.

لم يكن دخول مبنى ريتشارد أمراً صعباً. تحت مكتبه ببضعة طوابق، هناك شركة محاسبة تتعامل مع أشخاص أثرياء. رتبت موعداً مع تلك الشركة وقلت لهم إنني امرأة عازبة حصلت في الآونة الأخيرة على ميراث كبير. لم يكن هذا شديد البعد عن الحقيقة... كان إيصال صرف الشيك الذي أخذته من ريتشارد لا يزال معي. حجزت آخر موعد في ذلك النهار، أي في الساعة السادسة مساء؛ ثم مررت من أمام مكتب الحارس الأمني في الأسفل واضعة بطاقة الزيارة على صدر فستاني الجديد.

بعد موعدي، أخذت المصعد إلى طابق ريتشارد وسرت مسرعة إلى حمام السيدات. لم يتغير الرمز الخاص بفتح باب الحمام. دخلت حجرة المرحاض الأخيرة. لقد جعلت مظهري الخارجي قريباً من مظهر إيمّا إلى أقصى حد ممكن؛ وكان أحمر الشفاه متناسباً مع لون فستاني؛ ثم إن شعري الذي صار الآن أشقر اللون مموّجاً قد غيّر مظهري تغييراً تاماً.

مزقت بطاقة الزيارة إلى قطع صغيرة وألقيتها عميقاً في سلة القمامة. ثم أمضيت بعد ذلك ساعتين في التمرن على صوتها ووقفتها وحركاتها.

دخلَتِ الحمام خلال تلك الفترة بضع نساء، لكن أياً منهن لم تبق فيه طويلاً. صارت الساعة الآن الثامنة والنصف. أخيراً، رأيت طاقم عمال التنظيف المؤلف من ثلاثة أشخاص يخرج من المصعد. كانوا يدفعون أمامهم عربة محملة بمواد التنظيف ومعداته. أرغمت نفسي على الانتظار إلى أن بلغوا باب شركة ريتشارد.

أنا واثقة من نفسي.

«مرحباً!». أخاطبهم بصوت مرتفع وأنا آتية في اتجاههم بخطى سريعة.

إنني متماسكة تماماً!

«تسعدني رؤيتكم من جديد».

إنني أنتمي إلى هذا المكان!

لا بد أن يكون أفراد طاقم التنظيف قد رأوا إيمّا في ليالي العمل المتأخرة في المكتب. ينظر في اتجاهي الرجل الذي فتح قفل الباب الزجاجي المزدوج ويبتسم لي ابتسامة متردّدة.

«طلب مني مديري التحقق من شيء ما على مكتبه». أشير إلى ذلك المكتب في الزاوية الذي أعرفه حق المعرفة... «تلزمني دقيقة واحدة فقط».

أتجاوزهم مسرعة بخطى أكثر اتساعاً من خطواتي الطبيعية. تأخذ امرأة من الطاقم ممسحة الغبار وتأتي خلفي. كنت أتوقع هذا. أعبر مكتب إيمّا الذي تنتصب عليه الآن زهرة بنفسج أفريقية في أصيص صغير وإلى جانبها فنجان شاي كبير مزين بالأزهار، ثم أفتح باب مكتب ريتشارد: «يجب أن يكون هنا». أسير إلى خلف المكتب وأفتح واحداً من الدرجين السفليين الثقيلين. لكني أجده فارغاً إلا من بضع قطع من الشوكولاته وعلبة من كُرات الغولف وأداة صغيرة لتمرين أصابع اليدين.

أقول للمرأة: «أوه، لعله وضعه في مكان آخر». يمكنني الإحساس بنظرتها المترقبة. من الواضح أنها صارت متوتّرة بعض الشيء. أراها تقترب مني. أستطيع قراءة العملية الجارية في عقلها: تقول لنفسها إنني أعمل في هذا المكان، وإلا لما سمح لي الحارس بالمرور. ثم إنها لا تريد الإساءة لشخص يعمل في المكتب. لكن من الممكن أن تفقد عملها إذا كانت مخطئة.

أرى خَلاصي ينظر إليّ: صورة فوتوغرافية لإيمّا في إطار فضي منتصبة على مكتب ريتشارد. أرفع الصورة وأريها لعاملة التنظيف مع الحرص على إبقائها بعيدة عنها بعض الشيء.

«هل ترين، إنها صورتي!». تبتسم المرأة ابتسامة ارتياح. يسعدني أنها لا تسألني عن السبب الذي يجعل مديري يضع صورة مساعدته على مكتبه.

أفتح الدرج الثاني فأرى فيه ملفات ريتشارد. على كل منها لصاقة مطبوعة.

أجد المصنّف الذي يحمل عنوان «AmEx» فأقلب الوثائق التي فيه إلى أن أجد واحدة مسجلة في شهر شباط. البند الذي أبحث عنه ظاهر في رأس تلك القائمة: نبيذ سوذبي، 3150 دولاراً؛ تمت إعادة المبلغ.

عاملة التنظيف ملتفتة إلى النافذة الآن. إنها تمسح الغبار عنها. لكني لا أستطيع السماح لنفسي حتى بلحظة احتفال واحدة. أضع الورقة في حقيبة يدي.

«لقد انتهيت! شكراً لك!».

تومئ المرأة برأسها. أما أنا فأتوجّه إلى الباب. وعندما أمر بزاوية المكتب، أمد يدي وألمس صورة إيمّا من جديد. لا أستطيع مقاومة ذلك... أديرها حتى تصير مواجِهة للجدار.

الفصل الثالث والثلاثون

أستيقظ صباح اليوم التالي فأحس انتعاشاً لم أعرفه منذ سنين.

لقد نمت نوماً مستمراً طيلة تسع ساعات من غير حاجة إلى أقراص منومة أو كحول. إنه نصر صغير آخر.

عندما أقترب من المطبخ، أسمع خالتي شارلوت تعمل فيه. أقترب منها وأحتضنها. رائحة الخزامى وزيت الكتان... رائحتها تطمئنني بقدر ما تقلقني رائحة ريتشارد.

«أحبك!». مكتبة أحمد

تضع يديها على يدي وتقول لي: «وأنا أحبك أيضاً يا عزيزتي».

صوتها ينبئني بأنها فوجئت... كما لو أنها قادرة على الإحساس بالتغيير الذي في داخلي.

لقد تعانقنا عشرات المرات منذ أن انتقلت إلى السكن معها. احتضنتني خالتي شارلوت عندما جلست أبكي بعد أن أنزلتني سيارة التاكسي عند باب بنايتها. وعندما كنت أعجز عن النوم وتهاجمني ذكريات أسوأ أوقات زواجي، كنت أحس بها تندسّ في فراشي وتطوقني بذراعيها. كانت كأنها تريد امتصاص ألمي. مقابل كل صفحة من صفحات دفتري التي امتلأت بوصف خداع ريتشارد، يمكنني ملء صفحة مقابلة بكلام

عن تلك الأيام في حياتي عندما حملتي خالتي شارلوت وحمتني بحبها الثابت الذي لا يطلب شيئاً بالمقابل.

وأما اليوم، فأنا من أحتضنها. أنا التي أعطيها بعضاً من قوتي.

عندما أُفلتها، تمسك خالتي شارلوت وعاء القهوة التي حضّرتها قبل قليل فأخرج علبة الحليب من البراد وأعطيها لها.

إنني في حاجة إلى طاقة... إلى طعام مغذٍّ يكون وقوداً لقوَّتي التي عثرت عليها أخيراً. أكسر عدة بيضات في مقلاة وأضيف إليها الطماطم الكرزية وقطعاً من جبن الشيدر، ثم أضع شريحتين من الخبز الكامل في آلة التحميص.

«لقد أجريت بعض البحث في الآونة الأخيرة». ترفع رأسها وتنظر إليّ فأعرف أنها تدرك تماماً ما أتحدث عنه... «لن تكوني وحدك في هذا الأمر أبداً. إنني معك هنا. ولن أذهب إلى أي مكان». تسكب الحليب في قهوتها وتقول لي: «لا يمكن أبداً. أنت مخطئة. ولن تُمضي حياتك في رعاية امرأة عجوز».

أقول بصوت مرح: «للأسف، سواء أعجبك هذا أم لم يعجبك، فإنني باقية معك. فقد عثرت على أفضل اختصاصي في التنكّس البقعي في نيويورك. إنه واحد من أهم أطباء العيون في البلاد. وسوف نراه بعد أسبوعين». لقد أرسلت لي مديرة عيادته استمارات المعلومات التي سأساعد خالتي شارلوت في ملئها.

تتحرّك يداها بسرعة فتوشك قهوتها على الاندلاق من حافة فنجانها. أعرف أنها غير مرتاحة. وأنا واثقة من أنه ليس لديها تأمين صحي ممتاز باعتبارها فنانة مستقلة تعمل لحسابها.

«لقد أعطاني ريتشارد مالاً عندما أتى. لدي الآن مال كثير»... وأنا أستحق كل قرش من هذا المال!

قبل أن تفلح خالتي في الاعتراض، أمد يدي إلى فنجاني وأقول لها: «لا أستطيع المجادلة في هذا الأمر قبل أن أشرب قهوتي»... تضحك خالتي فأغيّر الموضوع... «إذاً، ماذا تفعلين اليوم؟».

«كنت أفكّر في الذهاب إلى المقبرة. أريد أن أزور بو».

عادة، لا تذهب خالتي إلى المقبرة إلا في ذكرى زواجهما السنوية التي تأتي في فصل الخريف. لكني أدرك بأنها صارت تنظر إلى كل شيء بطريقة مختلفة... إنها تريد الآن تثبيت الصور المألوفة في ذاكرتها حتى تتمكّن من استدعائها بعد أن تفقد بصرها.

أحرّك البيض مرة أخيرة، ثم أرش عليه الملح والفلفل: «يسرني أن أنضم إليك إن كنت تريدين صحبة».

«أليس عليك الذهاب إلى العمل؟».

«ليس اليوم».

أدهن شريحتَي الخبز المحمّصتيْن بالزبدة، ثم أفرغ البيض من المقلاة في صحنين، واحد لي وواحد لها. أضع صحنها أمامها، ثم أتناول رشفة من قهوتي حتى أكسب بعض الوقت. لا أريد إقلاقها. وهكذا أخترع قصة عن أنهم قد قرّروا صرف بعض العاملين لديهم.

«سوف أشرح لك بعد أن ننتهي من طعامنا».

* * *

في المقبرة، نغرس أزهار الجيرانيوم عند رأس القبر... أزهار حمر وصفر وبيض... ونحكي بعض قصصنا المفضلة عن بو. تروي لي خالتي شارلوت كيف التقته أول مرة عندما ادعى أنه الشخص الذي أتت حتى تقابله في «موعد أعمى» في أحد المقاهي. لم يكشف لها عن الحقيقة إلا في لقائهما الثالث بعد أسبوع من ذلك. لقد سمعتُ منها هذه القصة عدة مرات؛ لكنها تجعلني أضحك كل مرة عندما تصل إلى وصف مدى

ارتياح بو عندما لم تعد تدعوه باسم ديفيد. أحكي لها كيف كنت أحب دفتر الصحافي الصغير الذي كان يضعه في جيبه الخلفي ويضع قلماً داخل اللولب السلكي. كان يعطيني دفتراً مثله كلما جئت مع أمي في زيارة إليهما. كنا نتظاهر بأننا صحافيان نقوم بتغطية إحدى القصص معاً. كان يأخذني إلى محل البيتزا في الحي، وبينما ننتظر دورنا. كان يقول لي أن أسجّل كل شيء أراه... أن أسجل المشاهد والروائح والأحاديث التي أسمعها... تماماً مثلما يفعل أي مراسل صحافي حقيقي. لم يكن يعاملني على أنني طفلة صغيرة. كان يحترم ملاحظاتي ويقول لي إن لي عيناً شديدة الانتباه إلى التفاصيل.

شمس الظهيرة عالية في السماء، لكن ظل الأشجار يقينا حرّها. لسنا في عجلة من أمرنا؛ بل إني مستمتعة كثيراً بالجلوس على العشب الطري والحديث مع خالتي شارلوت. أرى في البعيد أسرة تقترب منا: أب وأم وطفلتان. الطفلة الصغيرة ممتطية كتفَيْ أبيها، وفي يدها الأخرى باقة أزهار.

«لقد كنتما رائعين مع الأطفال. ألم ترغبي أبداً في أن تنجبي؟». لقد طرحت هذا السؤال على خالتي مرة واحدة من قبل، عندما كنت أصغر سناً. لكني أسألها الآن بعد أن صرت امرأة ناضجة مثلها... بعد أن صرنا على قدم المساواة.

«سأكون صادقة معك. كانت حياتي ممتلئة تماماً... ممتلئة بفنّي وبأسفار بو في مهمات كثيرة طيلة الوقت، أسفار أرافقه فيها. ثم، كنت محظوظة بأن تكون لي حصة فيك».

«بل أنا المحظوظة». أميل إليها وأضع رأسي على كتفها لحظة.

«أعرف أن رغبتك في إنجاب طفل كانت كبيرة جداً. يؤسفني أن ذلك لم يحدث».

«لقد حاولنا وأمضينا في المحاولة وقتاً طويلاً». أتذكر تلك الخطوط الزرق على شريط اختبار الحمل، وأتذكر ما كان الكلوميد يسببه لي من غثيان وإرهاق. أتذكر اختبارات الدم، وزيارات الطبيبة... زيارات في كل شهر تجعلني أحس بأنني فاشلة... «لكني صرت بعد فترة غير واثقة من أن إنجاب الأطفال مقدَّر لنا».

«حقّاً؟ هل كان الأمر بهذه البساطة؟».

أقول في نفسي: لا... بالطبع لا! لم يكن بسيطاً على الإطلاق.

كانت د. هوفمان هي من اقترحت عليّ آخر الأمر أن يجري ريتشارد اختباراً جديداً للحيوانات المنوية. سألتني عندما كنت جالسة في عيادتها فائقة النظافة خلال واحد من الفحوص السنوية: «ألم يطلب أحد منه فعل ذلك؟ من الممكن أن تحدث أغلاط في أي اختبار طبي. ومن المعتاد أن يجرى اختبار النطاف مرة ثانية بعد ستة أشهر أو بعد سنة. إن من غير المألوف أبداً أن تصادف شابة معافاة مثلك هذه المشكلات كلها».

كان ذلك بعد وفاة أمي، وبعد أن وعدني ريتشارد بأن الأمور لن تسوء بيننا مرة أخرى. صار يبذل جهداً حقيقياً لكي يعود إلى البيت في السابعة مساء عدة أيام في الأسبوع. وكنا نقوم برحلات طويلة في العطلات. ذهبنا في رحلة طويلة إلى برمودا في عطلة نهاية الأسبوع. وذهبنا إلى بالم بيتش في عطلة أخرى فلعبنا الغولف وتشمَّسنا عند بركة السباحة. تجدد التزامي بزواجنا؛ وبعد نحو ستة أشهر، اتفقنا على محاولة الإنجاب من جديد. لم تأتني تلك الوظيفة التي اقترحها بول، لكني واصلت عملي التطوّعي مع برنامج «البدايات المبكرة». صرت أقول لنفسي إنني ملومة جزئياً في العنف الذي أظهره ريتشارد تجاهي. لا يمكن أن يكون أي زوج سعيداً إذا عرف أن زوجته تذهب إلى المدينة سرّاً وتكذب عليه!

قال لي ريتشارد إنه ظن أن لدي عشيقاً؛ وصرت أقول لنفسي إنه ما كان يمكن أن يؤذيني لولا ذلك الظن. مع مرور الوقت، ومع زوجي الحلو اللطيف الذي يجلب لي أزهاراً من غير سبب ويترك لي رسائل حب على وسادتي، صار من السهل عليَّ إقناع نفسي بأن كل زواج يمكن أن يعرف أوقاتاً صعبة. قلت لنفسي إن ما حدث بيننا لن يتكرّر أبداً.

ومثلما اختفت الندوب من على معصمي، اختفى أيضاً ذلك الصوت الملحّ في داخلي الذي كان يقول لي إن عليّ تركه.

أقول لخالتي الآن: «كان زواجي... غير مستقرٍّ، نوعاً ما. وصار يقلقني إنجاب طفل ضمن هذا الجو المضطرب».

«كانت تبدو عليك السعادة معه أول الأمر...». خالتي شارلوت تختار كلماتها بعناية... «ومن الواضح أنه كان يعبدك».

الفكرتان صحيحتان. أومئ برأسي وأقول: «أحياناً، لا تكون هذه الأشياء كافية».

عندما أخبرت ريتشارد بما قالته لي د. هوفمان، وافق من غير أي تردد على إعادة الفحص: «سوف أرتب موعداً يوم الخميس، وقت الغداء. أظنك تستطيعين الابتعاد عني طيلة هذه المدة!». علِمنا عند إجراء الاختبار أول مرة أن عليه أن ينتظر يومين حتى تتجمّع كمية جيدة من النطاف النشطة.

قررت في اللحظة الأخيرة أن أرافق ريتشارد عندما يذهب لإجراء الفحص. تذكرت كيف كان يذهب معي دائماً إلى مواعيدي في إجراء فحص الخصوبة. ثم إنني كنت حرة وما كان لدي الكثير لأفعله يوم الخميس، فقلت إن قضاء فترة بعد الظهر في المدينة سيكون لطيفاً لأنني سألتقيه في العمل ونذهب لتناول العشاء معاً. على الأقل، كانت تلك الأسباب التي قلتها لنفسي.

اتصلت بالعيادة مباشرة عندما لم أستطع الاتصال بزوجي على هاتفه الخليوي. كنت أتذكّر العيادة منذ المرة الأولى التي ذهب فيها ريتشارد إليها لإجراء الفحص ـ عيادة واكسلر. أتذكر هذا لأن ريتشارد سخر من اسمها.

أجابتني موظفة الاستقبال: «لقد اتصل قبل قليل وألغى الموعد».

«أوه، لا بد أن لديه أمراً طارئاً في العمل». كنت ممتنة لأنني اتصلت بالعيادة قبل الذهاب إلى المدينة.

افترضت أنه سيذهب في اليوم التالي. وقررت أن أقترح عليه مرافقته عندما نجلس لتناول عشائنا.

في تلك الليلة، ذهبت لاستقباله عند باب البيت فطوقني بذراعيه وقال لي: «لا تزال النطاف قوية نشطة».

أتذكّر كيف أحسّست بأن الزمن قد توقّف فجأة. فوجئت إلى حد جعلني غير قادرة على قول أي شيء. حاولت الانفكاك من عناقه لكنه احتضنني بقوة أكبر: «لا تقلقي يا حبيبتي. لن نستسلم أبداً. سوف نتابع هذا الأمر حتى النهاية. وسوف نجد له حلاً معاً».

عندما أرخى ذراعيه عني، اقتضاني النظر في عينيه جهداً كبيراً جداً. قلت له: «شكراً».

ابتسم لي. كان تعبير وجهه لطيفاً رقيقاً.

أنت محق يا ريتشارد. سوف أتابع هذا الأمر حتى النهاية. وسوف أجد حلاً له.

اشتريت دفتري ذا الغلاف الجلد الأسود صبيحة اليوم التالي.

* * *

هكتبة

كانت خالتي صديقتي وموضع أسراري طيلة فترة طويلة من حياتي، لكني لن أثقل عليها بهذا الأمر. أفتح حقيبة يدي التي وضعت فيها زجاجتَيْ مياه أتيت بهما من البيت فأناولها واحدة منها ثم أشرب جرعة كبيرة من زجاجتي. وبعد فترة وجيزة، ننهض واقفتين. وقبل أن نذهب، تمر أصابع خالتي شارلوت على حروف اسم زوجها المحفور على القبر.

«هل يغدو الأمر أكثر سهولة مع مرور الزمن؟».

«نعم ولا. أتمنّى لو أنه حظي بمزيد من الوقت. لكنني ممتنّة لأنني عشت معه ثمانية عشر عاماً رائعة».

أشبك ذراعي بذراعها ونسير عائدتين في اتجاه البيت، لكننا نختار مساراً طويلاً.

أتساءل عمَّ يمكن أن أفعله من أجلها بالنقود التي أتتني من ريتشارد. البندقية هي مدينة خالتي المفضلة في العالم. أقرر أن آخذ خالتي إلى إيطاليا عندما ينتهي هذا الأمر كله... عندما أكون قد أنقذت إيمّا.

بعد وصولنا إلى البيت ودخول خالتي شارلوت إلى غرفة الاستوديو حتى تعمل، أصير مستعدة لتنفيذ خطتي وإيصال وثيقة AmEx إلى إيمّا. أعرف كيف أفعل هذا. لأن إيما لم تغير رقم هاتفها الذي كانت تستخدمه خلال عملها مساعدة لريتشارد. سوف أصوّر الوثيقة وأرسلها إليها. لكن من الضروري إرسالها عندما لا يكون ريتشارد قريباً منها حتى تتمكّن من استيعاب المعنى الكامل لما تراه.

كان الوقت لا يزال مبكراً كثيراً عندما خرجت مع خالتي شارلوت هذا الصباح. أظنّهما كانا لا يزالان معاً. لكنه يجب أن يكون في عمله الآن.

أسحب الورقة من حقيبتي وأفتحها فأبسطها على الطاولة. يستخدم ريتشارد بطاقة AmEx لدفع مصاريف العمل؛ إنها البطاقة التي لا

يستخدمها أحد غيره. إن معظم المصاريف المسجلة في هذه الوثيقة مصاريف وجبات غداء وسيارات تاكسي ومصاريف رحلاته إلى شيكاغو. أرى عليها أيضاً قيمة أتعاب الشركة التي قدمت الطعام في تلك الحفلة. أنا من وضع توقيعه على العقد وأنا من حدّد التفاصيل. لكن ريتشارد قرّر استخدام بطاقة AmEx لأن تلك المناسبة كانت متعلّقة بالعمل، من حيث الأساس.

كان في الوثيقة أيضاً مبلغ أربعمئة دولار تكلفة الأزهار التي طلبناها تلك الليلة.

إن المبلغ المردود من محل سوذبي للمشروبات موجود في أعلى الوثيقة فوق أتعاب شركة تقديم الطعام بعدة سطور.

أستخدم هاتفي للالتقاط صورة للصفحة كلها، وأحرص على ظهور اسم محل المشروبات وتاريخ العملية والمبلغ بكل وضوح. ثم أبعث بالصورة إلى إيمّا مع رسالة من جملة واحدة:

أنتِ من طلب النبيذ؛ فمن الذي ألغى الطلبية؟

عندما أرى أن رسالتي قد وصلتها، أغلق هاتفي وأضعه جانبه. لم أستخدم البرنامج الذي يخفي رقم المتصل: ما عادت هنالك حاجة إلى إخفاء ما أفعله. أتساءل إن كانت ذاكرة إيما ستكشف لها شيئاً عندما تعيد التفكير في تلك الليلة. تظن بأنني كنت ثملة. وتظن بأن ريتشارد كان يحاول تدارك سلوكي. لديها انطباع يقول إنني شربت صندوقاً كاملاً من زجاجات النبيذ خلال أسبوع واحد.

إذا أدركتْ أن شيئاً واحداً من هذه الأشياء غير صحيح، فسوف تبدأ الشك في بقيتها.

أنظر إلى هاتفي على أمل أن تكون هذه الرسالة بداية الخيط الذي تسحبه بأصابعها.

الفصل الرابع والثلاثون

أتتني إجابة إيمّا صبيحة اليوم التالي. كانت أيضاً رسالة نصّية من سطر واحد:

أراك الساعة السادسة مساء اليوم في شقتي.

أحدق في تلك الكلمات دقيقة كاملة. لا أستطيع تصديقها. أحاول الوصول إليها منذ مدة طويلة؛ وها هي الآن ترحّب بي! لقد أفلحتُ في خلق الشكوك الضرورية في ذهنها. أتساءل عما صارت تعرفه حتى الآن. وأتساءل عما ستسألني.

تغمر البهجة جسدي كلّه. لا أعرف الزمن الذي سيكون متاحاً لي. وهذا ما يجعلني أسجل النقاط التي لا بد لي من التعرض إليها: يمكنني طرح موضوع ديوك. لكن، ماذا عندي من أدلّة أقدمها؟ أكتب بدلاً من ذلك: «أسئلة الخصوبة». أريدها أن تسأل ريتشارد عن سبب عدم قدرتنا على الإنجاب. من المؤكد أنه سيكذب عليها. لكن الضغط في داخله سيتزايد. ولعلها ترى كم يكافح من أجل إبقائه مخفياً. أكتب أيضاً «زياراته المفاجئة». هل يأتيها ريتشارد على نحو غير متوقع، حتى عندما لا تكون قد أخبرته شيئاً عن برنامجها؟ لكن ذلك لن يكون كافياً... أنا واثقة من أنه لم يكن كافياً لإقناعي عندما كنت زوجته. سوف يكون عليَّ إخبارها عن المرات التي سبب لي ريتشارد فيها أذىً جسدياً. لم يسبق

أن قلت لأحد عن هذه الأشياء التي سأكشف عنها أمام إيمّا. لا بد لي من ضبط انفعالاتي حتى لا تغلبني فتعزز الشكوك التي قد تكون باقية لديها حول عدم توازني.

إذا أصغت إليَّ بذهن مفتوح ـ إذا بدت لي متقبّلة ما أقوله ـ فيجب أن أشرح لها كم كانت خطتي لتحرير نفسي منه دقيقة متأنية. سأشرح لها أيضاً أنني استخدمتها في تلك الخطة، لكنني لم أتصور أبداً أن تصل الأمور بينهما إلى هذا الحد.

سوف أطلب غفرانها. لكن خلاصها صار الآن أكثر أهمية من غفرانها لي. سوف أخبرها أن عليها أن تترك ريتشارد، أن تتركه على الفور، بل حتى الليلة، قبل أن يوقعها في شراكه.

عندما رأيت إيمّا آخر مرة، كنت أحاول ترتيب الصورة التي أريد أن تراني بها: حقيقة أننا نسختان قابلتان للتبديل في ما بينهما. أما الآن، فأنا أسعى إلى الصدق التام. أستحم، ثم أرتدي بنطلون جينز وقميصاً قطنياً خفيفاً. لا أهتم كثيراً بتصفيف شعري أو باستخدام مواد التجميل. وحتى أحرق الطاقة العصبية التي انفجرت في داخلي، أقرّر أن أذهب إلى بيتها سيراً على الأقدام. سوف أغادر الشقة في الساعة الخامسة. لا يجوز أن أصل متأخرة.

أقول وأكرر لنفسي: كوني هادئة؛ كوني عقلانية؛ كوني مقنعة. لقد رأت إيمّا المسرحية التي قدّمتُها؛ وسمعت من ريتشارد وصفاً لشخصيتي؛ وهي تعرف ما يقوله الناس عني. مهمتي الآن أن أقلب كل شيء وأن أغيّر قناعاتها في ما يخصّني.

لا أزال مستمرة في تحضير ما أقوله لها لكن هاتفي يرن. رقم لا أعرفه. لكني أعرف رمز المنطقة معرفة جيدة: إنه اتصال من فلوريدا.

يتوتّر جسدي. أجلس على سريري وأحدق في الشاشة بينما يرن الهاتف مرة ثانية. عليَّ أن أرد على هذا الاتصال.

هكتبة

أسمع صوت رجل يسألني: «فانيسا ثومبسون؟».

«نعم». حلقي جاف. لا أستطيع ابتلاع ريقي.

«أنا آندي وودوورد من مأوى الحيوانات Furry Bwsg». يبدو لي صوته ودوداً رقيقاً. لم أتكلّم مع آندي قبل الآن. لكني بدأت، من غير أن أكشف عن هويتي، أقدم لمأوى الحيوانات هذا تبرعات تخلّد اسم ماغي بعد وفاتها. إنه المأوى الذي عملت فيه متطوّعة عندما كانت طالبة في المدرسة الثانوية. وبعد زواجي من ريتشارد اقترحت أن نزيد مساهمتي الشهرية زيادة كبيرة، إضافة إلى تمويل تطوير المأوى وتجديده. ونتيجة ذلك، صار اسم ماغي مكتوباً على لوحة عند الباب. كان ريتشارد هو من يتصل بهم دائماً. وكان هو من اقترح أن يتولّى القيام بهذا الدور قائلاً لي إن ذلك سيخفّف عني الضغط النفسي.

«تلقيت اتصالاً من زوجك السابق. قال لي إنكما قررتما، بالنظر إلى ظروفكما، أنكما غير قادرَيْن على الاستمرار في تقديم المساعدة لنا».

أدرك أن هذه عقوبتي. لقد أخذت مال ريتشارد؛ وهكذا قرر الانتقام مني. إن في هذا لمسة رمزية، نوعاً من التوازن بين كفّتَي الميزان أعرف أن ريتشارد يستمتع به كثيراً.

أقول عندما أدرك أن الصمت قد طال أكثر مما ينبغي له أن يطول: «نعم...». أفكر غاضبة في أن هذا كان من أجل ماغي، لا من أجلي أنا...

«وأنا آسفة حقاً. لا بأس. لا أزال قادرة على مواصلة التبرع بمبلغ شهري صغير. لن يكون المبلغ هو نفسه، لكنه يظلّ أحسن من لا شيء».

«هذا كرم كبير منك. لقد أوضح لي زوجك السابق كم يزعجكما هذا القرار. قال إنه سيتصل شخصياً بأسرة ماغي كي يخبرهم بما حصل. كما طلب مني إخبارك بما جرى بيننا من حديث حتى تطمئني إلى أن كل شيء قد تم ترتيبه».

هذا الانتقام من جانب ريتشارد... ردّ على أي فعل من أفعالي؟ هل يعاقبني بسبب صورة ديوك، أم بسبب رسالتي إلى إيمّا، أم لأنني صرفت الشيك؟

أم لعله صار يعرف أيضاً أنني أرسلت تلك الوثيقة إلى إيمّا؟ آندي لا يفهم الأمر. لا يفهمه أحد! لا بد أن ريتشارد كان ساحراً عندما تحدّث معه. وسوف يكون ساحراً عندما يتصل بأسرة ماغي. سوف يحرص على الحديث معهم فرداً فرداً. بمن فيهم جيسون. سوف يذكر لهم اسمي قبل الزواج. سيأتي ذلك الاسم عفواً في سياق الكلام ـ وقد يقول لهم شيئاً عن أنني انتقلت إلى نيويورك.

فماذا سيفعل جيسون؟ أنتظرُ أن يغمرني ذلك الذعر المألوف.

إنه لا يأتي!

بدلاً من ذلك، يفاجئني انتباهي الآن إلى أنني لم أفكر في جيسون أبداً منذ أن تركت ريتشارد.

يقول لي آندي: «سوف تكون تلك الأسرة سعيدة بأن تسنح لها فرصة شكركما بشكل شخصي. ولا حاجة إلى القول إنهم يكتبون لكم رسائل في كل سنة فأقوم بتحويلها إلى زوجك».

أرفع رأسي. فكّري كما يفكّر ريتشارد. كوني مسيطرة على الموقف... «أنا لست... أنت تعرف... زوجي لم يطلعني على تلك الرسائل...». لا أدري كيف يظل صوتي ثابتاً عادي النبرة... «في الحقيقة، لقد تأثّرت كثيراً بوفاة ماغي. ولعل زوجي ظن أن قراءة تلك الرسائل ستكون مؤلمة لي. لكنني أحب الآن أن أعرف ماذا كانوا يقولون فيها».

«أوه، بالتأكيد. كانوا، أكثر الأحيان، يبعثون برسائلهم الإلكترونية إليّ حتى أقوم بإحالتها إلى زوجك. لكنني أتذكّر محتواها ولو أنني لا أتذكر كلماتها بدقة. كانون يعبرون دائماً عن امتنانهم الكبير لكما ويقولون إنهم

يتمنّون لقاءكما في يوم من الأيام. يأتون لزيارة المأوى من حين لآخر. ما فعلتماه كان ذا أثر كبير في نفوسهم».

«هل تقول لي إن الأب والأم يأتيان إلى المأوى؟ وماذا عن جيسون، شقيق ماغي؟».

«نعم، يأتون جميعاً. أتت أيضاً زوجة جيسون وطفلاه. قص الطفلان شريط الافتتاح بعد أن قمنا بأعمال التجديد».

أتراجع خطوة إلى الخلف ويكاد الهاتف يسقط من يدي.

لا بد أن ريتشارد كان يعرف بهذا كله منذ سنين. لقد كان يعترض تلك المراسلات ويمنع وصولها إليّ. أراد أن أظل خائفة. أراد أن أظل نيللي المتوترة. كان في حاجة إلى التظاهر بأنه يحميني لأن لديه نقصاً ما. لقد عمل على زيادة اعتمادي عليه؛ وكان يتغذّى على خوفي.

من بين مظاهر قسوة ريتشارد كلها، كانت هذه الفعلة أسوأها.

أرتمي على السرير عندما أدرك هذا. ثم أتساءل عمَّ كان يفعله أيضاً حتى يثير قلقي عندما نكون معاً.

أقول لآندي بعد لحظة: «أود أن أتصل بوالدَيْ ماغي، ومع شقيقها أيضاً. هل يمكنك أن تعطيني أرقام هواتفهم؟».

أظن أن ريتشارد كان في غاية الغضب. وأظنه ما كان يفكر بأن آندي يمكن أن يخبرني عن تلك الرسائل. زوجي السابق هو الآن من يخونه وضوح التفكير.

لم يسبق لي أبداً أن أغضبته إلى هذا الحد؛ بل إن الأمور لم تقترب من هذا الحد في يوم من الأيام. لعله متلهّف الآن لإيقاع الأذى بي، على جعلي أتوقف. إنه متلهف على إزالتي من حياته.

أودّع آندي، ثم أتذكر أنّه يجب أن أسرع حتى أرى إيمّا. قاربت

الساعة الخامسة. إنه التوقيت الذي قررت الانطلاق فيه. يغمرني فجأة قلق من أن يكون ريتشارد في انتظاري خارج البيت. الحقيقة أنني لا أستطيع الذهاب إليها سيراً على الأقدام. سوف آخذ سيارة تاكسي. لكن لا بد لي من الوصول إلى سيارة التاكسي بأمان.

إن للبناء مدخلاً احتياطياً من الخلف يؤدي إلى زقاق ضيق فيه حاويات القمامة وحاويات المواد التي يُعاد تدويرها. فأي مدخل يتوقّع ريتشارد مني استخدامه؟

يعرف ريتشارد أنني أعاني شيئاً من رهاب الأماكن المغلقة وأنني أكره كثيراً الإحساس بأنني محصورة في مكان ما. ذلك زقاق ضيق. وهو خال من الناس عادة. ومحاط ببنايات مرتفعة. إذاً، هذا هو الطريق الذي يقع اختياري عليه.

أخلع حذائي وأنتعل بدلاً منه حذاء رياضياً، ثم أنتظر إلى أن تبلغ الساعة الخامسة والنصف. أنزل بالمصعد، ثم أفتح مزلاج الباب الاحتياط الخلفي. أدفع الباب فينفتح ثم أنظر إلى الخارج. يبدو لي الزقاق خالياً، لكني لا أستطيع رؤية ما خلف حاويات القمامة البلاستيك. أستنشق نفساً عميقاً ثم أبتعد عن الباب وأمضي في الزقاق مسرعة.

قلبي يكاد ينفجر. أترقّب في كل لحظة أن تظهر ذراعاه، أن تقبضا عليّ. أندفع مسرعة في اتجاه الرصيف الذي أراه أمامي. عندما أبلغه آخر الأمر، أدور على نفسي دورة كاملة وأنا ألهث وأنظر إلى كل ما يحيط بي.

ليس هنا. وأنا واثقة من أن جلدي سيحس بوقع نظرته المفترسة.

أمضي في الشارع ثم أرفع ذراعي وألوّح لسيارات التاكسي العابرة. لا يمر زمن طويل قبل أن تتوقّف إحداها، ثم يندفع السائق في زحمة السير متجهاً إلى شقة إيمّا.

تبلغ سيارة التاكسي زاوية الشارع عند بيتها؛ لكني أرى أنني وصلت قبل السادسة بأربع دقائق. أطلب من السائق أن يبقي عداد السيارة عاملاً وأكرر في عقلي، مرة أخيرة، ما سوف أقوله لها. بعد ذلك، أخرج من السيارة وأسير إلى باب بناية إيمّا. أضغط على مفتاح الشقة 5 ـ ج فأسمع صوت إيمّا عبر الإنترفون: «فانيسا؟».

«نعم». لا أستطيع منع نفسي من الالتفات خلفي مرة أخيرة. لكني لا أرى أحداً هناك.

يأخذني المصعد إلى طابقها.

تفتح لي الباب عند اقترابي. إنها جميلة كعهدها دائماً، لكنها تبدو قلقة. حاجباها مقطبان. تقول لي: «ادخلي».

أعبر العتبة فتغلق الباب الثقيل من خلفي. إنني وحدي معها الآن. تغمرني موجة ارتياح شديدة تجعلني أشعر بشيء من الدوار.

شقتها صغيرة مرتبة فيها غرفة نوم واحدة. وعلى الجدران بضع صور ضمن إطارات، أرى على الطاولة الجانبية ورودًا بيضاً في مزهرية. تشير إليّ بالجلوس على الأريكة ذات الظهر المنخفض فأجثم على حافتها. لكنها تظل واقفة.

«أشكرك لأنك قبلت رؤيتي».

لا تجيبني.

«إنني راغبة في الحديث معك منذ زمن بعيد».

يبدو لي أن هنالك شيئاً ما غير طبيعي. إنها تلتفت من فوق كتفها. أراها تنظر في اتجاه باب غرفة النوم.

ومن زاوية عيني، أرى باب تلك الغرفة ينفتح.

أنكمش على الأريكة وترتفع يداي سريعاً بحركة غريزية لكي أحمي

نفسي. لا... أقولها في نفسي، أقولها في سري، أقولها يائسة. أريد الهرب، لكني لا أستطيع الحركة... تماماً مثلما يحدث في كوابيسي. لا أستطيع فعل شيء غير النظر إليه وهو يقترب مني.

«مرحباً يا فانيسا».

تنتقل عيناي إلى إيمّا. لا أستطيع قراءة تعابير وجهها.

أهمس: «ريتشارد. ماذا أنت... لماذا أنت هنا؟».

«أخبرتني خطيبتي بأنك أرسلت إليها بعض السخافات في ما يتعلق بردّ ثمن النبيذ». يواصل التقدم صوبي بحركة انسيابية لا استعجال فيها. يتوقف إلى جانب إيمّا.

ينزاح عن جسدي بعض الذعر الذي سكنه. ريتشارد ليس هنا لكي يؤذيني. لن يؤذيني جسدياً على أيّ حال. لن يفعل ذلك أمام أي شخص. أنه هنا لكي يضع نهاية لهذا الأمر كله من خلال هزيمتي أمام إيمّا.

أنهض واقفة على قدمي، ثم أفتح فمي، لكنه ممسك بزمام الموقف. عنصر المفاجأة في صفه.

«عندما اتصلت بي إيمّا، شرحت لها ما حدث بالضبط...». إنه توّاق إلى اجتياز تلك المسافة التي تفصل بيننا. أعرف هذا من عينيه المتقلّصتين... «وكما تعرفين جيداً، انتبهت إلى أن ذلك النبيذ ليس من المصاريف المتعلّقة بالعمل، فأنا أعرف أننا لم نشرب منه شيئاً في الحفلة. كان التصرّف السليم من الناحية الأخلاقية أن ألغي الدفعة من حساب AmEx وأسددها من بطاقة فيزا الشخصية الخاصة بي. أتذكّر أنني أخبرتك بهذا عندما أرسل محل سوذبي النبيذ إلى بيتنا ووضعته في القبو».

«هذه كذبة...». أستدير إلى إيمّا... «لم يطلب ذلك النبيذ على الإطلاق. إنه ماهر في هذا ـ يعرف كيف يخترع تفسيراً لكل شيء!».

«فانيسا... لقد أخبرني على الفور بما حدث. لم يكن لديه أي وقت لاختراع قصة. لا أفهم ما تحاولين الوصول إليه».

«لست أحاول الوصول إلى أي شيء. إنني أحاول مساعدتك فحسب».

يتنهد ريتشارد ويقول: «هذا شيء مرهق...».

أقاطعه. إنني أتعلم كيف أتوقّع خطة هجومه. أقول مسرعة: «اتصل بشركة بطاقة الائتمان. اتصل بشركة فيزا واطلب منهم تأكيد تلك الدفعة؛ ولتستمع إيمّا إلى المكالمة. لن يستغرق الأمر أكثر من ثلاثين ثانية. يمكننا إنهاؤه الآن».

«لا، بل سأقول لك كيف سننهي هذا الأمر. أنت تلاحقين خطيبتي منذ عدة شهور. وقد حذرتك آخر مرة مما سيحدث إذا تابعتِ فعل هذا. يؤسفني أن لديك هذه المشكلات كلّها، لكننا سنتقدم بطلب إصدار أمر يمنعك من الاقتراب منها. لم تتركي لنا أي خيار».

أقول لإيمّا: «استمعي إلى ما أقوله...». أعرف أنني ما عدت أملك غير هذه الفرصة الأخيرة لإقناعها... «لقد جعلني أظن أنني مجنونة. وقد تخلّص من كلبي... ترك البوابة مفتوحة، أو شيء من هذا القبيل».

يقول ريتشارد: «يا إلهي!». لكني أرى شفتيه تتوتران.

أقول مسرعة: «كما حاول إقناعي بأننا لم نتمكّن من إنجاب أطفال بسبب مني!».

أرى يدي ريتشارد تتكوران فأجفل وأنكمش على نفسي، لكني أتابع كلامي: «وقد كان يؤذيني يا إيمّا. ضربني وأوقعني أرضاً وكاد يخنقني. اسأليه عن السوار الذي أعطاني إياه حتى أغطي الكدمات على معصمي. سوف يضربك أنت أيضاً! سوف يدمر حياتك!».

يطلق ريتشارد زفرة ويغمض عينيه.

أتساءل في نفسي: هل يمكنها الإحساس كم صار قريباً من حافة الانفجار؟ هل سبقت لها رؤية ريتشارد الذي تعرفه يختفي داخل غضبه؟ لكن، لعلّي قلت أكثر مما يبنغي لي أن أقول. ولعلها صدقت بعض ما قلته لها. لكن، كيف يمكنها تقبل اتهاماتي الغريبة في حق هذا الرجل المتماسك الناجح الواقف إلى جانبها؟

«فانيسا... هنالك خلل عميق فيك...». يشد ريتشارد إيمّا لتصير أقرب إليه... «لا أسمح لك بأن تقتربي منها بعد الآن».

يعني أمر «عدم الاقتراب» أن ريتشارد سوف يقدّم شكوى رسمية تقول إنني أمثل خطراً عليهما. وإذا وقعت أي مواجهة عنيفة بيننا، فإن الأدلة ستكون في صفه. إنه قادر دائماً على التحكّم بتفسير ما يجري بيننا.

«عليك الآن أن تذهبي». يقترب ريتشارد مني ويمد يده حتى يمسك بمرفقي. أجفل وأنكمش على نفسي لكن لمسته لطيفة! لقد تغلب على غضبه الآن... «هل أرافقك إلى الأسفل؟».

تتسع عيناي دهشة عندما أسمع هذه الكلمات. أهز رأسي نفياً، أهزه بسرعة، وأحاول ابتلاع ريقي إلا أنني أجد فمي شديد الجفاف.

أطمئن نفسي بأنه لن يفعل لي شيئاً أمام إيمّا. لكنني أعرف معنى تلميحه.

عندما أمرّ بجانب إيمّا، أراها تعقد ذراعيها على صدرها وتستدير مشيحة بوجهها عني.

الفصل الخامس والثلاثون

ليتني كنت قادرة على إعطاء إيمّا دفتر مذكراتي عندما أعطيتها إيصال استرداد ثمن نبيذ رافينو! ربما... لو سنحت لها فرصة تصفّح ما كتبته... ربما كان من الممكن أن تحس بذلك التيار الخفي الذي كان يسوق هذه الحوادث التي تبدو يائسة لا معنى لها!

لكن ذلك الدفتر ما عاد موجوداً!

عندما كتبت فيه آخر مرة، كانت يومياتي قد صارت مؤلفة من صفحات كثيرة من ذكرياتي... صارت تحمل مزيداً ومزيداً من دموعي. صرت غير قادرة على كبت حدسي بعد تلك الليلة التي أخبرني فيها ريتشارد أنه ذهب لإجراء فحص الحيوانات المنوية: أقسمت يومها على أن أصل إلى غورِ ما كان يحدث فعلاً. كان دفتر مذكراتي أشبه بقاعة محكمة؛ وكانت كلماتي تناقش الطرفين في كل مسألة من المسائل. لقد كتبت أشياء من قبيل: لعل ريتشارد ذهب إلى عيادة أخرى لإجراء ذلك الفحص. لكن، لماذا يفعل ذلك بعد أن يرتب موعداً مع العيادة الأولى؟ كنت أجلس في السرير في غرفة نوم الضيوف تحت المصباح الليلي الشحيح الذي ينير الكلمات التي أخطها وأنا أحاول فكفكة ألغاز أخرى وحوادث محيّرة أخرى فأعود بذاكرتي إلى بدايات زواجنا: لماذا قال لي إن طبق لحم الخروف الذي أعددته كان لذيذاً، ثم ترك أكثر من نصف

صحنه؟ ولماذا أرسل لي هدية في الصباح التالي كانت بطاقة انتساب إلى دورة في الطبخ؟ هل كانت تلك بادرة ذكية لمّاحة؟ أم كان يحاول أن ينقل إليّ رسالة خفية مفادها أن ذلك الطبق لم يكن حسن الإعداد؟ هل كانت تلك عقوبة لي على بوحي ذلك اليوم في عيادة د. هوفمان بأنني حبلت عندما كنت في الكلية؟

كتبت قبل ذلك بعدة صفحات: لماذا ظهر بشكل مفاجئ في حفلة توديع العزوبية رغم عدم دعوته إليها؟ هل كان الحب ما يدفعه أم الرغبة في السيطرة والتحكم؟

مع تزايد أسئلتي، صار من المستحيل أن أواصل إنكار الأمر: إما أن يكون في ريتشارد خلل عميق ما، أو أن يكون ذلك الخلل عندي. الاحتمال الأول مخيف، والاحتمال الثاني مخيف أيضاً!

كنت واثقة من أن ريتشارد يحس بالتغير الذي حدث بيننا. كنت غير قادرة على منع نفسي من الابتعاد عنه... من الابتعاد عن أي شخص. تخلّيت عن عملي التطوعي كله. وصرت لا أذهب إلى المدينة إلا في ما ندر. مضى أصدقائي في مقهى جيبسون وفي روضة الأطفال، كل في حياته. بل حتى خالتي شارلوت كانت بعيدة عني لأنها اتفقت مع صديقة فنانة باريسية على أن تتبادلا شقتيهما مدة ستة أشهر... لقد فعلتا هذا عدة مرات في الماضي. كنت أشعر بأنني غارقة عميقاً في وحدتي.

قلت لريتشارد إنني مكتئبة لأننا لم نستطع إنجاب طفل. لكن عدم الحمل صار الآن نعمة!

صرت أهرب إلى الكحول؛ لكني لم أكن أفعل ذلك في حضور زوجي. كنت في حاجة إلى حضور الذهن في وجوده. وعندما أبدى ريتشارد ملاحظة حول كمية النبيذ التي أستهلكها خلال النهار وطلب مني الكف عن الشرب وافقته على ذلك. بدأت أقود السيارة لمسافة

بضع بلدات حتى أشتري نبيذي. وكنت أخفي الزجاجات الفارغة في المرأب، ثم أتسلل في الصباح الباكر فأخرج في نزهات على الأقدام حتى أرمي تلك الزجاجات في حاوية المواد المخصصة لإعادة التدوير لدى جيراننا.

كان الكحول يجعلني ناعسة على الدوام، فصرت أنام معظم فترة بعد الظهر، ثم أصحو وقت عودة ريتشارد من عمله. صرت أعشق المأكولات الغنية بالدسم والسكر، وسرعان ما امتنعت عن لبس أي شيء غير البنطلون الرياضي والبلوزات الفضفاضة. ما كنت في حاجة إلى محلل نفسي حتى أعرف أنني أحاول إضافة طبقة حماية إلى جسدي. كنت أحاول جعل هذا الجسد أقل جاذبية في نظر زوجي الرشيق دائم الانتباه إلى لياقته.

لم يقل ريتشارد أيّ كلمة مباشرة في ما يتعلق بزيادة وزني. خسرت خمسة عشر باونداً وكسبتها عدة مرات خلال فترة زواجي. وكلما ازداد وزني، كان ريتشارد يلمّح إلى ذلك بأن يطلب مني إعداد سمك مشوي على العشاء. أما عندما كنا نذهب إلى المطاعم، فقد كان يحذف الخبز من وجبتنا ويطلب خضار السلطة من غير أي إضافات. كنت أفعل ما يفعله؛ وكان يخجلني أنني لا أمتلك هذا الانضباط الذي يمتلكه ريتشارد. غضبت وتوترت يوم ميلادي في النادي مع خالتي شارلوت، لكن ليس لأنني ظننت النادل مخطئاً في ما يتعلق بطبق السلطة. في يوم ميلادي ذاك، كنت غير قادرة على ارتداء ملابسي القديمة. وكان زوجي قد صار ممتنعاً عن التعليق على هذا الأمر.

لكنه اشترى قبل أسبوع من حفلة توديع العزوبية ميزاناً جديداً متطوراً وضعه في حمامنا.

استيقظت ذات ليلة في بيتنا في ويستشستر وأنا شديدة الشوق إلى سامانثا. كنت قد تذكّرت بعد الظهر أن اليوم كان يوم ميلادها. تساءلت كيف كانت تحتفل بهذا اليوم. لم أكن أعرف حتى إن كانت لا تزال تعمل في روضة الأطفال وتعيش في الشقة نفسها أم إنها تزوجت. استدرت لأنظر إلى الساعة فرأيت أنها قاربت الثالثة صباحاً. لم يكن هذا أمراً غير معتاد لأنني صرت لا أقدر على النوم في الليل إلا نادراً. كان ريتشارد راقداً في السرير إلى جانبي مثل تمثال. تشتكي زوجات كثيرات من شخير أزواجهن أو من أنهم يتقلبون كثيراً، لكن سكون ريتشارد كان يموه دائماً ما إذا كان نائماً بعمق أو على وشك الاستيقاظ. بقيت بضع لحظات راقدة في الفراش أصغي إلى صوت تنفسه المستقر، ثم انزلقت من تحت اللحاف. سرت إلى الباب بخطى صغيرة، ثم التفتّ ونظرت إليه. هل أيقظته حركاتي. كان من المستحيل في تلك الظلمة أن أعرف إن كانت عيناه مفتوحتين. أغلقت الباب بهدوء من خلفي، ثم ذهبت إلى غرفة نوم الضيوف. كنت ألوم سامانثا على القطيعة التي طالت، لكنني صرت الآن أعيد تقييم كل شيء وبدأت أتساءل عن مكمن المشكلة بيننا. ازددنا تباعداً بعد عشائنا معاً في مطعم بيكا. كانت سامانثا قد دعتني إلى حفلة وداع مارنييه التي كانت موشكة على الانتقال عائدة إلى مدينتها، سان فرانسيسكو، لكن تلك الليلة صادفت ارتباطنا، أنا وريتشارد، بموعد على العشاء في بيت هيلاري وجورج. وصلت إلى حفلة مارنييه متأخرة، ومعي ريتشارد، فرأيت خيبة الأمل في وجه صديقتي الأعز. بقينا هناك أقل من ساعة. وخلال الشطر الأكبر من تلك الساعة، كان ريتشارد في إحدى الزوايا يتكلّم على الهاتف. رأيته يتثاءب. كنت أعرف أن لديه اجتماعاً مبكراً في الصباح التالي فاعتذرت من صديقاتي وخرجنا. وبعد عدة أسابيع من ذلك، اتصلت بسامانثا لأرى إن كانت راغبة في أن نلتقي لنتناول شراباً معاً.

«لن يأتي ريتشارد، أليس كذلك؟».

أجبتها على الفور: «لا تقلقي يا سامانثا. إنه لا يحب قضاء الوقت معك بأكثر مما تحبين قضاء الوقت معه».

تطور الكلام بيننا إلى مشادة فكان ذلك آخر اتصال هاتفي بيننا.

دخلت غرفة الضيوف ومددت يدي تحت الفراش لأخرج دفتر مذكراتي. رحت أسأل نفسي في تلك اللحظة إن كنت منزعجة غاضبة لأن سامانثا بدت وكأنها تعرف شيئاً لا أستطيع السماح لنفسي بقبوله... شيء من قبيل أن ريتشارد ليس زوجاً مثالياً؛ وأن زواجنا لا يبدو جيداً إلا عند النظر إليه من خارجه. الأمير/ جيد إلى درجة لا يمكن أن يكون حقيقة/ توحي ملابسك بأنك ذاهبة إلى اجتماع مع أهالي الأطفال. بل إنها دعتني ذات مرة باسم نيللي، وبنبرة صوت حملت أثراً واضحاً من السخرية، لا من المزاح.

رفعت الفراش بيدي اليمنى ومددت يدي اليسرى ورحت أحركها جيئة وذهاباً فوق نوابض السرير المغلفة، لكن أصابعي لم تلمس حواف دفتري المألوفة.

تركت الفراش وأضأت المصباح الليلي الذي إلى جانب السرير. ركعت على ركبتي ورفعت الفراش أعلى من ذي قبل. لم يكن دفتري هناك. نظرت تحت السرير، ثم بدأت أزيح الأغطية عن الفراش، ثم أزحت عنه الملاءة التي تغطيه.

توقّفت يداي عن الحركة عندما شعرت بتوتر كالكهرباء الساكنة ينتشر على جلدي. شعرت بنظرة ريتشارد قبل أن ينطق كلمة واحدة.

«أهذا ما تبحثين عنه يا نيللي؟».

نهضت على قدميَّ ببطء، ثم استدرت في اتجاهه.

هكتبة

كان زوجي واقفاً بباب الغرفة مرتدياً سرواله التحتي وبلوزة قطنية خفيفة قصيرة الكمين. وكان دفتري في يده.

«لم تكتبي شيئاً طيلة هذا الأسبوع. لكني أظنك كنت مشغولة. لقد ذهبتِ إلى متجر البقالة يوم الثلاثاء مباشرة بعد خروجي إلى العمل، ثم ذهبت يوم أمس بالسيارة إلى متجر المشروبات في كاتونا. أنت تحسنين التسلل، أليس كذلك؟».

كان يعرف كل ما أعرفه.

رفع الدفتر أمامي وقال: «تظنين أنني السبب في عدم قدرتنا على الإنجاب؟ تظنين أن عندي مشكلة في هذا؟».

كان يعرف كل ما أفكر فيه.

اقترب مني فتراجعت. لكنه لم يفعل غير أن التقط شيئاً عن الطاولة الصغيرة من خلفي. التقط قلماً.

«لقد نسيت شيئاً يا نيللي. نسيت القلم هناك. رأيت القلم هناك...». صار صوته مختلفاً... صار أكثر ارتفاعاً وحدّة على نحو لم أسمعه من قبل. كانت نبرات صوته شبه عابثة... «حيث يكون القلم، لا بد من وجود ورقة!».

راح يقلب صفحات الدفتر: «هذا جنون حقيقي...». تتالت جمله أسرع فأسرع... «ديوك! طبق لحم الخروف! قلبت صورتك على ظهرها! شغّلت نظام الإنذار في البيت!...». كان يمزّق صفحة جديدة مع كل اتهام ينطقه... «صورة زواج أبي وأمي! لقد تسللت إلى غرفة المستودع! تتساءلين عن تمثال كعكعة زفاف أبي وأمي؟ كنت تذهبين إلى المدينة للحديث عن زواجنا مع امرأة غريبة؟ أنت معتوهة، بل أنت أسوأ من أمك!».

لم أدرك أنني كنت أتراجع إلا عندما اصطدمت الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير بساقي.

«كنت نادلة بائسة غير قادرة حتى على السير في الشارع من غير تصور أن هنالك من يلاحقك...». مرر أصابعه في شعره فجعل قسماً منه منتصباً. كانت بلوزته مجعدة وشعر ذقنه نابتاً قليلاً... «أيتها العاهرة الجاحدة. كم يبلغ عدد النساء المستعدات لارتكاب جريمة قتل حتى يحظين برجل مثلي؟... حتى يعشن في هذا البيت؟... حتى يذهبن إلى أوروبا في إجازة ويقدن سيارات مرسيدس؟».

أحسست بأن الدم كلّه قد هرب من رأسي. وجعلني الذعر في شبه دوار. بدأت أقول بصوت متوسل: «أنت محق؛ أنت طيّب جداً معي. ألم تر الصفحات الأخرى؟ كتبت كم كان كرماً منك أن تدفع من أجل تجديد مأوى الحيوانات. وكتبت كم ساعدتني عندما توفّيت أمي. كتبت كم أحبّك أيضاً».

لكن كلماتي لم تكن تصله. بدا كأنه ينظر من خلالي. قال لي آمراً: «نظفي هذه الأوساخ!».

ركعت على ركبتي وبدأت أجمع الأوراق.

«مزّقيها».

جمعت كمية من الأوراق وحاولت تمزيقها لكن يديَّ كانتا مرتعشتين وكمية الأوراق أكبر من أن أستطيع تمزيقها.

«كم أنت فاشلة في كل شيء!».

أحسست تغيراً معدنياً في الهواء... بدا لي ممتلئاً بضغط مفاجئ.

قلت باكية: «أرجوك يا ريتشارد. أرجوك. أرجوك...».

أصابتني ركلته الأولى قرب أضلاعي. كان الألم انفجاراً. تجمعت على نفسي كأنني كرة وشددت ركبتي حتى صدري.

صاح وهو يركلني من جديد: «هل تريدين تركي؟».

جلس فوقي وأجبرني على الاستلقاء على ظهري، ثم ثبت ذراعي بركبتيه. كانت عظمتا ركبتيه يهرسان مرفقي.

«إنني آسفة. إنني آسفة. إنني آسفة». حاولت أن أتلوى حتى أفلت منه لكنه كان جالساً فوق بطني. لقد ثبتني تماماً.

أطبقت يداه على عنقي: «كان من المفترض أن تحبيني إلى الأبد».

كنت أحشرج وأنا أرفس وأتلوى تحته، لكنه كان أقوى مني كثيراً. بدأت عيناي تغيمان. حرّرت إحدى يدي فحاولت خمش وجهه وأنا موشكة على فقدان الوعي.

«كان من المفترض أن تنقذيني». صار صوته الآن ناعماً حزيناً.

لكن تلك الكلمات كانت آخر ما سمعته قبل أن يغمى علي. وعندما صحوت وجدت نفسي لا أزال مستلقية على الأرض. كانت صفحات مذكراتي قد اختفت.

كان ريتشارد قد اختفى أيضاً.

آلمتني حنجرتي وشعرت بظمأ شديد. بقيت مستلقية هناك زمناً طويلاً. لم أكن أعرف مكان ريتشارد. انقلبت على جنبي وطوّقت ركبتيَّ بذراعَيّ. كنت أرتجف في قميص نومي الرقيق. وبعد برهة، مددت يدي وجذبت اللحاف عن السرير. جعلني الذعر غير قادرة على الحركة؛ جعلني غير قادرة على مغادرة الغرفة.

ثم شممت رائحة قهوة طازجة.

سمعت خطوات ريتشارد تصعد درجات السلم. ما كان لدي مكان أختبئ فيه. وما كانت لدي قدرة على الجري. كان ريتشارد بيني وبين باب البيت.

دخل الغرفة دون استئذان. كان فنجان القهوة في يده.

قلت بسرعة: «سامحني...». كان صوتي خشناً... «لم أدرك أن... لقد كنت أشرب، ولم أكن أنم جيداً. لم يكن تفكيري واضحاً».

اكتفى بالنظر إلي. كان قادراً على قتلي. علي إقناعه بألا يقتلني.

قلت كاذبة: «لم أكن أريد تركك. ولا أعرف السبب الذي جعلني أكتب تلك الأشياء السيئة. أنت طيّب جدّاً معي».

تناول ريتشارد رشفة من فنجانه، لكن عينيه ظلتا تنظران في عينَيّ من فوق حافة الفنجان.

«أخاف أحياناً أن أكون قد صرت مثل أمي. إنني في حاجة إلى مساعدة».

«أعرف أنك لن تتركيني. أعرف هذا». لقد استعاد السيطرة على نفسه. وقد قلت له الكلمات التي يجب أن أقولها... «أعترف بأنني فقدت أعصابي، لكنك أنت من دفعني إلى ذلك». قال هذا كما لو أن ما فعله لم يكن أكثر من رفع صوته عليَّ خلال مجادلة بسيطة... «لقد كنت تكذبين علي. كنت تخدعينني. أنت لا تتصرفين مثل نيللي التي تزوجتها». توقف لحظة. ربت بيده على السرير فنهضت متردّدة وجلست على حافته، لكنني أبقيت على اللحاف من حولي كأنه درع يحميني. جلس إلى جانبي فأحسست بالفراش ينخسف تحت ثقله ويجعلني أميل في اتجاهه.

«لقد فكرت في الأمر ووجدت أنني مخطئ جزئياً. كان عليَّ أن أرى العلامات المبكرة. لقد سايرتُ اكتئابك. أنت في حاجة إلى ما يضبطك، إلى نظام ثابت. سوف تستيقظين وتنهضين معي من الآن فصاعداً؛ وسوف نمارس التمرينات الرياضية معاً كل صباح. وبعدها نتناول طعام الإفطار. مزيد من البروتيين. سوف تستنشقين الهواء النقي. وسوف تعودين إلى العمل مع بعض تلك اللجان في النادي. كنت تبذلين بعض

الجهد في تحضير العشاء، أريدك أن تعودي إلى فعل ذلك من جديد».

«نعم. بالتأكيد».

«إنني ملتزم بزواجنا يا نيللي. لا تجعليني أبداً أشك في التزامك مرة أخرى».

أومأت برأسي سريعاً رغم أن تلك الحركة آلمت رقبتي.

ذهب إلى عمله بعد ساعة من ذلك وقال لي إنه سيتصل عندما يصل إلى المكتب وإن عليَّ أن أجيب على اتصاله. فعلت ما قاله بالضبط. لم أستطع ابتلاع أكثر من قدر قليل من اللبن الرائب على الإفطار لأن حلقي كان يؤلمني، لكن اللبن الرائب غنيّ بالبروتيين! كنا في أوائل الخريف، وهكذا خرجت لأمشي في الهواء ذي البرودة المنعشة. رفعت صوت جرس هاتفي الخليوي إلى الحد الأقصى. ارتديت كنزة ذات ياقة مرتفعة حتى أستر آثار أصابعه البيضوية الحمر التي ستتحول إلى كدمات. ذهبت إلى متجر البقالة بعد ذلك واشتريت شرائح اللحم والهليون الأبيض لكي أعدَّ طعام العشاء لزوجي.

كنت واقفة في صف الانتظار عند صندوق المحاسبة عندما سمعت الموظفة تخاطبني: «سيدتي». فأدركت أنها تنتظرني كي أدفع ثمن مشترياتي. رفعت رأسي عن كيس الطعام الذي كنت أحدق فيه وتساءلت إن كان ريتشارد يعرف الآن أنني أشتري طعاماً لعشائه. على نحو ما، كان ريتشارد عارفاً بكل خروج لي من البيت. لقد اكتشف أمر ذهابي سراً إلى المدينة. وعرف متجر المشروبات الذي كنت أذهب للشراء منه. كان على علم بمشاويري كلّها.

إنا معك دائماً حتى عندما لا أكون موجوداً!

نظرت إلى الموظفة التي على صندوق المحاسبة الآخر وهي تحاول تهدئة طفل صغير يريد أن يُرفع من العربة. رفعت رأسي إلى كاميرا

المراقبة قرب الباب. رأيت كدس سلال التسوق الحمر ذات المقابض المعدنية اللامعة، ورأيت مكان عرض المجلات الشعبية، ورأيت السكاكر بأغلفتها البراقة المجعّدة.

ما كنت أعرف أبداً كيف يستطيع زوجي مراقبتي على نحو مستمر. لكن رقابته ما عادت خفية على الإطلاق. صرت غير قادرة على التفلت من القواعد الجديدة الصارمة في زواجنا. وبالتأكيد، لم أكن قادرة أبداً على محاولة تركه.

سوف يعرف.

سوف يوقفني.

سوف يؤذيني.

وقد يقتلني.

بعد أسبوع من ذلك، أو بعد أسبوعين، رفعت رأسي عن طعام الإفطار ورحت أنظر إلى ريتشارد وهو يختار قطعة محمَصة من لحم الديك الرومي الذي طهوته مع البيض المخفوق. كان وجهه لا يزال محمرّاً قليلاً من أثر التمرينات الرياضية الصباحية. وكان البخار يتلوى صاعداً من فنجان قهوته. كانت صحيفة وول ستريت جورنال مطوية إلى جانب طبقه.

قضم قطعة من اللحم وقال: «إنه ممتاز».

«شكراً».

«ما خططك لهذا اليوم؟».

«سوف أستحم، ثم أذهب إلى النادي من أجل التحضير لبيع الكتب المستعملة. لدينا الكثير من العمل في تصنيف تلك الكتب وفرزها».

أومأ برأسه: «يبدو هذا جيداً». مسح أطراف أصابعه بمنديل الطعام ثم فتح الصحيفة... «لا تنسي أننا سنقيم مأدبة العشاء الوداعية بمناسبة تقاعد دانييل يوم الجمعة القادم. هل يمكنك انتقاء بطاقة لطيفة، وسوف أضع فيها تذكرة رحلتها البحرية؟».

«بالطبع». خفض رأسه إلى الصحيفة وراح يقرأ صفحة الأسهم.

وقفت ورفعت الأطباق عن الطاولة. وضعتها في آلة غسل الأطباق، ثم مسحت منضدة المطبخ وطاولة الطعام. وبينما كنت أمر بالإسفنجة على الرخام، اقترب ريتشارد مني وطوق خصري بذراعيه. قبّل رقبتي.

همس لي: «أحبّك».

«وأنا أحبّك أيضاً».

لبس سترته وحمل حقيبة أوراقه، ثم سار في اتجاه باب البيت. ذهبت خلفه ورحت أنظر إليه متّجهاً إلى سيارته المرسيدس. كان كل شيء مثلما أراده ريتشارد بالضبط. عند عودته الليلة إلى البيت سيجد العشاء جاهزاً. تخليت عن بنطلون اليوغا الرياضي وارتديت فستاناً جديداً. وسوف أسلّيه بقصة مضحكة عما قالته ويندي في النادي اليوم.

نظر ريتشارد إليَّ عبر زجاج النافذة الكبيرة، ثم قاد سيارته في اتجاه الخروج من فناء البيت.

صحت ملوّحة له بيدي: «مع السلامة».

كانت ابتسامته عريضة حقيقية. كان الرضا واضحاً عليه تماماً.

أدركت شيئاً في تلك اللحظة. وكان ذلك أشبه بشعاع صغير من شعاع الشمس يلوح في العتمة الرمادية القطنية الخارقة الضاغطة على روحي.

ما من سبيل لأن يتخلّى زوجي عني.

لا بد أن تكون فكرة إنهاء زواجنا فكرته هو.

الفصل السادس والثلاثون

يرن هاتفي الخليوي وأنا جالسة أعيد كتابة سيرتي الذاتية على كمبيوتري المحمول.

أرى اسمها على شاشة الهاتف. أتردّد قبل أن أجيب. ينتابني قلق من أن يكون هذا فخّ جديد من أفخاخ ريتشارد.

يقول لي صوتها الأبح الذي صرت أعرفه معرفة جيدة: «أنت محقة».

أظل صامتة.

«... في ما يتعلق ببطاقة فيزا...». ينتابني خوف من أي شيء يمكن أن أقوله في هذه اللحظة فيجعل إيمّا تكف عن الكلام وتغير رأيها وتنهي المكالمة... «لقد اتصلت بشركة بطاقات الائتمان. ليست هنالك أي دفعة لتسديد ثمن نبيذ من محل سوذبي. لم يطلب ريتشارد نبيذ رافينو أبداً».

لا أكاد أصدق ما أسمعه في هذه اللحظة. ولا يزال جزء مني قلقاً من أن يكون ريتشارد خلف هذا. لكن نبرة صوت إيمّا مختلفة عما كانته في الماضي. ما عاد في صوتها ذلك الازدراء تجاهي.

«فانيسا، لقد كان شكلك عندما قال إنه سيرافقك إلى الأسفل... ذلك ما أقنعني بأن عليَّ أن أتحقّق. كنت أظن أنك في حالة غيرة.

ظننت أنك تريدين استعادته. لكنك لا تريدين استعادته، أليس ما أقوله صحيحاً؟».

«لا، لا أريده».

تقول إيمّا بصراحة مباشرة فجة: «أنت خائفة منه. هل ضربك حقّاً؟ هل حاول خنقك حقاً؟ لا أستطيع تصديق أن ريتشارد يمكن أن... لكن...».

«أين أنت الآن؟ وأين هو؟».

«أنا في البيت. وهو في رحلة عمل إلى شيكاغو».

أحمد الرب أنها ليست في شقة ريتشارد. قد تكون شقتها آمنة. لكن هاتفها قد لا يكون كذلك... «يجب أن نلتقي وجهاً لوجه». لكن لقاءنا هذه المرة سيكون في مكان عام.

«ما رأيك في مقهى ستاربكس في شارع...».

«لا، عليك أن تظلي على برنامج يومك الطبيعي. ما الذي كنت تعتزمين فعله اليوم؟».

«سأذهب إلى صف اليوغا بعد ظهر اليوم. ثم أذهب بعد ذلك لأخذ فستان الزفاف».

لن نكون قادرتين على الحديث في استوديو اليوغا: «إذاً، أراك في محل فساتين الزفاف. أين هو؟».

تعطيني إيمّا العنوان والتوقيت وأقول لها إنني سأقابلها هناك. لكنها لا تعرف أنني سأصل في وقت مبكر حتى أتأكد من عدم وقوعي في كمين جديد.

صاحت بريندا، صاحبة المحل: «يا للعروس الرائعة!».

لاقت عينا إيمّا عينيّ في المرآة وهي واقفة على منصة مرتفعة في فستانها الحريري الضيق بلون الحليب. ليست مبتسمة؛ لكن بريندا تبدو شديدة الانشغال في عملية القياس النهائية للفستان فلا تلاحظ مزاج إيمّا القاتم.

تتابع بريندا كلامها: «لا أظنّه في حاجة إلى أي شيء أبداً. سوف أكويه على البخار ثم أرسله إليكِ غداً».

أقول لها: «يمكننا الانتظار في واقع الأمر. نريد أن نأخذه معنا». ركن تجربة الفساتين خالٍ، وفي زاويته عدة كنبات. إنه مكان منعزل آمن.

«في هذه الحالة، ما رأيكما في كأس من الشامبانيا؟».

أقول لها: «يسرني أن أشرب كأساً».

تومئ إيمّا برأسها موافقة.

أشيح برأسي جانباً عندما تبدأ إيما بخلع فستانها. لكني لا أزال أرى صورها المنعكسة في عدد من المرايا في أرجاء الغرفة ـ جلد ناعم وملابس داخلية وردية هفهافة. يا لها من لحظة حميمة على نحو غريب.

تأخذ بريندا الفستان وتضعه على علاقة مغلّفة بالقماش، أما أنا فأنتظرها نافدة الصبر إلى أن تخرج من الغرفة. أتجه إلى الكنبات حتى قبل أن تنتهي إيما من تزرير تنورتها. إن محل فساتين الزفاف هذا مكان يمكنني فيه أن أكون واثقة من عدم ظهور ريتشارد على نحو مفاجئ. عملياً، يُمنع العريس من رؤية خطيبته في فستان الزفاف قبل موعد العرس.

تقول إيمّا: «كنت أظنك مجنونة! خلال عملي في مكتب ريتشارد، كنت أسمعه يتحدّث معك على الهاتف ويسألك عما تناولته على الإفطار وما إذا كنت خرجت من البيت من أجل بعض الهواء النقي. كنت

أستطيع الاطلاع على الرسائل الإلكترونية التي يسألك فيها عن مكان وجودك. يقول لك إنه اتصل بك أربع مرات في اليوم وإنك لم تجيبي على اتصالاته. لقد كان دائم القلق عليك».

«أفهم تماماً كيف كان الأمر يبدو لكِ بهذه الصورة».

نصمت عندما تعود بريندا حاملة كأسَيْ شامبانيا. تقول: «أهنئك مرة أخرى...». أخاف أن تظل معنا وأن تكون راغبة في الكلام. لكنها تعتذر قائلة إن عليها متابعة وضع الفستان.

«أدركت أنني كنت أحاول تقييمك». تقول إيمّا لي هذه الكلمات من غير مواربة بعد أن تذهب بريندا. تنظر إليَّ نظرة فاحصة فأرى عينيها الزرقاوين المدوَّرتين مألوفتين على نحو غير متوقَّع. قبل تحديد سبب هذه الألفة تتابع إيمّا كلامها: «كانت لديك هذه الحياة التي لا ينقصها شيء مع رجل رائع تماماً. بل حتى لم تكوني تعملين. كنت مكتفية بالتجول في البيت الفاخر الذي دفع ريتشارد ثمنه. لم أكن أرى أنك تستحقين شيئاً من هذا».

تركتها تتابع كلامها.

تميل برأسها جانباً. أحس كما لو أنها تراني أول مرة: «أنت مختلفة عما تخيلته. لقد فكرت فيك كثيراً. كنت أتساءل كيف يكون إحساسك عندما تعرفين أن زوجك يحب امرأة غيرك. كان هذا الهاجس يبقيني ساهرة طيلة الليل».

«لم يكن الذنب ذنبك». ليست لديها أية فكرة عن مدى صدق جملتي هذه.

تنبعث طنة مرتفعة من حقيبة يدها. تتجمّد بعد أن كان كأس الشامبانيا على شفتيها. تنظر كلتانا إلى حقيبة يدها.

تخرج هاتفها.

«ريتشارد أرسل لي رسالة. لقد وصل إلى فندقه في شيكاغو. يسألني عما أفعله الآن ويقول إنه مشتاق إلي».

«اكتبي له أنك مشتاقة أيضاً. وقولي إنك تحبّينه».

يرتفع حاجباها، لكنها تفعل مثلما قلت لها.

«والآن، أعطني هاتفك...». أنقر على الهاتف ثم أجعل إيما تراه وأشير إلى الشاشة: «إنه يتعقّب حركتك. لقد اشتراه لك ريتشارد، أليس هذا صحيحاً؟ كما أن الحساب باسمه هو. يمكنه معرفة موقع هاتفك ـ أي موقعك أنت ـ في أي وقت».

لقد فعل معي الأمر نفسه بعد خطبتنا. لم أدرك هذا إلا بعد ذلك اليوم الذي كنت فيه واقفة في متجر البقالة أتساءل إن كان يعرف ما اشتريته من أجل عشائه. هكذا اكتشف أمر ذهابي سرّاً إلى المدينة وإلى محل المشروبات الواقع في بلدة قريبة.

كان ريتشارد مسؤولاً أيضاً عن الاتصالات الغريبة الغامضة التي بدأت تأتيني بعد معرفتي به. هذا ما أدركته في فترة متأخرة. كانت تلك الاتصالات عقوبة لي بعض الأحيان كما حدث خلال شهر عسلنا عندما ظن ريتشارد أنني أغازل مدرب الغطس الشاب. وفي حالات أخرى، كان يحاول إبقائي في حالة مضطربة غير متّزنة... يحاول توتير أعصابي حتى يتمكن من طمأنتي في ما بعد. لكني لا أحكي لإيمّا عن هذه الأشياء.

إيمّا تنظر إلى هاتفها: «هذا يعني أنه يتظاهر بعدم معرفته شيئاً عما أفعله على الرغم من أنه يعرف كل شيء...». تأخذ رشفة من كأسها... «يا إلهي، هذا تصرّف مريض».

«أدرك أن من الصعب عليك تلقي هذه الأخبار كلها». أعرف أيضاً أن هذا أقل ما يمكن أن يقال.

«أتعرفين ما أفكر فيه دائماً؟ لقد ظهر ريتشارد فجأة بعد وقت قصير جداً من إدخالك تلك الرسالة من تحت الباب. أخذها مني ومزقها على الفور. لكني لا أزال أتذكر جملة وردت فيها: هنالك جزء منك يعرف حقيقته منذ الآن...». تغيم عيناها فأظنها تعيش من جديد اللحظة التي بدأت ترى فيها خطيبها على نحو مختلف... «لقد أراد ريتشارد... كان ذلك كأن ريتشارد أراد أن يقتل تلك الرسالة. ظل يمزقها إلى قطع أصغر فأصغر، ثم وضع المزق كلها في جيبه. وكان وجهه... لم يكن يشبه وجه ريتشارد على الإطلاق».

تظل إيمّا عالقة في تلك الذكرى لحظة طويلة، ثم تبعدها عنها وتنظر إليَّ مباشرة: «هل تقولين لي الحقيقة إذا سألتك عن شيء ما؟».

«بالتأكيد».

«مباشرة بعد حفل الكوكتيل، الذي أقمتماه في بيتكما. جاء ريتشارد وعلى خده خدش كبير. عندما سألته عما حدث. قال لي إن قط الجيران فعل به هذا عندما حاول أن يحمله».

كان في وسع ريتشارد أن يغطي ذلك الخدش، أو أن يخترع قصة أفضل من تلك من أجل تفسيره. لكن الناس سيخرجون باستنتاجاتهم بعد رؤيتهم سلوكي البشع خلال الحفلة. كان ذلك برهاناً قوياً على عدم استقراري، على وجود خلل ما عندي.

إيمّا هادئة جداً في هذه اللحظة. تقول لي ببطء: «كانت لديَّ قطة في صغري. أعرف أن ذلك الخدش شيء مختلف».

أومئ برأسي.

عند ذلك، استنشق نفساً عميقاً وأقول لها: «كنت أحاول جعله يبتعد عني».

لا تبدو على إيمّا أيّ رد فعل أول الأمر. لعلها أدركت بغريزتها أنني سأنفجر باكية إن أظهرت تعاطفها معي. تكتفي بالنظر إليّ، ثم تدير وجهها.

تقول آخر الأمر: «لا أستطيع تصديق أنني فهمت كل شيء على نحو خاطئ هكذا... ظننت أنك أنت التي... سوف يعود غداً، وقد اتفقنا على أن أمضي الليلة عنده. وبعد ذلك ستأتي مورين إلى المدينة. سنلتقي في شقتي حتى ترى فستاني. ثم نذهب كلنا لاختيار كعكة الزفاف!».

ليست ثرثرتها هذه إلا علامة على توترها... علامة على أن حديثنا قد هزّها.

مورين عنصر تعقيد إضافي في الواقع. لا يفاجئني أن يدخلها ريتشارد وإيمّا في تحضيرات الزفاف. لقد رغبتُ في الشيء نفسه، أنا أيضاً. إضافة إلى العقد الخرزي ذي القفل الذي يشبه الفراشة، ذلك العقد الذي قدّمته إليها، طلبت رأيها في ما إذا كان ريتشارد يفضل الصور الملونة أو الصور بالأبيض والأسود من أجل ألبوم الصور الذي سيكون هديتي له بعد زفافنا.

لقد اتصل بها ريتشارد ووضعها على «السبيكر» ورحنا نناقش معاً أنواع المقبلات التي تسبق وجبة الطعام الرئيسية. أحطت إيمّا بذراعي. تصلب جسدها أول الأمر، لكنه استرخى قبل أن تبتعد عني. لا بد أنها الآن تجد مشقة في التعامل مع انفعالاتها.

أنقذيها. أنقذيها.

أغمض عيني وأتذكّر الفتاة التي لم أستطع إنقاذها. أقول لإيمّا: «لا تخافي. سوف أساعدك».

نصل إلى شقة إيمّا فتضع ثوب زفافها على ظهر الأريكة.

«هل تحبين أن تشربي شيئاً؟».

لم أكد أشرب شيئاً من كأس الشامبانيا. أريد أن يظل تفكيري واضحاً تماماً حتى أستطيع الاهتداء إلى ما يمكن أن تفعله إيمّا حتى تخلّص نفسها من ريتشارد بأمان.

«أريد شيئاً من الماء».

تتحرّك إيمّا في مطبخها الصغير الضيق وتعود إلى ثرثرتها القلقة: «أتريدين قطع ثلج؟ أعرف أن شقتي في حالة فوضى بعض الشيء. كنت أعتزم الاهتمام بالغسيل، لكني أحسست فجأة بأنني يجب أن أتحقّق من مدفوعات بطاقة فيزا. لقد أضافني إلى ذلك الحساب بعد خطبتنا. وهكذا، كان يكفي أن أطلب الرقم المسجل على ظهر البطاقة. لديّ هنا عنب ولوز إذا أحببت أن تأكلي شيئاً... إنني أراجع بيانات AmEx قبل تسليمها إلى قسم المحاسبة من أجل إدخالها في السجلات، لكنه كان يقول لي أحياناً إنه سيقوم بذلك بنفسه. هذا سبب عدم رؤيتي ذلك المبلغ المشترك». تهز إيمّا رأسها.

أستمع إليها شاردة الذهن وأنا أنظر من حولي. أعرف أنها تفتش عن طريقة تخفف بها من حدة أثر ما عرفته عن ريتشارد. كأس الشامبانيا الذي شربته بسرعة، وتلك الطاقة المتوترة. أعرف هذه الأعراض حق المعرفة.

بينما تُفرغ إيما بعض مكعبات الثلج في كأسينا، تتنقل عيناي في غرفتها الصغيرة: الأريكة، والطاولة الصغيرة عند الجدار، والأزهار التي صارت الآن ذابلة بعض الشيء. لا شيء على الطاولة إلا تلك الأزهار. لكني أدرك فجأة ما تبحث عيناي عنه.

«هل لديك خط هاتف أرضي؟».

«ماذا؟ ...». تهز رأسها وتناولني كأس الماء... «لا، لماذا تسألين؟».

تريحني إجابتها. لكني أقول لها: «إنني أبحث عن الطريقة المثلى لتواصلنا». لن أقول لإيمّا الآن كل شيء. إذا عرفتْ أن حقيقة الأمر أسوأ بكثير مما عرفته الآن، فقد تكف عن الاستماع إلي.

ما من حاجة إلى شرح أنني واثقة من قدرة ريتشارد على التنصت على المكالمات التي كنت أجريها من هاتف بيتنا خلال فترة زواجنا.

لم أتوصّل إلى الاستنتاج الصحيح إلا آخر الأمر... إلا بعد أن ظهر لي على صفحات دفتر مذكراتي أن هنالك نموذجاً يتكرّر باستمرار.

عندما انطلق نظام الإنذار في بيتنا في ويستشستر فهربت واختبأت في الخزانة، أحسست أول الأمر بالاطمئنان لأن كاميرا المراقبة الموضوعة عند باب البيت الخلفي لم تبين أثراً لوجود شخص دخيل. ثم أدركت أن ريتشارد قد تفقد الكاميرات. لم يتحقق أحد غيره مما قد تكشفه.

تماماً قبل انطلاق نظام الإنذار، كنت على الهاتف مع سامانثا. لقد كنت أمزح عندما تحدّثت عن جلب رجال إلى البيت بعد ليلة من الرقص في البارات. لكني أظن الآن أن ريتشارد هو من أطلق نظام الإنذار. كانت تلك عقوبة لي.

كان يتغذّى على خوفي؛ وكان ذلك ينمّي إحساسه بالقوة. أفكر في الاتصالات الهاتفية الغامضة التي صارت تأتيني بعد خطوبتنا بفترة قصيرة. أفكر أيضاً كيف أخذ ريتشارد خطيبته المصابة برهاب الأماكن المغلقة إلى الغطس؛ وكيف كان يذكّرني دائماً بتشغيل نظام الإنذار. أتذكر كيف كان يستمتع بتهدئتي وإراحتي، كيف كان يهمس لي قائلاً إنه وحده من يحميني.

أخذت جرعة كبيرة من كأس الماء، ثم قلت لإيمّا: «في أي وقت يعود ريتشارد غداً؟».

«في وقت متأخر بعد الظهر». تنظر إلى فستان الزفاف... «يجب أن أعلّقه».

أذهب مع إيمّا إلى غرفة نومها وأنظر إليها وهي تعلّق الثوب على باب الخزانة. يبدو لي الفستان كأنه عائم في الهواء. لا أستطيع إبعاد ناظريَّ عنه.

ما عادت العروس التي كانت من المفترض أن تلبس هذا الفستان الجميل موجودة. سيظل هذا الفستان فارغاً يوم زفافها.

تسوي إيمّا علّاقة الفستان بحركة خفيفة. تتردّد يدها عنده قليلاً قبل أن تسحبها.

«لقد بدا لي شخصاً رائعاً جداً». صوتها ممتلئ دهشة... «كيف يمكن أن يكون رجل مثله قاسياً إلى هذا الحد؟».

أفكر في فستان زفافي الراقد في علبة حافظة في خزانتي القديمة في ويستشستر. كان محفوظاً من أجل الابنة التي لم أنجبها أبداً.

أبتلع ريقي بصعوبة قبل أن أتمكّن من الكلام.

«كان جزء من ريتشارد رائعاً حقاً. هذا ما جعل زواجنا يستمر تلك المدة كلها».

«ولماذا لم تتركيه؟».

«لقد فكرت في هذا. هنالك أسباب كثيرة لأن أتركه. وهنالك أسباب كثيرة لعجزي عن تركه».

تومئ إيمّا برأسها.

«... كان لا بد أن أجعله يتركني هو».

«لكن، كيف عرفت أنه يمكن أن يتركك؟».

مكتبة

أنظر في عينيها. لا بد من الاعتراف. لقد كان ما عرَفتْه إيمّا حتى هذه اللحظة شديد الوطأة عليها. لكنها تستحق أن تعرف الحقيقة. من غير ذلك، ستكون فريسة واقعٍ زائف. وأنا أعرف تماماً كم يمكن لذلك الواقع الزائف أن يكون مدمِّراً.

«هنالك شيء آخر...». أعود إلى غرفة المعيشة فتتبعني. أشير إلى الأريكة... «هل يمكننا أن نجلس؟».

تجلس متصلبة على حافة مسندِ الأريكة كأنها تستعد لما سيأتي.

أكشف لها عن كل شيء: حفلة المكتب عندما رأيتها أول مرة. اللقاء في بيتنا عندما تظاهرت ب ثملة. الليلة التي تصنَّعت فيها المرض واقترحت على ريتشارد أن يأخذها إلى الحفلة الموسيقية بدلاً مني. رحلة العمل عندما شجعتهما على البقاء حتى اليوم التالي.

تكون ممسكة برأسها بين يديها عندما أنتهي من كلامي.

تصيح قائلة: «كيف تفعلين هذا بي؟...». تقفز واقفة على قدميها وتنظر إليَّ غاضبة... «كنت أعرف هذا طيلة الوقت. كنت أعرف أن فيك شيئاً غير طبيعي على الإطلاق!».

«إنني آسفة».

«هل تعرفين كم ليلة بقيت فيها مستيقظة أفكر في أنني أساهم في خراب زواجك؟».

لم تقل إنها كانت تشعر بالذنب، لكن من الطبيعي أن يكون لديها ذلك الشعور. أنا واثقة من أن العلاقة الجسدية بينهما بدأت عندما كنا لا نزال متزوجين. الآن، صارت ذكريات إيمّا كلها عن علاقتها بريتشارد ملوّثة مرتين: لا بد أنها تحس بنفسها بيدقاً استخدمتْهُ في قصة زواجي الفاشل. بل لعلها تظن بأن كلاً منا يستحق الآخر.

«لم أكن أظن أبداً بأن الأمر سيبلغ هذا الحد. لم أتوقّع أن يطلب الزواج منك. ظننت أن ذلك سيكون مجرّد علاقة».

تصيح إيمّا: «مجرّد علاقة». تتقد وجنتاها غضباً... يفاجئني الانفعال في صوتها... «كأن ذلك شيء صغير لا قيمة له! علاقات تدمّر الناس. هل فكرتِ يوماً في المعاناة التي سألقاها؟».

تسقط عليَّ كلماتها سقوط السياط، لكن شيئاً يشتعل في داخلي فأجد نفسي أردّ عليها.

أصيح: «أعرف أن هنالك علاقات تدمر الناس!». وأفكر كيف بقيت عدة أسابيع متكوّرة على نفسي في سريري بعد معرفتي بخداع دانييل، بعد رؤية زوجته ذات المظهر المرهَق. حدث هذا قبل نحو خمسة عشر عاماً، لكني لا أزال قادرة على رؤية الدرّاجة الصفراء ثلاثية العجلات والحبلِ الوردي تحت شجرة البلوط خلف فناء بيته. لا أزال أتذكّر كيف تعثَّر قلمي على الورقة عندما سجلت اسمي في «عيادة الأمومة».

«لقد خدعني رجل متزوج ذات مرة، عندما كنت في الكلية». صار صوتي الآن أكثر رقة. إنها المرة الأولى التي أكشف لأي كان عن هذا الجزء بعينه من حكايتي. تجتاحني موجة ألم طازجة كأن ذلك حدث الآن... أصير من جديد كأنني تلك الفتاة محطمة القلب في الحادية والعشرين من عمرها... «ظننت بأنني أحببته. لكنه لم يخبرني عن زوجته أبداً. أظن أحياناً أن حياتي كانت ستمضي في مسار مختلف تماماً لو عرفتُ ذلك».

تجتاز إيمّا الغرفة بخطوات واسعة. تفتح باب الشقة.

«اخرجي...». لكن ذلك السم قد اختفى من صوتها. شفتاها مرتجفتان، ودموع تلمع في عينيها.

أقول لها راجية: «دعيني أقول شيئاً واحداً أخيراً. اتصلي الليلة بريتشارد وقولي له إنك غير قادرة الآن على المضيّ في هذا الزفاف. قولي له إنني أتيت إليك من جديد. وأن زيارتي كانت القشة الأخيرة». لا تستجيب لكلماتي، لكني أتابع الكلام بسرعة وأنا سائرة في اتجاه الباب... «اطلبي منه أن يقوم هو بإخبار الجميع بأن الخطبة قد فُسخت؛ هذه نقطة مهمة حقاً. لن يعاقبك إذا تحقق له الشعور بأنه قادر على التحكم بالرسالة التي تصل إلى الآخرين... إذا خرج من الأمر محتفظاً بكرامته».

أقف أمامها حتى لا تفوتها كلمة من كلماتي... «قولي له إنك غير قادرة على تحمل زوجته السابقة المختلة نفسياً. عديني بأن تفعلي هذا. عندها، ستكونين آمنة».

إيمّا صامتة. لكنها تنظر إليَّ، على الأقل، رغم أن عينيها باردتين كأنهما تقيّماني من جديد. تنتقل نظرتها من وجهي إلى جسدي ثم تعود إلى جسدي.

«كيف تعتقدين بأنني سأصدق أي شيء تقولينه لي؟».

«لست في حاجة إلى التصديق. أرجوك، اذهبي للإقامة عند بعض أصدقائك. اتركي هاتفك هنا حتى لا يتمكن من العثور عليك. إن غضب ريتشارد ينجلي سريعاً. لا أريد منك شيئاً غير أن تحمي نفسك».

أجتاز العتبة إلى الخارج، ثم أسمع صوت انطباق الباب بعنف من خلفي.

أسير في الممر متمهلة وأحدق في السجادة الزرقاء الداكنة تحت قدمي. لا بد أن إيمّا تعيد الآن تقييم كل ما قلته لها. لعلها غير عارفة أبداً أين تضع ثقتها.

إذا لم تتقيد إيمّا بالخطوات التي قلتها لها، فقد يطلق ريتشارد غضبه كلّه عليها... إذا لم يستطع العثور عليَّ خاصة. بل يمكن أن يحدث أسوأ من هذا: قد يقنعها بتغيير رأيها وإتمام الزواج.

ربما لم يكن صائباً أن أخبرها بدوري كيف سار الأمر كله. كان ينبغي أن أُغلّب أمانها على حاجتي إلى التخفيف من ذنبي... إلى أن أكون صادقة صدقاً تاماً. في تلك الحالة، من الممكن أن يجعلها جهلها أقل ضعفاً مما جعلتْها هذه الحقيقة الخطرة.

فما هي خطوة ريتشارد التالية؟

لدي أربع وعشرون ساعة إلى أن يعود من رحلته. ولا فكرة عندي الآن عمَّ أفعله.

أسير في الممر بخطوات بطيئة. لا أريد تركها... لا أريد! أسمع صوت فتح باب خلفي عندما أهم بدخول المصعد. ألتفت فأرى إيمّا واقفة على العتبة.

«تريدين مني إخبار ريتشارد بأنني ألغي الزفاف بسببك أنت!».

أومئ برأسي وأقول سريعاً: «صحيح. عليك إلقاء اللائمة كلّها عليّ».

تقطب حاجبيها. تميل برأسها جانباً ثم تحدّق بي بنظرة تتحرّك من رأسي إلى أخمص قدمي.

أقول لها: «إنه الحل الأكثر أماناً».

«قد يكون هو الحل الأكثر أماناً لي، لكنه ليس كذلك بالنسبة لكِ».

الفصل السابع والثلاثون

يقول ريتشارد: «اشتقت إليك كثيراً يا حبيبتي».

أحس بشيء ينتفض في صدري أمام هذا الحب وهذه الرقّة في صوته.

زوجي السابق واقف على مسافة لا تزيد على ثلاثة أمتار. عاد من شيكاغو قبل بضع ساعات. لكنه عرّج على شقته لارتداء بنطلون جينز وقميص خفيف قبل المجيء إلى شقة إيمّا. إنني جاثمة على الأرض أنظر عبر ثقب المفتاح في خزانة غرفة نومها. هذا هو المكان الوحيد الذي يخفيني ويسمح لي بالنظر إلى الغرفة في الوقت نفسه.

إيمّا جالسة على حافة سريرها مرتدية بنطلوناً رياضياً ضيقاً وبلوزة قصيرة الكمين. وعلى الطاولة الصغيرة إلى جانبها علبة مناديل وزجاجة دواء مضاد للاحتقان وفنجان من الشاي. أتأمل هذه اللمسات الصغيرة.

«أحضرت لك حساء الدجاج وعصير برتقال طازج من محل آي. أتيت ببعض الزنك أيضاً. يقسم مدربي على أنه قادر على هزيمة زكام الصيف بكل سهولة».

«شكراً لك». صوتها ضعيف ناعم. إنها مقنِعة تماماً.

«هل آتي لك بكنزة دافئة؟».

تتقلّص معدتي عندما أرى هيكل ريتشارد يملأ مجال رؤيتي ويحجب عني بقية الغرفة. إنه يقترب من مكان اختبائي.

«الحقيقة أنني أشعر بحرٍّ شديدٍ. هل تعطيني منشفة مبللة باردة حتى أضعها على جبيني؟».

لم نتمرن على هذا الموقف. إنها بارعة في الارتجال!

أظل حابسة أنفاسي إلى أن أسمع وقع خطواته يبتعد عني وأراه يتجه إلى الحمام. أتحرك قليلاً. إنني راكعة منذ بضع دقائق. أشعر بالألم في ساقيّ.

لم تنظر إيمّا في اتجاهي ولا مرة واحدة. لا تزال تحت تأثير صدمة ما كشفته لها. ولا يبدو عليها أنها واثقة بي ثقة كاملة. لكني لا ألومها.

لقد قالت لي يوم أمس وأنا واقفة في الممر قرب باب المصعد: «ليس من حقّك التدخّل في حياتي بعد الآن. لن أنهي هذا الأمر مع ريتشارد على الهاتف لمجرد أنك قلت لي هذا. أنا من أقرر متى ألغي زفافي».

لكنها تسمح لي الليلة، على الأقل، بالبقاء قريبة منها حاملة هاتفي في يدي. تسمح لي بمراقبته... تسمح لي بحمايتها.

توقّعت كلتانا أن يصرّ ريتشارد على زيارتها عندما تقول له إنها مريضة. كان التظاهر بالمرض حلاً مناسباً لعدد من المشكلات. إذا كان ريتشارد يتتبّع حركات إيمّا، فالمرض يفسّر عدم ذهابها إلى درس اليوغا. المرض يفسّر أيضاً رغبتها في النوم في شقتها، ثم إنها لا تستطيع حتى أن تُقبّله فضلاً عن ممارسة الجنس معه. أردتُ أن أوفر عليها هذا كله.

يقول لها ريتشارد وهو يقترب منها: «هذه هي المنشفة يا حبيبتي». أراه ينحني فوق سريرها فيحجب ظهره عني حركاته. لكني أتخيّله يضع المنشفة الرطبة على جبين إيمّا ويمسّد شعرها. أتخيّله ينظر إليها بقدر كبير من المحبّة.

أشعر كما لو أن عظمتي ركبتيَّ تتحطمان على الأرضية الخشبية القاسية. إحساس بالاحتراق في عضلات فخذيَّ. ليتني أستطيع الوقوف وتحريك ساقيَّ قليلاً. لكن ريتشارد يمكن أن يسمع.

«لا أحب أن تراني على هذه الحال. إنني في حالة مزرية».

لو لم أكن أعرف الحقيقة، لاقتنعت تماماً بأنها بريئة من أية دوافع خفية.

«حتى عندما تكونين مريضة... تظلين أجمل امرأة في العالم».

لا أزال أعرف ريتشارد حقّ المعرفة. إنه يعني صادقاً كل كلمة يقولها. لو أن إيمّا تقول له الآن إنها تريد شراب الفراولة المثلج، أو جوارب دافئة من الكشمير، فهو مستعد للتجول في مانهاتن كلها حتى يأتي لها بأفضل ما هو موجود. سوف ينام على الأرض إلى جانب سريرها إذا قالت له إن هذا يريحها. إنه الجزء من طبيعة زوجي السابق الذي أجد صعوبة كبيرة في نزعه من قلبي. لكني لا أستطيع الآن رؤية أكثر من هيكله عبر ثقب الباب.

أغمض عينيَّ بشدة.

ثم أرغمهما على النظر من جديد. لقد تعلّمت مدى خطورة الغفلة عن الأشياء التي لا أريد تحمّل رؤيتها.

إذا لم تحقّق إيما توقّعات ريتشارد ـ ما عاد هنالك أي مجال لأن تحقّقها ـ فسوف تكون هنالك عواقب. إذا لم تكن الزوجة التي في أحلامه، فسوف يؤذيها ثم يقدم إليها بعض الحلي لتهوين الأمر عليها. وإذا لم تكوّن له عائلة ولم تخلق له البيت الذي يرضيه، فسوف يعتدي على حقيقتها من غير انقطاع، فيلويها ويشوّهها حتى تعجز هي نفسها عن التعرّف عليها. والأسوأ من هذا كله أنه سيأخذ منها كل ما تحبه، وكل مَنْ تحبه أيضاً.

يقول ريتشارد لإيمّا: «سأخبر مورين بأنك مضطرة إلى إلغاء لقائنا غداً».

ممتاز!... هكذا أقول في نفسي. قد يمنحنا هذا التأخير مهلة إضافية للتوصل إلى الطريقة الأمثل لتخليص إيمّا.

لكن إيمّا لا توافق على اقتراحه. أسمعها تقول له: «لا... أنا واثقة من أنني سأتحسّن سريعاً إذا حظيت ببعض الراحة».

«كما تريدين يا حبيبتي. أنت أهم شيء».

حتى عبر باب الخزانة المغلق، أستطيع الإحساس بالجاذبية المغناطيسية لسحر شخصيته.

كنت متمسكة بأملي في أن تبدأ إيمّا وضع مسافة بينها وبين ريتشارد منذ الليلة. لكن موقفها صار يبدو لي مزعزعاً بعد بضع دقائق فقط من حضوره.

عبر ثقب المفتاح، أرى أكفّهما متشابكة. وأرى إبهام يده يداعب معصمها بحركة رقيقة.

أود أن أقفز خارجة من الخزانة لأبعده عنها. إنه يزعزع ثباتها. إنه يعيدها إليه!

«ثم إن على مورين أن تأتي حتى أجعلها ترى فستان الزفاف...». ذلك الفستان معلّق إلى يساري الآن، على بعد سنتيمترات مني. وضعته إيمّا في الخزانة حتى لا يراه ريتشارد... «وعلينا أيضاً أن نقوم بتلك المهمات الممتعة المتعلّقة بالزفاف. هل تتوقع أن أتركك تذهب وحدك لاختيار الكعكة؟». كانت تقول هذا بصوت لعوب.

هذا عكس ما كان يجب أن يحدث. إيمّا التي أراها الآن مختلفة كل الاختلاف عن إيمّا التي كانت تتساءل قبل أربع وعشرين ساعة، عندما

كنا واقفتين في هذه الغرفة نفسها، كيف يمكن أن يكون ريتشارد رائعاً إلى هذا الحد وقاسياً إلى هذا الحد.

ما عدت قادرة على البقاء من غير حركة. أرفع ركبتي اليمنى عن الأرض ببطء وأضع قدمي على الأرض بكل هدوء. أكرر الحركة نفسها بساقي اليسرى. أنهض ببطء شديد، سنتيمتراً مؤلماً بعد سنتيمتر. الفساتين والقمصان تحيط بي، والأقمشة الحرير المتدلية تلامس وجهي. تصطدم إحدى علاقات الملابس بالقضيب المعدني. صوت صغير جداً، محدود، رنة واهية لا غير.

أسمع ريتشارد يسأل: «ما هذا؟».

لا أستطيع رؤية شيء.

رائحته الليمونية تحيط بي، أو لعلي أتخيّل هذا؟ أنفاسي ضحلة، وقلبي يصطخب عنفياً. إنني مذعورة إلى حد يجعلني موشكة على الإغماء. جسدي ينتفض في الخزانة.

«إنه سريري القديم يطقطق قليلاً...». أسمع صوت حركة إيمّا؛ والعجيب أن السرير يصدر صريراً... «لا أطيق الانتظار حتى أنام في سريرك».

تدهشني مرة أخرى بحيلتها البارعة السريعة كالبرق.

ثم أسمعها تقول: «لكن، هنالك شيء لا بد لي من إخبارك به».

«ما هو يا حبيبتي؟».

تتردّد إيمّا.

أركع من جديد لأنظر من ثقب الباب.

ما الذي يجعلها تطيل الحديث هذه الإطالة كلّها. تعرف كم هو ذكي... ألا تريد خروجه من شقتها سريعاً قبل أن يكتشف أنها ليست مريضة حقاً.

«اتصلت فانيسا بي اليوم».

تتسع عيناي، وأكتم شهقة كادت تنطلق من فمي. لا أصدق أنها تخونني من جديد.

يطلق ريتشارد شتيمة ويركل الجدار المجاور لطاولة الزينة؛ يركله ركلة عنيفة. أحس الاهتزاز ينتقل عبر ألواح الأرضية الخشب. أرى كفيه ينقبضان ثم يرتخيان.

يظل واقفاً بضع لحظات في مواجهة الجدار. ثم يستدير وينظر إلى إيمّا.

«هذا مؤسف يا حبيبتي...». صوته متوتّر... «وما الكلام الفارغ الذي قالته لك هذه المرة؟».

لقد اختارت إيمّا أن تصدّق ريتشارد. وما كان هذا التمثيل كله إلا بهدف الإيقاع بي. يمكنني الاتصال برقم طوارئ الشرطة... لكن، ما الذي ستقوله الشرطة إذا قالا معاً إنني اقتحمت المكان عليهما؟

ملابس إيمّا تخنقني. ما من هواء في هذه الخزانة الصغيرة. إنني عالقة هنا. أحس بقبضة رهاب الأماكن المغلقة تشتد على عنقي فتنقبض حنجرتي.

«لا يا ريتشارد. لم يكن الأمر هكذا. لقد اعتذرت فانيسا مني. قالت إنها ستتركني وشأني». دوار في رأسي. لقد ابتعدت إيمّا كثيراً عن أي شيء كان يمكنني توقعه. ابتعدت إلى حد يجعلني غير قادرة على تخمين نياتها.

«لقد قالت هذا الكلام من قبل...». أستطيع سماع تنفّس ريتشارد الثقيل... «لكنها مصرّة على الاتصال وعلى المجيء إلى مكتبي وعلى كتابة الرسائل. لن تتوقّف أبداً. إنها امرأة مجنونة...».

«لا مشكلة أبداً يا حبيبي. إنني أصدّقها. بدا لي أنها تغيّرت تماماً».

أحس كما لو أن ساقيَّ تذوبان من تحتي. لا فكرة عندي أبداً عن السبب الذي يجعل إيمّا تدّعي هذا الأمر كله.

يطلق ريتشارد زفرة: «كفانا كلاماً عنها. آمل ألّا نضطر إلى ذلك من جديد. هل أجلب لك أي شيء آخر؟».

«لا أتمنى الآن شيئاً غير النوم. لا أريد أن أصيبك بالعدوى. عليك أن تذهب. أحبك».

«سوف آتي لأخذكما أنت ومورين في الساعة الثانية غداً».

«وأنا أحبك أيضاً».

أظلّ في الخزانة إلى أن تأتي إيمّا وتفتح الباب بعد بضع دقائق من ذلك.

تقول لي: «لقد ذهب».

أطوي ساقيَّ ثم أفردهما وأتأوّه ألماً. أود أن أسألها عن تلك الانعطافة غير المتوقّعة مع ريتشارد، لكن وجهها خالٍ من أي تعبير. أدرك أنها تريد أن أذهب الآن.

«ألا يمكنني الانتظار بضع دقائق قبل أن أذهب؟».

أراها تتردّد لحظة، لكنها تومئ برأسها وتقول: «فلنذهب إلى غرفة المعيشة». ألتقط نظرتها المختلسة إليّ، نظرتها غير الواثقة. إنها حذرة.

«ما هي خطوتنا التالية؟».

يتجهّم وجهها. أعرف أن كلمة «خطوتنا» أزعجتها. تهز كتفيها وتقول: «سأفكّر في ذلك».

إيمّا لا تستوعب الأمر. ولا يبدو لي أنها تشعر بأي استعجال لإلغاء الزفاف. إذا كان ريتشارد قادراً على أن يمارس عليها هذا الإغراء كله خلال زيارة قصيرة، فما الذي سيحدث غداً عندما يطعمها لتتذوّق

هكتبة

كعكات زفاف مختلفة ويلف خصرها بذراعه ويهمس لها بالوعود ويقول إنه سيجعلها سعيدة؟

أقول لها: «لقد رأيتِ كيف ركل الجدار...». صوتي يرتفع قليلاً... «ألا ترين حقيقته؟».

المسألة أكبر بكثير من أن تتعامل معها إيمّا وحيدة. حتى لو تركها ريتشارد تذهب ـ أنا مقتنعة بأنه لا يمكن أن يفعل هذا ـ فماذا عن الطرق الكثيرة جداً التي يستطيع إلحاق الأذى بي من خلالها؟ وماذا عن المرأة التي كانت قبلنا، تلك الزوجة السابقة ذات الشعر الداكن التي لم تستطع الاحتفاظ بهدية ريتشارد الثمينة من تيفاني؟ إنني واثقة الآن من أنه آذاها أيضاً.

زوجي السابق مخلوق صاحب عادات ثابتة، رجل يحكمه روتين متكرّر. مهما تكن رائعة قطعة المجوهرات في العلبة الزرقاء اللامعة، فقد كانت اعتذاراً... كانت محاولة منه للتغطية ـ حرفياً ـ على شيء بشع.

لا تعرف إيمّا أنني عازمة على إنقاذ أية امرأة يمكن أن تصير زوجة ريتشارد.

«عليك إنهاء الأمر سريعاً. كلما استمر الأمر وطال، كلما صار أكثر سوءاً».

«قلت لك إنني سأفكر بالأمر».

تسير إلى الباب وتفتحه. لا أريد الخروج، لكني أسير فأتجاوزها.

تقول لي: «مع السلامة». لديّ إحساس غريزي بأنها لا تريد رؤيتي بعد الآن.

لكنها مخطئة في هذا!

مخطئة لأنني صرت الآن مدركة أنني في حاجة إلى خطة أضعها

وأنفذها بنفسي. زُرعت بذرة الفكرة في رأسي عندما كنت أنظر إلى انفجار غضب ريتشارد عند ذكر اسمي، عند سماعه بالقصة المتخيلة عن أنني اتصلت بها. تتخذ الخطة شكلها في ذهني وأنا سائرة في الممر ذي السجادة الزرقاء، وأنا أسلك المسار الذي سلكه ريتشارد قبل دقائق فقط.

تظن إيمّا بأن مورين ستأتي إليها يوم غد لرؤية الفستان، ثم يذهبون لاختيار كعكة العرس مع ريتشارد.

لا فكرة لديها عمَّ سيحدث حقاً.

مكتبة أحمد

هـ كـ تـ بـ ة

الفصل الثامن والثلاثون

صفحات عقدي الجديد للتأمين على الحياة تخرج متتابعة من الآلة الطابعة.

أكبسها معاً، ثم أضعها في مغلف. لقد حرصت على اختيار بوليصة تأمين تتجاوز تغطيتها احتمال موتي نتيجة أسباب طبيعية لتشمل أيضاً احتمال الموت أو التشوّه نتيجة وقوع حادث أو اعتداء.

أضع المغلف على مكتبي إلى جانب الرسالة التي كتبتها لخالتي شارلوت. إنها أصعب رسالة كتبتها في حياتي. تركت لها فيها معلومات عن حسابي المصرفي الذي صار فيه مال كثير حتى تتمكن من تحريكه. هي أيضاً المستفيد الوحيد المذكور في بوليصة التأمين.

بقيت أمامي ثلاث ساعات.

ألتقط قائمة المهمات التي وضعتها فأشطب تلك المهمة. غرفتي نظيفة، وسريري مرتب. ممتلكاتي كلها موضوعة في خزانة ملابسي.

في وقت سابق من هذا اليوم، شطبت بندين من بنود المهمات على القائمة. لقد اتصلت بوالدَيْ ماغي. وبعد ذلك اتصلت بشقيقها جيسون.

لم يتذكر اسمي أول الأمر. لم يتذكّره إلا بعد لحظات. كنت أسير في الغرفة خلال فترة التوقّف القصيرة التي استلزمتها عملية الربط الذهني تلك؛ وكنت أتساءل إن كان سيقر بمواجهاتنا السابقة.

لكنه شكرني كثيراً على تلك التبرّعات المقدمة إلى مأوى الحيوانات، ثم أخبرني عن حياته منذ أيام الكلية. قال لي إنه تزوج صديقته التي تعرف إليها هناك. قال لي جيسون بصوت كادت العواطف تخنقه: «لقد بقيتْ معي. كنت في غاية الغضب تجاه الجميع، لكن أكثر غضبي كان موجّهاً إلى نفسي لأنني لم أكن هناك حتى أساعد أختي الصغيرة. عندما جرى توقيفي بسبب قيادة السيارة تحت تأثير الكحول وذهبت إلى مركز إعادة التأهيل، حسناً، كانت صديقتي الصخّرةَ التي تمسكتُ بها. لم تكن لتتخلى عني أبداً. وتزوجنا في العام التالي».

قال لي جيسون إن زوجته معلمة في المدرسة المتوسطة. تخرّجت معه في السنة نفسها. كان هذا سبب ذهابه إلى حفل تخرج قسمنا في مدرج بياجيه ووقوفه في الزاوية. لقد كان هناك من أجلها.

لقد جعلني قلقي وإحساسي بالذنب أختلق كذبة كبرى في حياتي. لكن الأمر ما كان متعلّقاً بي أبداً.

لم أستطع منع نفسي من الحزن على المرأة التي تركَتْ ذلك الخوف كله يصوغ قسماً كبيراً من خياراتها في الحياة.

لا أزال خائفة كثيراً، لكن خوفي لم يعد يقيّدني.

لا تزال على قائمة المهات بضعة بنود.

أفتح الكمبيوتر المحمول وأزيل تاريخ تصفّح الإنترنت... أحذف كل دليل على عمليات البحث التي قمت بها. أتأكد مرتين حتى أكون واثقة من أن بحثي عن بطاقات لرحلات بالطائرة وعن فنادق صغيرة غير معروفة ما عاد مرئياً لأي شخص يمكن أن يحاول الدخول إلى كمبيوتري.

لا تفهم إيما ريتشارد مثلما أفهمه. وهي غير قادرة على إدراك ما هو قادر عليه في حقيقة الأمر. من المستحيل تخيل ما يمكن أن يصير عليه في أسوأ لحظاته.

سوف يتابع ريتشارد هذا المسار ما لم أوقفه. لكنه سيصير أكثر انتباهاً وحذراً. سوف يجد طريقة لإدارة المنظار وإزاحة الواقع الحقيقي الحالي وتشكيل صورة برّاقة تلهي الناظر عن حقيقته.

أخلع ملابسي وأضعها على السرير، ثم أستحم بماء حار وأمضي في الحمام زمناً طويلاً محاولة إرخاء التوتر في عضلاتي. ألفّ جسدي بثوب الحمام وأمسح الضباب عن المرآة فوق المغسلة.

بقيت ساعتان ونصف الساعة.

أبدأ بشعري. أمشط خصلاته الرطبة إلى الخلف، ثم أربطها في عقدة محكمة. أضع الكحل وأحمر الشفاه بكل عناية وأختار القرطين الماسيين اللذين جاءاني من ريتشارد في ذكرى زواجنا السنوية الثانية. أثبت ساعتي الكارتييه ذات الحزام العريض على معصمي. من الضروري جدّاً أن أكون منتبهة إلى كل ثانية.

أختار الثوب الذي لبسته عندما ذهبت مع ريتشارد إلى برمودا. فستان ضيق كلاسيكي أبيض بلون الثلج. يكاد يكون ممكناً استخدامه فستان عروس في حفل زفاف بسيط على شاطئ البحر. كان هذا واحداً من الفساتين التي أعادها إليّ قبل بضعة أسابيع.

أختاره الآن لا من أجل تاريخه فحسب، ولا من أجل احتمالاته، بل أيضاً لأن له جيوباً.

بقيت ساعتان.

أضع حذائي، ثم أجمع المواد التي تلزمني.

أمزّق قائمة المهمات إلى قطع صغيرة، ثم ألقيها في المرحاض

وأجعل الماء المتدفق يجرفها. أنظر إليها تغيب وتختفي وأرى لون الحبر في الماء.

لا يزال أمامي شيء واحد قبل ذهابي. إنه أصعب بند على جدول المهمات. سوف يتطلب مني كل ما أملكه من قوة وكل ما لديَّ من موهبة وكل ما راكمته من قدرة على التمثيل.

أجد خالتي شارلوت في غرفة النوم الإضافية التي صارت مرسَماً لها. باب الغرفة مفتوح.

اللوحات مصفوفة ثلاثاً ثلاثاً عند الجدران في الغرفة كلّها. وعلى الأرض الخشب بقع من ألوان بهيجة. أستسلم لحظة أمام هذا الجمال: سماوات زرق، ونجوم ملونة متلألئة، وأفق في تلك اللحظة الأثيرية قبيل الفجر. نشوة جمال الأزهار البرية. حبة قمح جافة على طاولة قديمة. برج باريسي فوق نهر السين. انحناءةُ وجْنة امرأة، وجلدها الأبيض الحليبي الذي رسم العمر تجاعيده فيه. أعرف هذا الوجه معرفة جيدة... إنه صورة خالتي التي رسمَتها لنفسها.

خالتي شارلوت مأخوذة بالمنظر الذي تبدعه على القماش. ضربات فرشاتها أقل دقة مما كانت في الماضي. وأسلوبها أقل انضباطاً.

أريد أن تظل هكذا في ذاكرتي.

تمر بضع لحظات قبل أن ترفع رأسها وتطرف بعينيها: «أوه، لم أرك هنا يا حبيبتي».

أجيبها برقة: «لا أريد إزعاجك. إنني خارجة قليلاً، لكني تركت لك طعام الغداء في المطبخ».

«تبدين جميلة. إلى أين تذهبين؟».

«إنها مقابلة عمل. لا أريد أن أجلب النحس لنفسي. لكنني سأخبرك عنها الليلة بعد عودتي».

تقع عيناي على لوحة في آخر الغرفة: حبل غسيل معلق أمام بناية فوق قناة في مدينة البندقية. قمصان وبنطلونات وتنورات ترفرف في النسيم الذي أكاد أحسّه.

«لكن عليك أن تعديني بشيء قبل أن أذهب».

تقول خالتي شارلوت عابثة: «أراك تتخذين قرارات اليوم!».

«هذا جدي. الأمر مهم. هل تذهبين إلى إيطاليا قبل نهاية هذا الصيف؟».

تخبو الابتسامة على شفتي خالتي شارلوت: «هل هنالك شيء سيئ؟»

أتمنّى من كل قلبي أن أجتاز الغرفة وأحتضنها، لكني أخاف أن أصير عاجزة عن الذهاب إن فعلت هذا.

لقد كتبت لها ذلك كله في رسالتي:

هل تذكرين ذلك اليوم عندما علّمتني أن ضوء الشمس يحتوي على ألوان قوس قزح كلها. أنت كنت ضياء شمسي. أنت من علّمني كيف أعثر على أقواس قزح... أرجوك، اذهبي إلى إيطاليا، من أجلنا. سوف تحمليني معك دائماً.

أهز رأسي: «ما من شيء سيئ. كنت أعتزم أخذك إلى إيطاليا وأن تكون تلك مفاجأة لك. لكني أخشى ألّا نتمكن من الذهاب معاً إذا حصلت على هذه الوظيفة، هذا كل ما في الأمر».

«لا حاجة للتفكير في الأمر الآن. ركّزي على مقابلتك. متى موعدها؟».

أنظر إلى ساعتي: «بعد تسعين دقيقة».

«أتمنى لك حظاً طيباً».

أقذف لها قبلة في الهواء، ثم أتخيّل القبلة تحط على خدها الناعم.

الفصل التاسع والثلاثون

للمرة الثانية في حياتي، أجد نفسي واقفة في فستان أبيض عند بداية سجادة زرقاء طويلة أنتظر ظهور ريتشارد.

ينغلق باب المصعد من خلفه. لكن ريتشارد يظل ساكناً من غير أية حركة.

أشعر بثقل تحديقه رغم أن امتداد الممر كله لا يزال يفصل بيننا. إنني أتعمد إذكاء غضبه منذ أيام عدة، أتعمّد نبشه واستدراجه من حيث يكافح دائماً حتى يخفيه ويبقيه مدفوناً. هذا عكس ما علّمت نفسي فعله خلال فترة زواجي.

«هل فوجئت يا حبيبتي؟ هذا أنا يا نيللي».

بلغت الساعة تمام الثانية بعد الظهر. لا تبعد إيمّا عن مكان وقوفي الآن أكثر من عشرة أمتار. إنها في غرفة معيشتها مع مورين. لا تعرف أي منهما أنني هنا. لأنني تسلّلت قبل ساعة إلى البناية عندما تبعت موظفاً لتوصيل الطلبات عبر الباب الرئيسي. كنت أعرف بدقة متى يصل ذلك الرجل بملابس العمل حاملاً علبة مستطيلة طويلة. كنت أعرف هذا لأنني أنا من طلب إرسال هذه الورود البيض إلى شقة إيمّا في تلك الساعة من هذا اليوم.

يقول لي ريتشارد: «ظننتك سافرتِ وتركتِ المدينة».

«لقد غيرت رأيي. أردت أن أتحدّث مرة أخرى مع خطيبتك».

تلمس يداي أشياء مختلفة في جيبي. رد فعل ريتشارد ستحدّد الشيء الذي أخرجه أولاً. يتقدم ريتشارد خطوة على السجادة المستطيلة. يكاد يكون مستحيلاً أن أمنع نفسي من الانكماش والتراجع. تبدو بدلته السوداء وقميصه الأسود وربطة عنقه الذهبية الحرير في غاية الترتيب والأناقة على الرغم من حر الصيف. لم يفقد أعصابه تماماً بعد، ليس مثلما أريده أن يكون.

«حقّاً؟ وما الذي تريدين قوله لها؟». صوته هادئ منخفض على نحو خطير.

«سوف أبدأ بهذه...». أسحب ورقة من جيبي... «إنها فاتورة بطاقة فيزا التي تثبت أنك لم تطلب ذلك النبيذ». لا يزال بعيداً عني إلى حد يمنعه من رؤية الكتابة المطبوعة على الورقة بحروف صغيرة ومعرفة أن بيان مدفوعات فيزا الذي أحمله بيدي يخصّ بطاقتي، لا بطاقته.

يجب أن أتابع قبل أن يطلب مني رؤية هذا الدليل. أبتسم له على الرغم من تقلّص معدتي: «وسوف أشرح لإيمّا أيضاً أنك تلاحق حركتها عن طريق هاتفها...». أحاول إبقاء صوتي منخفضاً ثابتاً مثل صوته... «تماماً كما كنت تفعل معي».

أكاد أستطيع الإحساس بانقباض جسده كله: «لقد تجاوزتِ حدّكِ يا فانيسا...» يتقدم في اتجاهي خطوة محسوبة أخرى... «إنك تعبثين مع خطيبتي. بعد كل ما عانيته معك، أنت تحاولين الآن تخريب علاقتي بها!»

أحاول بطرف عينيّ تقدير المسافة التي تفصلني عن باب شقة إيمّا. يتوتّر جسدي استعداداً.

«لقد كذبتَ بخصوص ديوك. أعرف ما فعلته به، وسوف أخبر إيمّا بهذا...». ما أقوله ليس صحيحاً لأنني لم أتوصل أبداً إلى اكتشاف ما جرى لكلبي العزيز رغم كوني لا أظن في حقيقة الأمر أن ريتشارد قد أوقع به أذى حقيقياً... لكن محاولتي تصيب هدفها. أرى وجه ريتشارد يتقلّص حنقاً.

«ثم إنك كذبت بخصوص تحليل النطاف أيضاً...». فمي الجاف يجعلني أجد صعوبة في تشكيل الكلمات. أتراجع خطوة في اتجاه باب إيمّا... «أشكر الرب على أنك لم تستطع جعلي أحمل بطفل. أنت لا تستحق أن يكون لك طفل. لقد التقطتُ صوراً بعد أن آذيتني. ولقد جمعتُ الأدلة. لم تكن تظنني ذكية إلى هذا الحد، أليس كذلك؟».

إنني أختار تلك الكلمات بدقّة... كلمات أعرف أنها تثير جنون زوجي السابق.

كلماتي تفعل فعلها.

«سوف تتركك إيمّا عندما أقول لها كل شيء...». ما عدت قادرة على منع ارتعاش صوتي. لكن الحقيقة في ما أقوله أمر لا يمكن إنكاره... «تماماً مثلما تركتكَ المرأة التي كانت قبلي...». أتنشق نفساً عميقاً قبل أن أنطق جملتي الأخيرة... «لقد أردت تركك أيضاً. لم أكن أبداً زوجتك الحلوة نيللي. لم أكن أريد أن أظل متزوّجة منك يا ريتشارد».

ينفجر غضبه... هذا ما توقّعته.

لكني أخطأت حساب سرعة فقدانه ضبط نفسه، وسرعة حركته بعد ذلك.

ينقض عليَّ قبل أن أفلح في اجتياز الخطوات القليلة التي تفصلني عن باب إيمّا.

تطبق كفا ريتشارد على عنقي وتمنعا وصول الأوكسجين إلى رئتَيّ.

ظننت أنه سيتاح لي وقت للصراخ. ظننت أنني سأدق الباب حتى تخرج إيمّا وморين وتكونا شاهدتين على تحوّل ريتشارد. لن يتمكّن ريتشارد أبداً من تفسير عنفه على نحو يقنعهما. وسيكون ذلك دليلاً ماديّاً لا يمكن العثور عليه في دفتر ملاحظات ولا في درج مصنفات ولا في غرفة تخزين. كانت شهادتهما بوليصة التأمين الثانية التي تلزمني حتى أنقذ الجميع... حتى أنقذ نفسي، وحتى أنقذ إيمّا، وحتى أنقذ غيرنا من النساء في مستقبل ريتشارد.

كنت أيضاً معتمدة على أن ريتشارد سيوقف هجومه عندما تظهر إيمّا ومورين. أو أنهما ستكونان قادرتين، على إيقافه ومنعه من إيذائي على الأقل. أما الآن، فما من سبب يرغمه على حرمان نفسه من حاجته إلى إنهاء أمري.

أحسست كأن حنجرتي تنسحق على عظام رقبتي. ألم مبرح. تتهاوى ركبتاي.

تمتد يدي اليسرى يائسة في اتجاه باب إيمّا رغم معرفتي بعقم هذه المحاولة. إنها الآن تدور حول نفسها مرتدية فستان عرسها أمام من ستصير قريبتها. ليس لديها أي فكرة عمَّ يحدث على الجانب الآخر من غرفة المعيشة من شقتها.

هجوم ريتشارد صامت تقريباً. تنبعث حشرجة من حنجرتي، لكن صوتها ليس مرتفعاً إلى حد يجعله يبلغ أي شخص يمكن أن يكون الآن في بيته في هذا الطابق.

يثبّتني على الجدار. أشعر بأنفاسه الحارّة على خدّي. وعندما يقترب أكثر، أرى الندبة فوق عينه، ذلك الهلال الفضي الصغير. يكتنفني الدوار، يقتلعني.

تبحث يدي عن عبوة رذاذ الفلفل في جيبي. أجدها فأخرجها، لكن

ريتشارد يصدم رأسي بالجدار في تلك اللحظة فترتخي قبضتي على العبوة. أسمعها تسقط على السجادة.

تظلم عيناي؛ وأرى حدوداً سوداً تحيط بمجال رؤيتي. أركل قصبتَيْ ساقيه ركلات متكررة محمومة، لكن ضرباتي لا تأثير لها عليه.

رئتاي تحترقان. أريد هواء!

تحدّق عيناه في عيني. تتشبّث يداي بملابسه، ثم أحس شيئاً صلباً في جيب سترته. أمسك به. أخرجه.

علي إنقاذ نفسي، وإنقاذها.

أستجمع آخر ما بقي لدي من قوة وأضربه بذلك الجسم الصلب على وجهه. يطلق ريتشارد صرخة.

تنبثق رشقة دم حمراء قانية من الجرح عند صدغه.

أحس بأطرافي ثقيلة، ويبدأ ارتخاء جسدي. تغمرني سكينة لم أحسها منذ سنين ـ بل لعلي لم أحسها في حياتي أبداً. تستسلم ركبتاي.

يختفي الضغط على رقبتي عندما أبدأ بالسقوط في الظلمة. أتهاوى إلى الأرض وأتنفس، أستنشق أنفاساً متقطعة. أسعل سعالاً شديداً، ثم أتقيأ.

«فانيسا!...». صوت امرأة يناديني من مكان أحسّه بعيد جداً.

أنا مستلقية على السجادة. إحدى ساقيَّ مطوية تحتي، لكنني أحس كما لو أنني أطفو على صفحة ماء.

«فانيسا!».

إنها إيمّا. لا أستطيع الإتيان بأيّ حركة غير أن أدير رأسي إلى أحد الجانبين فأرى على الأرض قطع بورسلان متكسرة. أرى قطعاً من تمثال من الخزف الصيني ـ عروس شقراء مبتسمة ابتسامة حلوة، وعريسها الوسيم. إنه التمثال الذي كان موضوعاً على كعكة زفافنا.

أراه إلى جانب تلك القطع جاثياً على ركبتيه. وجهه خال من كل تعبير؛ وجدول من دم يسيل على وجهه ويلطخ قميصه الأبيض.

أتنشق نفَساً مؤلماً، ثم أتنشق نفَساً آخر. ما عاد في زوجي السابق أي شيء موح بالخطر. شعره منسدل على عينيه. إنه ساكن تماماً.

يسعفني الأوكسجين فيستعيد جسدي بعضاً من قواه، لكن حنجرتي متورمة تؤلمني. لا أستطيع بلع ريقي. أفلح أخيراً في شد نفسي إلى الخلف وأجلس مستندة على جدار الممر.

تسرع إيمّا إليّ. إنها حافية القدمين... وهي في فستان طويل أبيض، مثلي. فستان زفافها. «سمعت أحداً يصرخ ـ خرجت لأرى، لكن، عند ذلك. ماذا جرى؟».

لا أستطيع الكلام، لا أستطيع شيئاً غير ابتلاع أنفاس ضحلة متعجلة.

أرى عينيها تنظران إلى رقبتي وأسمعها تقول: «سوف أطلب الإسعاف».

لا يستجيب ريتشارد إلى أي شيء مما يحدث حوله، ولا إلى الشهقة التي أطلقتها مورين عندما ظهرت فجأة في باب الشقة.

«ماذا يحدث؟». تنظر مورين إليّ... تنظر إلى المرأة التي صرَفَتْها عنها باعتبارها شخصاً غير مستقر، باعتبارها زوجة أخيها التي تخلّى عنها. ثم أراها تنظر إلى ريتشارد، إلى الرجل الذي ساعدَته في بناء نفسه وأحبته حباً غير مشروط. تذهب إليه. تمد يدها وتلمس ظهره. أسمعها تقول: «ريتشارد؟».

يرفع يده إلى جبهته، ثم ينظر إلى بقعة الدم الحمراء على كفه. يبدو بعيداً على نحو غريب... كما لو أنه في حالة صدمة.

أكره رؤية الدم!... كان ذلك من أول الأشياء التي قالها لي ريتشارد.

أدرك فجأة أن ريتشارد لم يسبب لي أي نزف في أيّ حالة من حالات عنفه الجسدي تجاهي.

تجري مورين فتدخل الشقة ثم تعود حاملة مجموعة مناديل ورقية. تركع إلى جانبه وتضغط بالمناديل على جرحه. «ما الذي يجري؟... «. تغدو كلماتها أكثر حدة... «فانيسا، لماذا أنت هنا؟ ماذا فعلتِ به؟».

«لقد آذاني»... صوتي خشن. أشعر وكأن كل كلمة أقولها مثل كسرة بورسلان تجرح باطن حنجرتي.

لا بد لي من قول هذه الكلمات.

يجعلني الألم أكشّر وأنا أرغم صوتي على أن يكون أكثر ارتفاعاً: «لقد خنقني. كاد يقتلني. تماماً مثلما كان يؤذيني عندما كنا متزوجين».

تطلق مورين زفرة، ثم تقول: «إنه لا يمكن... أن... لا، ليس...».

لكنها تصمت بعد ذلك. لا تزال تهز رأسها. لكن كتفيها يتهدلان ووجهها ينطفئ. وأنا واثقة كل الثقة من أنها تصدقني الآن رغم أنها لم ترَ بعد آثار أصابعه التي أعرف أنها تزداد حمرة على رقبتي.

تنهض مورين واقفة. تبعد المناديل الورقية عن وجه ريتشارد وتفحص وجهه. عندما تتكلّم بعد ذلك، تأتي نبرة صوتها جازمة، لكنها حانية أيضاً: «ليس جرحاً كبيراً. لا أظنه في حاجة إلى غرزات».

لكن ريتشارد لا يبدي أيّ استجابة لكلامها.

«سوف أهتم بكل شيء يا ريتشارد». تلملم مورين قطع البورسلان المتناثرة تضعها كلها في راحة يدها ثم تحتضن أخيها بذراعيها وتميل

برأسها على رأسه. لا أكاد أستطيع تمييز كلماتها الهامسة: «لقد اعتنيت بك دائماً يا ريتشارد. لم أسمح أبداً بأن يصيبك أي مكروه. لا تقلق. إنني هنا. سوف أصلح كل شيء».

كلماتها تحيّرني. العاطفة الغريبة الكامنة وراءها تحيّرني كثيراً. لا تبدو مورين غاضبة ولا حزينة ولا منزعجة.

صوتها مشحون بشيء لا أستطيع تحديده أول الأمر... لا أستطيع تحديده لأنه شديد الغرابة في هذا الموقف.

لكني أدرك الأمر في النهاية. إنها راضية!

هكتبة

الفصل الأربعون

أقف قبالة مبنى يشبه بيت عزبة ريفية جنوبية بأعمدته الكبيرة وشرفته المسقوفة المحيطة به من كل الجهات مع صف منتظم من الكراسي الهزازة. لكن الدخول إلى هذا المكان غير ممكن من غير المرور على البوابة التي يقف عليها حارس أمن. أظهر له بطاقة التعريف الشخصية التي تحمل صورتي. يفتش الحارس الحقيبة القماش التي في يدي. يرفع حاجبيه عندما يرى ما في داخلها، لكنه يكتفي بأن يومئ برأسه مشيراً لي بأن أتابع سيري.

أرى بضعة مرضى في مستشفى نيو سبرينغز. إنهم يعتنون بالمزروعات أو يلعبون بالورق على الشرفة. لكنني لا أراه بينهم. يمضي ريتشارد ثمانية وعشرين يوماً في هذا المركز الصحي المخصص للأمراض العقلية الحادة حيث يخضع لجلسات معالجة يومية مكثفة. هذا جزء من الصفقة التي وافق عليها حتى يتفادى تقديمه إلى المحاكمة بتهمة الاعتداء عليّ.

أصعد درجات سلم الخشب العريض أمام المدخل فأرى امرأة تنهض من أحد كراسي الشيزلونغ. أطرافها حسنة التكوين ذات مظهر رياضي. أشعة شمس بعد الظهر المتألقة في مواجهتي، فلا أعرف تلك المرأة على الفور.

هكتبة

ثم أراها تقترب مني، فأعرف أنها مورين. «لم أعرف أنك ستكونين هنا اليوم». لا معنى لدهشتي هذه، لأن ريتشارد لم يبق له أحد غير مورين.

«إنني هنا كل يوم. لقد أخذت إجازة من عملي».

أنظر من حولي: «أين هو؟».

لقد أبلغني أحد معالجي ريتشارد هذه الرسالة: إنه يريد رؤيتي. لم أكن واثقة أول الأمر من أنني سأستجيب لهذا الطلب، ثم أدركت أنني في حاجة إلى هذه الزيارة أيضاً.

«ريتشارد يستريح الآن. أردت أن أتحدّث معك أولاً». تشير مورين إلى زوج من الكراسي الهزازة وتقول: «هل نجلس؟».

تنقضي برهة ريثما تضع مورين ساقاً فوق ساق وتمسّد ثنية في بنطلونها الكتاني. من الواضح أن لديها شيئاً ما. أنتظر إفصاحها عما تريد قوله.

«يؤسفني كثيراً ما جرى بينك وبين ريتشارد». أرى مورين تلقي نظرة سريعة على البقع التي صارت مصفرّة وباهتة على رقبتي. لكنْ هنالك انفصال غريب بين كلماتها وتلك الطاقة التي تنقلها بها. جسدها في وضعية متصلبة، وصوتها خالٍ من أي تعاطف.

إنها ليست مبالية بي. لم تكن مبالية بي في يوم من الأيام حتى خلال تلك الفترة المبكرة التي كنت آمل فيها أن نصير صديقتين.

«أعرف أنك تلومين ريتشارد. لكن الأمر ليس بتلك البساطة يا فانيسا. لقد عانى أخي كثيراً... أكثر مما تعرفين. بل حتى أكثر مما قد تتخيّلين».

لم أستطع منع نفسي من إظهار دهشتي أمام هذه الكلمات. إنها تصوّر ريتشارد ضحية.

«لقد هاجمني. وكاد يقتلني».

لا يبدو على مورين أي تأثر بصياحي لأنها تكتفي بالنحنحة قليلاً ثم تبدأ القول من جديد: «عندما توفي أبونا وأمنا...».

«في حادث سيارة».

تعبس قليلاً كما لو أن ما قلته أزعجها... كما لو أنها قد خططت لأن يكون الكلام من جانب واحد لا حديثاً متبادلاً بيننا.

«صحيح. فقد أبي سيطرته على السيارة فاصطدمت بالحاجز على حافة الطريق، ثم انقلبت. مات والدانا على الفور. ريتشارد لا يتذكّر الكثير. لكن الشرطة قالت إن آثار العجلات على الأرض تبين أن سرعة السيارة كانت كبيرة».

أنتفض وأقول لها: «ريتشارد لا يتذكّر، هل تعنين أنه كان في السيارة؟».

تقول مورين بنفاد صبر: «نعم، نعم. هذا ما أحاول أن أقوله لك».

إنني في غاية الدهشة. لقد حجب عني أجزاء من نفسه أكثر مما كنت أعرفه.

«كان الأمر فظيعاً بالنسبة إليه». تخرج الكلمات من فم مورين مندفعة كما لو أنها تريد المضي سريعاً عبر هذه التفاصيل قبل أن تصل إلى الجزء المهم من هذه القصة... «ظل ريتشارد عالقاً داخل السيارة، على المقعد الخلفي. أصيب في جبهته. تشوه هيكل السيارة إلى حد جعله غير قادر على الخروج منها. ثم مر زمن قبل أن يمر سائق آخر ويتصل بالمسعفين. أصيب ريتشارد بارتجاج دماغي وكان في حاجة إلى غرزات من أجل جرحه؛ لكن الأمر كان من الممكن أن ينتهي على نحو أكثر سوءاً بكثير».

أفكر في الندبة الفضية التي فوق عينه. تلك الندبة التي قال إنها كانت نتيجة سقوطه عن الدراجة.

أتخيّل ريتشارد مراهقاً ـ بل صبي في واقع الأمر ـ أتخيله متألماً شبه

فاقدٍ للوعي بعد الاصطدام. أتخيله ينادي أمه لكنه يفشل في إيقاظ أي من والدَيْه. أتخيله يحاول فتح أبواب السيارة المنقلبة على ظهرها. أتخيله يضرب زجاج النوافذ بقبضتي يديه ويصرخ. والدم... لا بد أن الدم من حوله كان كثيراً.

«كان أبي صعب المزاج. وكان يقود السيارة مسرعاً كلما غضب. أظنه كان في مجادلة مع أمي قبل الحادث...». الآن صار تدفق كلمات مورين أبطأ من ذي قبل. تهز رأسها... «أشكر الرب على أنني كنت أوصي ريتشارد بأن يضع حزام الأمان. كان يصغي إلى ما أقوله له».

أستجيب أخيراً وأقول: «لم تكن لديَّ أيّ فكرة».

تلتفت مورين وتنظر إليّ فأحس كما لو أنني أيقظتها من حلم... «صحيح. لم يكن ريتشارد يتحدّث عن ذلك الحادث مع أي شخص أبداً، إلا أنا. ما أريد منك معرفته هو أن أبي لم يكن يفقد أعصابه خلال قيادة السيارة فقط... بل كان يضرب أمي».

أشهق بحدة.

لم يكن أبي طيباً مع أمي على الدوام... هذا ما قاله لي ريتشارد بعد جنازة أمي عندما جلست مرتجفة في حوض الحمام.

يعود تفكيري إلى صورة والدَيْ ريتشارد التي أخفاها في غرفة التخزين. أتساءل إن كان في حاجة إلى أن يدفن تلك الصورة، بالمعنى الحرفي، حتى يبعد عنه ذكريات طفولته... حتى تصير تلك الذكريات أكثر إذعاناً للقصة التي يفضّل أن يرويها.

يسقط ظل فوقي. أدير رأسي بحركة غريزية. تقول لنا ممرضة ترتدي ثوباً أزرق وهي تبتسم: «آسفة للمقاطعة. طلبتِ مني إخبارك عندما يستيقظ شقيقك».

تومئ مورين برأسها: «هل يمكنك يا آنجي إخباره بأن ينزل إلينا...».

ثم تلتفت مورين إليّ... «أظن من الأفضل أن تتحدثا هنا بدلاً من الذهاب إلى غرفته».

تنظر كلتانا إلى الممرضة المبتعدة عنا. وعندما تصبح خارج مرمى السمع، يصير صوت مورين فولاذياً وتصير كلماتها مقتَضَبة: «اسمعي يا فانيسا. ريتشارد ضعيف في هذه اللحظة. هل يمكننا الاتفاق على أن تتركيه وشأنه؟».

«هو من طلب مني القدوم».

«لا يعرف ريتشارد الآن ما يريده. كان يظن قبل أسبوعين أنه يريد الزواج من إيمّا. وكان مقتنعاً بأنها كاملة...». تصدر مورين صوتاً يشبه ضحكة ساخرة... «هذا رغم أنه لا يعرف عنها شيئاً. هكذا كان يراك في ما مضى، أنت أيضاً. إنه دائم الرغبة في أن تبدو حياته على شكل محدّد... مثل العريس والعروس المثاليين في تمثال كعكة الزفاف الذي اشتراه لوالدينا منذ سنين طويلة».

أتذكّر التاريخ الذي كان مكتوباً أسفل التمثال فأقول لها: «هل اشترى ريتشارد ذلك التمثال لوالدَيْكما؟»

«أرى أنه لم يخبرك عن هذا الأمر أيضاً. اشترى هذا التمثال هدية لهما في ذكرى زواجهما. كانت لديه خطة كاملة تقضي بأن نعد لهما عشاء خاصاً ونصنع لهما كعكة. كان يريد أن يمضيا ليلة رائعة وأن يحب كل منهما الآخر من جديد. لكن، وقع ذلك الحادث؛ ولم يتمكّن من تقديم التمثال إليهما».

«لقد كان تمثال كعكة الزفاف فارغاً من الداخل. هذا ما ظننته عندما رأيته ذلك اليوم محطماً في الممر. أظنه أتى به حتى يراه مصمم كعكة الزفاف. لكن الحقيقة أن ريتشارد لا يناسبه الزواج من أية امرأة. وقد صارت مهمتي الآن أن أحرص على عدم حدوث ذلك».

ابتسمت مورين... كانت ابتسامتها كبيرة حقيقية صادقة فاجأتني تماماً.

لكنها لم تكن تبتسم لي. كانت تلك الابتسامة لأخيها الذي ظهر قادماً إلينا.

نهضت مورين واقفة: «سوف أترككما وحدكما بضع دقائق».

أنا جالسة إلى جانب الرجل الذي كان سرّاً غامضاً بالنسبة إلي... الذي ما عاد سراً غامضاً بالنسبة إلي.

كان في بنطلون جينز وبلوزة قطن بسيطة. وكانت شعرات ذقنه نابتة قليلاً. ورغم حقيقة أنه ينام الآن كثيراً، فقد بدا لي متعَباً وبدا لون جلده شاحباً. ما عاد ريتشارد ذلك الرجل الذي سحرني ثم صار يخيفني!

يبدو لي الآن شخصاً عادياً، شخصاً فقد قوته... من أولئك الرجال الذين لا أنظر إلى الواحد منهم مرتين وهو واقف في انتظار الباص أو وهو يشتري فنجان قهوة من كشك في الشارع.

أبقاني زوجي في حالة قلق واضطراب على امتداد سنوات كثيرة. كان يحاول أن يمحوني.

وكان زوجي أيضاً هو من طوّق خصري بذراعه على تلك الزلاجة الخضراء عندما انزلقنا مسرعين على صفحة التل في سنترال بارك. هو من كان يأتيني بالآيس كريم بنكهة الزبيب والروم في الذكرى السنوية لوفاة أبي ويترك لي رسائل حب على وسادتي من غير أي مناسبة على الإطلاق.

كان يأمل أن أستطيع إنقاذه من نفسه.

عندما تكلّم ريتشارد آخر الأمر، قال لي ما كنت راغبة في سماعه منذ زمن بعيد: «إنني آسف يا فانيسا».

لقد اعتذر لي قبل الآن، لكني أعرف هذه المرة أن كلماته مختلفة.

إنها كلمات حقيقية، على الأقل!

«أما من طريقة، أي طريقة، لجعلك تمنحيني فرصة أخرى؟ إنني أتحسّن. يمكننا أن نبدأ من جديد».

أنظر إلى الحدائق وإلى المرج الأخضر المنبسط. لقد تخيّلت في ما مضى منظراً يشبه هذا عندما أخذني لرؤية بيتنا في ويستشستر: تخيلت أننا جالسان جنباً إلى جنب على أرجوحة في الشرفة، لكن بعد عقود من زواجنا. تخيلت كيف سترتبط بيننا ذكريات بنيناها معاً وراح كل واحد منا يضيف إليها، مع كل حديث جديد عنها، التفاصيل الأقرب إلى نفسه... إلى أن نخلق معاً ذكريات مشتركة.

توقّعت أن أغضب عندما أراه، لكن لا أحس الآن شيئاً سوى الشفقة.

في نوع من الإجابة على سؤال ريتشارد، ناولته كيس القماش الذي في يدي. أخرج أول شيء من الكيس: علبة مجوهرات سوداء. في تلك العلبة خاتمان: خاتم خطوبتي وخاتم زواجي. يفتح العلبة. قلت:

«أريد إعادة هذه الأشياء إليك».

مرَّ عليَّ زمن طويل وأنا مربوطة إلى الماضي. حان وقت إعادة أشيائه إليه ومتابعة الحياة.

«نستطيع تبني طفل. وسوف ننجح هذه المرّة».

يمسح عينيه. لم أره يبكي قبل اليوم.

تصير مورين واقفة بيننا في لحظة واحدة. تأخذ الكيس والخاتمَين

من ريتشارد: «فانيسا. أظن أنه يجب أن تذهبي الآن. سوف أرافقكِ إلى الخارج».

أنهض واقفة... لا لأنها قالت لي ذلك، بل لأنني مستعدة للذهاب: «وداعاً يا ريتشارد».

* * *

ترافقني مورين فننزل الدرجات متجهتين إلى ساحة وقوف السيارات. أسير خلفها بخطى بطيئة.

أقول مشيرة إلى كيس القماش: «يمكنك أن تتصرفي كما تشائين بألبوم صور الزفاف. لقد كان هدية مني لريتشارد، وبالتالي فهو من حقّه».

«أتذكّر هذا. لقد أدى تيري عمله جيداً. كان حظنا حسناً لأنه تمكن من الاستجابة لطلبك في ذلك اليوم على الرغم من ارتباطاته».

أتسمّر واقفة في مكاني. لم أخبر أحداً كيف اقتربنا كثيراً من احتمال ألّا يكون لدينا مصور في حفل زفافنا.

ثم إن قرابة عشر سنين مضت منذ ذلك الزفاف. حتى أنا ما كنت قادرة على تذكر اسم تيري بهذه السرعة.

عندما التفتت مورين إليّ ونظرت في عينيها تذكرت أن امرأة كانت قد اتصلت بالمصور وألغت حجزنا. كانت مورين قادرة على الوصول إلى المصور؛ وأتذكر الآن أنها اقترحت عليَّ إدخال صور بالأبيض والأسود عندما أرسلت إليها رابط موقع تيري على الإنترنت وطلبت رأيها بالهدية التي أردت تقديمها إلى ريتشارد.

في هذه اللحظة، تبدو نظرة عينيها الزرقاوين الجليديتين شبيهة بنظرة ريتشارد. من المستحيل تخمين ما تفكر فيه.

أتذكر الآن كيف كانت مورين تأتي إلى بيتنا في كل عطلة، وكيف

كانت تمضي أعياد ميلادها مع شقيقها منهمكَيْن في نشاطات كانت تعرف أنني لا أجد فيها متعة. أتذكّر أيضاً أنها لم تتزوج ولم تنجب أبداً. لا أتذكر أبداً أنها ذكرت، ولو مرة واحدة، اسم صديق أو صديقة من أصدقائها. تتوقّف عند أول ساحة وقوف السيارات وتلمس ذراعي: «سوف أهتم بأمر الألبوم. مع السلامة».

أحسّ كأن معدناً صقيلاً بارداً يلمس جلدي.

عندما أنظر إلى يدها أرى أنها وضعت خاتميَّ الاثنين في الإصبع الرابع في يدها اليمنى. تنتبه إلى نظرتي فتقول: «حتى لا يضيعا».

الفصل الحادي والأربعون

أقول لكيت وأنا أجلس في مكاني المعتاد على أريكتها: «أشكرك على استقبالي اليوم».

صحيح أنني لم آت إلى هذا المكان منذ شهور كثيرة ـ منذ كنت لا أزال متزوجة ـ لكن الغرفة تبدو لي مثلما كانت تماماً... المجلات الموزعة على شكل مروحة فوق الطاولة الصغيرة، والمصابيح الكروية عند إطار النافذة. وفي حوض ضخم قبالتي تماماً، تسبح اثنتان من أسماك الملاك تدوران حول نبتة خضراء كبيرة الأوراق في حين تجتاز سمكة مهرج مخططة بالبرتقالي والأبيض وسمكة زرقاء لامعة من أسماك الأمازون نفقاً حُفِرَ في حجر كبير.

كيت لم تتغير أيضاً. عيناها كبيرتان متعاطفتان. وشعرها الطويل الداكن مسرّح إلى الخلف، عند كتفيها.

لقد أمسك بي ريتشارد عندما تسللت سراً إلى المدينة أول مرة حتى ألتقي كيت. لم أعد إليها إلا بعد فترة طويلة. وعندما عدت حرصت على إخباره بأنني أعتزم زيارة خالتي شارلوت، ثم تركت هاتفي في شقتها وذهبت مسرعة إلى موعدي مع كيت.

أبدأ الكلام: «إنني الآن مطلّقة».

تبتسم كيت ابتسامة خفيفة. إنها شديدة الحرص دائماً على تفادي السماح لي بمعرفة مشاعرها. لكني تعلّمت قراءتها رغم أننا لم نلتق إلا بضع مرات.

«تركني من أجل امرأة أخرى».

تختفي الابتسامة عن وجه كيت.

أضيف بسرعة: «لكنها لم تعد معه. لقد أصابه نوع من الانهيار... حاول إيقاع الأذى بي، وكان هناك شهود. إنه يتلقى مساعدة الآن».

أنظر إلى كيت وهي تتلقّى هذه المعلومات كلّها.

تقول لي آخر الأمر: «حسناً، هذا يعني أنه... أنه لم يعد يشكّل خطراً عليك».

«هذا صحيح».

تميل كيت برأسها جانباً وتقول لي: «هل تركك من أجل امرأة أخرى؟».

إنه دوري في الابتسام قليلاً هذه المرة: «كانت بديلة ممتازة. هذا ما فكرت فيه عندما رأيتها أول مرة... وهي أيضاً... هي الآن في أمان».

تستند كيت على ظهر مقعدها وتضع ساقاً فوق ساق: «كان ريتشارد دائماً يحب الكمال في كل شيء». وبذهن شارد، راحت أصابع يدها تدلك كاحلها.

لم تطرح كيت عليّ إلا بضعة أسئلة عندما التقيتها أول مرة. لكن تلك الأسئلة ساعدتني في فكفكة الأفكار المتشابكة في ذهني: هل يمكنك إخباري بالسبب الذي تظنين أنه يجعل ريتشارد يحاول إفقادك توازنك؟ ما الدوافع التي قد تكون لديه حتى يفعل هذا؟

هكتبة

عندما أتيت إليها مرة ثانية، تناولت كيت المناديل الورقية ووضعتها على الطاولة الصغيرة التي بيننا رغم أنني لم أكن أبكي. مدّت ذراعها حتى تقرّب العلبة مني فرأيت السوار العريض في معصمها.

تركت ذراعها ثابتة حتى أرى السوار جيداً. لكنها لم تقل كلمة واحدة.

ما كان لي أن يفاجئني هذا السوار المميَّز. فبعد كل حساب، كان جمع المعلومات جزءاً من السبب الذي جعلني أبحث عن زوجة ريتشارد السابقة... المرأة داكنة الشعر التي كانت زوجته من قبلي.

وما كان العثور عليها صعباً لأن كيت لا تزال تعيش في المدينة، ثم إن اسمها موجود في دليل الهاتف. لكني كنت شديدة الحذر ولم أذكرها بالاسم أبداً، ولم أكتب في دفتر مذكراتي أي شيء عن لقاءاتنا. عندما اكتشف ريتشارد أنني ذهبت إلى المدينة خفية، قلت له إنني ذهبت لرؤية معالجة نفسية.

لكن كيت كانت أكثر حذَراً مني.

استمعت إلى ما قلته بكل اهتمام، لكنها لم تبدِ أي رغبة في إطلاعي على ما حدث خلال السنوات التي أمضتها مع ريتشارد.

أظنني اكتشفت سبب ذلك خلال زياراتي الثلاث لها.

في الزيارتين اللتين سبقتا تلك الزيارة، كانت كيت تتنحى عن الباب حتى أدخل شقتها، ثم تشير لي بأن أتقدمها في اتجاه غرفة المعيشة. وعندما كانت تقف معلنة أن حديثنا قد بلغ نهايته، كانت تشير لي بأن أسبقها، ثم تتبعني لتودّعني عند الباب.

أما في زيارتي الثالثة، عندما تساءلت بصوت مرتفع إن كان عليّ ـ بكل بساطة ـ أن أحاول ترك ريتشارد والذهاب للعيش عند خالتي شارلوت، وقفت كيت فجأة واقترحت عليَّ فنجاناً من الشاي.

أومأت برأسي موافقة، لكنني كنت حائرة أيضاً.

مضت كيت في اتجاه المطبخ، أما أنا، فكنت أنظر إليها.

كانت قدمها اليمنى بطيئة الحركة كأنها تتجرجر على الأرض، وكان جسدها يعوّض عن ذلك بالميل إلى الأمام ثم إلى الأعلى حتى يستجمع العزم اللازم لدفعها إلى الأمام. لقد أصاب شيء ساقها... هي الساق التي كانت تدلّك أصابعها في بعض الأوقات خلال حديثنا. إنه شيء حدث لها فأورثها هذا العرج الواضح.

قالت لي بنبرة مرحة عندما عادت حاملة صينية الشاي: «ماذا كنت تقولين؟».

هززت رأسي عندما حاولت إعطائي فنجان الشاي. كنت أعرف أن يديَّ ترتجفان بقوة لا تسمح لي بحمل الفنجان.

نظرت إلى العقد البلاتيني المتقَن في عنقها وإلى سوارها العريض والخاتم بحجر الزمرّد في يدها اليمنى. قطع متميزة ثمينة. كانت قطعاً غير متناسبة مع ملابسها البسيطة.

«كنت أقول... لا يمكنني تركه هكذا...». ابتلعت بقية كلماتي.

اندفعتُ خارجة من شقتها بعد بضع دقائق وقد أصابني ذعر مفاجئ من أن يكون ريتشارد قد حاول الاتصال على هاتفي الذي تركته في بيت خالتي شارلوت. كانت تلك آخر مرة أرى فيها كيت قبل هذا اليوم.

أقول لها الآن: «هنالك محضر شرطة عن الحادثة. وقد تكلفت مورين بمراقبة ريتشارد».

تغمض كيت عينيها لحظة وجيزة، ثم تقول: «هذا جيد».

«إن ساقك...».

عندما تكلمَت كيت كان صوتها بارداً تماماً: «لقد سقطتُ على السلم...». تتردد لحظة ثم تبتعد عيناها فتنظران إلى السمكة اللامعة في حوض الأسماك... «جرت في تلك الليلة مشادة بيني وبين ريتشارد لأنني تأخرت على مناسبة مهمة...». صار صوتها الآن أكثر رقة وانخفاضاً... «ذهب إلى السرير بعد عودتنا إلى البيت... أما أنا فغادرت الشقة. كانت معي حقيبة ملابس...». تبتلع ريقها بصعوبة وتمتد يدها لتدلك ربلة ساقها... «قررت استخدام السلم في النزول بدلاً من المصعد. لم أكن أريد أن يسمع أحد صوت جرس المصعد عند فتح بابه. لكن ريتشارد لم يكن نائماً...».

يتقلّص وجهها لحظة، ثم تستعيد سيطرتها على نفسها: «لم أره بعد ذلك أبداً».

«يؤسفني كثيراً أن أسمع هذا. أنت الآن آمنة أيضاً».

تومئ كيت برأسها.

تقول لي بعد برهة: «كوني بخير يا فانيسا».

تنهض واقفة وتسير معي في اتجاه الباب.

أسمع تكة قفل بابها من خلفي وأنا أسير مبتعدة في الممر. وعندها، ألتفت التفاتة سريعة في اتجاه باب شقتها وقد لمعت في رأسي فكرة مفاجئة وتذكرت مشهداً رأيته منذ زمن بعيد.

المرأة ذات المعطف المطري التي كانت واقفة بالقرب من روضة الأطفال تنظر في اتجاهي وأنا أرتب غرفة الصف. وعندما اقتربتُ من النافذة، استدارت المرأة وسارت مبتعدة بخطوات بدت لي غريبة، غير طبيعية.

لعل خطواتها كانت كذلك نتيجة عرجها!

الفصل الثاني والأربعون

أستيقظ فأحس بضوء الشمس الغريب منسكباً عبر ستائر غرفتي يدفئ جسدي وأنا مستلقية في السرير في الغرفة الإضافية في بيت خالتي شارلوت.

هي غرفتي... أفكر في هذا وأفتح ذراعيَّ وساقيَّ كأنني نجمة بحر فأحتل مساحة السرير كلها. ثم أمد يدي اليسرى وأغلق المنبه قبل أن ينطلق رنينه.

لا يزال النوم يجافيني بعض الليالي عندما يدور كل ما جرى في رأسي وأحاول تجميع الأجزاء التي لا تزال لغزاً في عقلي.

لكن الصباحات ما عادت تخيفني.

أنهض من فراشي وألفّ جسدي بثوبي. أسير إلى الحمام من أجل دوش سريع فأمرّ بطاولة المكتب التي وضعتُ عليها مخطط رحلتنا إلى البندقية وفلورنسا. سأبدأ هذه الرحلة مع خالتي شارلوت بعد عشرة أيام. لا يزال الوقت صيفاً، ولن تحلّ بداية عملي في التعليم في روضة أطفال في جنوب برونكس إلا بعد يوم العمال.

بعد ساعة، أخرج من بنايتنا. أخرج إلى الهواء الدافئ. لست

هكتبة

في عجلة من أمري اليوم. أمشي الهوينا على الرصيف محاذرة تشويه مربعات لعبة «الحجلة» التي رسمها الأطفال بالطباشير. تكون مدينة نيويورك على الدوام أكثر هدوءاً في شهر آب؛ ويبدو إيقاعها أكثر لطفاً. أمرّ بمجموعة سائحين يلتقطون صوراً لمشهد الأفق. وأرى كهلاً جالساً على درجات بيت من الحجر يقرأ جريدة. بائع يملأ عدة دلاء بباقات من أزهار عبّاد الشمس والليلك وأزهار حمر وأرجوانية. أقرر شراء بعض الأزهار في طريق عودتي إلى البيت.

أبلغ المقهى فأفتح الباب، ثم أنظر في الداخل.

تسألني نادلة تمر قريباً مني حاملة عدداً من قوائم الطعام: «طاولة لشخص واحد؟».

أهز رأسي: «شكراً. أبحث عن أحد ما».

أراها في وسط الصالة ترفع إلى شفتيها فنجاناً كبيراً أبيض. يلمع خاتم الزواج في إصبعها عندما ينعكس عليه النور. أتوقف لحظة، وأحدّق فيه.

جزء مني راغب في الجري إليها. وجزء مني راغب في مزيد من الوقت للاستعداد.

ثم ترفع رأسها فتلاقي نظرتها نظرتي.

أسير إليها فتنهض سريعاً. تقترب من غير تردّد وتحضنني.

عندما ينتهي عناقنا ونفترق، تمسح كل منا عينيها. ثم ننفجر ضاحكتين.

أجلس على الكرسي المقابل لها.

«يسرني كثيراً أن أراك من جديد يا سامانثا». أنظر إلى عقد الخرز اللامع الذي تضعه وأبتسم.

«اشتقت إليك يا فانيسا».

أجيبها في ذهني: وأنا اشتقت إليك.

لكني لا أقول هذه الكلمات بل أمد يدي إلى حقيبتي.

أخرج من الحقيبة عقدي الخرز الذي يماثل عقدها.

هكتبة

مكتبة

خاتمة

فانيسا تسير على رصيف في قلب المدينة. شعرها الأشقر منسدل حراً على كتفيها، وذراعاها تتأرجحان إلى جانبيها من غير شيء يقيّدهما. شارعها أكثر هدوءاً مما هو معتاد في آخر أيام الصيف؛ لكن باصاً يمضي وحيداً متثاقلاً في الشارع حيث وقفتُ أترصدها. بضعة مراهقين يلهون عند الزاوية وينظرون إلى واحد منهم يدور على لوح تزلّج ذي عجلات. أراها تمر بهم، ثم تتوقّف لحظة أمام كشك لبيع الأزهار. تتنحّى وتمد يدها إلى باقة غنية من ورود حمر في دلو أبيض. تبتسم للبائع عندما يعيد إليها بقية النقود، ثم تتابع سيرها نحو شقتها.

طيلة الوقت، عيناي لا تحيدان عنها أبداً.

عندما راقبتها في مرات سابقة، كنت أحاول تقدير حالتها النفسية. يقول صن زو في كتابه «فن الحرب: اعرف عدوك». قرأت هذا الكتاب خلال دراستي في الكلية فكان لهذه الجملة صدى عميق في نفسي.

لم تدرك فانيسا في يومٍ من الأيام أنني خطر عليها. لم تكن ترى غير ما أردتِ أن تراه. لقد صدقَتِ الوهم الذي خلقته لها.

تظنني إيمّا سوتون، المرأة البريئة التي وقعت في فخ نصبَتْه لها حتى تتمكّن من الإفلات من زوجها. وإلى اليوم، لم تفارقني الدهشة من إقرار فانيسا بأنها أشرفت على تطور علاقتي بريتشارد. كنت أظن أنني من ينسج الشباك.

من الواضح أننا كنا شريكتين في المؤامرة، عن غير قصد.

ليست لدى فانيسا أيّ فكرة عمن أكون حقاً. لا يعرف هذا أحد أبداً.

يمكنني أن أذهب الآن، ولن تعرف الحقيقة أبداً. يبدو لي أنها قد تعافت تماماً من كل ما حدث. ولعل من الأفضل لها ألّا تعرف شيئاً.

أنظر إلى الصورة التي في يدي. حوافها مهترئة من القدم ومن كثرة المرات التي أخرجها فيها حتى أنظر إليها.

إنها صورة أسرة تبدو عليها السعادة في الظاهر: أب وأم وطفل صغير له غمازتان، وفتاة لم تبلغ المراهقة تضع طوقاً لتقويم الأسنان. إنها صورة قديمة التقطت عندما كنت في الثانية عشرة... عندما كنت أعيش في فلوريدا. كان ذلك قبل بضعة شهور من تحطم أسرتي وانفراطها.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً، وكان من المفترض أن أكون نائمة - تجاوز الوقت ساعة نومي - لكنني كنت لا أزال مستيقظة. سمعت صوت جرس الباب، ثم سمعت صوت أمي تصيح، «سأفتح الباب».

كان أبي في غرفته. لعله كان يصحّح أوراق طلّابه. عادة ما كان يقوم بذلك في الليل.

سمعت همهمة أصوات، ثم سمعت صوت خطوات أبي في الممر ماضية صوب السلم.

قال بصوت مرتفع: «فانيسا!».

بدا لي صوته متوتّراً إلى حد جعلني أخرج من غرفتي. كانت جواربي تكتم صوت خطواتي على سجادة الممر عندما مررت بباب غرفة أخي المغلق ووصلت إلى أعلى السلم، ثم تجمعت على نفسي منتظرة هناك. كنت قادرة على رؤية كل ما يجري تحتي مباشرة. كنت شاهداً مختبئاً في الظلال.

رأيت أمي تطوي ذراعيها على صدرها وتنظر إلى أبي غاضبة. رأيت أبي يشير بيديه وهو يتكلم. رأيت قطتنا المرقطة تتمسح بساقَيْ أمي كأنها تحاول تهدئتها.

استدارت أمي في اتجاه أبي بعد أن أغلقت الباب.

لن أنسى أبداً كيف كان وجهها في تلك اللحظة.

قال أبي مؤكداً لها: «هي من تحرّشت بي». كانت عيناه المدورتان الزرقاوان مثل عينيّ تتسعان في تلك اللحظة... «كانت تأتي دائماً إلى مكتبي وتطلب أن أساعدها أكثر. حاولت صرفها عني أكثر من مرة، لكنها ظلت... لم يكن لذلك أي معنى، أقسم لك».

لكن الأمر لم يكن من غير معنى، لأن أبي ترك البيت بعد شهر.

ألقت أمي باللائمة على أبي، لكنها أيضاً كانت تلوم تلك الصبية الجميلة التي أغوته حتى يقيم علاقة معها. كانت تذكر اسم فانيسا خلال مشاجراتهما فيعوَجُّ فمها كأن حروف ذلك الاسم كانت مرة المذاق. صار اسمها عنواناً لكل خلاف ينشأ بينهما.

وأنا كنت ألومها أيضاً.

بعد تخرجي في الكلية، جئت في زيارة إلى نيويورك. وقد بحثت عنها بالطبع... كان اسمها في ذلك الوقت قد صار فانيسا ثومبسون. كان اسمي قد تغير أيضاً. فبعد ذهاب أبي، عادت أمي إلى اسم عائلتها القديم. سوتون. وعندما بلغت سن الرشد، غيرتُ اسم عائلتي أيضاً.

كانت فانيسا مقيمة في بيت كبير في ضاحية من ضواحي الأثرياء. وكانت متزوجة من رجل وسيم. كانت تعيش حياة ذهبية رغيدة... حياة لا تستحقها. أردت أن تنتهي حياتها المترفة تلك، لكني لم أستطع العثور على سبيل للاقتراب منها. ما كانت تخرج من البيت إلا لماماً. وما كانت هنالك طريقة تجعل دروبنا تتقاطع على نحو طبيعي.

كدت أختصر إقامتي في نيويورك وأعود من حيث أتيت. ثم أدركت شيئاً: يمكنني التقرب من زوجها.

كان العثور على مكان عمل ريتشارد أمراً سهلاً. وسرعان ما عرفت أنه يحب تناول فنجان اسبرسو مزدوجاً من المقهى الذي عند الزاوية في حدود الساعة الثالثة من بعد ظهر كل يوم. كان مخلوقاً ذا عادات ثابتة. أتيت بكمبيوتري المحمول وعسكرت على إحدى الطاولات هناك. وعندما جاء لشرب قهوته، تلاقت أعيننا.

كنت معتادة على أن يحاول الرجال التودّد لي، لكني كنت الطرف المبادر في تلك المرة. صرت كذلك لحظة تصوَّرتُها عندما كانت مع أبي.

ابتسمت له أجمل ابتساماتي: «مرحباً. اسمي إيمّا».

توقعت أن يكون راغباً في النوم معي... هذا ما يريده الرجال عادة. وقد كان هذا كافياً لي حتى إن استمر الأمر ليلة واحدة فقط، لأن زوجته ستكتشف ما حدث في آخر المطاف. كنت سأجعلها تكتشف ما حدث!

كان شيئاً مغرياً أن أفعل بها ما فعلَتْه بأمي. أحسست بأن ذلك أمر منصف.

لكن ريتشارد اقترح عليَّ أن أتقدم بطلب للعمل مساعدة في شركته.

بعد شهرين من ذلك، حللت محل سكرتيرته التي كان اسمها دايان. وبعد شهرين آخرين، حللت محل زوجته.

أنظر مرة أخرى إلى الصورة التي في يدي.

كنت مخطئة تماماً... في كل شيء.

كنت مخطئة في ما يتعلق بأبي...

لقد خدعني ذات مرة رجل متزوج عندما كنت في الكلية... هذا ما قالته فانيسا يوم التقينا في محل فساتين الزفاف... ظننته يحبني. لم يخبرني أبداً أنه كان متزوجاً.

كنت مخطئة في ما يتعلق بريتشارد أيضاً.

لقد حذّرتني عندما تواجهنا أمام شقتي: ستندمين إذا تزوجت ريتشارد!... ثم حاولت مرة أخرى عندما كان ريتشارد واقفاً إلى جانبي رغم أن الذعر كان واضحاً عليها كل الوضوح.

قالت لي: سوف يؤذيك!

أتذكّر الآن كيف شدّني ريتشارد إليه وطوقني بذراعيه عندما قالت فانيسا تلك الكلمات. بدا كأنه يريد حمايتي بتلك الحركة. لكن أصابعه انغرست في لحم ذراعي وتركت آثاراً داكنة صغيرة. لا أظنه كان مدركاً أنه كان يفعل ذلك فقد كان في تلك اللحظة ينظر إلى فانيسا غاضباً. وفي اليوم التالي، عندما التقيتها في محل فساتين الزفاف، كنت حريصة على ألا ترى تلك الآثار.

لكنْ هنالك أمر كنت مخطئة فيه أكثر من أي أمر آخر... كنت مخطئة في ما يتعلق بفانيسا.

ومن المنصف الآن أن تعرف أيضاً أنها كانت مخطئة في ما يتعلق بي.

أخرج من مكمني فأصير مرئية وأنا أجتاز الشارع مقتربة منها.

تستدير في اتجاهي حتى قبل أن أناديها باسمها، لا بد أنها أحست بوجودي.

«إيمّا! ماذا تفعلين هنا؟». لقد كانت صادقة معي رغم أن الصدق لم يكن سهلاً عليها في تلك اللحظة. لو لم تقاتل حتى تنقذني لكنت الآن متزوجة من ريتشارد. لكنها لم تتوقف عند ذلك. لقد غامرت بحياتها حتى تكشفه وتمنعه من الإيقاع بأيّ امرأة أخرى بعدنا.

«أردت القول لك إنني آسفة».

يرتفع حاجباها. إنها تنتظر.

«وأردت أيضاً أن تري هذه الصورة...» أناولها الصورة... «هذه كانت أسرتي».

تبقى فانيسا محدقة في الصورة بينما أحكي لها حكايتي بادئة بتلك الليلة من ليالي تشرين الأول منذ زمن بعيد عندما كنت مستيقظة بعد موعد نومي.

وعندها، يرتفع رأسها فجأة وتنظر ملياً في وجهي: «عيناك...» صوتها متوازن، محسوب... «تبدوان لي مألوفتين».

«رأيت أن من حقك معرفة الأمر».

تعيد فانيسا الصورة إليّ وتقول: «كنت أعجب من أمرك. بدوتِ لي كأنك ظهرت من العدم. عندما حاولت البحث عنك في الإنترنت، اكتشفت أنك لست موجودة إلا منذ ما قبل ذلك ببضع سنوات فقط. لم أستطع العثور على ما يتجاوز عنوانك ورقم هاتفك».

«هل تفضلين لو أنك بقيت غير عارفة بحقيقة هويتي؟».

تفكّر في هذا السؤال لحظة.

ثم تهز رأسها: «الحقيقة هي السبيل الوحيد للتحرّك قُدُماً».

بعد ذلك، ولأنه ما كان هنالك المزيد مما يمكن أن تقوله إحدانا للأخرى، أشرت إلى سيارة تاكسي كانت تقترب منا.

جلست في السيارة والتفتُّ لأنظر عبر زجاج النافذة الخلفية ثم رفعت يدي.

تنظر فانيسا إليَّ لحظة ثم ترفع يدها. حركتها كأنها انعكاس لحركتي.

تستدير وتمضي مبتعدة عني لحظة انطلقت السيارة بي. راحت المسافة بيننا تتزايد مع كل نفس من أنفاسي.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

غريير هِندريكس

تحمل غريير هندريكس شهادة الماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا الأميركية. عملت محررة أكثر من عشرين عاماً، ونشرت كتابات كثيرة في "نيويورك تايمز" و"أليور" و"ببليشرز ويكلي".

روايتها الأولى "الزوجة التي بيننا" بالاشتراك مع سارة بيكانن. ومن المنتظر أن تصدر لهما في سنة 2019 رواية مشتركة أخرى بعنوان "فتاة من غير اسم".

سارة بيكانن

عملت سارة بيكانن سنوات كثيرة في مجال التحقيقات الصحفية في "واشنطن بوست" و"يو إس توداي"، وصحف أخرى.

لها سبع روايات صدرت قبل تجربتها المشتركة مع غريير هندريكس "الزوجة التي بيننا".

من أهم رواياتها: أشياء لا يمكن قولها ــ الأفضل بيننا ــ الجيران الرائعون ــ التقاط الهواء

المترجم: الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق ــ سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من ثلاثين عملاً مترجماً؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: "سنة 501، الغزو مستمر"
- هوارد زِن: "ماركس في سوهو" ــ مسرحية
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: "اختراع التقاليد"
- تشارلز تايلر: "المتخيلات الاجتماعية الحديثة"
- إيفان كليما: "حب وقمامة" ــ رواية

هـ ك ت ب ة

- جورج أورويل: "1984" ـ رواية
- جون ستيوارت مِل: "سيرة ذاتية"
- سول بيلو: "مغامرات أوجي مارتش" ـ رواية
- سينكلير لويس: "بابيت" ـ رواية
- كارل أوفِه كناوسغارد: "كفاحي" ـ الجزءان الأول (موت في العائلة) والثاني(رجل عاشق) ـ رواية/ سيرة ذاتية.

telegram @ktabpdf

تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

صادمة، لا تُنسى، تتركك مشدوهاً ...

Publishers Weekly

وأنت تقرأ هذه الرواية، ستكوِّن افتراضات كثيرة:

ستقول إنها رواية عن امرأة مطلّقة غيور... ستقول إنها عن امرأة مهووسة بمن أخذت مكانها، فهي أجمل وأصغر وعلى وشك الزواج من الرجل الذي كان زوجها ولا تزال تحبه.

ستجد نفسك في دوامة محاولة فهم وتحليل دوافع الحب المعقدة لامرأتين تحبّان الرجل نفسه، والتساؤل عن مدى استحقاقه هذا الحب!!!

ننصحك أن تقرأ ما بين السطور.. وألّا تفترض شيئاً... لأنها ستفاجئك..

روايةٌ ممتعة، مثيرة، استطاعت الكاتبتان فيها أن تكشفا لنا أسرار تعقيدات زواج يبدو مثالياً مثيراً للحسد، والحقائق الخطيرة التي غالباً ما نتجاهلها باسم الحب..

تقدم رواية "الزوجة التي بيننا" حبكة ذكية خادعة وسرداً محفّزاً سريع الإيقاع. رواية جنونية إشكالية تحكي قصة حب بين ثلاثة أطراف لا تعرف فيها من تصدّق... أحببتها بالفعل..

Gilly Macmillan

رواية مربكة عن الزواج والخيانة، تسيطر عليك حبكتها وتأسرك شخصياتها. ستجعلك هذه الرواية تقلّب صفحاتها حتى آخرها من دون توقف.

Lauren Weisberger

غرير هندريكس: عملت أكثر من عقدين محررة في دار نشر Simon & Schuster ، كما عملت في مجلة Allure. حصلت على ماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا، ونُشرت مقالاتها في كبريات المجلات العالمية. هذه روايتها الأولى.

ساره بكانن: من الكتّاب الأكثر مبيعاً في قوائم USA Today . عملت في الصحافة الاستقصائية، كانت تنشر في جريدة واشنطن بوست. أم لثلاثة أطفال، تعيش في ضواحي العاصمة واشنطن.

ISBN: 978-614-472-034-9
9 786144 720349

مكتبة ٣٠٠

منشورات الرمل
دار التنوير